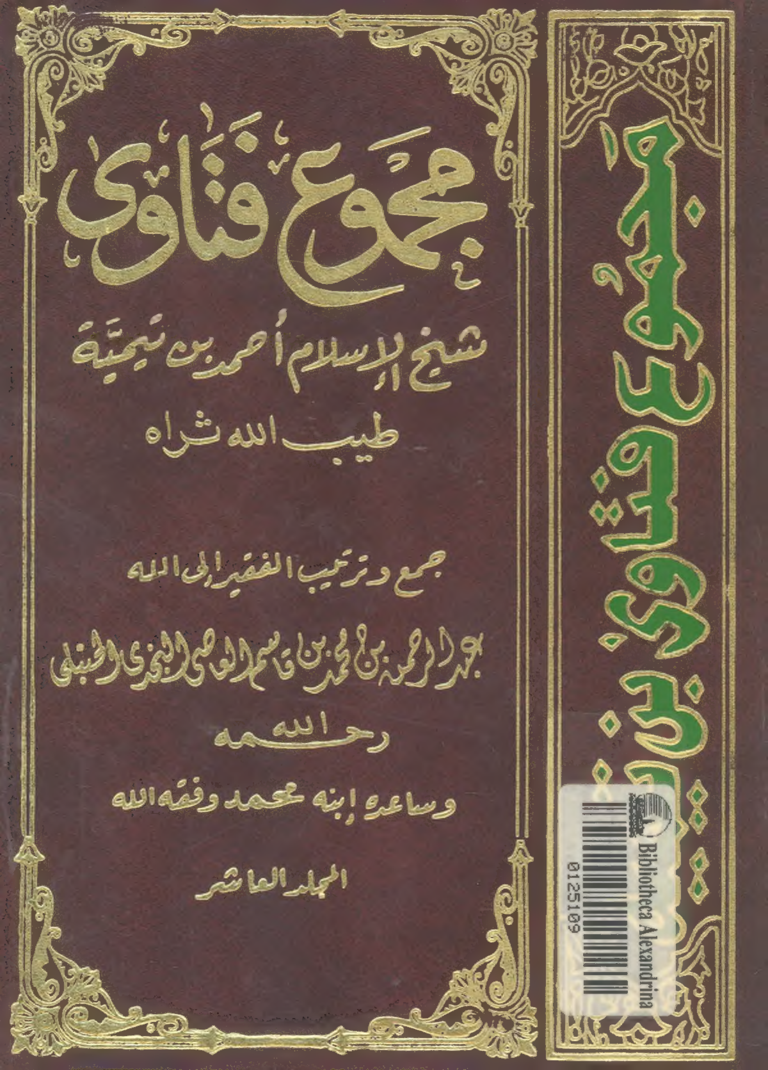

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
طيب الله ثراه
جمع وترتيب الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي
رحمه الله
وساعده ابنه محمد وفقه الله
المجلد العاشر
مجموع فتاوى ابن تيمية

مجموع فتاوى
شيخ الاسلام احمد بن تيمية

قدس الله روحه

جمع وترتيب الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي

وساعده ابنه محمد وفقهما الله

المجلد العاشر

كتاب

عِلْمُ السُّلُوك

قال شيخ الاسلام

أحمد بن تيمية ـ قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد ان محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد : فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب ـــ التى قد تسمي « المقامات والاحوال » (١) ـــ وهي من اصول الايمان ، وقواعد الدين ؛ مثل

---

(١) تسمى « التحفة العراقية فى الاعمال القلبية » .

محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، واخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . اقتضى ذلك بعض من اوجب الله حقه من اهل الايمان ، واستكتبها وكل منا عجلان .

فأقول : هذه الاعمال جميعها واجبة على جميع الخلق — المأمورين فى الاصل — باتفاق أئمة الدين ، والناس فيها على « ثلاث درجات » كما هم فى اعمال الابدان على « ثلاث درجات » : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور او فعل محظور .

والمقتصد : المؤدي الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه . وان كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه : إما بتوبة — والله يحب التوابين ويحب المتطهرين — واما بحسنات ماحية ، واما بمصائب مكفرة ، واما بغير ذلك . وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من اولياء الله الذين ذكرهم فى كتابه بقوله : (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) فحد اولياء الله : هم المؤمنون المتقون ، ولكن ذلك ينقسم : الى «عام» ، وهم المقتصدون

و «خاص» وهم السابقــون ، وان كان السابقــون هم اعــلى درجات كالانبيـاء والصديقــين .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم « القسمين » فى الحديث الذي رواه البخاري فى صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « يقول الله من عادى لى ولياً فقــد بارزني بالمحاربة . وما تقرب الي عبدي بمثــل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي ؛ ولئن سألني لاعطينه ، ولئن استعاذنى لاعيذنه . وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يــكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه » .

واما الظالم لنفسه من اهل الايمان : فمعه من ولاية الله بقدر ايمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب ، والسيئات المقتضية للعقاب ، حتى يمكن ان يثاب ويعــاقب ، وهذا قول جميــع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وائمة الاسلام واهل السنة والجماعة الذين يقولون : انه لا يخلد في النار من فى قلبه مثقــال ذرة من ايمان .

واما القائلون بالتخليد : كالخوارج والمعتزلة القائلين انه لا يخرج من النار من دخلها من اهل القبلة ، وانه لا شفاعة للرسول ولا لغيره فى اهل الكبائر ، لا قبل دخول النار ولا بعده ؛ فعندهم لا يجتمع فى الشخص الواحد ثواب وعقاب ؛ وحسنات وسيئات . بل من اثيب لا يعاقب ، ومن عوقب لم يثب . ودلائل هذا الاصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الامة كثير ليس هذا موضعه وقد بسطناه فى مواضعه .

وينبني على هذا امور كثيرة ، ولهذا من كان معه ايمان حقيقي فلا بد ان يكون معه من هذه الاعمال بقدر ايمانه ، وان كان له ذنوب كما روى البخاري فى صحيحه عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — «ان رجلا كان يسمي حماراً وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم . وكان يشرب الخمر ، ويجلده النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى به مرة فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » .

فهذا يبين ان المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله ، وحب الله ورسوله اوثق عرى الايمان ، كما ان العابد الزاهد قد يكون لما فى قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه عند الله ورسوله من ذلك الوجه ، كما استفاض فى الصحاح وغيرها من حديث امير المؤمنين على بن ابى طالب وابى سعيد الخدري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه ذكر الخوارج فقال : « يحقر

احدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية ، اينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فان فى قتلهم اجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لئن ادركتهم لاقتلنهم قتل عاد » .

وهؤلاء قاتلهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع امير المؤمنين على بن ابى طالب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فى الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم ادنى الطائفتين الى الحق » .

ولهذا قال ائمة الاسلام كسفيان الثوري وغيره ان البدعة احب الى إبليس من المعصية ، لان البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها . ومعنى قولهم ان البدعة لا يتاب منها : ان المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً ، لان اول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، او بأنه ترك حسناً مأموراً به امر ايجاب او استحباب ليتوب ويفعله . فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء فى نفس الامر فانه لا يتوب .

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من اهل

البدع والضلال ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه ، فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال تعالى : (ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم واشد تثبيتاً واذا لآتيناهم من لدنا اجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) وقال تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) وقال تعالى : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) وقال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) . وشواهد هذا كثيرة فى الكتاب والسنة .

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه فان ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى : (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) . وقال تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى : (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل : انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وهذا استفهام نفي وانكار : اي وما يدريكم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، وانا نقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة على قراءة من قرأ (إنها) بالكسر تكون

جزماً بأنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة؛ ولهـذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير : ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليـه وسلم انه قال : « عليكم بالصدق ؛ فان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ؛ فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، ولا يزال الرجل يكذب . ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق اصـل يستلزم البر، وان الكذب يستلزم الفجور .

وقد قال تعالى : (ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) ولهذا كان بعض المشائخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ولا يشعب قلبه أمره بالصدق . ولهذا كان يكثر فى كلام مشائخ الدين وائمتـه ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون : قل لمن لايصدق: لا يتبعني . ويقولون :الصدق سيف الله فى الأرض وما وضع على شيء الا قطعه ، ويقول يوسف بن اسباط وغيره: ما صدق الله عبد الا صنع له وأمثال هذا كثير .

والصدق والاخـلاص هما فى الحقيقة تحقيق الايمان والاسـلام ، فان

المظهرين للاسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق ، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فان اساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ؛ ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الايمان نعته بالصدق كما فى قوله تعالى : (قالت الاعراب آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا) الى قوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) . وقال تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم . يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) .

فأخبر ان الصادقين فى دعوى الايمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب ايمانهم ريبة وجاهدوا فى سبيله باموالهم وانفسهم ، وذلك ان هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى : (واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) قال ابن عباس مابعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وامره ان يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه .

وقال تعالى:(لقد ارسلنارسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من

ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز) فذكر تعالى انه انزل الكتاب والميزان ، وانه انزل الحديد لاجل القيام بالقسط ؛ وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي ، وسيف ينصر ، وكفى بربك هاديا ونصيراً . والكتاب والحديد وان اشتركا فى الانزال فلا يمنع ان يكون احدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر . حيث نزل الكتاب من الله ، كما قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال تعالى : (الر،كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقال تعالى : (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) والحديد انزل من الجبال التى خلق فيها .

وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) الى قوله (اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) واما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب فى آيات متعددة كقوله تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) وقوله تعالى (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) وقوله تعالى : (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون) ونحو ذلك في القرآن كثير .

ومما ينبغي ان يعرف ان الصدق والتصديق يكون في الاقوال وفى

الاعمال، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والاذنان تزنيان وزناهما السمع ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك او يكذبه » . ويقال حملوا على العدو حملة صادقة اذا كانت ارادتهم للقتال ثابتة جازمة ، ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك . ولهذا يريدون بالصادق ؛ الصادق في ارادته وقصده وطلبه ، وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه ، والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذي يكون كاذبا في خبره او كاذبا في عمله كالمرائي في عمله . قال الله تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس) الآيتين .

واما الاخلاص فهو حقيقة الاسلام اذ « الاسلام » هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان) الآية . فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد اشرك ، وكل من الكبر والشرك ضد الاسلام ، والاسلام ضد الشرك والكبر . ويستعمل لازما ومتعديا كما قال تعالى : (اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين) وقال تعالى : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وامثال ذلك في القرآن كثير .

ولهذا كان رأس الاسلام « شهادة ان لا اله الا الله»، وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من الاولين والآخرين دينا سواه ، كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال تعالى : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام) .

وهذا الذي ذكرناه مما يبين ان اصل الدين فى الحقيقة هو الامور الباطنة من العلوم والاعمال ، وان الاعمال الظاهرة لاتنفع بدونها . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي رواه احمد فى مسنده : « الاسلام علانية والايمان فى القلب » ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك امور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس،فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه الاوان لكل ملك حمى الاوان حمى الله محارمه الاوان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » وعن ابي هريرة قال : القلب ملك والأعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده .

فصـــل

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والاخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها فى حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محموداً فى حال احد، وان ارتقى مقامه.

وأما «الحزن» فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بأمر الدين، كقوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) وقوله: (ولا تحزن عليهم، ولاتك في ضيق مما يمكرون) وقوله: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وقوله: (ولا يحزنك قولهم) وقوله: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وأمثال ذلك كثير.

وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم! لا يأثم صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن على المصائب، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا او يرحم واشار بيده إلى لسانه» وقال صلى الله عليه وسلم «تدمع العين ويحزن القلب

ولا نقول إلا ما يرضي الرب » ومنـه قوله تعالى : (وتولى عنهـم وقال : يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) .

وقد يقترن بالحزن مايثاب صاحبه عليه ويحمد عليـه فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين عـلى مصيبة فى دينه ، وعـلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير ،وبغض الشر ، وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه ، والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنـه من جهة الحزن .

واما ان افضى إلى ضعف القلب واشتغـاله به عـن فعل ما امر الله ورسوله بـه كان مذموما عليـه من تلك الجهـة ، وان كان محموداً من جهـة اخرى .

واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة فى حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تـكون للعامة دون الخاصة فقـد غلط فى ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها ، فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط . وانمـا يخرج عنها كافر او منافق . وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيـه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه .

ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها الى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها . مثال ذلك ان هؤلاء قالوا : «ان التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لاينـاضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله امراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منهـا فلا يطلب شيئاً». فيقال اما الأول فان التوكل اعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فان المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وارادته وهـذا اهم الأمور اليه ، ولهذا يناجي ربه فى كل صلاة بقوله : (اياك نعبـد واياك نستعين) كما فى قوله تعـالى (فاعبده وتوكل عليه) وقوله : (عليه توكلت واليه انيب) وقوله : (قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب)

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع ؛ لان هذين يجمعـان الدين كله ؛ ولهذا قال من قال من السلف : ان الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله : (اياك نعبد واياك نستعين)

وهاتان الـكلمتان هما الجامعتان اللتـان للرب والعبد ، كما فى الحديث الذي في صحيح مسلم عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليـه وسـلم انه قال : « يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : يقول العبد: الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدنى عبدي ، يقول العبـد: الرحمن

الرحيم ، يقول الله:اثنى علي عبدي ، يقول العبد : مالك يوم الدين · يقول الله مجدني عبدي ، يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين ، يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل · يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه · وما للعبد فاياك نعبد للرب،واياك نستعين للعبد .

وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال : كنت رديفا للنبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال : « يامعاذ اتدري ماحق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله اعلم ، قال : حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً · اتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك؟ قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ان لايعذبهم » والعبادة هي الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة امر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وبها ارسل الرسل وانزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته · فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة ، وانما العبادة ما يجمع كمال الأمرين · ولهذا كانت العبادة لا تصلح الا لله ، وهي وان كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها ، ولهذا كان الله اشد فرحاً بتوبة العبد من

الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى ارض دوية مهلكة اذا نام آيسا منها ثم استيقظ فوجدها ، فالله اشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته ، وهذا يتعلق به امور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعانة للعبد ، لانه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كالدعاء والمسئلة . وقد روى الطبراني فى كتاب الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم ! انما هي اربع واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقي . فاما التى لي فتعبدنى لا تشرك بي شيئاً ، واما التى هي لك فعملك اجازيك به احوج ماتكون اليه ، واما التى بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الاجابة ، واما التى بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب ان يأتوا اليك »

وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فان العبد ابتداء يحب ويريد مايراه ملائماً له ، والله تعالى يحب ويرضى ماهو الغاية المقصودة فى رضاه ، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك ، والا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذي ظن ان التوكل من المقامات العامة ظن ان التوكل لا يطلب به الاحظوظ الدنيا ، وهو غلط بل التوكل فى الأمور الدينية اعظم .

وايضاً التوكل من الأمور الدينية التى لاتتم الواجبات والمستحبات الا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

و « الزهد المشروع » هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله ، كما ان « الورع المشروع » هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك ما فعله ارجح منها ، كالواجبات فاما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه او يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) كما ان الاشتغال بفضول المباحات، هو ضد الزهد المشروع ، فان اشتغل بها عن فعل واجب او فعل محرم كان عاصياً ، والا كان منقوصا عن درجة المقربين الى درجة المقتصدين .

و (ايضاً) فان التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائماً ، وما كان محبوبا لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين ، فهذه ثلاثة اجوبة عن قولهم: المتوكل يطلب حظوظه .

واما قولهم إن الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ماقاله بعضهم فى الدعاء انه لا حاجة اليه ، لان المطلوب ان كان مقدراً فلا حاجة اليه ، وان لم يكن

مقدراً لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من افسد الاقوال شرعاً وعقلاً .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وانما هو عبادة محضة . وان حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض . وهذا وان كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط ايضاً ، وكذلك قول من قال : ان الدعاء انما هو عبادة محضة .

فهذه الأقوال وما اشبهها يجمعها اصل واحد : وهو ان هؤلاء ظنوا ان كون الأمور مقدرة مقضية يمنع ان تتوقف على اسباب مقدرة ــ أيضاً ــ تكون من العبد ؛ ولم يعلموا ان الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من افعال العباد ، وغير افعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الاعمال بالكلية .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما اخرجا في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:يارسول الله ! أعلم اهل الجنة من اهل النار؟ قال : نعم. قالوا : ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » وفي الصحيحين عن علي بن ابي طالب قال : « كنا في جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة الا وقد كتب مكانها من النار او الجنة ، الا وقد كتبت شقية او سعيدة . قال :

فقال رجل من القوم يا نبي الله ! افلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من اهل السعادة ليكونن الى السعادة ، ومن كان من اهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له. اما اهل السعادة فييسرون للسعادة واما اهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ، ثم قال نبي الله صلى الله عليه وسلم (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) اخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد .

وروى الترمذي « ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل :يارسول الله ! ارأيت ادوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال هي من قدر الله » .

وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى عدة أحاديث .

فبين صلى الله عليه وآله وسلم ان تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافى ان تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالاعمال السيئة؛ فانه سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه ، وكذلك يكتبها ؛ فهو يعلم ان السعيد يسعد بالاعمال الصالحة ، والشقي يشقى بالاعمال السيئة ، فمن كان سعيداً يسر للأعمال الصالحة التى تقتضي السعادة ؛ ومن كان شقياً ييسر للأعمال السيئة

التي تقتضي الشقاوة ؛ وكلاهما ميسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى: (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) .

واما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى امروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) .

والله سبحانه قد بين في كتابه فى كل واحدة : من « الكلمات » و « الامر » و « الارادة » و « الاذن » و « الكتاب » و « الحكم » و «القضاء» و « التحريم » ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك انه قال فى « الامر الديني » : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى) وقال تعالى : (إن الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها) ونحو ذلك . وقال فى « الكونى » : (إنما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) وكذلك قوله : (وإذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول) على احدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى « الارادة الدينية » : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)

(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) وقال في « الارادة الكونية » : (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) وقال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يردان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقال نوح عليه السلام : (ولاينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) وقال تعالى :(انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى فى « الاذن الديني » : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين) وقال تعالى في « الكونى » : (وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله) .

وقال تعالى فى « القضاء الديني » : (وقضى ربك الا تعبدوا الا إياه) أي امر . وقال تعالى فى « الكونى » : (فقضاهن سبع سموات في يومين) .

وقال تعالى فى « الحكم الديني » : (أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، ان الله يحكم ما يريد) وقال تعالى : (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال تعالى في « الكونى » عن ابن يعقوب : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين)

وقال تعالى : (قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) .

وقال تعالى فى « التحريم الدينى » : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) : (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم) الآية . وقال تعالى فى « التحريم الكونى » : (فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الأرض) .

وقال تعالى (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال تعالى في « الكلمات الدينية » (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) وقال تعالى فى « الكونية » : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن والمسانيد انه كان يقول فى استعاذته « اعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » ومن المعلوم ان هذا هو الكونى الذي لا يخرج منه شيء ، عن مشيئته وتكوينه . واما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته .

والمقصود هنا : أنه صلى الله عليه وسلم بين ان العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها الى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات كذلك ؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع المائين فى الرحم . فلو قال الانسان انا أتوكل ولا أطأ زوجتى فان كان قد

قضي لي بولد وجد وإلا لم يوجد ولا حاجة الى وطء ، كان احمق بخلاف ما إذا وطيء وعزل الماء فان عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، اذ قد يسبق الماء بغير اختياره .

ومن هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدري . قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق فاصبنا سبياً من العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فسألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماعليكم الا تفعلوا ، فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة » وفى صحيح مسلم عن جابر : « أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وأنا اطوف عليها وأكره ان تحمل فقال اعزل عنها إن شئت فانه سيأتيها ما قدر لها » .

وهذا مع ان الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الانسان من غير ابوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من اب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من ام فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام ، لكن خلق ذلك بأسباب اخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وان كان انما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع فى كثير من دقه كثير من المشائخ المعظمين يسترسل احدهم مع القدر

غير محقق لما امر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ؛ والجري مع الحقيقة القدرية ، ويحسب أن قول القائل ينبغي للعبد ان يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي حتى يترك ما امر به ، ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما امر الله به واحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وابغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، ام نجعل المتقين كالفجار ؟!) وقال تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟) وقال تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من فى القبور) وامثال ذلك .

حتى يفضي الأمر بغلاتهم الى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الالهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون فى الوجود من الأحوال التى تجري على أيدي الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وارادته العامة ،

وانه داخل فى ملـكه ، ولا يشهدون وجـه الفرق الذي فرق الله به بـين أوليائه واعدائه ، والابرار والفجار ، والمؤمنين والـكافرين ، واهل الطاعـة الذين اطاعـوا امره الديني ، واهـل المعصية الذين عصوا هـذا الامر ويستشهدون في ذلك بكلمات مجمـلة نقلت عن بعض الاشيـاخ ، او ببعض غلطات بعضهم .

وهذا « اصل عظيم » من اعظم ما يجب الاعتناء به على اهل طريق الله السالكين سبيل الارادة:ارادة الذين يريدون وجهه ؛ فانـه قـد دخل بسبب اهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان مالايعلمه الا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للسلطين فى الارض من اهل الظلم والعلو ، كالذين يتوجهون بقلوبهـم في معاونة من يهوونه من اهل العـلو فى الارض والفساد ظانين انهم إذا كانت لهم احوال اثروابها فى ذلك كانوا بذلك من اولياء الله ـــ فان القلوب لهـا من التأثير اعظـم ممـا للأبدان ؛ لكن ان كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً ، وان كانت فاسدة كان تأثيرهـا فاسداً ، فالاحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة ، ومكروها لله اخرى،وقد تكلم الفقهاء عـلى وجوب القود عـلى من يقتـل غـيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك ـــ ويستشهدون ببواطنهـم وقلوبهم الامر الكوني ، ويعدون مجرد خرق العادة لاحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون انه فى الحقيقة اهانـة ، وان الكرامة لزوم الاستقامة ، وان

الله لم يكرم عبده بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه · وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله الذين قال الله فيهم : (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ·

فان كانوا موافقين له فيما اوجبه عليهم فهم من المقتصدين . وان كانوا موافقين فيما اوجبه واحبه فهم من المقربين ، مع ان كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً ، واما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة او بغيرها ، او بالضراء فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم اذا اطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم اذا عصوه فى ذلك .

قال الله تعالى : (فاما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فا كرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن ، واما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن كلا) ولهذا كان الناس فى هذه الامور على « ثلاثة اقسام » :

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها فى طاعة الله .

وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها فى معصية الله كبلعام وغيره .

وقوم تكون فى حقهم بمنزلة المباحات .

والقسم الاول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، اولحاجة يستعين بها على طاعة الله. ولكثرة الغلط فى هـذا الاصل نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد ، فروى مسلم فى صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ماينفعك واستمن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان » .

وفي سنن ابى داود : « ان رجلين اختصما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما فقال المقضى عليه: حسبي الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز ،ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل حسبي الله ونعم الوكيل »فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن ان يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى:(إياك نعبدو إياك نستعين وقوله تعالى:(فاعبده وتوكل عليه)فان الحرص على ماينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء انفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وان كان من جنس المباح .

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لسعد : « انك لن

تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها فى في امرأتك » فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فان ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل . وان كان لاينافى القدرة المتقدمة التى هي مناط الامر والنهي .

فان الاستطاعة التى توجب الفعل تكون مقارنة له ولاتصلح إلا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) وفى قوله : (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) . واما الاستطاعة التى يتعلق بها الامر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن . كما فى قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران ابن حصين « صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه الى « اربعة أقسام » :

قوم ينظرون الى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التى تقوي العبد وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره ان يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته في التوراة انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعيناً عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا لا اله الا الله »

ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لاحول ولا قوة الا بالله . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « انها كنز من كنوز الجنة » قال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) الى قوله (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) وفى صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها ابراهيم الخليل حين القى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم

و (قسم ثان) : يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم واذواقهم ، غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته ، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ، ولهذا كثيراً

ما يعملون على الاحوال التي يتصرفون بها فى الوجود ، ولا يقصدون مايرضى الرب ويحبه ، وكثيراً ما يغلطون فيظنون ان معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الأمر والنهي ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون ان هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التى هي تحوي مرضاة الرب ومحبته وامره ونهيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيراً ما يسلبون احوالهم ، وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الاسلام ، لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند امر الله ونهيه فليس من المتقين ، فهم يقعون فى بعض ماوقع المشركون فيه تارة فى بدعة يظنونها شرعة،وتارةفى الاحتجاج بالقدر على الامر؛ والله تعالى لما ذكر ماذم به المشركين فى سورة الانعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها . قل : ان الله لا يأمر بالفحشاء) وقد ذمهم على ان حرموا مالم يحرمه الله ، وان شرعوا مالم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى (وقال الذين اشركوا : لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من شيء) ونظيرها فى النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

واما (القسم الثالث) : وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الأقسام .

و (القسم الرابع) : هو القسم المحمود وهو حال الذين حققـوا (اياك نعبد واياك نستعين) وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) فاستعانوا به على طاعته . وشهدوا انه الههم الذي لايجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعـة رسوله ، وانه ربهم الذي (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) وانه (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله) (قل افرأيتم ماتدعون من دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمـة هل هن ممسكات رحمته)

ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات الى الاسبـاب شرك فى التوحيد ، ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل ، والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع ، وانما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع .

فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقـد غلط غلطاً شديداً ، وان كان من اعيان المشائخ ـ كصاحب « علل المقامات » وهو من اجل المشائخ ، واخذ ذلك عنه صاحب «محاسن المجالس» ـ وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط ، وظنه انه لافائدة له فى تحصيل المقصود ، وهـذه حال من جعل الدعاء كذلك . وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليـه من

الأسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها ؛ فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه)

لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة ، وان كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة، كما ان من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الايمان ، فكيف يكون هذا المقام للخاصة ، قال الله تعالى : (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقال تعالى : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) وقال تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى : (قل افرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره) إلى قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)

وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبي الله) في جلب المنفعة تارة ، وفي دفع المضرة اخرى . (فالأولى) في قوله تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ؛ سيؤتينا الله من فضله ورسوله) الآية . و (الثانية) في قوله : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم

فاخشوهم فزادهم ايمــانا . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفى قوله تعــالى :
(وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره) وقوله :
(ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله
ورسوله) يتضمن الامر بالرضا والتوكل .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضــا
بعد وقوعه ؛ ولهــذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الصلاة « اللهم
بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني اذا كانت
الوفاة خيراً لي، اللهم انى اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في
الغضب والرضا، واسألك القصد فى الفقر والغنى، واسألك نعيماً لا ينفد، واسألك
قرة عين لا تنقطــع ، اللهم اني اسألك الرضا بعــد القضاء ، واسألك برد
العيش بعد الموت ؛ واسألك لذة النظر الى وجهك ؛ واســألك الشوق الى
لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنـا
هداة مهتدين » رواه احمد والنسائى من حديث عمار بن ياسر .

واما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ؛ ولهذا
كان طــائفة من المشائخ يعزمون عــلى الرضا قبل وقوع البــلاء ؛ فاذا
وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال تعالى : (ولقد
كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقــد رأيتموه وانتم تنظرون) وقال
تعالى : (يا ايهــا الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عنــد الله ان
تقولوا مالا تفعلون . ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان

مرصوص) نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا اي الأعمال احب الى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه .

ولهـذا كره للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، او يطلب ولاية ، او يقدم على بلد فيه طاعون . كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى عن النذر ؛ وقال : « انه لا يأتى بخير وانما يستخرج به من البخيل » وثبت عنه فى الصحيحين انه قال لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الامـارة فانك إن اعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها ؛ واذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منهـا فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك » وثبت عنه فى الصحيحين انه قال فى الطاعون: « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » وثبت عنه فى الصحيحين انه قال : « لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف » وامثـال ذلك مما يقتضي ان الانسان لا ينبغي له ان يسعى فيما يوجب عليه اشياء ويحرم عليه اشياء فيبخل بالوفاء ؛ كما يفعل كثير ممن يعاهـد الله عهوداً على امور . وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود .

ويقتضي ان الانســان إذا ابتلى فعليــه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبــات . ولا بد فى جميع ذلك من

الصبر ؛ ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على اداء الواجبات ، وترك المحظورات . ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها ، والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه .

وقد ذكر الله الصبر في كتابه فى اكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين) (واستعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) وقوله : (واقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) الى قوله (واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين) (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) الآية

وجعل «الامامة فى الدين» موروثة عن الصبر واليقين بقوله : (وجعلنا هم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) . فان الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج الى الصبر ، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : عليكم بالعلم فان طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ؛ ومذاكرته تسبيح . به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجد الله ويوحد ، يرفع الله بالعلم اقواما يجعلهم للناس قادة وائمة يهتدون بهم ، وينتهون الى رأيهم .

فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بد فى الجهاد من الصبر ؛ ولهذا

قال تعـالى : (والعصر ، إن الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقال تعالى : (واذكر عبـادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الايدي والأبصار)

فالعلم النافع هو اصل الهدى ، والعمل بالحق هو الرشاد ، وضد الاول الضلال ، وضد الثاني الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغي اتباع الهوى. قال تعالى : (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى) فلا ينـال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد الا بالصبر ؛ ولهـذا قال علي : ألا ان الصبر من الايمـان بمنزلة الرأس من الجسد ـ فاذا انقطع الرأس بان الجسد ـ ثم رفـع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

وأما « الرضا » فقد تنازع العلماء والمشائخ من اصحاب الامام احمد وغيرهم فى الرضا بالقضاء : هل هو واجب او مستحب ؟ على قولين : فعـلى الأول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين . قال عمر بن عبد العزيز[1] الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روي عن النبي صـلى الله عليه وسـلم انه قال لابن عبـاس : « إن استطعت ان تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فان لم تستطع فان فى الصبر عـلى ما تكره خيراً كثيراً » .

---

(١) نسخة الحسن البصرى

ولهـذا لم يجيء في القرآن الا مدح الراضين لا ايجاب ذلك وهـذا في الرضا بمـا يفعـله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعـالى : (والصابرين في البأساء والضراء وحـين البأس) وقال تعـالى (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتـكم مثل الذين خلوا من قبلـكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ؟ !) فالبأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان والزلزال في القلوب .

وأما « الرضا بمـا امر الله به » فأصله واجب ، وهو من الايمـان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمـان من رضى بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً » وهو من توابع المحبة كما سنذكره ان شاء الله تعالى قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجـدوا في أنفسهم حرجاً ممـا قضيت ويسلموا تسليمـاً) وقال تعـالى : (ولو أنهـم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) الآيـة . وقال تعـالى : (ذلك بأنهـم اتبعوا ما أسخط الله وكرهـوا رضوانه فأحبط أعمالهم) وقال تعـالى : (وما منعهم ان تقبل منهـم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصـلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون) .

ومن « النوع الأول » ما رواه احمد والترمذي وغيرهما عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « من سعادة ابن آدم استخارته

لله ورضاه بما قسم الله له . ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له » .

وأما « الرضا بالمنهيات » من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها ، كما لا تشرع محبتها ، فان الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها ، وان كان قد قدرها وقضاها كما قال سبحانه : (والله لا يحب الفساد) وقال تعالى : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال تعالى : (وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول) ؛ بل يسخطها كما قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم) .

وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة الى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها مضافة الى العبد فعلاً وكسباً . وهذا القول لا ينافي الذي قبله ، بل هما يعودان الى اصل واحد . وهو سبحانه انما قدر الأشياء لحكمة ، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية ، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة . إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يحب من احدهما ويكره من الآخر ، كما في الحديث الصحيح : « ما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقضى الذي

هو مفعوله ، فهو خروج منه عن مقصود الكلام . فان الكلام ليس في [illegible]ضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وافعاله ، وانما الكلام في [illegible] نحو لانه والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه في غير هذا الموضع .

والرضا وان كان من اعمال القلوب فكماله هو الحمد ، حتى ان بعضهم فسر الحمد بالرضا ؛ ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه . وفي الحديث : « اول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه كان إذا اتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، واذا اتاه الأمر الذي يسوءه قال : الحمد لله على كل حال ، وفي [illegible] الامام احمد من ابى موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته : اقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : اقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد ، وامته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء . والحمد على الضراء يوجبه مشهدان :

(احدهما) : علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك ، مستحق له لنفسه ؛ فانه احسن كل شيء خلقه ، واتقن كل شيء ، وهو العليم الحكيم . الخبير الرحيم .

و (الثاني) : علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن ، خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم فى صحيحه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له . قال تعالى : (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) وذكرها فى اربعة مواضع من كتابه .

فأما من لا يصبر على البلاء ، ولا يشكر على الرخاء ، فلا يلزم ان يكون القضاء خيراً له . ولهذا اجيب من اورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين .

(احدهما) : ان هذا انما يتناول ما اصاب العبد لا ما فعله العبد ، كما في قوله تعالى : (ما اصابك من حسنة فمن الله) اي من سراء (وما اصابك من سيئة فمن نفسك) اي من ضراء . وكقوله تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) اي بالسراء والضراء كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال تعالى : (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم

سيئة يفرحوا بها) فالحسنات والسيئات يراد بهـا المسار والمضار ، ويراد بها الطاعات والمعاصي .

(والجواب الثانى) ان هـذا فى حق المؤمن الصبار الشكور . والذنوب تنقص الايمان ، فاذا تاب العبد أحبه الله ، وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فمن قضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : ان العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة . وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينـه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منهـا . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « الأعمـال بالخواتيـم » والمؤمـن إذا فعـل سيئة فان عقوبتهـا تدفـع عنـه بعشرة أسباب :

أن يتوب فيتوب الله عليه ، فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له . او يستغفر فيغفر له ، او يعمل حسنات تمحوها فان الحسنات يذهبن السيئات . او يدعو له اخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً . او يهدون له مـن ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به ، او يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . او يبتليه الله تعالى فى الدنيا بمصائب تكفر عنه ، او يبتليه فى البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه . او يبتليه فى عرصات القيامة من اهوالها بمـا يكفر عنه . او يرحمه ارحم الراحمين .

فمن اخطأته هذه العشرة فلا يلومن الا نفسه ، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم : « يا عبادي انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » .

فاذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صباراً شكوراً ، او كان قد استخار الله وعلم ان من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له كان قد رضي بما هو خير له . وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال « ان الله يقضي بالقضاء فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة ، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء ، وهذا اكمل من الضراء والصبر ، فلهذا ذكر في ذاك الرضا ، وفي هذا الصبر .

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا ، ولهذا جاء في الحديث « المصاب من حرم الثواب » في الأثر الذي رواه الشافعي في مسنده : « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات سمعوا قائلاً يقول : يا آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، واياه فارجوا . فان المصاب من حرم الثواب » ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط ، مع انه لا فائدة فيه ، فقد يكون فيه مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله .

لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافي الرضا ؛ بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه ، وبهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال : « إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » فان هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت ؛ فان الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال: رأيت ان الله قد قضى فأحببت ان ارضى بما قضى الله به : حاله حال حسن بالنسبة الى اهل الجزع . واما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى ، كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا اكمل . كما قال تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة .

والناس « أربعة اقسام » : منهم من يكون فيه صبر بقسوة . ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع . ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع . والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب ان الرضا عن الله من توابع المحبة له ، وهذا انما يتوجه على « المأخذ الأول » وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه ، مع قطع العبد النظر عن حظه ، بخلاف « المأخذ الثاني » وهو الرضا لعلمه بأن المقضى خير له ، ثم ان المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه ، لكن قد يقال في تقرير ما قال هذا الصنف ونحوه . إن المحبة لله نوعان :

محبة له نفسه ، ومحبة له لما فيه من الاحسان ، وكذلك الحمد له نوعان : حمد له على مايستحقه نفسه ، وحمد على إحسانه الى عبده . فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة .

واما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ؛ ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الايمان . كما ذكر فى المحبة وجود حلاوة الايمان. وهذان الحديثان الصحيحان هما اصل فيما يذكر من الوجد والذوق الايماني الشرعي ؛ دون الضلالي البدعي . ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا » وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » . وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول .

فصل

محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده ؛ بل هي اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين . كما ان

التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان ، والدين ؛ فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة : إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة ، كما قد بسطنا ذلك فى « قاعدة المحبة » من القواعد الكبار .

فجميع الأعمال الايمانية الدينية لا تصدر الا عن المحبة المحمودة . وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحاً ، بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله ؛ فان الله تعالى لايقبل من العمل إلا ما اريد به وجهه ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيري فانا منه بريء وهو كله للذي أشرك » وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار : « القاريء المرائى ، والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى» .

بل اخلاص الدين لله هو الدين الذي لايقبل الله سواه ، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وانزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة اهل الايمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه .

قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين الا لله الدين الخالص) والسورة كلها عامتها فى هذا المعنى . كقوله : (قل انى امرت ان أعبد الله مخلصاً له الدين وامرت لان اكون اول المسلمين) الى قوله :

(قل الله أعبد مخلصاً له ديني)الى قوله : (أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه) الى قوله : (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) الآيـة . الى قوله : (ام اتخـذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون. واذ ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونـه اذا هم يستبشرون) الى قوله : (قل افغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهـلون) الى قوله (بـل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال : (فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) وقال : (انـه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ؛ ولهذا قال فى قصة يوسف : (كذلك لنصرف عنـه السوء والفحشاء انـه من عبادنا المخلصين) واتباع الشيطان هم اصحاب النار، كما قال تعالى : (لأملأن جهنم منـك وممن تبعك منهم اجمعين) .

وقد قال سبحانه : (ان الله لا يغفر ان يشرك بـه ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك، وقيـد مـا

سواه بالمشيئة، فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء. واما قوله: (قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فتلك في حق التائبين؛ ولهذا عم واطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها .

وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على ابي لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) الآية .

وهذا حقيقة قول لا اله إلا الله . وبذلك بعث جميع الرسل. قال الله تعالى : (وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا انا فاعبدون) وقال : (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام : (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول : (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) لاسيما افضل

الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمداً عليهما السلام ، فان هــذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما ، فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه : (انى جاعلك للنـاس اماماً) وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرســالة هم من آله الذين بارك الله عليهــم قال سبحانه : (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء ممــا تعبدون الا الذي فطرنى فانــه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبــه لعلهم يرجعون) .

فهــذه الـكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي الـبراءة من كل معبود الامن الخالــق الذي فطرنا كما قال صاحب يس : (ومالي لا اعبــد الذي فطرني واليــه ترجعون أأتخــذ مــن دونــه آلهــة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقـذون انى إذا لفي ضلال مبين) وقال تعــالى فى قصته بعد ان ذكر مــا بين ضــلال مــن اتخــذ بعض الكواكب ربا يعبده من دون الله، قال : (فلمــا افلت قال ياقوم انى بريء ممــا تشركون انى وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين) الى قوله (ولا تخافون انـكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا) وقال ابراهيم الخليل عليه السلام (افرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين،الذي خلقنى فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين) وقال تعالى (قد كانت لـكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معــه اذ قالوا

لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم) الآية .

ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي اقام الله بـه الدين الخالص لله دين التوحيد، وقمع به المشركين من كان مشركا فى الأصـل، ومن الذين كفروا من اهل الكتب . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الامام أحمـد وغـيره « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحـده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظـل رمحي وجعـل الذلة والصغار عـلى من خالف امري ومن تشبه بقـوم فهو منهم »، وقـد تقـدم بعض ما انزل الله عليـه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

وقال تعالى ايضاً : (والصافات صفا) الى قوله : (ان الهكم لواحد) الى قوله : (انهم كانوا إذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون ائنـا لتاركوا الهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين) الى قـوله : (اولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكـرمون) الى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد واخلاص الدين لله، الى قوله : (سبحان الله عمـا يصفون الا عباد الله المخلصين) وقال تعالى : (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجـد لهـم نصـيراً، الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين اجراً عظيما) .

وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم

وآل حم وآل الر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر . فهو اصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الاخلاص : (قل يا ايها الكافرون) (وقل هو الله احد) . وهاتان السورتان . كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتى الطواف، وسنة الفجر . وهما متضمنتان للتوحيد .

فاما (قل يا ايها الكافرون) فهي متضمنة للتوحد العملي الأرادي ، وهو اخلاص الدين لله بالقصد والارادة ، وهو الذي يتكلم به مشائخ التصوف غالباً . واما سورة(قل هو الله احد) فتضمنة للتوحيد القولي العملي كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة « ان رجلا كان يقرأ : قل هو الله احد فى صلاته.فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سلوه لم يفعل ذلك ؟ فقال : لانها صفة الرحمن فانا احب ان اقرأ بها فقال اخبروه ان الله يحبه » .

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قول اهل التعطيل وقول اهل التمثيل ، ما صارت بـه هي الأصل المعتمد في مسائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع . وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحد الصمد كما جاء تفسيره عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين . وما دل على ذلك من الدلائل .

لكن المقصود هنا هو « التوحيد العملي » وهو اخلاص الدين لله وان

كان احد النوعين مرتبطاً بالآخر . فلا يوجد احد من اهل التعطيل الجهمية واهل التمثيل المشبهة الا وفيه نوع من الشرك العملي . اذ اصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه ، او بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال ، او يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص . وكما يسوون اذا اثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له انداداً ويسوون المخلوقات برب العالمين .

واليهود كثيراً مايعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه . والنصارى كثيراً مايعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الالهية ويجوزون له مالا يصلح الا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والله سبحانه وتعالى قد امرنا ان نسأله ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وفى هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو

دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى ، قال فمن » والحديث فى الصحيحين .

فاذا كان اصــل العمل الديني هو اخلاص الدين لله ، وهو ارادة الله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته . وهذا كمال المحبة ، لكن اكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبــادة كقوله : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقوله : (يا ايهــا الناس اعبــدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) وامثال هــذا ، والعبادة تتضمن كال الحب ونهــايته ، وكمال الذل ونهايته ؛ فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً ، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً ؛ ولهذا قال تعالى : (ومن النــاس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله) فبين سبحــانه ان المشركين بربهم الذين يتخــذون من دون الله انداداً ، وان كانوا يحبونهم كما يحبون الله ، فالذين آمنوا اشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم ؛ لأن المؤمنين اعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده ، واولئك جعلوا بعض حبهم لغيره واشركوا بينه وبين الأنداد فى الحب ، ومعلوم ان ذلك اكمل . قال تعالى : (ضرب الله مثلا رجلافيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون)

واسم المحبة فيه اطلاق وعموم فان المؤمن يحب الله ويحب رسله وانبياءه وعباده المؤمنين ، وان كان ذلك من محبــة الله ، وان كانت المحبــة التى لله

لا يستحقها غيره ؛ ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والانابة إليه والتبتل له ؛ ونحو ذلك. فكل هذه الاسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى .

ثم انه كما بين ان محبته اصل الدين ، فقد بين ان كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ». فاخبر ان الجهاد ذروة سنام العمل وهو اعلاه واشرفه . وقد قال تعالى : (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله) الى قوله : (اجر عظيم) ، والنصوص في فضائل الجهاد واهله كثيرة .

وقد ثبت انه افضل ما تطوع به العبد.والجهاد دليل المحبة الكاملة . قال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم) الآية . وقال تعالى فى صفة المحبين المحبوبين : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فوصف المحبوبين المحبين بأنهم اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين، وانهم يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم .

فان المحبة مستلزمة للجهاد ، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه . ويبغض ما يبغض محبوبه ، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه ؛ ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه . ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهى عنه . فهو موافق له في ذلك . وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم . إذ هم انما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال : « لعلك أغضبتهم لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فقال لهم : يا إخوتي : هل أغضبتكم قالوا لا ؛ يغفر الله لك يا أبا بكر ! » وكان قد مر بهم ابو سفيان بن حرب فقالوا : ما اخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم ابو بكر : اتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر ابو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما تقدم ؛ لأن اولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله ، والمعاداة لأعداء الله ورسوله .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح فيما يروى عن ربه : « لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ؛ ويده التي يبطش بها ؛ ورجله التي يمشي بها ؛ في يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن : يكره الموت وانا اكره مساءته ولا بد له منه » . فبين سبحانه انه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده

ويكره ما يكرهه ، وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال وانا اكره مساءته ؛ وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد ان يموت ، فسمى ذلك تردداً ثم بين انه لا بد من وقوع ذلك .

وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه . وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي ، وليس ذلك اتحاد الذاتين فان ذلك محال ممتنع ، والقائل به كافر ، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم ، وهو « الاتحاد المقيد » فى شيء بعينه .

واما « الاتحاد المطلق » الذي هو قول اهل وحدة الوجود الذين يزعمون ان وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك ؛ فكما ان الاتحاد نوعان ، فكذلك الحلول نوعان : قوم يقولون : بالحلول المقيد فى بعض الأشخاص ، وقوم يقولون : بحلوله فى كل شيء ، وهم الجهمية الذين يقولون : ان ذات الله فى كل مكان .

وقد يقع لبعض المصطلمين من اهل الفناء فى المحبة ان يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ؛ ويغيب بمذكوره عن ذكره ؛ وبمعروفه عن معرفته ، وبموجوده عن وجوده ؛ حتى لا يشهد الا محبوبه فيظن فى زوال تميزه ونقص عقله وسكره انه هو محبوبه . كما قيل : ان محبوباً وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال

انا وقعت فأنت ما الذي اوقعك . فقال ، غبت بك عني ، فظننت انك انى.فلا ريب ان هذا خطأ وضلال .

لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير ان يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً فى زوال عقله ؛ فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام فى هذه الحال التى زال فيها عقله بغير سبب محظور ؛ كما قيل فى عقلاء المجانين : إنهم قوم آتاهم الله عقولاً واحوالاً فسلب عقولهم وابقى احوالهم ، واسقط ما فرض بما سلب .

واما إذا كان السبب الذي به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً ؛ وإن كان لا يحكم بكفره فى اصح القولين ، كما لا يقع طلاقه فى اصح القولين،وإن كان النزاع فى الحكم مشهوراً.وقد بسطنا الكلام فى هذا ؛ وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم في «قاعدة» ذلك .

وبكل حال : فالفناء الذي يفضي بصاحبه الى مثل هذا حال ناقص ؛ وإن كان صاحبه غير مكلف . ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم افضل هذه الأمة ولا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الرسل . وإن كان لهؤلاء فى صعق موسى نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الالهية على بعض التابعين ومن بعدهم ، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ، فمن المعلوم ان من

احب الله المحبة الواجبة فلا بد ان يبغض اعداءه ، ولا بد ان يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قد قال اكثر الشعراء فى ذلك ، وهؤلاء هم اهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد اعدائه ، فان الملام على ذلك كثير . واما الملام على فعل ما يكرهه الله او ترك ما احبه فهو لوم بحق ، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام ، بل الرجوع الى الحق خير من التمادي فى الباطل . وبهذا يحصل الفرق بين «الملامية» الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم فى ذلك ، وبين « الملامية » الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام فى ذلك .

فصل

وإذا كانت المحبة اصل كل عمل دينى ، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع اليها ، فان الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه . والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعالى : (اولئك الذين يدعون

يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) الآية . وقال (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله) .

و«رحمته»اسم جامع لكل خير . «وعذابه»اسم جامع لكل شر . ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ، ودار العذاب الخالص هي النار ، واما الدنيا فدار امتزاج. فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم واعلاه النظر الى وجه الله ، كما فى صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن ابي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد . يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ الم يبيض وجوهنا ؟ الم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر اليه » وهو الزيادة .

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال : ما عبدتك شوقاً الى جنتك ولا خوفاً من نارك ؛ وانما عبدتك شوقاً الى رؤيتك ، فان هذا القائل ظن هو ومن تابعه ان الجنة لا يدخل فى مسماها الا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات ، كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية،او من يقربها ويزعم انه لا تمتع بنفس رؤية الله ، كما يقوله طائفة من المتفقهة . فهؤلاء متفقون على ان مسمى الجنة والآخرة

لا يدخل فيه الا التمتع بالمخلوقات ؛ ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) قال فأين من يريد الله ، وقال آخر فى قوله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) قال اذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر اليه، وكل هذا لظنهم ان الجنة لا يدخل فيها النظر .

و « التحقيق » ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم ، واعلى مافيها النظر إلى وجه الله ، وهو من النعيم الذي ينالونه فى الجنة ؛ كما اخبرت به النصوص . وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم ، يدخلون النار ، مع ان قائل هذا القول اذا كان عارفاً بما يقول فانما قصده انك لو لم تخلق ناراً او لو لم تخلق جنة لكان يجب ان تعبد ويجب التقرب اليك والنظر اليك ، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق .

واما عمل الحي بغير حب ولا ارادة اصلا فهذا ممتنع وان تخيله بعض الغالطين من النساك ، وظن ان كمال العبد ان لا تبقى له ارادة اصلا فذاك لانه تكلم فى حال الفناء والفاني ــ الذي يشتغل بمحبوبه ــ له ارادة ومحبة ولكن لا يشعر بها ، فوجود المحبة شيء ، والارادة شيء ، والشعور بها شيء آخر. فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط ؛ فالعبد لا يتصور ان يتحرك قط الا عن حب وبغض وارادة ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « اصدق الاسماء حارث وهمام » فكل انسان له حرث وهو العمل ، وله هم وهو اصل

الارادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله مايدعوه الى طاعته ، ومن اجلاله والحياء منهماينهاه عن معصيته كما قال عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه اي هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف اذا خافه ، فان اجلاله واكرامه لله يمنعه من معصيته .

فالراجي الخائف اذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له فمعلوم ان هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هي التى اوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب ، وان تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا انما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها احلى من كل محبة ؛ ولهذا يكون اشتغال اهل الجنة بذلك اعظم من كل شيء ، كما فى الحديث « إن اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه الى محبة الله التى هي الأصل .

وهذا كله ينبني على «اصل المحبة» فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين ، كما فى قوله : (والذين آمنوا اشد حبا لله) وقوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يرجع في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقي فى النار »

بل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى : (احب اليكم من الله ورسوله) وكما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » ، وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب انه قال : والله يارسول الله لانت احب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا عمر ! حتى أكون احب اليك من نفسك ، فقال والله لانت احب الي من نفسي قال : الآن ياعمر »

وكذلك محبة صحابته وقرابته ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « آية الايمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الانصار » وقال : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » وقال علي رضي الله عنه : « انه لعهد النبي الامي الي انه لايحبني الا مؤمن ، ولا يبغضني الا منافق » وفي السنن انه قال للعباس : « والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي » يعني بني هاشم . وقد روى حديث عن ابن عباس مرفوعا انه قال : « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، واحبوني بحب الله وأحبوا اهل بيتي لاجلي » .

واما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلا) وقال تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقال تعالى : (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) (فاتموا إليهم عهدهم الى

مدتهم ان الله يحب المتقين) (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين) (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين)

واما الأعمال التى يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة ، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون .

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها واهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون ، وائمة التصوف ان الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية ؛ بل هي اكمل محبة ،فانها كما قال تعالى : (والذين آمنو أشد حباً لله) وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية .

وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين ، زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وانه لامناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وكان اول من ابتدع هذا فى الاسلام هو الجعد بن درهم فى اوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري امير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس يوم الأضحى فقال : ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم

موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه ، واليه اضيف قول الجهمية فقتله سلم بن احوز امير خراسان بها ثم انتقل ذلك الى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم اثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن ائمة الاسلام ودعوا الى الموافقة لهم على ذلك .

واصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة اهل الكتاب الذين يزعمون ان الرب ليس له صفة ثبوتية اصلا ، وهؤلاء هم اعداء ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهيا كل للعقول والنجوم وغيرها ، وهم ينكرون فى الحقيقة ان يكون ابراهيم خليلا ، وموسى كليما ، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمي الخليل خليلا

ويشهد لهذا ماثبت في الصحيح عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لوكنت متخذاً من اهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » ــ يعني نفسه ــ . وفى رواية : « انى أبرأ الى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من اهل الارض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا » وفى رواية : « ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم

خليلا » فبين صلى الله عليه وسلم انه لايصلح له ان يتخذ من المخلوقين خليلا وانه لوامكن ذلك لكان احق الناس بها ابو بكر الصديق رضي الله عنه .

مع انه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كما قال لمعاذ : « والله اني لأحبك » وكذلك قوله للانصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ابنه اسامة حبه، وامثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص : « أي الناس احب اليك ؟ قال : عائشة . قال فمن الرجال . قال ابوها » . وقال لفاطمة ابنته رضي الله عنها « ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ! قال : فأحبي عائشة » . وقال للحسن : « اللهم اني احبه فأحبه وأحب من يحبه » وامثال هذا كثير .

فوصف نفسه بمحبة اشخاص وقال : « انى ابرأ الى كل خليل من خلته ولو كنت متخذاً من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا » فعلم ان الخلة اخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشيء آخر . إذ المحبوب لشيء غيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لاتقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب ففيها كمال التوحيد وكمال الحب .

فالخلة تنافى المزاحمة ، وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته

محبة لا يزاحمه فيها غيره ، وهذه محبة لاتصلح إلا لله ، فلا يجوز ان يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة ، وهو محبوب لذاتـه وكل مايحب غيره — إذا كان محبوبا بحق — فانما يحب لاجـله ، وكل ما احب لغـيره فمحبته باطـلة، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى . وإذا كانت الخـلة كذلك فمن المعلوم ان من انكر ان يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخاللته . وكذلك ايضاً ان انكر محبته لاحد من عباده فهو ينكر ان يتخذه خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على ا كمل مايصلح للعباد .

وكذلك تكليمه لموسى انكروه لانكارهم ان تقوم بـه صفة من الصفات او فعل من الأفعال ، فكما ينكرون ان يتصف بحياة او قـدرة او عـلم او ان يستوي او ان يجيء فكذلك ينكرون ان يتكلم او يكلـم، فهذا حقيقة قولهم . (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) .

لكن لما كان الاسلام ظاهراً والقرآن متـلوا لا يمكن جحده لمن اظهر الإسلام ، اخذوا يلحدون في اسماء الله ويحرفون الـكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته او التقرب اليه ، وهذا جهل عظيم ، فان محبة المتقرب إلى المتقرب اليه تابع لمحبته وفرع عليه ، فمن لايحب الشيء لا يمكن ان يحب التقرب اليه ، إذ التقرب وسيلة . ومحبـة الوسيلة تبـع لمحبة المقصود ، فيمتنع ان تكون الوسيلة الى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة .

وكذلك «العبادة والطاعة» اذا قيل فى المطاع للمعبود : ان هذا يحب طاعته وعبادته ، فان محبته ذلك تبع لمحبتـه ، والا فمن لايحب لا يحب طاعتـه وعبادته ، ومن كان لايعمل لغيره الا لعوض يناله منه او لدفع عقوبة فانـه يكون معاوضاً له او مفتديا منـه لا يكون محباً له . ولا يقال ان هـذا يحبه ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادتـه ، فان محبـة المقصود وان استلزمت محبـة الوسيلة او غير محبة الوسيلة ، فان ذلك يقتضي ان يعبر بلفظين محبة العوض والسلامة من محبة العمل . أما محبة الله فـلا تعلق لهـا بمجرد محبـة العوض ، الا ترى ان من استأجر اجيراً بعوض لايقال ان الاجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لايحبه بحال بل من يبغضه ، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لايقال انه يحبـه بل يكون مبغضاً له . فعلم ان مـا وصف الله به عباده المؤمنين من انهـم يحبونه يمتنع ان لا يكون معناه الا مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير ان يكون ربهم محبوبا اصلا .

وايضاًفلفظ «العبادة»متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات .

احدها : « العلاقة » وهو تعلق القلب بالمحبوب . ثم « الصبابة » وهو انصباب القلب إليه . ثم « الغرام » وهو الحب اللازم . ثم « العشق » وآخر

المراتب هو «التيم» وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود ، وتيم الله عبد الله فان المحب يبقى ذاكراً معبداً مذللا لمحبوبه .

و(ايضاً) فاسم الانابة اليه يقتضي المحبة ايضاً ، وما اشبه ذلك من الاسماء كما تقدم .

و (ايضاً) فلو كان هذا الذي قالوه حقاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والاضمار ؛ فالمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد. ومعلوم ان ليس في كتاب الله وسنة رسوله ماينفي ان يكون الله محبوباً ، وان لا يكون المحبوب إلا الاعمال لا في الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا في العقل ايضاً و (ايضا) فمن علامات المجاز صحة اطلاق نفيه فيجب ان يصح اطلاق القول بان الله لا يحب ولا يحب ، كما اطلق امامهم الجعد بن درهم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ومعلوم ان هذا ممتنع باجماع المسلمين، فعلم دلالة الاجماع على ان هذا ليس مجازاً ، بل هي حقيقة .

و (ايضاً) فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له في قوله تعالى (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله تعالى (احب اليكم من الله ورسوله) فلو كان المراد بمحبته ليس الا محبة العمل لكان هذا تكريراً ، او من باب عطف الخاص على العام . وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير اليه الا بدلالة تبين المراد . و كما ان

محبته لا يجوز ان تفسر بمجرد محبة رسوله ، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له ، وان كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له .

و(ايضاً) فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه امر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ، فحمل الكلام عليه تحريف محض ايضاً . وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار انه لا يجوز ان يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز ان يكون غير الله موجوداً بذاته ، بل لا رب الا الله ولا اله الا هو المعبود الذي يستحق ان يحب لذاته ويعظم لذاته ، كمال المحبة والتعظيم .

وكل مولود يولد على الفطرة فانه سبحانه فطر القلوب على انه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن اليه وتنتهي اليه الا الله وحده ، وان كل ما احبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور ومسموع وملموس يجد من نفسه ان قلبه يطلب شيئاً سواه ، ويحب امراً غيره يتألهه ويصمد اليه ويطمئن اليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ، ولهذا قال الله تعالى في كتابه : (الا بذكر الله تطمئن القلوب) وفي الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى انه قال : « اني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما احللت لهم وامرتهم ان يشركوا بي ما لم انزل به سلطاناً » كما في الصحيحين عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج

البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول ابو هريرة : اقرؤوا ان شئتم (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) .

و (أيضاً) فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما فى غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال . وانكار محبة العبد لربه هو فى الحقيقة انكار لكونه إلهاً معبوداً ، كما ان انكار محبته لعبده يستلزم انكار مشيئته وهو يستلزم انكار كونه رباً خالقاً فصار انكارها مستلزماً لانكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين . وهذا هو قول اهل التعطيل والجحود .

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ان أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة ابراهيم التى هي أصل شريعة التوراة والانجيل والقرآن ، وانكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء ابراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء ، وظهر ذلك فى القرامطة الباطنية من الاسماعيلية ، ولهذا قال الخليل امام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه (افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين) وقال ايضاً : (لا احب

الآفلين) وقال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من اتى الله بقلب سليم) وهو السليم من الشرك.

وأما قولهم: «انه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر اليه». فهذا الكلام مجمل. فان أرادوا بالمناسبة انه ليس بينهما توالد فهذا حق، وان ارادوا انه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا ايضاً حق، وإن ارادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون احدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة، فالاحتجاج به مصادرة على المطلوب، ويكفي فى ذلك المنع.

ثم يقال بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التى بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض. وحقيقة قول هؤلاء جحد كون الله معبوداً فى الحقيقة، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون ان يكون الله محباً فى الحقيقة، فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً؛ لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول اولئك المتكلمة، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم فى المحبة وإن كانوا قد يخلطون فيه، واصل انكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية فأما محبة الرب عبده فهم لها اشد انكاراً. ومنكروها قسمان:

(قسم) يتأولونهـا بنفس المفعولات التى يحبهـا العبد فيجعلون محبته نفس خلقه .

و (قسم) يجعلونهـا نفس إرادته لتلك المفعولات . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى « قواعد الصفات والقـدر » وليس هذا موضعها .

ومن المعـلوم انه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة عـلى ان الله يحب ويرضى ما امر بفعـله من واجب ومستحب ، وإن لم يكن ذلك موجوداً،وعلى انه قد يريد وجود امور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر ، وقد قال الله تعـالى : (والله لا يحب الفساد) وقال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر) .

والمقصود هنا انما هو ذكر محبة العباد لالههم .

وقد تبين ان ذلك هو اصل اعمال الايمان ، ولم يتبين بين احد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان نزاع فى ذلك ، وكانوا يحركون هـذه المحبة بما شرع الله ان تحرك به من انواع العبادات الشرعيـة كالعرفان الايمـاني والسماع الفرقاني ، قال تعـالى : (وكذلك اوحينا إليـك روحـاً من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) إلى آخر السورة .

ثم انه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة.

وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحديث كالتغبير . وسماع المكاء والتصدية ، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لحب الأوثان والصلبان والاخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لحب الرحمن ، ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والامكان والخلان . وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان . ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه الى أنواع من المعاصي ، بل إلى أنواع من الفسوق،بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والالحاد ، مما هو من أعظم أنواع الفساد ، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه، كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها .

والذي عليه محققوا المشائخ انه كما قال الجنيد رحمه الله : من تكلف السماع فتن به . ومن صادفه السماع استراح به . ومعنى ذلك انه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ، ولا يؤمر به . ولا يتخذ ذلك ديناً . وقربة ، فان القرب والعبادات انما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكما انه لا حرام الا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله . قال الله تعالى : (أم

لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ولهذا قال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم ، قال أبي ابن كعب رضي الله عنه : عليكم بالسبيل والسنة ،فانه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه ، كما يتحات الورق اليابس من الشجرة،وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار ابداً ، وان اقتصاداً فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة؛ فاحرصوا ان تكون اعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع.

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح بـه القلوب للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه ، ومن المعلوم انه لم يكن فى القرون الثلاثة المفضلة التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » لا فى الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، ولا فى خراسان احد من اهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصلاح القلوب، ولهذا كرهه الأئمة كالامام احمد وغيره ، حتى عده الشافعي من احداث الزنادقة حين قال : خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

واما مالم يقصده الانسان من الاستماع فلا يترتب عليه لا نهي ولا ذم باتفاق الأئمة ؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ، فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسامع له من غير قصد وإرادة لايثاب على ذلك اذ الأعمال بالنيات . وكذلك ماينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع بدون قصده لم يضره ذلك ، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود وازعج قاطنه المحبوب او تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه ، وكان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله الى محبته التي تتضمن فعل مايحبه الله وترك ما يكرهه الله ، كالذي اجتاز بيتاً فسمع قائلا يقول :

كل يوم تتلون   غير هذا بك اجمل

فاخذ منه اشارة تناسب حاله؛ فان الاشارات من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال .

ومسألة « السماع » كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ان المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الايماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين . قال الله تعالى : (اولئك الذين انعم الله عليهم

من النبيين من ذريــة آدم) الى قوله : (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) وقال تعالى : (ان الذين أُوتوا العلم من قبــله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً) الى قوله (ويزيدهم خشوعا) وقــال تعالى : (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم · واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون) . وقال تعــالى : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثــاني تقشعر منــه جلود الذين يخشــون ربهم) الآية .

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنــه في مثل قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذهــا هزواً) الى قوله (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى اذنيه وقراً فبشره بعــذاب اليم) وقال تعالى : (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرواعليها صما وعمياناً) وقال تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة).

وقال تعالى : (ان شر الدواب عنــد الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خــيراً لأسمعهم) الآية وقال تعــالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهــذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقال تعالى : (فمــا لهم

عن التذ كرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) ومثل هذا كثير فى القرآن .

وهذا كان سماع سلف الأمة وا كابر مشائخها وائمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كابراهيم بن ادهم ، والفضيل بن عياض ، وابى سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، ويوسف بن اسباط ، وحذيفة المرعشي ، وامثال هؤلاء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لابي موسى الأشعري : يا ابا موسى ذكرنا ربنا فيقرأوهم يسمعون ويبكون . وكان اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اذا اجتمعوا امروا واحداً منهم ان يقرأ القرآن والباقى يستمعون وقد ثبت في الصحيح : « ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبيموسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقداوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» وقال : « مررت بك البارحة وانت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك فقال : لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحبيراً » اي لحسنته لك تحسيناً وقال صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن باصواتكم » وقال : « الله اشد اذناً الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » ـ اذنا اي استماعا ـ كقوله: (واذنت لربها وحقت) اي استمعت وقال صلى الله عليه وسلم : «ما اذن الله لشيء ما اذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» .

ولهـــذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمـة ، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يتسع له خطاب ، ولا يحويه كتـاب ، كما ان فى تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والايمان مالا يحيط به بيان .

ومما ينبغي التفطن له ان الله سبحانه قال في كتابه : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم انهم يحبون الله فانزل الله هذه الآية (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) الآية . فبين سبحانه ان محبته توجب اتباع الرسول ، وان اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد ، وهذه محبة امتحن الله بهـا اهل دعوى محبة الله ، فان هذا الباب تـكثر فيه الدعاوى والاشتباه ؛ ولهذا يروى عن ذي النون المصري انهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال : اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها .

وقال بعضهم من عبد الله بالحب وحـده فهو زنديق ، ومن عبـد الله بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحـد ، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع فى اهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى (نحن ابناء الله واحباؤه) ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة مالا يوجد فى أهل الخشية ولهـــذا قرن الخشية بهـا فى قوله :

(هــذا ما توعدون لــكل اواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) .

وكان المشائخ المصنفون في السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبة من يـكـثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية . لما فى ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة . وما وقع فى هؤلاء من فساد الأعتقاد والأعمــال اوجب انـكار طوائــف لأصــل طريقــة المتصوفة بالـكلية . حتى صــار المنحرفون صنفين .

صنف يقر بحقها وباطلها .

وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من اهل الـكلام والفقه .

والصواب إنما هو الاقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة والانكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

وقال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبيــكم الله ويغفر لـكم ذنوبـكم) . فاتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشريعته باطنــاً وظاهراً هي موجب محبة الله، كما ان الجهاد فى سبيله وموالاة اوليائه ومعــاداة اعدائه هو حقيقتها . كما فى الحديث : «اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض فى الله».

وفى الحديث : «من احب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الايمان» .

وكثير ممن يدعي المحبة هو ابعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، ويدعي مع هذا ان ذلك اكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه ان طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ، ولا غضب لله وهذا خلاف مادل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا فى الحديث المأثور : « يقول الله تعالى يوم القيامة اين المتحابون بجلالي ؟ اليوم اظلهم فى ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » فقوله اين المتحابون بجلال الله تنبيه على مافى قلوبهم من اجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده ، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الأيمان فى قلوبهم ، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث « حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى للمتجالسين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين في، وحققت محبتى للمتباذلين فى» والأحاديث فى المتحابين فى الله كثيرة .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث إبى هريرة رضي الله عنه « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع اليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة

ذات منصب وجمال فقال : انى اخاف الله رب العالمين » .

واصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها اصلان :

(احدهما) : وهو الذي يقال له محبة العامـة لأجل احسانه إلى عباده ، وهذه المحبة على هذا الأصل لاينكرها احد ، فان القلوب مجبولة على حب من احسن اليها،وبغض من أساء اليها،والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فانه المتفضل بجميع النعم ، وان جرت بواسطة ؛ إذ هـو ميسر الوسائط ، ومسبب الأسباب ، ولكن هذه المحبة فى الحقيقـة اذا لم تجذب القلب الى محبـة الله نفسه ، فما أحب العبـد فى الحقيقـة الا نفسه وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل احسانه اليـه فما أحب فى الحقيقـة الا نفسه . وهـذا ليس بمذموم بل محمود .

وهذه المحبة هي المشار اليهـا بقوله صلى الله عليه وسلم « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا أهلي بحبي » والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب انه يحبه الا احسانه اليه، وهذا كما قالوا : ان الحمد لله على « نوعين » :

« حمد » هو شكر ، وذلك لا يكون الا على نعمته .

و « حمد » هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه ،

فكذلك الحب ، فان الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق ان يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته الا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته ، اذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق ان يحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة .

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر الى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون ، وهم السابقون كما فى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « مر النبي صلى الله عليه وسلم بجبل يقال له : جمدان فقال : سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون ، قالوا : يارسول الله من المفردون؟قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .وفى رواية اخرى قال : « المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا » والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لايفتر منه .

وفى حديث هارون بن عنترة عن ابيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:«قال موسى : يارب اي عبادك أحب اليك ؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدله على

هدى او ترده عن ردى ، قال أي عبادك احكم قال الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه » فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير .

ومما ينبغي التفطن له أنه لا يجوز ان يظن فى باب محبه الله تعالى ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى ، والهجر ، والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس،حتى يتمثلون فى حبه بجنس ما يتمثلون به فى حب من يصد ويقطع بغير ذنب او يبعد من يتقرب اليه ، وان غلط فى ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم اقامة الحجة على الله ، بل لله الحجة البالغة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، ومن تقرب الي شبراً تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الي ذراعا تقربت اليه باعا . ومن أتانى يمشي أتيته هرولة » . وفى بعض الآثار يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكري أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، وان تابوا فانا حبيبهم ـ لأن الله يحب التوابين ـ وان لم يتوبوا فانا طبيبهم ابتليهم بالمصائب حتى اطهرهم من المعائب » .

وقد قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) قالوا : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره . والهضم أن ينقص من حسنات نفسه . وقال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : ياعبادي ! انى حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ياعبادي ! كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدونى اهدكم . ياعبادي ! كلكم جائع الى من اطعمته ، فاستطعمونى اطعمكم . ياعبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم ، ياعبادي ! انكم تذنبون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالي فاستغفرونى اغفر لكم . يا عبادي ! انكم لن تبلغوا ضري فتضرونى ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، ياعبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر ، ياعبادي ! انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » .

ومن ذلك ما رواه البخاري فى صحيحه عن شداد بن اوس قال : « قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار ان يقول العبد : اللهم انت ربى لا اله الا الله أنت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ، اعوذ بك من شر ماصنعت ابوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فانه لا يغفر الذنوب الا انت . من قالها اذا اصبح موقناً بها فمات في يومه دخل الجنة ، ومن قالها اذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر ، وذنب منه يحتاج فيه الى الاستغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً فانه لايزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا الى التوبة والاستغفار .

ولهذا كان سيد ولد آدم وامام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر فى جميع الاحوال . وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : « ايها الناس توبوا الى ربكم فانى لأستغفر الله واتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة » وفى صحيح مسلم انه قال «انه ليغان على قلبي وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وقال عبد الله بن عمر: « كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لي وتب علي انك انت التواب الغفور مائة مرة » .

ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال . قال تعـالى : (والمستغفرين بالأسحار) وقال بعضهم : احيوا الليل بالصلاة فلمـا كان وقت السحر امروا بالاستغفار، وفى الصحيح «ان النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف مـن صلاته استغفر ثلاثاً، وقال:اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام » وقال تعـالى : (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) الى قوله : (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وقـد امر الله نبيه بعد ان بلغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وأتى بما امر الله به ممـا لم يصـل اليه احد غـيره فقال تعـالى (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخـلون في دين الله افواجـا فسبـح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى : (الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . الا تعبدوا الا الله انى لـكم منـه نذير وبشير وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً) الآية .وقال تعالى : (فاستقيموا إليه واستغفروه) وقال تعالى : (فاعـلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) .

ولهذا جاء فى الحديث « يقول الشيطان اهلـكت الناس بالذنوب واهلـكونى بلا إله إلا الله والاستغفار » وقد قال يونس (لا إله إلا أنت سبحانك

انى كنت من الظالمين) وكان النبي صلى الله عليه وسلم « إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول: لا اله الا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي » وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك » والله اعلم وصلى الله على محمد وسلم.

وقال شيخ الاسلام

تقي الدين احمد بن تيمية رحمه الله تعالى :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات اعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وسلم تسليما (١)

فصـــــل

«في مرض القلوب وشفائها»

قال الله تعالى عن المنافقين : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم)

---

(١) تسمى:امراض القلوب وشفاءها.

وقال : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها الا قليلاً) وقال : (ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) وقال تعالى : (قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً) وقال : (ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم) .

و « مرض البدن » خلاف صحته وصلاحه ، وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فادراكه إما ان يذهب كالعمى والصمم . وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مراً، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها فى الخارج .

وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل ان تضعف قوته عن الهضم ، او مثل ان يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ، ويحب الأشياء التي تضره ، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ؛ ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك ؛ بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الارادية في الجملة [فيتولد من ذلك] ألم يحصل فى البدن إما بسبب فساد الكمية او الكيفية :

(فالأول) اما نقص المادة فيحتاج الى غذاء ، واما بسبب زياداتها

فيحتاج الى استفراغ .

و (الثـاني) كقـوة فى الحرارة والبرودة خارج عن الاعتـدال فيـداوى .

فصـــــل

وكذلك « مرض القلب » هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ، فتصوره بالشبهات التى تعرض له حتى لا يرى الحق ، او يراه عـلى خلاف ما هو عليه ، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار ؛ فلهـذا يفسر المرض تارة بالشك والريب . كما فسر مجاهـد وقتـادة قوله : (فى قلوبهم مرض) اي شك . وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله : (فيطمع الذي فى قلبه مرض) .

ولهذا صنف الخرائطي « كتاب اعتلال القلوب » اي مرضها ، واراد بـه مرضها بالشهوة ، والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح ، فيضره يسير الحر والبرد والعمـل ونحـو ذلك ، مـن الأمـور التى لا يقوى عليهـا لضعفه بالمرض .

والمرض فى الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفـة لا تطيق ما يطيقـه

القوي . والصحة تحفظ بالمثل . وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه . ويزول بضده ، فاذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه ، وزاد ضعف قوته ، حتى ربما يهلك . وان حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس .

و « مرض القلب » ألم يحصل فى القلب كالغيظ من عدو استولى عليك ، فان ذلك يؤلم القلب . قال الله تعالى : (ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) فشفاؤهم بزوال ماحصل فى قلوبهم من الألم ، ويقال : فلان شفى غيظه ، وفى القود استشفاء اولياء المقتول ، ونحو ذلك . فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن ، وكل هذه آلام تحصل فى النفس .

وكذلك « الشك ، والجهل » يؤلم القلب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : هلا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال» . والشاك فى الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه ، حتى يحصل له العلم واليقين ، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق : قد شفانى بالجواب .

والمرض دون الموت ، فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل . فله موت ومرض، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه ، فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه ، وان حصلت له حكمة وموعظة كانت من

أسباب صلاحه وشفائه . قال تعالى : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) ؛ لأن ذلك أورث شبهة عندهم ، والقاسية قلوبهم ليبسها فاولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض . فصار ما القى الشيطان فتنة لهم ، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان ، فصار فتنة لهم .

وقال : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة) كما قال : (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين ، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين ، بل فيها مرض شبهة وشهوات ، وكذلك (فيطمع الذي فى قلبه مرض) وهو مرض الشهوة ، فان القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، فاذا خضعن بالقول طمع الذي فى قلبه مرض .

والقرآن شفاء لما فى الصدور ، ومن فى قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل ، فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والأدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب ، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره ، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي ، بعد ان كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد .

فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التى فطر عليهــا كما يعود البدن الى الحـال الطبيعي ، ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بمـا يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه ، فان زكاة القلب مثل نماء البدن .

و « الزكاة فى اللغة » النماء والزيادة فى الصلاح . يقال : زكا الشيء إذا نما فى الصلاح ، فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا باعطــاء ما ينفعه ومنع ما يضره ، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحــه إلا بحصول ما ينفعــه ودفع مايضره ، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا .

و « الصدقة » لمــا كانت تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار صــار القلب يزكو بها ، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب . قال الله تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب .

وكذلك ترك المعاصي فانهــا بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البــدن ، ومثل الدغل في الزرع ، فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن ، وكذلك القلب اذا

تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطـــاته حيث خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة ، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه .

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل .

قال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منــكم من احد ابداً) وقال تعالى : (وان قيل لكم : ارجعوا فارجعوا ، هو ازكى لـكم) وقال : (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ؛ ذلك ازكى لهم ، ان الله خبير بمـا يصنعون) وقال تعالى : (قد افلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) وقال تعالى : (قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقال تعالى : (وما يدريك لعله يزكى) وقال تعالى : (فقل هل لك إلى أن تزكى واهديــك الى ربك فتخشى) فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخــير ، فانما تحصل بازالة الشر ؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا .

وقال : (وويــل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) وهي التوحيــد والايمـان الذي به يزكو القلب ؛ فانه يتضمن نفي إلهيــة ماسوى الحق من القلب ، وإثبات إلهية الحق في القلب ، وهو حقيقة لا إله إلا الله . وهــذا أصل ما تزكو به القلوب .

والتزكية جعل الشيء زكياً : إما في ذاته ، وإما في الاعتقاد والخــبر ؛

كما يقال عدلته إذا جعلته عـدلا في نفسه . او في اعتقاد الناس ، قال تعالى : (فلا تزكوا انفسكم) أي تخبروا بزكاتها . وهذا غير قوله : (قـد افلح من زكاها) ولهذا قال : (هو اعلم بمن اتقى) وكان اسم زينب برة فقيـل تزكي نفسها . فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب .

واما قوله : (الم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء) اي يجعله زاكياً . ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم .

و «العدل» هو الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب ، كما ان الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه . والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه ؛ بل ظلمها ؛ فصلاح القلب في العدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم . كذلك إذا عـدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر . قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) .

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبـل أثره في الخارج ، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها . قال تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وقال تعالى : (ان احسنتم احسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها) قال بعض السلف : ان للحسنة لنوراً في القلب ، وقوة في البدن ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلـق ، وان للسيئة لظلمـة في

القلب ، وسواداً فى الوجه ووهناً في البــدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق .

وقال تعالى : (كل امرىء بمـا كسب رهين) وقال تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال : (وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت ليس لهـا من دون الله ولي ولا شفيع . وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منهـا . اولئك الذين ابسلوا بما كسبوا) و (تبسل) أي ترتهن وتحبس وتؤسر ؛ كما ان الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه ، والمرض انما هو باخراج المزاج ، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخـلاط لا سبيل اليـه ، لكن الأمثل ؛ فالأمثل ؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه فى العـدل ، ومرضه من الزيــغ والظلم والانحراف . والعدل المحض فى كل شيء متعذر علماً وعمـلا ، ولكن الامثل فالأمثل ؛ ولهذا يقال : هذا أمثل، ويقال للطريقة السلفية : الطريقة المثلى . وقال تعالى : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بـين النساء ولو حرصتم) وقـــال تعالى : (وأوفـــوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها) .

والله تعالى بعث الرسل وانزل الكتب ليقوم الناس بالقسط ، واعظــم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس فى حقوقهم ، ثم العدل على النفس .

والظلم « ثلاثة أنواع » : والظلم كله من امراض القلوب ، والعدل صحتها وصلاحها . قال احمد بن حنبل لبعض الناس : لو صححت لم تخف احـداً . أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك ، كمرض الشرك والذنوب .

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته . قال تعـالى : (او من كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟).

لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها فى غـير موضع . كقوله : (لينذر من كان حيا ويحق القول عـلى الـكافرين) وقوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال : (واعلموا ان الله يحول بـين المرء وقلبه وانـه اليه تحشرون) وقـال تعالى : (يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي) . ومن انواعه انـه يخرج المؤمن من الـكافر ، والـكافر من المؤمن . وفى الحديث الصحيـح « مثـل البيت الذي يذكـر الله فيـه والبيت الذي لا يذكر الله فيـه مثل الحـي والميت وفى الصحيـح ايضاً : « اجعـلوا من صلاتـكم فى بيوتـكم ولا تتخذوها قبوراً » .

وقد قال تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا صـم وبـكم فى الظلمـات) وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال : (الله نور السموات والارض ،

مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة . لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور) فهذا مثل نور الايمان فى قلوب المؤمنين ثم قال : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

(فالأول) مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فاذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه . فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال .

و (الثاني) : مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم ، فان صاحبها فى ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً ؛ فان البصر إنما هو بنور الايمان والعلم .

قال تعالى : (ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) وقال تعالى : (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه) وهو برهان الايمان الذي حصل فى قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب

عليـه خطيئة اذا فعل خيراً ولم يفعل سيئة . وقال تعالى : (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) وقال :(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أوليـاءهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وقال : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمتـه ويجعل لـكم نوراً تمشون به) .

ولهذا ضرب الله للإيمان « مثلين » . مثلا بالماء الذي بـه الحياة وما يقترن به من الزبد ، ومثـلا بالنار الـتى بهـا النور وما يقترن بمـا يوقـد عليه من الزبد .

وكذلك ضرب الله للنفاق « مثلين » قال تعالى :(انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليـه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فاما الزبد فيذهب جفاء واما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال (وقال تعالى فى المنافقين : (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بـكم عمي فهم لا يرجعون : او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالـكافرين . يكاد البرق يخطف ابصـارهم . كلما اضاء لهم مشوا فيه . وإذا أظـلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير) .

فضرب لهم مثلاً كالذي اوقد النار كلما اضاءت اطفأها الله ، والمثال المائي كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى . ولبسط الكلام فى هذه الأمثال موضع آخر .

وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها ، وفى الدعاء المأثور « اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا » . و « الربيع » هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً او يلم » . والفصل الذي ينزل فيه اول المطر تسمية العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه ، وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء ؛ فان فيه تخرج الأزهار التى تخلق منها الثمار ، وتنبت الأوراق على الأشجار .

والقلب الحي المنور ؛ فانه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل ، والقلب الميت فانه لا يسمع ولا يبصر . قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) وقال تعالى : (ومنهم من يستمعون إليك افأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ! ومنهم من ينظر إليك افأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟ !) وقال تعالى : (ومنهم من يستمع إليك

وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين) الآيات .

فأخبر انهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار ، كما اخبر عنهم حيث قالوا : (قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب) . فذكروا الموانع على القلوب والسمع والابصار ، وابدانهم حية تسمع الاصوات وترى الاشخاص ؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم ، لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ، ولهذا قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) .

فشبههم بالغنم الذى ينعق بها الراعي وهي لا تسمع الا نداء . كما قال فى الآية الأخرى : (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون إن هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلاً) وقال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل) .

فطائفة من المفسرين تقول فى هـذه الآيت وما اشبهـا كقوله : (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً فلمـا كشفنا عنـه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) وأمثالهـا مما ذكر الله فى عيوب الانسان وذمها ، فيقول هؤلاء : هذه الآية فى الكفار ، والمرادبالانسان هنا الـكافر ، فيبقى من يسمع ذلك يظن انه ليس لمن يظهر الاسلام فى هذا الذم والوعيد نصيب ؛ بل يذهب وهمـه الى من كان مظهراً للشرك من العرب ، او الى من يعرفهـم من مظهرى الكفر : كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند . ونحو ذلك ، فلا ينتفع بهذه الآيات التى أنزلها الله ليهتدى بها عباده .

فيقال : ــ اولاً ــ : المظهرون للاسلام فيهم مؤمن ومنـافق ، والمنـافقون كثيرون في كل زمان ، والمنافقـون فى الدرك الاسفـل من النار .

ويقال : « ثانياً » الانسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر ، وان كان معه ايمان ، كما قال النبي صلى الله عليـه وسـلم في الحديث المتفق عليه : « أربـع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعهـا : اذا حدث كذب واذا اؤتمن خان . واذا عاهد غدر . واذا خاصم فجر » فأخبر أنه مـن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه قال لابى ذر رضي الله عنه : « انك امرؤ فيك جاهلية » وابو ذر — رضي الله عنه — من أصدق الناس ايماناً ، وقال فى الحديث الصحيح : « أربع فى امتى من امر الجاهلية : الفخر بالاحساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالنجوم » وقال فى الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ ! قال : فمن ؟ ! » وقال أيضاً فى الحديث الصحيح : « لتأخذن أمتى ما أخذت الامم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا : فارس والروم ؟ ! قال : ومن الناس الا هؤلاء » .

وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من اصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وعن علي – او حذيفة – رضي الله عنها — قال : القلوب « اربعة » . قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب اغلف فذاك قلب الكافر ، وقلب منكوس . فذاك قلب المنافق ، وقلب فيه مادتان : مادة تمده الايمان ، ومادة تمده النفاق ، فأولئك قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا عرف هذا علم ان كل عبد ينتفع بما ذكر الله فى الايمان من مدح شعب الايمان وذم شعب الكفر ، وهذا كما يقول بعضهم في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) . فيقولون المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم . فأي

فائدة في طلب الهدى ؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم : نم حتى آتيك ، او يقول بعضهم الزم قلوبنا الهدى ، فحذف الملزوم . ويقول بعضهم زدني هدى ، وإنما يوردون هـــذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه ؛ فان المراد به العمل بما امر الله به . وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور .

والانسان وإن كان أقر بان محمــداً رسول الله ، وان القرآن حق على سبيل الاجمال ، فاكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما امر به ومـــا نهي عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه ، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمـــه ، ولو قدر أنه بلغــه كل أمر ونهي في القرآن والسنة ، فالقرآن والسنة إنمـــا تذكر فيهما الامور العـــامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد ، ولهـــذا امر الانســـان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم .

والهدى الى الصراط المستقيم يتناول هذا كله ، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ، ويتنـــاول التعريف بما يدخل في اوامره الكليـــات ، ويتناول الهام العمل بعلمه ، فان مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء ان لم يعمل بعلمه ، ولهذا قال لنبيه بعـــد صلح الحديبية : (إنا فتحنـــا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمتـــه عليك ويهديك

صراطاً مستقيما) وقال فى حق موسى وهرون : (واتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) .

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الامور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعمليـة ، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق والقرآن حق ، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه و[لا] يحتذون حذوه . فلو هدوا إلى الصراط المستقيم فى تلك الاعمـال لفعلوا ما أمروا به وتركوا مانهو عنـه ، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أوليـاء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء فى كل صلاة ، مع علمهم بحـاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً فى أن يهديهم الصراط المستقيم .

فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين . قال سهل ابن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار ، وما حصل فيه الهدى فى الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه فى المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول : ثبتنا واهدنا لزوم الصراط .

وقول من قال : زدنا هدى يتناول ما تقدم ؛ لكن هـذا كله هدى منه فى المستقبل الى الصراط المستقيم ؛ فان العمل فى المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ، ولا يكون مهتديا حتى يعمل فى المستقبل بالعلم ، وقـد لا يحصل العلم فى

المستقبل بل يزول عن القلب ، وان حصل فقد لا يحصل العمل ، فالناس كلهم مضطرون الى هذا الدعاء ؛ ولهذا فرضه الله عليهم فى كل صلاة . فليسوا إلى شيء من الدعاء احوج منهم إليه ، وإذا حصل الهدى الى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله اعلم .

واعلم ان حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الارادية ، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار فى علم الله وقدرته . كابي الحسين البصري . قالوا : إن حياته انه بحيث يعلم ويقدر ، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف ، وهي شرط فى العلم والارادة والقدرة على الافعال الاختيارية، وهي ايضاً مستلزمة لذلك ، فكل حي له شعور وارادة وعمل اختياري بقدرة ، وكل ما له علم وارادة وعمل اختياري فهو حي .

والحياء مشتق من الحياة ؛ فان القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح . فان حياة القلب هي المانعة من القبائح التى تفسد القلب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحياء من الايمان » وقال : « الحياء والعي شعبتان من الايمان . والبذاء والبيان شعبتان من النفاق »

فان الحي يدفع ما يؤذيه ؛ بخلاف الميت الذي لاحياة فيه [فانه] يسمى وقحا ، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة ، فاذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن فى قلبه حياة توجب حياءه ، وامتناعه من القبح كالارض

اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام ، بخلاف الأرض الخضرة .

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبيح ، وله ارادة تمنعه عن فعل القبيح ، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك . فالقلب إذا كان حياً فمات الانسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ، ليست هي فى نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها .

ولهذا قال تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء) وقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء) مع انهم موتى داخلون في قوله : (كل نفس ذائقة الموت) وفى قوله : (إنك ميت وانهم ميتون) وقوله : (وهو الذي احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فالموت المثبت غير الموت المنفي . المثبت هو فراق الروح البدن ، والمنفى زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن .

وهذا كما ان النوم اخو الموت ، فيسمى وفاة ويسمى موتا ، وان كانت الحياة موجودة فيها . قال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى اجل مسمى) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ استيقظ من منامه يقول : «الحمد لله الذي احيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور» وفى حديث آخر :

« الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا » وإذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم انت خلقت نفسي وانت توفاها لك مماتها ومحياها إن امسكتها فارحمها وان ارسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ويقول : « باسمك اللهم اموت واحيا » .

فصل

ومن امراض القلوب « الحسد » كما قال بعضهم في حده : انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء . فلا يجوز ان يكون الفاضل حسوداً ؛ لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل ، وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وان لم يصر للحاسد مثلها . بخلاف الغبطة فانه تمنى مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط .

والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان :

(احدهما) كراهة للنعمة عليه مطلقاً ، فهذا هو الحسد المذموم . وإذا ابغض ذلك فانه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه ، فيكون ذلك مرضاً في قلبه ، ويلتذ بزوال النعمة عنه ، وان لم يحصل له نفع بزوالها ؛ لكن نفعه

زوال الألم الذي كان فى نفســه ، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منــه ، وهو راحة ، واشــده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعــه والمرض باق : فان بغضــه لنعمة الله على عبــده مرض . فان تلك النعمة قــد تعود على المحسود واعظم منهـا . وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود .

والحاسد ليس له غــرض في شيء معــين ؛ لكن نفســه تكره ما انعم به على النوع . ولهذا قال من قال : انه تمنى زوال النعمة . فان من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه .

و (النوع الثاني) : ان يكره فضل ذلك الشخص عليــه ، فيحب أن يكون مثله او افضل منــه . فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة . وقد سمـاه النبي صلى الله عليه وسلم حسداً فى الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما انــه قال : « لا حسد الا فى اثنتين : رجــل اتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل اتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق » هذا لفظ ابن مسعود .

ولفظ ابن عمر « رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار» رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه : « لا حسد الا فى اثنين رجل اتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار ، فسمعه رجل فقال : ياليتني أوتيت مثل ما اوتى هــذا

فعملت فيه مثل ما يعمل هـذا ، ورجل اتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل : ياليتني اوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا » فهـذا الحسد الذي نهى عنـه النبي صلى الله عليه وسلم الا في موضعين هو الذي سماه اولئك الغبطـة ، وهو ان يحب مثل حال الغير ويكره ان يفضل عليه .

فان قيل : إذا لم سمي حسداً وإنمـا أحب أن ينعم الله عليه . قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامـه على الغير وكراهته ان يتفضل عليـه ، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك ، فلما كان مبدأ ذلك كراهته ان يتفضل عليه الغير كان حسداً ؛ لأنه كراهة تتبعها محبة ، واما من احب ان ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى احوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء .

ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان فى الأمر المحبوب المطلوب ، كلاهما يطلب ان يأخذه ، وذلك لكراهية احدهما ان يتفضل عليه الآخر ، كما يكره المستبقان كل منهما ان يسبقه الآخر ، والتنافس ليس مذموماً مطلقـاً ، بل هو محمود فى الخير . قال تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجـوههم نظرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون)

فامر المنـافس ان ينافس فى هـذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيـا

الزائل ، وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فانه نهى عن الحسد إلا فيمن اوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه . ومن اوتي المال فهو ينفقه ، فاما من اوتي علماً ولم يعمل به ولم يعلمه ، او أوتى مالا ولم ينفقه فى طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله ، فانه ليس فى خير يرغب فيه ، بل هو معرض للعذاب ، ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل ، ادى الامانات الى اهلها ، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة : لكن هـذا في جهاد عظيم ، كذلك المجاهد فى سبيل الله .

والنفوس لا تحسد من هو فى تعب عظيم ؛ فلهذا لم يذكره ، وإن كان المجاهد فى سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال ؛ بخلاف المنفق والمعلم فان هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج ، فان قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه . فذلك أفضل لدرجتهما ، وكذلك لم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم المصلي والصائم والحاج : لأن هـذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذي يعظمون بـه الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والانفاق .

والحسد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة ، وإلا فالعامل لا يحسد فى العادة ، ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره ، بخلاف هذين النوعين فانهما يحسدان كثيراً ، ولهذا يوجد بين أهل

العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك فيمن له أتبــاع بسبب إنفاق ماله فهــذا ينفع النـاس بقوت القلوب وهــذا ينفعهم بقوت الأبدان ، والنــاس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا .

ولهذا ضرب الله سبحانه « مثلــين » : مثلاً بهذا ، ومثلاً بهذا فقــال : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما ابــكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخــير هل يستوى هو ومن يأمر بالعــدل وهو على صراط مستقيم ؟!) .

و (المثلان) ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه ؛ فان الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ، ولا على كلام ينفع ، فاذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شيء ، وآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر عــلى الاحسان المحسن إلى الناس سراً وجهراً ، وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عبــاده ، وهو محسن إليهم دائماً . فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقــدر على شيء حتى يشرك به معه . وهذا مثل الذي اعطاه الله مالاً فهو ينفق منــه آناء الليل والنهار .

و (المثل الثاني) إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شيء ، وهو مع هذا كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير ، فليس فيه من نفع قط ، بل هو كل على من يتولى أمره ، وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ، ويعمل بالعدل ، فهو على صراط مستقيم . وهذا نظير الذي اعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وقد ضرب ذلك مثلاً لنفسه : فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل ، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم . كما قال تعالى : (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وقال هود : (إن ربي على صراط مستقيم) .

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، كان عبد الله يعلم الناس واخوه يطعم الناس . فكانوا يعظمون على ذلك . ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال : هذا والله الشرف ، او نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس ابا بكر رضي الله عنه الانفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قال : « امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نتصدق فوافق ذلك ما لا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوماً . قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول

الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك قلت مثله ، واتى ابو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لأهلك قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت لا اسابقك الى شيء ابداً » .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ؛ لكن حال الصديق رضي الله عنه افضل منه وهو انه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره .

وكذلك موسى صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج « حصل له منافسة وغبطة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ابكي ؛ لان غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتي» اخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الالفاظ المروية غير الصحيح « مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته : أكرمته وفضلته ، قال : فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا احمد ، قال : مرحباً بالنبي الامي الذى بلغ رسالة ربه ونصح لامته ، قال : ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى ابن عمران ، قلت : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك ، قلت : ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه » .

وعمر رضي الله عنه كان مشبهاً بموسى، ونبينا حاله افضل من حال موسى فانه لم يكن عنده شيء من ذلك .

وكذلك كان فى الصحابة ابو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الامور ، فكانوا ارفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة . وإن كان ذلك مباحاً ، ولهذا استحق ابو عبيدة رضي الله عنه ان يكون امين هذه الامة فان المؤتمن إذا لم يكن فى نفسه مزاحمة على شيء مما اؤتمن عليه كان احق بالامانة ممن يخاف مزاحمته ؛ ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ، ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف انه لا يزاحم على الكبرى . ويؤتمن على المال من يعرف انه ليس له غرض فى اخذ شيء منه ، وإذا اؤتمن من فى نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم ، فلا يقدر ان يؤدى الامانة فى ذلك لما فى نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه .

وفى الحديث الذي رواه الامام احمد فى مسنده عن أنس رضي الله عنه : « قال : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من اهل الجنة ، قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم . فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

الله عنه فقال : اني لاحيت ابي فاقسمت ان لا ادخل عليه ثلاثاً فان رأيت ان تؤيني اليك حتى تمضي الثلاث فعلت قال : نعم ! قال أنس رضي الله عنه فكان عبد الله يحدث انه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً ؛ غير انه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر. فقال عبد الله غير اني لم اسمعه يقول إلا خيراً. فلما فرغنا من الثلاث وكدت ان احقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت الثلاث مرات فأردت أن آوي اليك لأنظر ما عملك . فاقتدي بذلك ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ماهو إلا ما رأيت غير انى لا أجد على احد من المسلمين فى نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهي التى لا نطيق » . فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهي التى لا نطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد .

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال : (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) اي مما اوتى اخوانهم المهاجرون ، قال المفسرون لا يجدون فى صدورهم حاجة اي حسداً وغيظاً مما اوتي المهاجرون ، ثم قال بعضهم من مال الفيء ، وقيل من الفضل والتقدم ،

فهم لا يجدون حاجة مما اوتوا من المال ولا من الجاه . والحسد يقع على هذا .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله احب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك ، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال : (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) .

واما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود : (ودكثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند انفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق) يودون اي يتمنون ارتدادكم حسداً ، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق ؛ لأنهم لما رأوا انكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل ؛ بل مالم يحصل لهم مثله حسدوكم ، وكذلك فى الآية الاخرى :) ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيراً) وقال تعالى : (قل اعوذ برب الفلق ، من شر ماخلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد) .

وقد ذكر طائفة من المفسرين انها (نزلت) بسبب حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سحروه : سحره لبيد بن الاعصم اليهودي ، فالحاسد

المبغض للنعمة على من انعم الله عليه بها ظالم معتد . والكاره لتفضيله المحب لماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه الى الله ، فاذا احب ان يعطى مثل ما اعطي مما يقربه الى الله فهذا لابأس به ، واعراض قلبه عن هذا بحيث لاينظر الى حال الغير افضل .

ثم هذا الحسد ان عمل بموجبه صاحبه كان ظالما معتديا مستحقاً للعقوبة الا ان يتوب ، وكان المحسود مظلوما مأموراً بالصبر والتقوى ، فيصبر على اذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه . كما قال تعالى : (ودكثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره) وقد ابتلى يوسف بحسد اخوته له حيث قالوا : (ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفي ضلال مبين) فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ، ولهذا قال يعقوب ليوسف : (لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين) .

ثم إنهم ظلموه بتكلمهم فى قتله وإلقائه فى الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفار . ثم إن يوسف ابتلي بعد ان ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراود عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة ، وآثر عذاب

الدنيا على سخط الله ، فكان مظلوماً من جهة من احبه لهواه وغرضه الفاسد .

فهذه المحبة احبته لهوى محبوبها شفاؤها وشفاؤه إن وافقها . واولئك المبغضون ابغضوه بغضة اوجبت ان يصير ملقى في الجب ثم اسيراً مملوكا بغير إختياره . فأولئك اخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير إختياره ، وهذه الجأته إلى ان اختار ان يكون محبوساً مسجوناً باختياره ، فكانت هذه اعظم فى محنته ، وكان صبره هنا صبراً إختيارياً إقترن به التقوى ، بخلاف صبره على ظلمهم فان ذلك كان من باب المصائب التى من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم . والصبر الثاني افضل الصبرين ؛ ولهذا قال : (إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) .

وهكذا إذا اوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان ، وإن لم يفعل أوذي وعوقب ، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه : اما الحبس واما الخروج من بلده ، كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين ، وكانوا يعذبون ويؤذون .

وقد أوذي النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً إختيارياً ، فانه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله

باختياره ، وكان هذا أعظم من صبر يوسف : لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس ، والنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس . فان المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة ، ثم لما مات ابو طالب اشتدوا عليه . فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو واصحابه عن ذلك ولم يكن احد يهاجر الا سراً ، إلا عمر بن الخطاب ونحوه ، فكانوا قد الجاؤهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه .

فكان ما حصل للمؤمنين من الاذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله ، لم يكن من المصائب السماوية التى تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف ، لا من جنس التفريق بينه وبين ابيه ، وهذا اشرف النوعين ، واهلها اعظم درجة — وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه — فان هذا اصيب واوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح . قال تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع اجر المحسنين) .

بخلاف المصائب التى تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه واخذ اللصوص ماله فان تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة ؛ لكن المصيبة يكفر بها خطاياه ، فان الثواب إنما يكون على الاعمال الاختيارية وما يتولد عنها .

والذين يؤذون على الايمان ، وطاعة الله ورسوله ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج او مرض او حبس او فراق وطن وذهاب مال واهل ، او ضرب او شتم او نقص رياسة ومال هم فى ذلك على طريقة الانبياء واتباعهم كالمهاجرين الاولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح ، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار ، وان كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختيارى ، وهي التى يقال لها متولدة .

وقد اختلف الناس هل يقال انها فعل لفاعل السبب ، او لله او لا فاعل لها ، والصحيح انها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الاسباب ولهذا كتب له بها عمل صالح .

والمقصود ان « الحسد » مرض من امراض النفس ، وهو مرض غالب فلا يخلص منه الا قليل من الناس ، ولهذا يقال : ما خلا

جسد من حسد ، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه . وقد قيل للحسن البصرى : ايحسد المؤمن ؟ فقال ما انساك اخوة يوسف لا اباك ! ولكن عمه فى صدرك ، فانه لا يضرك ما لم تعدبه يداً ولساناً .

فمن وجد فى نفسه حسداً لغيره فعليه ان يستعمل معه التقوى والصبر . فيكره ذلك من نفسه ، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود ، فلا يعينون من ظلمه ، ولكنهم ايضاً لايقومون بما يجب من حقه ، بل اذا ذمه احد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده ، وكذلك لو مدحه احد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور فى حقه مفرطون في ذلك ؛ لا معتدون عليه ، وجزاؤهم انهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون ايضاً فى مواضع ، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود ، واما من اعتدى بقول اوفعل فذلك يعاقب .

ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل فى الظالمين نفعه الله بتقواه : كما جرى لزينب بنت جحش — رضي الله عنها — فانها كانت هي التى تسامي عائشة من ازواج النبي — صلى الله عليه وسلم — وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد ، فان المرأة تغار على زوجها لحظها منه ، فانه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها .

وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة او مال اذا اخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر ؛ ويكون بين النظراء لكراهة احدهما ان يفضل الآخر عليه كحسد اخوة يوسف ، وكحسد ابني آدم احدهما لاخيه ؛ فانه حسده لكون ان الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا ؛ فحسده على ما فضله الله من الايمان والتقوى — كحسد اليهود للمسلمين — وقتله على ذلك ؛ ولهذا قيل اول ذنب عصى الله به ثلاثة : الحرص ، والكبر ، والحسد . فالحرص من آدم والكبر من ابليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل .

وفى الحديث « ثلاث لا ينجو منهن احد : الحسد ، والظن ، والطيرة . وسأحدثكم بما يخرج من ذلك اذا حسدت فلا تبغض ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا تطيرت فامض » رواه ابن ابي الدنيا من حديث ابي هريرة .

وفى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم « دب اليكم داء الامم قبلكم : الحسد . والبغضاء ، وهي الحالقة ، لا اقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » فسماه داء . كما سمى البخل داء فى قوله : « وأى داء ادوأ من البخل؟! » فعلم ان هذا مرض ، وقد جاء في حديث آخر « اعوذ بك من منكرات الاخلاق والاهواء ، والادواء » فعطف الادواء على الاخلاق والاهواء .

فان « الخلق » ما صار عادة للنفس ، وسجية . قال تعالى : (وانك لعلى خلق عظيم) قال ابن عباس وابن عيينة واحمد بن حنبل رضي الله عنهم : على دين عظيم ، وفى لفظ عن ابن عباس : على دين الاسلام. وكذلك قالت عائشة — رضي الله عنها — : كان خلقه القرآن . وكذلك قال الحسن البصرى : ادب القرآن هو الخلق العظيم .

واما « الهوى » فقد يكون عارضاً ، والداء هو المرض ، وهو تألم القلب والفساد فيه ، وقرن فى الحديث الاول الحسد بالبغضاء ؛ لان الحاسد يكره اولاً فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل الى بغضه ، فان بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم . فان نعمة الله اذا كانت لازمة وهو يحب زوالها ، وهي لا تزول الا بزواله ابغضه واحب عدمه ، والحسد يوجب البغي ، كما اخبر الله تعالى عمن قبلنا : انهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم ، بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض ، كما يبغي الحاسد على المحسود .

وفى الصحيحين عن انس بن مالك رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ؛ ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخواناً ، ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال : يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته من رواية انس ايضاً « والذي

نفسي بيده لايؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد قال تعالى : (وان منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله علي إذ لم اكن معهم شهيداً ، ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فافوز فوزاً عظيما) .

فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لأخوانهم المؤمنين مايحبون لأنفسهم ، بل ان اصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم . وان اصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها ، بل أحبوا ان يكون لهم منها حظ ، فهم لا يفرحون الا بدنيا تحصل لهم ، او شر دنيوي ينصرف عنهم ، إذا كانوا الا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لاحبوا اخوانهم ، واحبوا ماوصل اليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه مايسوء المؤمنين فليس منهم .

في الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد . إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفى الصحيحين عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه » .

والشح مرض ، والبخل مرض ، والحسد شر من البخل كما فى الحديث

الذي رواه ابو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » وذلك ان البخيل يمنع نفسه ، والحسود يكره نعمة الله على عباده ، وقد يكون في الرجل اعطاء لمن يعينه على اغراضه وحسد لنظرائه ، وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح اصل ذلك .

وقال تعالى : (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم امرهم بالبخل فبخلوا ، وامرهم بالظلم فظلموا ، وامرهم بالقطيعة فقطعوا » وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء فى طوافه يقول : اللهم ! قنى شح نفسي ، فقال له رجل : ما اكثر ما تدعو بهذا ! فقال : إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة . والحسد يوجب الظلم .

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وحبها لما يضرها ، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب ، واما مرض الشهوة والعشق فهو حب النفس لما يضرها ، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها ، والعشق مرض نفسانى ، وإذا قوى اثر فى البدن فصار مرضاً فى الجسم ، إما من امراض

الدماغ كالماليخوليا ؛ ولهذا قيــل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، واما من امراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك .

والمقصود هنا « مرض القلب » فانه اصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي مايضره ، وإذا لم يطعم ذلك تألم . وان اطعم ذلك قوى به المرض وزاد .

كذلك العاشــق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهــدة وملامسة وسماعا ؛ بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك ، فان منع من مشتهاه تألم وتعذب ، وان اعطي مشتهاه قوي مرضه ، وكان سبباً لزيادة الالم .

وفى الحديث : « ان الله يحمي عبده المؤمن الدنيـا كما يحمي احـــدكم مريضه الطعام والشراب » وفى مناجاة موسى المأثورة عن وهب التى رواهـا الامام احمد في (كتاب الزهد) « يقول الله تعالى : انى لأذود اوليــائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق ابله عن مراتـع الهلـكة . واني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق ابله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم علي ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالمـا موفرا لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى » . وانما شفــاء المريض بزوال مرضــه ، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه .

والناس فى العشق على قولين :

قيل انه من باب الارادات ، وهذا هو المشهور .

وقيل : من باب التصورات ، وانه فساد فى التخييل، حيث يتصور المعشوق على ماهو به ، قال هؤلاء : ولهذا لايوصف الله بالعشق ، ولا انه يعشق ؛ لأنه منزه عن ذلك ، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالا فاسداً .

واما الاولون فمنهم من قال : يوصف بالعشق فانه المحبة التامة ، والله يحب ويحب ، وروى فى أثر عن عبد الواحد بن زيد انه قال : « لا يزال عبدي يتقرب إلي بعشقي وأعشقه » وهذا قول بعض الصوفية .

والجمهور لايطلقون هذا اللفظ في حق الله ؛ لان العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي ، والله تعالى محبته لانهاية لها فليست تنتهي الى حد لا تنبغي مجاوزته .

قال هؤلاء : والعشق مذموم مطلقاً لايمدح لا فى محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود و (ايضاً) فان لفظ « العشق » إنما يستعمل فى العرف فى محبة الانسان لامرأة أو صبي ، لا يستعمل فى محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ، ومحبة الأنبياء والصالحين ، وهو مقرون كثيراً بالفعل المحرم : إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي ، يقترن به النظر المحرم ، واللمس المحرم ، وغير ذلك من الافعال المحرمة .

وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته [محبة] تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها مالا يحل ، ويترك ما يجب ، كما هو الواقع كثيراً ، حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة ؛ لمحبته الجديدة ، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره فى دينه ودنياه ، مثل ان يخصها بميراث لا تستحقه ، او يعطي اهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله ، او يسرف في الانفاق عليها ، أو يملكها من امور محرمة تضره فى دينه ودنياه ، وهذا في عشق من يباح له وطؤها .

فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين ، ؟!! ففيه من الفساد مالا يحصيه الا رب العباد وهو من الامراض التى تفسد دين صاحبها وعرضه ، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه . قال تعالى : (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) .

ومن فى قلبه مرض الشهوة وارادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض والطمع الذي يقوي الارادة والطلب ، ويقوي المرض بذلك بخلاف ما اذا كان آيساً من المطلوب ، فان اليأس يزيل الطمع فتضعف الارادة فيضعف الحب ، فان الانسان لا يريد ان يطلب ماهو آيس منه ، فلا يكون مع الارادة عمل اصلا ، بل يكون حديث نفس الا ان يقترن بذلك كلام او نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك .

فاما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر فانه يثاب على تقواه لله ، وقــد روى فى الحديث : « أن من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيداً » وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا ، وفيه نظر ولا يحتج بهذا .

لكــن من المعلوم بأدلة الشرع انه إذا عف عن المحرمــات نظراً وقولاً وعمــلاً ، وكتم ذلك فلم يتـكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم ، اما شكوى إلى المخلوق واما إظهار فاحشة ، واما نوع طلب للمعشوق ، وصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى ما فى قلبــه من الم العشق ، كما يصبر المصاب عن الم المصيبة ؛ فان هــذا يكون ممن اتقى الله وصبر ، (ومن يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين)

وهكذا مرض الحسد وغيره من امراض النفوس ، واذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل فى قوله : (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)

فالنفس إذا احبت شيئــاً سعت في حصوله بمــا يمكن ، حتى تسعى في امور كثيرة تـكون كلها مقامات لتلك الغــاية ، فمن احب محبــة مذمومة او ابغض بغضاً مذموماً وفعل ذلك كان آ ثماً ، مثل ان يبغض شخصاً لحسده له فيؤذي من له به تعلق ، اما بمنع حقوقهم ؛ او بعــدوان عليهم . او لمحبة له

لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم ، او ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله ، وهذه امراض كثيرة فى النفوس ، والانسان قد يبغض شيئاً فيبغض لأجله اموراً كثيرة بمجرد الوهم والخيال .

وكذلك يحب شيئاً فيحب لأجله اموراً كثيرة ؛ لأجل الوهم والخيال ، كما قال شاعرهم :

احب لحبها السودان حتى ... احب لحبها سود الكلاب

فقد احب سوداء ؛ فاحب جنس السواد ، حتى فى الكلاب ، وهذا كله مرض في القلب فى تصوره وارادته .

فنسأل الله تعالى ان يعافى قلوبنا من كل داء ؛ ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والادواء .

والقلب انما خلق لأجل « حب الله تعالى » وهذه الفطرة التى فطر الله عليها عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول ابو هريرة رضي الله عنه اقرأوا ان شئتم : (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) اخرجه البخاري ومسلم .

فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده ؛ فاذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محباً له عابداً له وحده ، لكن تفسد فطرته من مرضه كابويه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها ، وان كانت بقضاء الله وقدره ـ كما يغير البدن بالجدع ـ ثم قد يعود الى الفطرة اذا يسر الله تعالى لها من يسعى في اعادتها الى الفطرة .

والرسل صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها ، واذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بحب غيره [أصلا] ، فضلا ان يبتلى بالعشق . وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده .

ولهذا لما كان يوسف محباً لله مخلصاً له الدين لم يبتل بذلك . بل قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) . واما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها ، فلهذا ابتليت بالعشق ، وما يبتلي بالعشق احد الا لنقص توحيده وايمانه ، والا فالقلب المنيب الى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق :

(احدهما) انابته الى الله ، ومحبته له ؛ فان ذلك ألذ واطيب من كل شيء ، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه .

و (الثاني) خوفه من الله ، فان الخوف المضـاد للعشق يصرفه . وكل من احب شيئاً بعشق او غير عشق فانه يصرف عن محبته بمحبـة ما هو احب اليه منه ، اذا كان زاحمه ، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون ابغض اليه من ترك ذلك الحب ، فاذا كان الله احب الى العبد من كل شيء ، واخوف عنده من كل شيء ، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة الا عند غفلة او عند ضعف هذا الحب والخوف ، بترك بعض الواجبـات وفعل بعض المحرمات ، فان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . فكلما فعل العبد الطـاعة محبة لله وخوفاً منه وترك المعصية حباً له وخوفاً منه قوي حبه له وخوفه منـه ، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره .

وهكذا امراض الأبدان : فان الصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يدفـع بالضد ، فصحة القلب بالايمان تحفظ بالمثل ، وهو ما يورث القلب ايماناً من العلم النـافع والعمل الصـالح ، فتلك اغذية له ، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً « ان كل آدب يحب ان تؤتى مأدبته ، وان مأدبـة الله هي القرآن » والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده [1] .

مثل آخر الليل واوقات الأذان والاقامة وفي سجوده وفي ادبار الصلوات ويضم الى ذلك الاستغفار ؛ فانه من استغفر الله ثم تاب اليه متعه متاعا حسناً الى اجل مسمى .

---

(١) بياض بالاصل

وليتخذ ورداً من « الاذ كار » فى النهـار . ووقت النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فانه لا يلبث ان يؤيده الله بروح منه ، ويكتب الايمان فى قلبه .

وليحرص على اكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فانها عمود الدين ، وليكن هجيراه لا حول ولا قوة الا بالله . فانها بها تحمل الاثقال وتكابد الاهوال وينال رفيع الاحوال .

ولا يسأم من الدعاء والطلب ، فان العبد يستجاب له ما لم يعجل ، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي ، وليعلم ان النصر مـع الصبر ، وان الفرج مع الـكرب ، وان مع العسر يسراً ، ولم ينـل احد شيئاً مـن ختم الخير نبي فمن دونه الا بالصبر .

والحمد لله رب العالمين . . وله الحمد والمنة على الاسلام والسنة حمـداً يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة ، وكما ينبغي لـكرم وجهه وعز جلاله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آ له واصحابه وازواجه امهـات المؤمنين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

قال شيخ الاسلام

رحمه الله ايضا

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم .

فصـــــل

في مرض القلوب وشفائها

قد ذكرنا في غير موضع : ان صلاح حال الانسان في العدل . كما ان فساده في الظلم . وان الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه ، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال اخلاطه واعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل .

وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة .

وقد ذكر الله « مرض القلوب وشفاءها » فى مواضع من كتابه وجاء ذلك فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى عن المنافقين : (فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً) وقال : (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) وقال تعالى : (ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم) وقال : (قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور) . وقال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . وقال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) . وقال تعالى : (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي فى قلبه مرض) . وقال : (لئن لم ينته المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم) . وقال : (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلا سألوا إذ لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال » وقال الرشيد : الآن شفيتني يا مالك ! وفى صحيح البخاري عن ابن مسعود « ان احداً لا يزال بخير ما اتقى الله ، واذا شك فى تفسير شيء سأل رجلاً فشفاه . واوشك ان لا يجده والذي لا اله الا هو » .

ومما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها

وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها .

لكن المقصود معرفة مرض القلب فنقول : المرض نوعان :

فساد الحس .

وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الارادية .

وكل منها يحصل بفقده الم وعذاب ، فكما انه مع صحة الحس والحركة الارادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة ، فكذلك بفسادها يحصل الالم والعذاب ، ولهذا كانت النعمة من النعيم ، وهو ما ينعم الله به على عباده ، مما يكون فيه لذة ونعيم ، وقال : (لتسألن يومئذ عن النعيم) اي عن شكره .

فسبب اللذة احساس الملائم ، وسبب الالم احساس المنافى ، ليس اللذة والالم نفس الاحساس والادراك ، وانما هو نتيجته وثمرته ومقصوده وغايته ، فالمرض فيه الم لا بد منه وان كان قد يسكن احياناً لمعارض راجح ، فالمقتضي له قائم يهيج بأدنى سبب ، فلا بد فى المرض من وجود سبب الالم ، وانما يزول الالم بوجود المعارض الراجح .

ولذة القلب وألمه اعظم من لذة الجسم وألمه ، اعنى المه ولذته النفسانيتان

وان كان قد يحصل فيه من الالم من جنس ما يحصل فى سائر البشر بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر .

فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه اعظم من مرض الجسم وشفائه ، فتارة يكون من جملة الشبهات . كما قال : (فيطمع الذي فى قلبه مرض) وكما صنف الخرائطي « كتاب اعتلال القلوب بالاهواء » ففي قلوب المنافقين : المرض من هذا الوجه ، ومن هذا الوجه : من جهة فساد الاعتقادات ، وفساد الارادات .

والمظلوم فى قلبه مرض وهو الالم الحاصل بسبب ظلم الغير له ، فاذا استوفى حقه اشتفى قلبه . كما قال تعالى : (ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) فان غيظ القلب انما هو لدفع الاذى والالم عنه ، فاذا اندفع عنه الاذى واستوفى حقه زال غيظه .

فكما ان الانسان اذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه ولا ينطق بلسانه كان ذلك مرضاً مؤلماً له يفوته من المصالح ويحصل له من المضار فكذلك اذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ، ولم يميز بين الخير والشر . والغي الرشاد كان ذلك من اعظم امراض قلبه والمه ؛ كما انه اذا اشتهى ما يضره مثل الطعام الكثير فى الشهوة الكلبية . مثل اكل الطين ونحوه كان ذلك مرضاً ؛ فانه يتألم حتى يزول له

بهذا الاكل الذي يوجد للمأ اكثر من الاول؛ فهو يتألم ان اكل؛ ويتألم ان لم يأكل .

فكذلك اذا بلي بحب من لا ينفعه العشق ونحوه سواء كان لصورة او لرئاسة او لمال ونحو ذلك فان لم يحصل محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم ؛ وان حصل محبوبه فهو اشد مرضاً والماً وسقماً ؛ ولذلك كما ان المريض اذا كان يبغض ما يحتاج اليه من الطعام والشراب كان ذلك الالم حاصلاً ؛ وكان دوامه على ذلك يوجب من الالم اكثر من ذلك حتى يقتله ؛ حتى يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج اليه : فهو متألم فى الحال ؛ وتألمه فيما بعد ان لم يعافه الله اعظم واكبر .

فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود كبغض المريض لاكل الاصحاء لاطعمتهم واشربتهم حتى لا يقدر ان يراهم يأكلون ؛ ونفرته عن ان يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعام وشراب ؛ فالحب والبغض الخارج عن الاعتدال والصحة في النفس كالشهوة والنفرة الخارج عن الاعتدال والصحة فى الجسم . وعمى القلب وبكمه ان يبصر الحقائق ويميز ما ينفعه ويضره ،كعمى الجسم وخرسه عن ان يبصر الامور المرئية ، ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره .

وكما أن الضرير اذا ابصر وجد ان الراحة والعافية والسرور امراً

عظيماً فبصر القلب ، ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه الا الله ، وانما الغرض هنا تشبيه احد المرضين بالآخر . فطب الاديان يحتذي حذو طب الابدان .

وقد كتب سليمان الى ابي الدرداء . اما بعد : فقد بلغني انك قعدت طبيباً فاياك ان تقتل ، والله انزل كتابه شفاء لما في الصدور . وقال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً) ذلك ان الشفاء انما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم .

فرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال : اما شهوة ما لا يحصل او بفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح وبفقد النفرة عما يضر ، ويكون بضعف قوة الادراك والحركة ، كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال ، وهي الاهواء التي قال الله فيها : (ومن اظلم ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) . وقال : (بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم) .

كما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب ، ويكون لضعف ادراك القلب وقوته حتى لا يستطيع ان يعلم ما يريد ما ينفعه ويصلح له ، وكما ان المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا

يحتمون ولا يصبرون على الأدويــة الكريهة لمــا في ذلك من تعجيل نوع من الراحــة واللذة ، ولكن ذلك يعقبهــم من الآلام مايعظــم قــــدره ، او يعجل الهلاك .

فكذلك بنوا آدم هم جهال ظلموا انفسهم : يستعجل احدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لايصلح له ، فيعقبهــم ذلك من الالم والعقوبات ، اما في الدنيا واما في الآخرة مافيه عظم العذاب والهلاك الاعظم .

و « التقوى » هي الاحتماء عمــا يضره بفعل ما ينفعه : فان الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع ، واما استعمال النافع فقد يكون معه ايضاً استعمالا لضار ، فلا يكون صاحبه من المتقين .

واما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون ، فان العبــد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التى تضره حــتى يهلك ، ولهــذا كانت العاقبة للتقوى ، وللمتقين ؛ لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الاسلام والكرامة ، وان وجدوا المافى الابتــداء لتناول الدواء والاحتماء ، كفعل الاعمال الصالحة المــكروهة . كما قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لــكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لــكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لــكم).

ولكثرة الاعمال الباطلة المشتهاة ، كما قال تعالى : (وامــا من خاف مقام

ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) .. وكما قال : (وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) فأما من لم يحتم فان ذلك سبب لضرره فى العاقبة ، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو اصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سراً ؛ فان الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض . فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات .

وقد قدمنا فى « قاعدة كبيرة » ان جنس الحسنات انفع من جنس ترك السيئات ، كما ان جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء ، وبينا ان هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام الى غيره ، وكما ان الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله ، وازالته بعد حصوله . فهكذا امراض القلب يحتاج فيها الى حفظ الصحة ابتداء والى اعادتها — بان [عرض] له المرض — دواماً ، والصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يزول بالضد . فصحة القلب تحفظ باستعمال امثال مافيها ، او هو مايقوي العلم والايمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة ، وتزول بالضد . فتزال الشبهات بالبينات ، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق .

ولهذا قال يحيى بن عمار : العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا . وهو علم التوحيد . وعلم هو غذاء الدين ؛ وهو علم التذكر بمعانى القرآن والحديث . وعلم هو دواء الدين ؛ وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج الى من

يشفيه منها ، كما قال ابن مسعود . وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث وعلم هو هلاك الدين ؛ وهو علم السحر ونحوه .

فحفظ الصحة بالمثل ، وازالة المرض بالضد ، فى مرض الجسم الطبيعي ، ومرض القلب النفسانى الدينى الشرعي . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول ابو هريرة : اقرؤا ان شئتم : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) اخرجاه فى الصحيحين . قال الله تعالى (وله من فى السموات والارض كل له قانتون . وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والارض) الى قوله (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) الى قوله (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) .

فأخبر انه فطر عباده على اقامة الوجه حنيفاً ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب ، وتركها ظلم عظيم اتبع اهله اهواءهم بغير علم ، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة . – وهي صحة الخلقة – من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملا ؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة ، وهي مأدبة الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود : « ان كل آدب يحب أن

تؤتى مأدبته وان مأدبـة الله هي القرآن » ومثله كماء أنزله الله من السماء، كما جرى تمثيله بذلك فى الكتاب والسنة. والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم مرضون القلوب مسقمون لها، وقد انزل الله كتابـه شفاء لما في الصدور .

وما يصيب المؤمن فى الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسـم من الألم يصح بها الجسم وتزول اخلاطه الفاسدة. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا اذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها خطاياه » وذلك تحقيق لقوله : (من يعمل سوءاً يجز به) .

ومن لم يطهر فى هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤب صحيحاً ، والا احتاج ان يطهر منها فى الآخرة فيعذبه الله ، كالذي اجتمعت فيـه اخلاطـه ، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها، ولهذا جاء فى الأثر « اذا قالوا للمريض : اللهم ارحمه ، يقول الله : كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟! » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المرض حطـة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » .

وكما ان امراض الجسم ما إذا مات الانسان منه كان شهيداً . كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب ، وكذلك الميت بغرق او حرق او هدم ؛ فمن

أمراض النفس ، ما اذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليــه حتى مات كان شهيداً ، كالجبان الذي يتقي الله ويصــبر للقتال حتى يقتــل ؛ فان البخل والجــبن من امراض النفوس ان اطاعه أوجب له الألم ، وان عصاه تألم كامراض الجسم .

وكذلك العشق فقد روى « من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات مات شهيداً » فانه مرض في النفس يدعو الى ما يضر النفس كما يدعو المريض الى تناول مـا يضر ، فان اطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا ايضاً ، وان عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم مافيها فاذا مات من ذلك المرض كان شهيداً ، هــذا يدعوه الى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه من الجنة فيفقدها .

فهذه الأمراض إذا كان معها ايمان وتقوى كانت كما قال النبي صــلى الله عليه وسلم : « لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له ان اصابته سراء فشكر ، كان خيراً له ، وان اصابته ضراء فصبر كان خيراً له » .

والحمد لله رب العـالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين . وسلم تسليما .

سئل الشيخ رحمه الله

عن قوله عز وجل : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) فما العبادة وفروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها ام لا ؟ وما حقيقة العبودية ؟ وهل هي اعلا المقامات فى الدنيا والآخرة ام فوقها شيء من المقامات ؟ وليبسطوا لنا القول فى ذلك .

فاجاب : الحمد لله رب العالمين .

« العبادة » هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الامانة ؛ وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . والجهاد للكفار والمنافقين ، والاحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وامثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والانابة إليه . واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ؛

والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وامثـال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك ان العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له ، التى خلق الخلق لها . كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وبها ارسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومـه : (اعبدوا الله ما لـكم من إله غيره) ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم .

وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقال تعالى: (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبـدون) وقال تعالى : (وان هذه امتـكم امة واحدة وانا ربـكم فاعبـدون) كما قال فى الآية الاخرى : (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحـاً اني بما تعملون عليم) . وجعل ذلك لازماً لرسوله الى الموت كما قال : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

وبذلك وصف ملائـكته وانبيـاءه فقال تعالى : (وله من فى السموات والارض ومن عنـده لا يستـكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقال تعالى : (ان الذين عند ربك لا يستـكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وذم المستـكبرين عنها بقوله : (وقال

ربكم ادعوني استجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى : (عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) وقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا) الآيات . ولما قال الشيطان : (فبما اغويتني لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) قال الله تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين)

وقال في وصف الملائكة بذلك : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) الى قوله : (وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً اداً . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الارض ، وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ، ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبداً لقد احصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً)

وقال تعالى عن المسيح ـ الذي ادعيت فيه الالهية والنبوة ـ (ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تطرونى كما اطرت النصارى عيسى

بن مريم فانما انا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله »

وقد نعته الله « بالعبودية » في اكمل احواله فقال في الاسراء : (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا) وقال في الايحاء : (فأوحى الى عبده ما اوحى) وقال في الدعوة : (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال في التحدي : (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) فالدين كله داخل في العبادة .

وقد ثبت في الصحيح ان جبريل لما جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة اعرابي وسأله عن الاسلام قال : « ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا . قال : فما الايمان ؟ قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال فما الاحسان؟ قال ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ثم قال في آخر الحديث « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » فجعل هذا كله من الدين .

و « الدين » يتضمن معنى الخضوع والذل . يقال : دنته فدان اي : ذللته فذل ، ويقال يدين الله ، ويدين لله اي : يعبد الله ويطيعه ويخضع له . فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له .

و « العبادة » اصل معناها الذل ايضاً . يقال : طريق معبد اذا كان مذللا قد وطئته الاقدام .

لكن العبادة المأمور بهـا تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغـاية المحبـة له ، فان آخر مراتب الحب هو التتيم ، واوله « العلاقة » لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم « الصبابة » لانصباب القلب اليـه ، ثم « الغرام » وهو الحب اللازم للقلب ، ثم « العشق » وآخرهـا « التتيم » يقال : تيم الله أي : عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

ومن خضع لانسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب ولده وصديقه ، ولهـذا لايكـفي أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنـده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبـة والذل التام إلا الله .

وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة . وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً . قال الله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم . وإخوانـكم ، وأزواجكم ، وعشيرتـكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليـكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ،فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) ، فجنس المحبة تـكون لله ورسوله ، كالطاعة ، فان الطاعة لله ورسوله

والارضاء لله ورسوله : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) والايتاء لله ورسوله: (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله)

وأما « العبادة » وما يناسبها من التوكل ، والخوف ، ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده ، كما قال تعالى : (قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً) الى قوله : (فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، انا إلى الله راغبون) فالايتاء لله والرسول كقوله : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده ، كما قال تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال تعالى : (يا ايها النبي حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين) اي حسبك وحسب من اتبعك الله .

ومن ظن ان المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطاً فاحشاً ، كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع وقال تعالى : (أليس الله بكاف عبده) .

و « تحرير ذلك » ان العبد يراد به « المعبد » الذي عبده الله فذلله ودبره

وصرفه ، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله من الابرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة واهل النار ؛ اذ هو ربهم كلهم ومليكهم . لا يخرجون عن مشيئته وقدرته ، وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ؛ فما شاء كان وان لم يشاؤا . وما شاؤا ان لم يشأه لم يكن . كما قال تعالى : (أفغير دين الله يبغون . وله اسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون) .

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف امورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق الا هو سواء اعترفوا بذلك او انكروه ، وسواء علموا ذلك أو جهلوه ؛ لكن اهل الايمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به ؛ بخلاف من كان جاهلا بذلك ؛ او جاحداً له مستكبراً على ربه لا يقر ولا يخضع له ؛ مع علمه بان الله ربه وخالقه .

فالمعرفة بالحق اذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابا على صاحبه ، كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً ؛ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ، وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) وقال تعالى : (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

فمن اعترف العبد ان الله ربه وخالقه ؛ وأنه مفتقر اليه محتاج اليـه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع اليه ويتوكل عليه، لكـن قـد يطيع امره ؛ وقد يعصيه . وقد يعبده مع ذلك ؛ وقـد يعبد الشيطان والاصنام .

ومثل هـذه العبودية لا تفرق بين اهل الجنة والنار ، ولا يصير بهـا الرجل مؤمناً . كما قال تعـالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فان المشركين كانوا يقرون ان الله خالقهم ورازقهم وهم يعبـدون غيره قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) وقال تعالى: (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل: افلا تذكرون) الى قوله : (قل فأنى تسحرون)

وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي « الحقيقة الكونية» التي يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر ، وابليس معترف بهذه الحقيقة ؛ واهل النـار . قال ابليس : (رب فانظرني الى يوم يبعثون) وقال : (رب بما اغويتني لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين) وقال : (فبعزتك لاغوينهم اجمعين) وقـال : (أرأيتك هـذا الذي كرمت علي) وامثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بان الله ربه وخالقـه وخالق غيره ؛ وكذلك اهل النار قالوا : (ربنـا غلبت علينـا شقوتنـا وكنا

قوماً ضالين) وقال تعالى : (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا)

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما امر به من الحقيقة الدينية التى هي عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة امره وامر رسوله كان من جنس ابليس واهل النار ؛ وان ظن مع ذلك انه من خواص اولياء الله واهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان ، كان من اشر اهل الكفر والالحاد .

ومن ظن ان الخضر وغيره سقط عنهم الإمر لمشاهدة الارادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر اقوال الكافرين بالله ورسوله . حتى يدخل فى « النوع الثانى » من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لا يعبد الا اياه ؛ فيطيع امره وامر رسله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ؛ ويعادي اعداءه ، وهذه العبادة متعلقة بالهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا اله الا الله » بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده ؛ او يعبد معه الهاً آخر ، فالاله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والاجلال والا كرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ، وهذه العبادة هي التى يحبها الله ويرضاها ، وبها وصف المصطفين من عباده ، وبها بعث رسله .

وأما « العبد » بمعنى المعبد سواء اقر بذلك او أنكره : فتلك يشترك

فيهـا المؤمن والـكافر . وبالفرق بين هـذين النوعين يعرف الفرق بـين « الحقائق الدينيـة » الداخلة فى عبـادة الله ودينه وامره الشرعي التى يحبهـا ويرضاها ويوالى اهلهـا ويكرمهم بجنته ، وبين « الحقـائق الـكونية » التى يشترك فيها المؤمن والـكافر والبر والفـاجر التى من اكتفى بهـا ولم يتبـع الحقائق الدينية كان من أتبـاع ابليس اللعين والـكافرين برب العالمين . ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أو فى مقـام او حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب مانقص من الحقائق الدينية .

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون ، وكثر فيه الاشتباه على السالكين ، حتى زلق فيــه من اكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيـد والعرفان مالا يحصيهم الا الله الذي يعلم السر والاعـلان ؛ والى هـذا اشار الشيخ « عبد القادر » رحمه الله فيما ذكر عنه ، فبين ان كثيراً من الرجال إذا وصلوا الى إلى القضاء والقدر أمسكوا الا انا فانى انفتحت لي فيه روزنة فنـازعت اقدار الحق بالحق للحق ؛ والرجـل من يـكون منازعا للقـدر لا من يكون موافقاً للقدر .

والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله بـه ورسوله ؛ لكـن كثير من الرجال غلطوا ، فانهم قد يشهدون ما يقدر على احـدهم من المعاصي والذنوب : أو ما يقدر على النـاس من ذلك ، بل من الكفر ؛ ويشهدون ان هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته

فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ، ونحو ذلك ، ديناً وطريقاً وعبادة ؛ فيضاهون المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) . وقالوا : (انطعم من لو يشاء الله اطعمه) . وقالوا : (لو شاء الرحمن ما عبدناهم)

ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا ان نرضى به ونصبر على موجبه فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف ، قال تعالى : (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال بعض السلف : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقال تعالى : (ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احتج آدم وموسى فقال موسى انت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته ، وعلمك اسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً علي قبل ان أخلق ؟ قال : نعم . قال : فحج آدم موسى » .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لابليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر ، ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لامه لأجل المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ، ولهـذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فأجابه آدم أن هذا كان مكتوباً قبل أن أخلق . فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فانه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد ان يذنب ، وإذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب ، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب . قال تعالى : (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال تعالى : (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال : (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) وقال يوسف : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) .

وكذلك ذنوب العباد ، يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـــ بحسب قدرته ـــ ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب فى الله ويبغض فى الله . كما قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

اولياء تلقون اليهم بالمودة) الى قوله : (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده) ، وقال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الى قوله : (اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) وقال تعالى : (افنجعل المسلمين كالمجرمين) وقال : (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ام نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى : (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الاموات) وقال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً) وقال تعالى : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكا لا يقدر على شيء) الى قوله : (بل اكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلاً رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء) الى قوله : (وهو على صراط مستقيم) وقال تعالى : (لا يستوي اصحاب النار واصحاب الجنة اصحاب الجنة هم الفائزون) .

ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين اهل الحق والباطل . واهل الطاعة واهل

المعصية، واهل البر واهل الفجور واهل الهدى والضلال، واهل الغي والرشاد واهل الصدق والكذب.

فمن شهد « الحقيقة الكونية » دون « الدينية » سوى بين هذه الأجناس المختلفة التى فرق الله بينها غاية التفريق حتى يؤل به الأمر الى ان يسوى الله بالأصنام، كما قال تعالى عنهم : (تالله ان كنا لفي ضلال مبين، اذ نسويكم برب العالمين) بل قد آل الامر بهؤلاء الى ان سووا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود اذ جعلوه هو وجود المخلوقات، وهذا من اعظم الكفر والالحاد برب العباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر الى انهم لا يشهدون انهم عباد لا بمعنى انهم معبدون ولا بمعنى أنهم عابدون ؛ اذ يشهدون انفسهم هي الحق. كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب « الفصوص »، وامثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وأمثاله. ويشهدون انهم هم العابدون والمعبودون، وهذا ليس بشهود لحقيقة ؛ لا كونية ولا دينية ؛ بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية. حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق، اذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم.

واما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم اهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان لله اهلين من الناس. قيل : من هم يارسول الله ؟ قال اهل القرآن هم اهل الله ، وخاصته » فهؤلاء يعلمون ان الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وان الخالق سبحانه مباين للمخلوق ليس هو حالاً فيه ولا متحداً به ولا وجوده وجوده .

و « النصارى » كفرهم الله بأن قالوا : بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة ، فكيف من جعل ذلك عاماً فى كل مخلوق ؟ !.

ويعلمون مع ذلك أن الله امر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، وانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وان على الخلق ان يعبدوه فيطيعوا امره ويستعينوا به على ذلك، كما قال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

ومن عبادته وطاعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — بحسب الامكان — والجهاد فى سبيله لاهل الكفر والنفاق . فيجتهدون فى إقامة دينه ، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات ، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك ، كما يزيل الانسان الجوع الحاضر بالاكل ، ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك اذا آن اوان البرد

دفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه . كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « يارسول الله ارأيت ادوية تتداوى بها ، ورقى نسترقي بها ونقاة نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله » . وفي الحديث « ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض » فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة .

وهؤلاء الذين يشهدون « الحقيقة الكونية » وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع امره الديني الشرعي على مراتب في الضلال .

فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً ، فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة . وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) . وقالوا : (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) .

وهؤلاء من اعظم اهل الارض تناقضاً ؛ بل كل من احتج بالقدر فانه متناقض ، فانه لا يمكن ان يقر كل آدمي على ما فعل ؛ فلا بد اذا ظلمه ظالم او ظلم الناس ظالم وسعى في الارض بالفساد واخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من

انواع الضرر التي لا قوام للناس بها ان يدفع هذا القدر ؛ وان يعاقب الظالم بما يكف عدوان امثاله . فيقال له ان كان القدر حجة فدع كل احد يفعل ما يشاء بك وبغيرك ، وان لم يكن حجة بطل اصل قولك : حجة . واصحاب هذا القول [الذين] يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وانما هم بحسب آرائهم واهوائهم ؛ كما قال فيهم بعض العلماء : انت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ؛ اي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

ومنهم « صنف » يدعون التحقيق والمعرفة فيزعمون ان الامر والنهي لازم لمن شهد لنفسه فعلاً واثبت له صنعاً ؛ اما من شهد ان افعاله مخلوقة ؛ او انه مجبور على ذلك ؛ وان الله هو المتصرف فيه ؛ كما تحرك سائر المتحركات ؛ فانه يرتفع عنه الامر والنهي والوعد والوعيد .

وقد يقولون : من شهد « الارادة » سقط عنه التكليف ، ويزعم احدهم أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الارادة ، فهؤلاء لا يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية ، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد وانه يدبر جميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً وبين من يراه شهوداً ، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ، ولكن عمن

يشهده ، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً ، وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعاً من التكليف على هذا الوجه .

وقد وقع فى هذا طوائف من المنتسبين الى التحقيق والمعرفة والتوحيد .

وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه ، كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك . ثم المعتزلة اثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر الذي هو إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد ، وهؤلاء اثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي فى حق من شهد القدر ، إذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقاً . وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ؛ ولهذا لم يكن فى السلف من هؤلاء احد ، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ولهذا يجعلون من وصل الى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي ، وصار من الخاصة .

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة ، وقول هؤلاء كفر صريح . وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا انه كفر ؛ فانه قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان الأمر والنهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً

الى ان يموت ، لا يسقط عنه الامر والنهي لا بشهوده القدر . ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه . وبين له فان اصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي فانه يقتل .

وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين .

واما المستقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم .

وهذه المقالات هي محادة لله ورسوله ، ومعاداة له ، وصد عن سبيله ، ومشاقة له ؛ وتكذيب لرسله ؛ ومضادة له في حكمه ، وان كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد ان هذا الذي هو عليه هو طريق الرسول ؛ وطريق اولياء الله المحققين ؛ فهو فى ذلك بمنزلة من يعتقد ان الصلاة لا تجب عليه لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية ، او ان الخمر حلال له لكونه من الخواص الذين لا يضرهم شرب الخمر ؛ او ان الفاحشة حلال له ؛ لأنه صار كالبحر لا تكدره الذنوب ؛ ونحو ذلك .

ولا ريب ان المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله ؛ وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة امر الله : فهؤلاء الأصناف

فيهم شبه من المشركين ، اما ان يبتدعوا ، واما ان يحتجوا بالقـدر ، واما ان يجمعوا بين الأمرين . كما قال تعالى عن المشركين : (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله امرنا بها . قل : ان الله لا يأمر بالفحشـاء ؛ اتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ !) وكما قال تعـالى عنهم : (وقال الذين اشركوا لو شـاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا مـن شيء) .

وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيـه تحليل الحرام ، والعبادة التي لم يشرعها الله بمثل قوله تعالى : (وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم ، وانعام حرمت ظهورها ، وانعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه) إلى آخر السورة . وكذلك في سورة الاعراف فى قوله : (يا بني آدم ! لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنـة) الى قوله (واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله امرنا بها ، قل : ان الله لا يأمر بالفحشاء) الى قوله : (قل امر ربى بالقسط ، واقيموا وجوهكم عند كل مسجد) الى قوله : (وكلـوا واشربوا ، ولا تسرفوا انـه لايحب المسرفين ، قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الى قوله : (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منهـا ومـا بطن ، والاثم ، والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل بـه سلطاناً ، وان تقولوا على الله مالا تعلمون) .

وهؤلاء قد يسمون ما احدثوه من البـدع « حقيقة » ، كما يسمون مـا يشهدون من القدر « حقيقة » . وطريق الحقيقة عنـدهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بامر الشارع ونهيه ، ولكن بما يراه وبذوقه ويجده ونحو ذلك . وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقاً ؛ بل عمدتهم اتباع آرائهم واهوائهم وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة ، وامرهم باتباعها دون اتباع امر الله ورسوله ؛ نظـير بدع اهل الـكلام من الجهمية وغيرهم ، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفـة للكتاب والسنـة حقائق عقليـة يجب اعتقادهـا ، دون مادلت عليه السمعيات . ثم الكتاب والسنة إمـا أن يحرفوه عن مواضعه ، واما ان يعرضوا عنه بالـكلية ، فلا يتدبرونه ولا يعقلونه ، بـل يقولون : نفوض معناه الى الله ، مع اعتقادهم نقيض مدلوله . وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للـكتاب والسنة وجدت جهليات واعتقادات فاسدة .

وكذلك أولئك إذا حقق عليهم مايزعمونه من حقائق اولياء الله المخالفـة للكتاب والسنة وجدت من الأهواء التي يتبعها اعداء الله لا اولياؤه .

واصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله ، واختياره الهوى على اتباع امر الله ، فان الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب مايحبه العبد ، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته . فأهل الايمان لهم من الذوق والوجد مثل مابينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب اليه ممـا

سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره ان يرجع في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » . وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبياً » .

واما اهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه ، قيل لسفيان بن عيينة : ما بال اهل الاهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم ؟! فقال انسيت قوله تعالى : (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) او نحو هذا من الكلام؟ ! فعباد الاصنام يحبون آلهتهم ، كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله)وقال : (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ، ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ولهذا يميل هؤلاء الى سماع الشعر والاصوات التي تهيج المحبة المطلقة التي لا تختص بأهل الايمان ، بل يشترك فيها محب الرحمن ، ومحب الاوثان ، ومحب الصلبان ومحب الاوطان ، ومحب الاخوان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان . وهؤلاء الذين يتبعون اذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الامة .

فالمخالف لما بعث به رسوله من عبادته وطاعته وطاعة رسوله لا يكون متبعا لدين شرعه الله ، كما قال تعالى :(ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ،

ولا تتبع اهواء الذين لايعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً) الى قوله .
(والله ولي المتقين) ، بل يكون متبعا لهواه بغير هدى من الله قال تعالى : (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وهم فى ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على ما شرعه الله ، وتارة يحتجون بالقدر الكونى على الشريعة ، كما اخبر الله به عن المشركين كما تقدم .

ومن هؤلاء طائفة هم اعلاهم قدراً وهم مستمسكون بالدين فى اداء الفرائض المشهورة ، واجتناب المحرمات المشهورة ، لكن يغلطون فى ترك ما امروا به من الاسباب التى هي عبادة ، ظانين ان العارف إذا شهد « القدر » اعرض عن ذلك ، مثل من يجعل التوكل منهم او الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة ، بناء على ان من شهد القدر علم ان ماقدر سيكون ، فلا حاجة الى ذلك ، وهذا غلط عظيم . فان الله قدر الاشياء باسبابها كما قدر السعادة والشقاوة باسبابها . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق للجنة أهلا خلقها لهم وهم فى اصلاب آبائهم ، وبعمل أهل الجنة يعملون» وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم بان الله كتب المقادير فقالوا : يارسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : « لا . اعلموا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » .

فما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) وفي قوله : (قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) وقول شعيب عليه السلام (عليه توكلت واليه انيب)

ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الاعمال دون الواجبات ، فتنقص بقدر ذلك .

ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة ؛ او استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ، ونحو ذلك . فيشتغل احدهم عما امر به من العبادة والشكر ونحو ذلك .

فهذه الأمور ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجه ؛ وانما ينجو العبد منها بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت . كما قال الزهري : كان من مضى من سلفنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة . وذلك أن السنة ـ كما قال مالك رحمه الله ـ مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الاسماء مقصودها واحد، ولها اصلان :

« أحدهما » ألا يعبد إلا الله .

و « الثاني » أن يعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع . قال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى : (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخذ الله ابراهيم خليلا) فالعمل الصالح هو الاحسان وهو فعل الحسنات . و « الحسنات » هي ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به امر إيجاب او استحباب ، فما كان من البدع في الدين التى ليست مشروعة فان الله لايحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح ، كما ان من يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح.

وأما قوله : (ولا يشرك بعبادة ربه احداً) وقوله : (اسلم وجهه لله) فهو اخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله : (ليبلوكم أيكم احسن عملا) قال : اخلصه واصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما اخلصه واصوبه ؟ قال :

ان العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكـن خالصـاً لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص ان يـكون لله ، والصواب ان يكون على السنة .

فان قيل فاذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً فى اسم العبادة فلمـاذا عطف عليها غيرهـا ، كقوله : (إياك نعبـد وإياك نستعين) وقوله : (فاعبده وتوكل عليه) وقول نوح : (اعبدوا الله واتقوه واطيعون) وكذلك قول غيره من الرسل ، قيل هذا له نظائر كما فى قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) والفحشاء من المنكر وكذلك قوله : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وإيتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان ، كما ان الفحشـاء والبغي من المنكر . وكذلك قوله : (والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة) وإقامة الصلاة من اعظم التمسك بالكتـاب . وكـذلك قوله : (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) ودعاؤهم رغبا ورهبا من الخيرات ، وامثال ذلك فى القرآن كثير .

وهـذا الباب يكون تارة مع كون احدهما بعض الآخر ، فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر لكـونه مطلوبا بالمعنى العام ، والمعنى الخـاص ، وتارة تـكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران ، فاذا افرد عم ، واذا قرن بغيره خص ، كاسم « الفقير » و « المسـكين » لما

افرد احدهما في مثل قوله : (للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله) وقوله : (او اطعام عشرة مساكين) دخل فيه الآخر ، ولما قرن بينهما فى قوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) صارا نوعين .

وقد قيل : ان الخاص المعطوف على العام لا يدخل فى العام حال الاقتران ؛ بل يكون من هذا الباب . والتحقيق ان هذا ليس لازما قال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وقال تعالى : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح ، وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم)

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة : تارة لكونه له خاصية ليست لسائر افراد العام ؛ كما في نوح وابراهيم وموسى وعيسى . وتارة لكون العام فيه اطلاق قد لا يفهم منه العموم ، كما فى قوله : (هدى للمتقين ؛ الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل إليك وما انزل من قبلك) فقوله : يؤمنون بالغيب ؛ يتناول الغيب الذي يجب الايمان به ؛ لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على ان من الغيب ما انزل اليك وما انزل من قبلك . وقد يكون المقصود انهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب ، وبالاخبار بالغيب وهو ما انزل اليك وما انزل من قبلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (اتل ما اوحى إليك من الكتاب واقم الصلاة) وقوله : (والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة) و « تلاوة الكتاب » هي اتباعه ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ، ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه . فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها ، لكن خصها بالذكر لمزيتها ، وكذلك قوله لموسى : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني واقم الصلاة لذكرى) واقامة الصلاة لذكره من اجل عبادته ، وكذلك قوله تعالى : (اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وقوله (اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) وقوله : (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فان هذه الأمور هي ايضاً من تمام تقوى الله ، وكذلك قوله : (فاعبده وتوكل عليه) فان التوكل والاستعانة هي من عبادة الله ؛ لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها ؛ فانها هي العون على سائر انواع العبادة اذ هو سبحانه لا يعبد الا بمعونته .

اذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق وأضلهم . قال تعالى : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ـ سبحانه ـ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)

الى قوله : (وهم من خشيته مشفقون) وقال تعـالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً اداً) الى قوله : (ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبداً ؛ لقد احصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) وقال تعالى في المسيح : (ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) وقال تعالى : (وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون). وقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عـن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا الى قوله (ولا يجـدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وقال تعالى : (وقال ربـكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكـبرون عن عبـادتي سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعـالى : (ومن آياته الليل والنهـار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم إياه تعبدون ، فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) وقال تعـالى : (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة) إلى قوله : (ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) .

وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد فى القرآن ، وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك.

فقال تعالى : (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) وقال : (ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى لبنى اسرائيل : (ياعبادي الذين آمنوا ! ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون) (واياي فاتقون) وقال (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) وقال : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقال تعالى : (قل اني امرت ان اعبد الله مخلصاً له الدين ، وامرت لأن اكون اول المسلمين ، قل : انى اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله اعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه) .

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام : (اعبدوا الله مالكم من اله غيره) وفى المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف امري » .

وقد بين ان عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان : (فبما اغويتنى لازينن لهم فى الأرض ولاغوينهم اجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى : (ان عبادي ليس عليهم سلطان الا

من اتبعك من الغاوين) وقال : (فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وقال فى حق يوسف : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) وقال : (سبحان الله عما يصفون ، الا عباد الله المخلصين) وقال : (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم بـه مشركون) وبها نعت كل من اصطفى من خلقـه كقوله : (واذكر عـبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الايدي والأبصار انا اخلصنـاهم بخـالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيـار) وقوله : (واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب) وقال عن سليمان : (نعم العبد إنه اواب) وعن أيوب : (نعم العبد) وقال : (واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه) وقال نوح عليه السلام : (ذرية من حملنـا مع نوح انه كان عبداً شكوراً) وقال : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) وقال : (وأنه لما قام عبد الله يـدعوه) وقال : (وان كنتم فى ريب مما نزلنـا على عبدنا) وقال (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقال : (عيناً يشرب بها عباد الله) وقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) ومثل هـذا كثير متعدد فى القرآن .

فصـــــل

اذا تبين ذلك : فمعلوم ان هذا الباب يتفاضلون فيه تفاضلا عظيما ، وهو تفاضلهم في حقيقة الايمان ، وهم ينقسمون فيه : الى عام ، وخاص ، ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص . ولهــذا كان الشرك فى هذه الامة أخفى من دبيب النمل . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ، ان اعطى رضي وان منع سخط » .

فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الدرهم ، وعبــد الدينار ، وعبــد القطيفة ، وعبد الخميصة . وذكر ما فيه دعاء وخبر ، وهو قوله : « تعس وانتكس ، واذا شيك فلا انتقش » والنقش اخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة ، وهذه حال من اذا اصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بانه « اذا أعطى رضى ، وإذا منع سخط » كما قال تعالى : (ومنهم مــن يلمزك فى الصدقات فان

اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة او بصورة ونحو ذلك من اهواء نفسه ان حصل له رضي ، وان لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رقيق له ، اذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده . ولهذا يقال :

العبد حر ماقنع   والحر عبد ما طمع

وقال القائل

اطعت مطامعي فاستعبدتني   ولو انى قنعت لكنت حراً

ويقال : الطمع غل فى العنق قيد فى الرجل ، فاذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل . ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : الطمع فقر ، واليأس غنى ، وان أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه . وهذا امر يجده الانسان من نفسه ؛ فان الامر الذى ييأس منه لايطلبه ولا يطمع به ، ولا يبقى قلبه فقيراً اليه ، ولا الى من يفعله . واما إذا طمع فى امر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به ، فصار فقيراً الى حصوله ؛ والى من يظن انه سبب فى حصوله ، وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك . قال الخليل صلى الله عليه وسلم : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) .

فالعبد لابـد له من رزق ، وهو محتاج الى ذلك ، فاذا طلب رزقـه من الله صار عبداً لله ، فقيراً اليه ، وان طلبه من مخلوق صار عبـداً لذلك المخلوق فقيراً اليه .

ولهذا كانت « مسألة المخلوق » محرمة فى الاصل ، وانما أبيحت للضرورة وفى النهي عنها احاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد . كقوله صلى الله عليه وسلم« لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامـة وليس فى وجهـه مزعة لحم » وقوله : « من سأل الناس وله مايغنيه جاءت مسألتـه يـوم القيامة خدوشاً او خموشاً او كدوحا فى وجهه » وقوله : « لاتحل المسألة الا لذى غرم مفظع ، او دمع موجع ، او فقر مدقع » هذا المعنى فى الصحيح . وفيه ايضاً « لأن يأخذ احدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه » وقال : « ما أتاك من هـذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ، ومالا فـلا تتبعه نفسك » فكره أخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب ، وقال في الحديث الصحيح : « من يستغن يغنه الله ؛ ومن يستعفف يعفـه الله ؛ ومن يتصبر يصـبره الله ؛ وما اعطى احد عطاء خـيراً واوسع من الصبر » واوصى خواص صحابه ان لا يسألوا الناس شيئاً وفى المسند « ان ابا بكر كان يسقط السوط ن يده فلا يقول لأحد ناولـني إياه ؛ ويقول : ان خليـلي امرني ان لا سأل الناس شيئاً » وفى صحيح مسلم وغـيره عن عوف بن مالك « ان

النبي صلى الله عليه وسلم بايعه في طائفة واسر اليهم كلمة خفية : ان لا تسألوا الناس شيئاً ، فكان بعض اولئك النفر يسقط السوط من يد احدهم ؛ ولا يقول لاحد ناولني اياه » .

وقد دلت النصوص على الامر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق ؛ في غير موضع . كقوله تعالى : (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ؛ واذا استعنت فاستعن بالله » ومنه قول الخليل : (فابتغوا عند الله الرزق) ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله ؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ؛ كانه قال لاتبتغوا الرزق الا عند الله . وقد قال تعالى : (واسألوا الله من فضله) والانسان لابد له من حصول ما يحتاج اليه من الرزق ونحوه ؛ ودفع ما يضره ؛ وكلا الامرين شرع له ان يكون دعاؤه لله ؛ فله ان يسأل الله واليه يشتكي ؛ كما قال يعقوب عليه السلام : (انما اشكو بثي وحزني الى الله) .

والله تعالى ذكر في القرآن « الهجر الجميل » و « الصفح الجميل » و « الصبر الجميل » .

وقد قيل : ان « الهجر الجميل » هو هجر بلا اذى . والصفح الجميل صفح بلا معاتبة . والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق ؛ ولهذا قرىء على احمد بن حنبل في مرضه ان طاوساً كان يكره انين

المريض ويقول : انه شكوى فما أن احمد حتى مات .

واما الشكوى إلى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل ؛ فان يعقوب قال : (فصبر جميل) وقال : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ فى الفجر بسورة (يونس) و (يوسف) و (النحل) فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ، ومن دعاء موسى : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بك » . وفى الدعاء الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لما فعل به اهل الطائف ما فعلوا : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ؛ وقلة حيلتي ؛ وهواني على الناس ؛ انت رب المستضعفين وانت ربي . اللهم الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ، ام الى عدو ملكته امري ؛ ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي ؛ غير ان عافيتك اوسع لي ؛ اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات ؛ وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، ان ينزل بي سخطك ؛ او يحل علي غضبك ؛ لك العتبى حتى ترضى ؛ فلا حول ولا قوة الا بك ـ وفى بعض الروايات ـ ولا حول ولا قوة الا بك » .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه ؛ فكما ان طمعه فى

المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه . كما قيل :
استغن عمن شئت تكن نظيره ، وافضل على من شئت تكن اميره ؛
واحتج الى من شئت تكن اسيره . فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه
له يوجب عبوديته له ؛ واعراض قلبه عن الطلب من غير الله
والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله ؛ لاسيما من
كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ؛ بحيث يكون قلبه معتمداً اما
على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه ؛ واما على اهله واصدقائه ؛
واما على امواله وذخائره ؛ واما على ساداته وكبرائه ؛ كمالكه وملكه ؛
وشيخه ومخدومه وغيرهم ؛ ممن هو قد مات أو يموت . قال تعالى :
(وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب
عباده خبيراً) .

وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه أو يرزقوه او ان يهدوه
خضع قلبه لهم ؛ وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ؛ وان كان
فى الظاهر اميراً لهم مدبراً لهم متصرفاً بهم ؛ فالعاقل ينظر الى الحقائق
لا الى الظواهر ؛ فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى
قلبه اسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد ؛ وهو فى الظاهر سيدها
لأنه زوجها . وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره
اليها ؛ وعشقه لها ؛ وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ؛ فانها حينئذ تحكم فيه
بحكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور ؛ الذي لايستطيع الخلاص

منه ، بل اعظم ، فان اسر القلب اعظـم من اسر البـدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فان من استعبد بدنه واسترق لايبالي إذا كان قلبـه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بـل يمكنه الاحتيال فى الخلاص . واما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبـداً متيـما لغـير الله فهـذا هـو الذل والاسـر المحض ، والعبوديـة لمـا استعبد القلب .

وعبودية القلب واسره هي الـتى يترتب عليهـا الثواب والعقاب ؛ فان المسلم لو اسره كافر ؛ او استرقـه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ، ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم بـه وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك ، واما من استعبد قلبه فصار عبـداً لغير الله فهذا يضره ذلك ، ولو كان فى الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ؛ كما ان الغنى غـنى النفس قال النبي صلى الله عليه وسـلم :« ليس الغنى عن كـثرة العرض ، وانما الغنى غنى النفس » وهذا لعمري اذا كان قد استعبد قلبـه صورة مباحة ، فاما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة او صبي ، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه . وهؤلاء من اعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا ، فان العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من

أنواع الشر والفساد مالا يحصيه الا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضرراً عليه ، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه ، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين . كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة
ومتى افاقة من به سكران

وقيل :

قالو : جننت بمن تهوى ، فقلت لهم
العشق اعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وانما يصرع المجنون فى الحين

ومن أعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله ، فان القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط احلى من ذلك ، ولا ألذ ولا أطيب ، والانسان لا يترك محبوبا الا بمحبوب آخر يكون احب اليه منه أو خوفا من مكروه ، فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح ؛ او بالخوف من الضرر .

قال تعالى في حق يوسف : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين) . فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل الى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء باخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل ان يذوق حلاوة العبودية لله والاخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها ، فاذا ذاق طعم الاخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج . قال تعالى : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر) ، فان الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب اكبر من دفع المكروه ، فان ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها . واما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع .

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه . فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك ، فانه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ، ولهذا قال تعالى : (قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها) وقال تعالى : (قد افلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) وقال : (قل : للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك ازكى لهم) وقال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد ابداً) فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو ازكى

للنفس ، وبين ان ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك .

وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ، ويعينوه ، فهو فى الظاهر رئيس مطاع ، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم ، والتحقيق ان كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله ، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة او قطع الطريق ، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر .

وهكذا أيضاً طالب المال فان ذلك يستعبده ويسترقه ، وهذه الأمور نوعان :

(منها) ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك . فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير ان يستعبده ، فيكون هلوعا

إذا مسه الشر جزوعا ؛ وإذا مسه الخير منوعاً .

و (منها) مالا يحتاج العبد إليه ، فهذه لا ينبغي له ان يعلق قلبه بها ؛ فاذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ؛ وربما صار معتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ؛ تعس عبد القطيفة ؛ تعس عبد الخميصة » وهذا هو عبد هذه الأمور ، فلو طلبها من الله فان الله اذا أعطاه اياها رضي ؛ واذا منعه اياها سخط ، وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ؛ ويسخطه ما يسخط الله ؛ ويحب ما احبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ؛ ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله تعالى وهذا هو الذي استكمل الايمان . كما فى الحديث « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » وقال : « اوثق عرى الايمان الحب فى الله ؛ والبغض فى الله » .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » فهذا وافق ربه فيما يحبه وما

يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، واحب المخلوق لله لا لغرض آخر . فكان هذا من تمام حبه لله ، فان محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب ؛ فاذا احب انبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم لله لا لغيره . وقد قال تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه : اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين) .

ولهذا قال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به ؛ فمن كان محباً لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبر ويطيعه فيما امر ويتأسى به فيما فعل ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله ؛ فيحبه الله ؛ فجعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ؛ والجهاد فى سبيله .

وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الايمان والعمل الصالح ؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان . وقد قال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم — الى قوله : — حتى يأتي الله بأمره) فتوعد من كان اهله وماله احب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد . بل قد ثبت عنه فى الصحيح انه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن

احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » . وفى الصحيح ان عمر بن الخطاب « قال له : يا رسول الله ! والله لأنت احب الي من كل شيء الا من نفسي ؛ فقال : لا يا عمر ! حتى اكون احب اليك من نفسك ؛ فقال : فوالله ! لأنت احب الي من نفسي فقال الآن يا عمر » .

فحقيقة المحبة لا تتم الا بموالاة المحبوب ، وهو موافقته فى حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الايمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم ان الحب يحرك ارادة القلب فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات ، فاذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة فى حصول المحبوبات . فاذا كان العبد قادراً عليها حصلها . وان كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا ؛ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيئاً » . وقال « ان بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً الا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة . قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » .

و « الجهاد » هو بذل الوسع وهو القدرة فى حصول محبوب الحق

ودفع ما يكرهه الحق ، فاذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه . ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات . سواء كانت محبة صالحة او فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم فى الدنيا مع مايصيبهم من الضرر فى الدنيا والآخرة ، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون فى حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه اولئك هو الطريق الذي يشير به العقل .

ومن المعلوم أن المؤمن اشد حباً لله . كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) . نعم ! قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل بها المطلوب ، فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبةصالحة محمودة ، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل ! كما يفعله المتهورون فى طلب المال والرئاسة والصور في حب أمور توجب لهم ضرراً ولا تحصل لهم مطلوباً ، وانما المقصود الطرق التى يسلكها العقل لحصول مطلوبه .

وإذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه ، والقلب فقير بالذات

الى الله من «وجهين» : من جهة العبادة · وهي العلة الغائية . ومن جهة الاستعانة والتوكل · وهي العلة الفاعلية ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه . وحبه والانابة إليه · ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي الى ربه ، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه · وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة .

وهذا لا يحصل له الا باعانة الله له لا يقدر على تحصيل ذلك له الا الله · فهو دائماً مفتقر الى حقيقة (اياك نعبد واياك نستعين) فانه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه انما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته الا الله ، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة « لا اله الا الله » · ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك .

ولو سعى فى هذا المطلوب ولم يكن مستعيناً بالله متوكلا عليه مفتقراً اليه فى حصوله لم يحصل له · فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو مفتقر الى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ، ومن

حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه. فهو الهه لا اله له غيره ، وهو ربه لا رب له سواه .

ولا تتم عبوديته لله الا بهذين ، فمتى كان يحب غـير الله لذاته او يلتفت الى غير الله أنه يعينه كان عبداً لما احبه وعبداً لمـا رجاه بحسب حبه له ورجائه اياه . واذا لم يحب لذاته الا الله ، وكلما أحب سواه فانما أحبه له ، ولم يرج قط شيئاً الا الله واذا فعل ما فعل من الأسباب أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها. وأن كل ما فى السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر اليه كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك .

والناس فى هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها الا الله .

فأ كمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم الى الله وأقوامهم وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الاسلام الذي أرسل به رسله ، وانزل به كتبه وهو ان يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان الجنة لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من كـبر كما ان

النار لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » فجعل الكبر مقابلا للايمان ، فان الكبر ينافى حقيقة العبودية ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله العظمة ازارى والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته » فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية ، والكبرياء اعلى من العظمة ؛ ولهذا جعلها بمنزلة الرداء ، كما جعل العظمه بمنزلة الازار .

ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير ، وكان مستحباً فى الأمكنة العالية كالصفا والمروة ، واذا علا الانسان شرفاً او ركب دابة ونحو ذلك ، وبه يطفأ الحريق وانْ عظم ، وعند الأذان يهرب الشيطان . قال تعالى : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد ان يعبد غيره ، فان الانسان حساس يتحرك بالارادة . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اصدق الاسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب الفاعل ، والهمام فعال من الهم ، والهم اول الارادة ، فالانسان له ارادة دائماً ، وكل ارادة فلا بد لها من مراد تنتهي اليه ، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وارادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وارادته بل استكبر عن ذلك فلا بد ان يكون له مراد محبوب

يستعبده غير الله ، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب : اما المال واما الجاه واما الصور واما ما يتخذه الهاً من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين ، او من الملائكة والانبياء الذين يتخذهم أرباباً ، او غير ذلك مما عبد من دون الله .

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركا . وكل مستكبر فهو مشرك ولهذا كان فرعون مسن أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله ، وكان مشركا . قال تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا : ساحر كذاب) الى قوله : (وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب — الى قوله : — كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى : (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض ، وما كانوا سابقين) وقال تعالى : (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا : يستضعف طائفة منهم : يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم) إلى قوله : (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) .

ومثل هذا فى القرآن كثير .

وقد وصف فرعون بالشرك فى قوله : (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك).

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله ؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود : مقصود القلب بالقصد الأول ، فيكون مشركا بما استعبده من ذلك .

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولا يوالي الا من والاه الله ، ولا يعادي الا من عاداه الله ، ولا يحب إلا الله ، ولا يبغض شيئاً الا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله . فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات ، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك .

والشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود . قال تعالى فى النصارى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً ، لا إله الا هو ، سبحانه عما يشركون) وقال فى اليهود : (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) . وقال تعالى : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا

كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً) .

ولما كان الكبر مستلزماً للشرك ، والشرك ضد الاسلام ، وهو الذنب الذي لا يغفره الله — قال تعالى : (إن الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) وقال : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً) — كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام . فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، لا من الأولين ولا من الآخرين . قال نوح : (فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله ، وأمرت ان اكون من المسلمين)وقال في حق ابراهيم : (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال اسلمت لرب العالمين) الى قوله : (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) وقال يوسف : (توفني مسلماً والحقني بالصالحين) وقال موسى : (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ، فقالوا : على الله توكلنا) وقال تعالى : (انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا) وقالت بلقيس (رب ! انى ظلمت نفسي ، واسلمت مع سليمان لله رب العالمين)وقال :

(وإذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولي ، قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون) وقال : (ان الدين عند الله الاسلام) وقال : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) .

وقال تعالى : (افغير دين الله يبغون ، وله اسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً) فذكر اسلام الكائنات طوعا وكرهاً ، لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام ، سواء اقر المقر بذلك اوانكره ، وهم مدينون مدبرون ؛ فهم مسلمون له طوعا وكرهاً ، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه ، ولا حول ولا قوة الا به ، وهو رب العالمين ، ومليكهم يصرفهم كيف يشاء ، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم ، وكل ما سواه فهو مربوب ، مصنوع ، مفطور ، فقير ، محتاج ، معبد ، مقهور ، وهو الواحد القهار الخالق البارىء المصور .

وهو وان كان قد خلق ما خلقه بأسباب ، فهو خالق السبب والمقدر له ، وهو مفتقر اليه كافتقار هذا ، وليس فى المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر بل كل ما هو سبب فهو محتاج الى سبب آخر يعاونه والى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه .

وهو سبحانه وحده الغنى عن كل ما سواه ، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه . قال تعالى : (قل أرأيتم ماتدعون من دون

الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو ارادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال تعالى : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) وقال تعالى عن الخليل : (يا قوم إنى بريء مما تشركون ، إنى وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما انا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجوني فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربى شيئاً) إلى قوله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون)

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه « ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله ! أينا لم يلبس إيمانه بظلم ، فقال : إنما هو الشرك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (ان الشرك لظلم عظيم) »

وابراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين ، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين ، قال الله تعالى : (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدى الظالمين) فبين ان عهده بالأمامة لا يتناول الظالم ، فلم يأمر الله سبحانه ان يكون الظالم اماماً ، واعظم الظلم الشرك .

وقال تعالى : (ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) و « الامة » هو معلم الخير الذي يؤتم به ، كما ان « القدوة » الذي يقتدى به .

والله تعالى جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وإنما بعث الأنبياء بعده بملته قال تعالى : (ثم اوحينا إليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين) وقال تعالى : (ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين) وقال تعالى : (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين) وقال تعالى : (وقالوا : كونوا هودا او نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله ، وما انزل الينا ، وما انزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ـ إلى قوله ـ ونحن له مسلمون)

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان ابراهيم خير البرية» فهو افضل الأنبياء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو خليل الله تعالى . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه قال : « ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » وقال : « لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » ـ يعنى نفسه ـ وقال : « لا يبقين

فى المسجد خوخة الا سدت إلا خوخة أبى بكر » وقال : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فانى انهاكم عن ذلك » وكل هذا فى الصحيح . وفيه انه قال : ذلك قبل موته بايام ، وذلك من تمام رسالته .

فان في ذلك تحقيق تمام مخالته لله التى اصلها محبة الله تعالى للعبد ، ومحبة العبد لله خلافا للجهمية .

وفي ذلك تحقيق توحيد الله وان لا يعبدوا الا اياه ، ورد على اشباه المشركين .

وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه ، وهم اعظم المنتسبين الى القبلة إشراكا بالبشر .

و « الخلة » هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فانهم يقولون : قلب متيم اذا كان متعبداً للمحبوب ، والمتيم المتعبد ، وتيم الله عبده . وهذا على الكمال حصل لابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ؛ ولهذا لم يكن له ن اهل الأرض خليل ؛ اذ الخلة لاتحتمل الشركة فانه كما قيل فى المعنى .

قد تخللت مسلك الروح مني   وبـذا سمي الخليل خليلا

بخلاف اصل الحب فانه صلى الله عليه وسلم قد قال في الحديث الصحيح في الحسن واسامة : « اللهم انى احبها فأحبهما واحب من يحبهما » وسأله عمرو بن العاص « اي الناس احب اليك ؟ قال : عائشة قال فمن الرجال ؟ قال أبوها » وقال لعلي رضي الله عنه : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » وامثال ذلك كثير .

وقد اخبر تعالى انه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وقال : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) فقد اخبر بمحبته لعباده المؤمنين ، ومحبة المؤمنين له ، حتى قال : (والذين آمنوا اشد حبا لله)

واما الخلة فخاصة . وقول بعض الناس : ان محمداً حبيب الله ، وابراهيم خليل الله ، وظنه ان المحبة فوق الخلة قول ضعيف ، فان محمداً ايضاً خليل الله كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة المستفيضة . وما يروى «ان العباس يحشر بين حبيب وخليل» وامثال ذلك ، فاحاديث موضوعة لا تصلح ان يعتمد عليها .

وقد قدمنا ان من محبة الله تعالى محبة ما احب ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ؛ لان وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له ، فمن احب شيئاً او اشتهاه إذا حصل له مراده فانه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة امر يحصل عقيب ادراك الملائم الذي هو المحبوب او المشتهى .

ومن قال ان اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء ، فقد غلط فى ذلك غلطاً بيناً ؛ فان الادراك يتوسط بين المحبة واللذة ، فان الانسان مثلا يشتهى الطعام فاذا اكله حصل له عقيب ذلك اللذة ، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء ، فاذا نظر إليه التذ ، فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر ، وليست هي رؤية الشيء ؛ بل تحصل عقيب رؤيته ، وقال تعالى : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين) وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات ، والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب ، او الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن . فحلاوة الايمان المتضمنة من اللذة به

والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الايمان تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور .

تكميل هذه المحبة ، وتفريعها ، ودفع ضدها .

« فتكميلها » أن يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما ؛ فان محبة الله ورسوله لا يكتفى فيهما باصل الحب ، بل لا بد ان يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما كما تقدم .

و « تفريعها » أن يحب المرء لا يحبه الا لله .

و « دفع ضدها » ان يكره ضد الايمان اعظم من كراهته الالقاء فى النار ، فاذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب المؤمنين الذين يحبهم الله ؛ لأنه اكمل الناس محبة لله ، واحقهم بأن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، و « الخلة » ليس لغير الله فيها نصيب ، بل قال : « لو كنت متخذاً من اهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق المحبة .

و (المقصود) هو ان « الخلة » و « المحبة لله » تحقيق عبوديته ؛ وانما يغلط من يغلط فى هذه من حيث يتوهمون ان العبودية مجرد ذل

وخضوع فقط ، لا محبة معه ، او ان المحبة فيها انبساط فى الأهواء او إدلال لا تحتمله الربوبية ، ولهذا يذكر عن « ذي النون » انهم تكلموا عنده فى مسألة المحبة . فقال : امسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها . وكره من كره من اهل المعرفة والعلم مجالسة اقوام يكثرون الكلام فى المحبة بلا خشية ؛ وقال من قال من السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . ولهذا وجد في المستأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى اخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة ، والدعوى التى تنافى العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التى لا تصلح إلا لله ؛ ويدعى احدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين ، او يطلبون من الله مالا يصلح ـ بكل وجه ـ الا لله لا يصلح للأنبياء والمرسلين .

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ .

وسببه ضعف تحقيق العبودية التى بينتها الرسل وحررها الامر والنهي الذي جاؤا به ، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته ، وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفى النفس محبة انبسطت النفس بحمقها فى ذلك ، كما ينبسط الانسان فى محبة الانسان مع حمقه وجهله ، ويقول : أنا محب فلا أؤاخذ بما افعله من انواع يكون فيها عدوان وجهل . فهذا

عين الضلال ، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى : (نحن ابناء الله واحباؤه) قال الله تعالى : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟! بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فان تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي انهم غير محبوبين ولا منسوبين اليه بنسبة البنوة ، بل يقتضى انهم مربوبون مخلوقون .

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه ، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر واصر عليها ولم يتب منها فان الله يبغض منه ذلك ؛ كما يحب منه ما يفعله من الخير ؛ إذ حبه للعبد بحسب ايمانه وتقواه ، ومن ظن ان الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع اصراره عليها كان بمنزلة من زعم ان تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه .

ولو تدبر الاحمق ما قص الله فى كتابه من قصص انبيائه ؛ وما جرى لهم من التوبة والاستغفار ؛ وما اصيبوا به من انواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب احوالهم ؛ علم بعض ضرر الذنوب باصحابها ولو كان أرفع الناس مقاما ؛ فان المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفاً بمصلحته ولا مريداً لها ؛ بل يعمل بمقتضى الحب ـ وان كان جهلا وظلماً ـ كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له ونفوره عنه ؛ بل لعقوبته .

وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعا من امور الجهل بالدين ؛ إما من تعدى حدود الله ؛ واما من تضييع حقوق الله واما من ادعاء الدعاوي الباطلة التى لاحقيقة لها ، كقول بعضهم : أي مريد لي ترك فى النار احداً فأنا منه بريء : فقال الآخر : اي مريد لي ترك احداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء . فالأول جعل مريده يخرج كل من في النار ؛ والثانى جعل مريده يمنع اهل الكبائر من دخول النار . ويقول بعضهم : اذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم حتى لايدخلها احد . وامثال ذلك من الاقوال التى تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين ؛ وهي اما كذب عليهم ، واما غلط منهم ؛ ومثل هذا قد يصدر فى حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تميز الانسان ؛ أو يضعف حتى لا يدري ماقال ، و «السكر» هو لذة مع عدم تميز . ولهذا كان بين هؤلاء من اذا صحا استغفر من ذلك الكلام .

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا اصل مقصدهم ؛ ولهذا انزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فلا يكون محباً لله الا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية .

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ، ويدعي من

الخيالات مالا يتسع هذا الموضع لذكره . حتى قـد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته ، بل قـد جعل محبـة الله ومحبـة رسوله الجهـاد فى سبيله . و « الجهاد » يتضمن كمال محبة ما امر الله بـه ، وكمال بغض ما نهى الله عنه ، ولهذا قال فى صفة من يحبهم ويحبونه : (أذلة عـلى المؤمنـين أعزة على الـكافرين يجاهدون فى سبيل الله) .

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها ، وعبوديتهم لله اكمل من عبودية من قبلهم . وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيـه اكمل ، فأين هذا من قوم يدعون المحبة ؟! .

و [فى] كلام بعض الشيوخ : المحبـة نار تحرق فى القلب ما سوى مراد المحبوب . وأرادوا ان الكون كله قـد اراد الله وجوده ، فظنوا ان كمال المحبة ان يحب العبد كل شيء ، حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ولا يمكن احداً ان يحب كل موجود بل يحب مايلائمـه وينفعه ويبغض ما ينافيه ويضره ، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع اهوائهم ، فهـم يحبون ما يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المال ، والبـدع المضلة ، زاعمين ان هذا من محبة الله ، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله ، وجهاد اهله بالنفس والمال .

واصل ضلالهم ان هذا القائل الذي قال : « ان المحبة نار تحرق ماسوى مراد المحبوب » قصد بمراد الله تعالى الارادة الدينية الشرعية التى هي بمعنى محبته ورضاه . فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله ، وهذا معنى صحيح . فان من تمام الحب ان لا يحب إلا ما يحبه الله ، فاذا احببت مالا يحب كانت المحبة ناقصة ، واما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه . فان لم اوافقه فى بغضه وكراهته وسخطه لم اكن محباً له ، بل محباً لما يبغضه . فاتباع الشريعة ، والقيام بالجهاد من اعظم الفروق بين اهل محبة الله واوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعي محبة الله ناظراً الى عموم ربوبيته ، او متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته ، فان دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله ، بل قد تكون دعوى هؤلاء شراً من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به فى الدرك الاسفل من النار ، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم اذا لم يصلوا الى مثل كفرهم ، وفى التوراة والانجيل من محبة الله ماهم متفقون عليه ، حتى ان ذلك عندهم اعظم وصايا الناموس .

ففي الانجيل ان المسيح قال : « اعظم وصايا المسيح ان تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك » ، والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة ، وان ماهم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك ، وهم برآء من محبة الله اذ لم

يتبعوا ما احبه ، بل اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم ، والله يبغض الكافرين ويمقتهم ، ويلعنهم . وهو سبحانه يحب من يحبه ؛ لايمكن ان يكون العبد محباً لله والله تعالى غير محب له : بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له ؛ وان كان جزاء الله لعبده اعظم . كما فى الحديث الصحيح الالهي عن الله تعالى انه قال : « من تقرب الي شبراً تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الي ذراعا تقربت اليه باعا ومن اتانى يمشي اتيته هرولة » .

وقد اخبر سبحانه انه يحب المتقين . والمحسنين والصابرين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، بل هو يحب من فعل ما امر به من واجب ومستحب ، كما فى الحديث الصحيح : « لايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » الحديث .

وكثير من المخطئين الذين اتبعوا اشياخا فى « الزهد والعبادة » وقعوا فى بعض ما وقع فيه النصارى : من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، وترك المجاهدة فى سبيله ونحو ذلك ، ويتمسكون فى الدين الذي يتقربون به الى الله بنحو ماتمسك به النصارى من الكلام المتشابه ، والحكايات التى لايعرف صدق قائلها ، ولو صدق لم يكن قائلها معصوما ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينا ، كما جعل النصارى قسيسيهم ورهبانهم شارعين

لهم ديناً ، ثم انهم ينتقصون العبودية ويدعون ان الخاصة يتعدونها كما يدعي النصارى فى المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة فى الله من جنس ماتثبته النصارى فى المسيح وامه . الى انواع اخر يطول شرحها فى هذا الموضع .

وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وتكمل محبة الرب لعبده ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ؛ وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك ، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة ، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل . فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورسوله ، وهو المشروع . فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله ، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله الا ما جمع الوصفين : ان يكون لله ، وان يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله ، وهو الواجب والمستحب . كما قال : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً)

فلا بد من العمل الصالح ، وهو الواجب والمستحب ، ولا بد ان يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، كما قال تعالى : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . وقال

النبي صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

وهذا الأصل هو اصل الدين ، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه ارسل الله الرسل ، وانزل الكتب ، واليه دعا الرسول ، وعليه جاهد ؛ وبه امر ، وفيه رغب ؛ وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه .

والشرك غالب على النفوس . وهو كما جاء فى الحديث . « وهو فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » وفى حديث آخر « قال ابو بكر : يارسول الله . كيف ننجو منه ، وهو اخفى من دبيب النمل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ألا اعلمك كلمة اذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل : اللهم إني اعوذ بك ان اشرك بك وانا اعلم ، واستغفرك لما لا اعلم » . وكان عمر يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق

محبتها لله وعبوديتها له . وإخلاص دينها له ، كما قال شداد بن اوس : يا بقايا العرب ان اخوف ما اخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . قيل لأبي داود السجستاني : وما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة ، وعن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذي حديث حسن صحيح .

فبين صلى الله عليه وسلم ان الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ؛ فان الدين السليم لايكون فيه هذا الحرص ، وذلك ان القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شيء احب اليه من ذلك حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف عن اهل الاخلاص لله السوء والفحشاء ، كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

فان المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب لا احلى ولا الذ ولا اطيب ولا ألين ولا انعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ، ومحبته له ، واخلاصه الدين له ، وذلك يقتضي انجذاب القلب الى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً ، كما قال تعالى : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) اذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول

مرغوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبه الا بين خوف ورجاء ؛ قال تعالى : (اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً)

وإذا كان العبد مخلصاً له اجتباه ربه فيحيي قلبه ، واجتذبه اليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء . ويخاف من حصول ضد ذلك ؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله ، فانه في طلب وإرادة وحب مطلق ، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه ، كالغصن اي نسيم مر بعطفه أماله . فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة : فيبقى اسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً . وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ، ويعادى من يذمه ولو بالحق . وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وامثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها فيتخذ الهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله .

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لاشريك له ، بحيث يكون الله احب اليه من كل ما سواه ، ويكون ذليلا له خاضعاً والا استعبدته الكائنات ، واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين اخوان الشياطين . وصار فيه من السوء والفحشاء مالا يعلمه الا الله ، وهذا امر ضروري لا حيلة فيه ؛ فالقلب ان لم يكن حنيفاً مقبلا على الله معرضاً عما

سواه وإلا كان مشركا . قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) الى قوله : (كل حزب بما لديهم فرحون)

وقد جعل الله سبحانه ابراهيم و آل ابراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين اهل محبة الله وعبادته واخلاص الدين له ؛ كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين اهواءهم . قال تعالى فى ابراهيم : (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) وقال فى فرعون وقومه : (وجعلناهم ائمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين)

ولهذا يصير اتباع فرعون اولاً الى ان لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه. وبين ما قدر الله وقضاه ؛ بل ينظرون الى المشيئة المطلقة الشاملة . ثم فى آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق . بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ، ويقول محققوهم الشريعة فيها طاعة ومعصية . والحقيقة فيها معصية بلا طاعة ؛ والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية ، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين انكروا الخالق وانكروا تكليمه لعبده موسى وما ارسله به من الأمر والنهي .

واما ابراهيم وآل ابراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية . وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له واعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره . وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه . والخليل يقول : (افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين) ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشائخ كما فعلت النصارى .

مثال ذلك اسم « الفناء » فان « الفناء ثلاثة انواع » : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ؛ ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين ؛ ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين .

(فاما الأول) فهو « الفناء عن ارادة ما سوى الله » بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا اياه ولا يتوكل الا عليه ، ولا يطلب غيره ؛ وهو المعنى الذي يجب ان يقصد بقول الشيخ ابي يزيد حيث قال : اريد ان لا اريد الا ما يريد . اي المراد المحبوب المرضي ؛ وهو المراد بالارادة الدينية وكمال العبد ان لا يريد ولا يحب ولا يرضى الا ما اراده الله ورضيه واحبه ، وهو ما امر به امر ايجاب او استحباب ؛ ولا يحب الا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين . وهذا معنى قولهم في قوله : (الا من أتى الله بقلب سليم) قالوا : هو السليم مما سوى الله ، او مما سوى عبادة الله . او مما سوى

ارادة الله . او مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد وهذا المعنى ان سمى فنـاء او لم يسم هو اول الاسلام و آخره . وباطن الدين وظاهره .

(واما النوع الثاني) فهو « الفناء عن شهود السوى » . وهـذا يحصل لكثير من السالكين ؛ فانهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن ان تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد؛ لا يخطر بقلوبهم غير الله ؛ بل ولا يشعرون ؛ كما قيل فى قوله : (واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) قالوا : فارغا من كل شيء الا من ذكر موسى . وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر مـن الأمور إمـا حب وإما خوف . واما رجاء يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء الا عما قـد احبه او خافه او طلبه ؛ بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لا يشعر بغيره .

فاذا قوى على صاحب الفناء هـذا فانه يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفتـه ، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممـن سواه ، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن ان يدركها او يشهدها . وإذا قوى هـذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن انه هو محبوبه ، كما يذكر : ان رجـلاً القى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه ، فقـال : أنا وقعت فما اوقعك خلفي قال : غبت بك عني ، فظننت انك اني .

و « هذا الموضع » زل فيه اقوام وظنوا انه اتحاد ، وان المحب يتحـد بالمحبوب حتى لا يـكون بينهما فرق فى نفس وجودهما ، وهـذا غلط ؛ فان الخالق لا يتحد به شيء اصلا ، بل لا يتحد شيء بشيء إلا اذا استحالا وفسدا وحصل من اتحادهما امر ثالث لا هو هذا ولا هذا ، كما اذا اتحد الماء واللبن ، والماء والخمر ، ونحو ذلك . ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان فى نوع الارادة والكراهة ، فيحب هذا ما يحب هذا .ويبغض هذا ما يبغض هذا ، ويرضى ما يرضى ويسخط ما يسخط ويكره ما يكره ، ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي وهذا الفناء كله فيه نقص .

وا كابر الأوليـاء كأبي بـكر وعمر والسابقين الأولين من المهـاجرين والأنصار : لم يقعوا فى هذا الفناء ، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة . وكذلك كل ما كان من هـذا النمط مما فيه غيبة العقل والتميز لما يرد على القلب من احوال الايمان ؛ فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا اكمل واقوى واثبت فى الأحوال الايمـانية من ان تغيب عقولهم . او يحصل لهم غشى او صعق او سكر او فنـاء او وله او جنون . وإنما كان مبادىء هذه الأمور فى التابعين من عبـاد البصرة ، فانه كان فيهم من يغشى عليه اذا سمـع القرآن . ومنهم من يموت : كأبي جهير الضرير . وزرارة بن اوفى قاضي البصرة .

وكذلك صار فى شيوخ الصوفيـة من يعرض له من الفنـاء والسكر ما

يضعف معه تمييزه ، حتى يقول فى تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف انه غالط فيه ، كما يحكى نحو ذلك عن مثل ابى يزيد ، وابى الحسن النورى ، وابي بكر الشبلي وامثالهم .

بخلاف ابى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض بل وبخلاف الجنيد وامثالهم ممن كانت عقولهم وتميزهم يصحبهم فى احوالهم فلا يقعون فى مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وارادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ماهي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من اخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له .

وهذه « الحقيقة » التى دعا اليها القرآن ، وقام بها اهل تحقيق الايمان ، والكمل من اهل العرفان . ونبينا صلى الله عليه وسلم امام هؤلاء واكملهم ؛ ولهذا لما عرج به الى السموات وعاين ما هنالك من الآيات واوحى اليه ما اوحى من انواع المناجاة اصبح فيهم وهو لم يتغير حاله ، ولا ظهر عليه ذلك ، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي — صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

(واما النوع الثالث) مما قد يسمى فناء : فهو ان يشهد أن لا موجود الا الله ، وان وجود الخالق هو وجود المخلوق ، فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء اهل الضلال والالحاد الواقعين فى الحلول والاتحاد .

والمشائخ المستقيمون اذا قال احدهم : ما أرى غير الله ، أولا انظر الى غير الله ، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما ارى ربا غيره ، ولا خالقاً غيره ولا مدبراً غيره ، ولا الها غيره ولا انظر الى غيره محبة له او خوفا منه او رجاء له ؛ فان العين تنظر الى ما يتعلق به القلب ، فمن احب شيئاً او رجاه او خافه التفت اليه ، وإذا لم يكن فى القلب محبة له ولا رجاء له ولا خوف منه ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب ان يلتفت اليه ولا ان ينظر اليه ولا ان يراه وان رآه اتفاقا رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطا ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به .

والمشائخ الصالحون ـــ رضي الله عنهم ـــ يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق اخلاص الدين كله بحيث لايكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه : لا حباً له ، ولا خوفا منه . ولا رجاء له بل يكون القلب فارغا من المخلوقات خالياً منها لاينظر اليها الا بنور الله . فبالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشي ، فيحب منها ما يحبه الله ، ويبغض منها ما يبغضه الله ، ويوالي منها ما والاه الله ، ويعادي منها ما عاداه

الله ، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله ، ويرجو الله فيهـا ولا يرجوها فى الله ، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الانبياء والمرسلين ، وبحقيقتهم وتوحيدهم .

(واما النوع الثالث) وهو الفناء في الموجود : فهو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة وامثالهم .

وهذا النوع الذي عليـــه اتبـاع الانبياء هو « الفناء المحمود » الذي يكون صاحبه به ممن اثنى الله عليهم من اوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين .

وليس مراد المشائخ والصالحـين بهذا القول ان الذي أراه بعيني من المخلوقات هو رب الارض والسموات ، فان هــذا لايقوله الا من هو في غاية الضلال والفساد ؟ إما فساد العقل ؛ وإما فساد الاعتقاد . فهو متردد بــين الجنون والالحاد .

وكل المشائخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليــه سلف الامة وأئمتهـا من ان الخالق سبحانـــه مباين للمخلوقات ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته ، وانــه يجب افراد القديم عن الحادث ؛ وتمييز الخالـق عن المخـلوق . وهــذا فى كلامهم

اكثر من ان يمكن ذكره هنا . وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات : وان بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الارض والسموات لعدم التميز والفرقان فى قلبه : بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن ان ذلك هو الشمس التى فى السماء .

وهم قد يتكلمون فى « الفرق ، والجمع » ويدخل فى ذلك من العبارات المفتة نظير ما دخل فى الفناء فان العبد اذا شهد التفرقة والكثرة فى المخلوقات يبقى قلبه متعلقاً بها ، متشتتاً ناظراً اليها متعلقا بها : إما محبة واما خوفا واما رجاء ؛ فاذا انتقل الى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته الى المخلوقين فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته بربه ، وهو فى هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق . فقد يكون مجتمعاً على الحق معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً وهو نظير النوع الثاني من الفناء .

ولكن بعد ذلك « الفرق الثاني » وهو : ان يشهد ان المخلوقات قائمة بالله مدبرة بامره ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى وانه سبحانه رب المصنوعات والهها وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله — اخلاصا له ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعاداة فيه وامثال ذلك — ناظراً الى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزاً

بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته ان الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وانه هو الله لا إله إلا هو وهـذا هو الشهود الصحيح المستقيم وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته : فى حال القلب وعبادته وقصده وارادته ومحبته وموالاته وطاعته .

وذلك تحقيق « شهادة ان لا إله الا الله » فانـه ينفي عن قلبه ألوهية مـا سوى الحق ويثبت فى قلبه ألوهية الحق فيكون نافياً لألوهية كل شـيء من المخلوقات مثبتاً لألوهية رب العالمـين رب الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه ، فيكون مفرقا : فى علمه وقصده فى شهادته وارادته في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالماً بالله تعالى ذاكراً له عارفاً به ، وهو مع ذلك عالم بمباينتـه لخلقه وانفراده عنهم وتوحده دونهم ، ويكون محباً لله معظما له عابداً له راجياً له خائفاً منه مواليا فيه معادياً فيه مستعيناً به متوكلا عليه، ممتنعاً عن عبادة غيره والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره وامثال ذلك مما هو من خصائص الهية الله سبحانه وتعالى .

واقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن اقراره بربوبيته ، وهو انه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذ يكون موحداً لله .

ويبين ذلك ان افضل الذكر « لا إله إلا الله » كما رواه الترمذي وابن ابي

الدنيا وغيرها مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الذكر لا اله الا الله ، وافضل الدعاء الحمد لله » وفى الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « افضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

ومن زعم ان هذا ذكر العامة ، وان ذكر الخاصة هو الاسم المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر ، فهم ضالون غالطون . واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) من أبين غلط هؤلاء ، فان الاسم هو مذكور فى الأمر بجواب الاستفهام . وهو قوله : (قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) الى قوله (قل : الله) ، أي الله الذي انزل الكتاب الذي جاء به موسى ، فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام ، كما فى نظائر ذلك تقول : من جاره فيقول زيد .

واما الاسم المفرد مظهراً او مضمراً فليس بكلام تام ، ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به ايمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي . ولم يذكر ذلك احد من سلف الامة ، ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة ولا حالاً نافعا ، وانما يعطيه تصوراً مطلقاً لا يحكم عليه بنفي ولا اثبات ، فان لم يقترن به من معرفة القلب وحاله مايفيد بنفسه .

والا لم يكن فيه فائدة . والشريعة انما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره .

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الالحاد وانواع من الاتحاد . كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ من انه قال : أخاف ان اموت بين النفي والاثبات . حال لا يقتدى فيها بصاحبها ، فان في ذلك من الغلط مالا خفاء به ؛ اذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت الا على ما قصده ونواه ، إذ الأعمال بالنيات ، وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت لا اله إلا الله ، وقال : « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » ولو كان ماذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمة يخاف ان يموت في اثنائها موتا غير محمود ، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد .

والذكر بالاسم المضمر المفرد أبعد عن السنة ، وادخل في البدعة واقرب الى اضلال الشيطان ، فان من قال : ياهو ياهو ، او : هو هو . ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا الى ما يصوره قلبه ، والقلب قد يهتدي وقد يضل ، وقد صنف صاحب « الفصوص » كتابا سماه « كتاب الهو » وزعم بعضهم ان قوله : (وما يعلم تأويله الا الله) معناه وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو « الهو » . وقيل هذا وان كان مما اتفق المسلمون بل

العقلاء على انه من ابين الباطل ، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء ، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئا من ذلك لو كان هذا كما قلته لكتبت (وما يعلم تأويل هو) منفصلة .

ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ انه يحتج على قول القائل : « الله » بقوله : (قل الله ثم ذرهم) ويظن ان الله امر نبيه بان يقول الاسم المفرد ، وهذا غلط باتفاق اهل العلم ، فان قوله : (قل الله) معناه الله الذي انزل الكتاب الذي جاء به موسى . وهو جواب لقوله : (قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل : الله) اي الله الذي انزل الكتاب الذي جاء به موسى . رد بذلك قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال : (من انزل الكتاب الذي جاء به موسى) ثم قال : (قل : الله) انزله (ثم ذر) هؤلاء المكذبين (فى خوضهم يلعبون) .

ومما يبين ما تقدم : ماذكره سيبويه وغيره من ائمة النحو ان العرب يحكون بالقول ما كان كلاما ، لا يحكون به ما كان قولاً ، فالقول لا يحكي به الا كلام تام ، او جملة اسمية او فعلية ، ولهذا يكسرون ان إذا جاءت بعد القول ، فالقول لا يحكى به اسم ، والله تعالى لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد ، ولا شرع للمسلمين اسماً مفرداً مجرداً ، والاسم المجرد لا يفيد الايمان

باتفاق اهل الاسلام ، ولا يؤمر به في شيء من العبادات ، ولا في شيء من المخاطبات .

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد مايذكر ان بعض الأعراب مر بمؤذن يقول : « أشهد ان محمداً رسول الله » بالنصب فقال : ماذا يقول هذا ؟ هذا الاسم فاين الخبر عنه الذي يتم به الكلام ؟ .

وما في القرآن من قوله : (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً) وقوله : (سبح اسم ربك الأعلى) وقوله : (قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) وقوله : (فسبح باسم ربك العظيم) ونحو ذلك لايقتضي ذكره مفرداً بل في السنن انه لما نزل قوله : (فسبح باسم ربك العظيم) قال «اجعلوها في ركوعكم ولما نزل قوله : (سبح اسم ربك الأعلى) قال اجعلوها في سجودكم » فشرع لهم ان يقولوا في الركوع سبحان ربي العظيم ، وفي السجود سبحان ربي الأعلى . وفي الصحيح « انه كان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده : سبحان ربي الأعلى» وهذا هو معنى قوله : « اجعلوها في ركوعكم » و « سجودكم » باتفاق المسلمين .

فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع — وهن من القرآن — سبحان

الله ، والحمد لله، ولا اله الا الله . والله اكبر » . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال فى يومه مائة مرة : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي . ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل قال مثل ما قال او زاد عليه . ومن قال فى يومه مائة مرة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » . وفى الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل ما قلته انا والنبيون من قبلي لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . وفى سنن ابن ماجه وغيره عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الذكر لا اله الا الله ، وافضل الدعاء الحمد لله » .

ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى انواع ما يقال من الذكر والدعاء .

وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وقوله : (فكلوا مما امسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه) انما هو قوله : بسم الله . وهذا جملة تامة اما اسمية على اظهر

قولي النحاة ؛ او فعلية : والتقدير ذبحي باسم الله ، او اذبح باسم الله .
وكذلك قول القارىء (بسم الله الرحمن الرحيم) فتقديره : قراءتي بسم الله ؛ او اقرأ بسم الله .

ومن الناس من يضمر في مثل هذا ابتدائي بسم الله ؛ او ابتدأت بسم الله . والأول احسن ؛ لأن الفعل كله مفعول بسم الله . ليس مجرد ابتدائه كما اظهر المضمر في قوله (اقرأ بسم ربك الذي خلق) وفي قوله : (بسم الله مجريها ومرساها) وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها اخرى . ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله » . ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لربيبه عمر بن ابي سلمة : « سم الله وكل بيمينك ؛ وكل مما يليك » فالمراد ان يقول بسم الله . ليس المراد ان يذكر الاسم مجرداً . وكذلك قوله في الحديث الصحيح لعدى بن حاتم « اذا ارسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « اذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله ؛ وعند خروجه . وعند طعامه . قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء » وامثال ذلك كثير .

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم واذانهم وحجهم واعيادهم من ذكر الله تعالى انما هو بالجملة التامة . كقول المؤذن : الله اكبر . لله

اكبر . اشهد ان لا اله الا الله ؛ اشهد ان محمداً رسول الله . وقول المصلي : الله اكبر . سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى . سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد . التحيات لله . وقول الملبي : لبيك اللهم لبيك . وامثال ذلك . فجميع ما شرعه الله من الذكر انما هو كلام تام . لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمر . وهذا هو الذي يسمى فى اللغة كلمة ، كقوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان . ثقيلتان فى الميزان . حبيبتان إلى الرحمن ؛ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله « أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ومنه قوله تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) الآية وقوله : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة ، بل وسائر كلام العرب فانما يراد به الجملة التامة ، كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم ، فيقولون : هذا حرف غريب . أي لفظ الاسم غريب .

وقسم سيبويه الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، ليس باسم وفعل . وكل من هذه الأقسام يسمى حرفاً لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهي أسماء ، ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف

عشر حسنات: أما اني لا أقول : (الم) حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وقد سأل الخليل أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد فقالوا : زاي ، فقال : جئتم بالاسم ، وانما الحرف « ز » .

ثم ان النحاة اصطلحوا على ان هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة ، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل ، كحروف الجر ونحوها ، واما الفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ ، وتارة باسم ذلك الحرف ، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب ، ومنهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظاً مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ، ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة الا الجملة التامة .

والمقصود هنا أن المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره « بجملة تامة » وهو المسمى بالكلام ، والواحد منه بالكلمة ، وهو الذي ينفع القلوب ، ويحصل به الثواب والأجر ، والقرب الى الله ومعرفته ومحبته وخشيته ، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية . واما الاقتصار على « الاسم المفرد » مظهراً او مضمراً فلا أصل له . فضلا عن ان يكون من ذكر الخاصة والعارفين . بل هو وسيلة الى أنواع من البدع والضلالات وذريعة الى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الالحاد ، واهل الاتحاد ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

وجماع الدين « أصلان » أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) . وذلك تحقيق « الشهادتين » : شهادة ان لا إله إلا الله وشهادة ان محمداً رسول الله . ففي الأولى ان لا نعبد إلا إياه ، وفي الثانية ان محمداً هو رسوله المبلغ عنه . فعلينا ان نصدق خبره ونطيع امره ، وقد بين لنا ما نعبد الله به ، ونهانا عن محدثات الأمور ، واخبر انها ضلالة . قال تعالى : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن ، فله اجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

كما انا مأمورون ان لا نخاف إلا الله ولا نتوكل الا على الله ، ولا نرغب إلا إلى الله ، ولا نستعين إلا بالله ، وان لا تكون عبادتنا إلا لله ، فكذلك نحن مأمورون ان نتبع الرسول ونطيعه ونتأسى به ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، قال تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) فجعل الايتاء لله والرسول ، كما قال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وجعل التوكل على الله وحده بقوله : (وقالوا حسبنا الله) ولم يقل ورسوله . كما قال في (الآية الأخرى) (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) ومثله قوله : (يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) اي

حسبك وحسب المؤمنين كما قال : (اليس الله بكاف عبده) .

ثم قال : (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) فجعل الايتاء لله والرسول ، وقدم ذكر الفضل : لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين ، وقال : (انا إلى الله راغبون) فجعل الرغبة الى الله وحده كما في قوله : (فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » . والقرآن يدل على مثل هذا فى غير موضع .

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله ، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله ، كما في قول نوح عليه السلام : (ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون) وقوله : (ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون) وامثال ذلك .

فالرسل امروا بعبادته وحده والرغبة اليه والتوكل عليه ، والطاعة لهم . فأضل الشيطان النصارى واشباههم فأشركوا بالله وعصوا الرسول فاتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح بن مريم) فجعلوا يرغبون اليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم ، مع معصيتهم لأمرهم ومخالفاتهم لسنتهم ، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله اهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه

فلم يكونوا مـن المغضوب عليهم ولا الضـالين ، فأخلصوا دينهم لله ، واسلموا وجوههم لله ، وانابوا الى ربهم ، واحبوه ورجوه وخافوه وسألوه ورغبوا اليه وفوضوا امورهم إليه وتوكلوا عليه ، واطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم واحبوهم ووالوهم واتبعوهم ، واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم .

وذلك هو دين الاسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وهو الدين الذي لا يقبل الله من احـد دينا إلا اياه ، وهو حقيقـة العبادة لرب العالمين .

فنسأل الله العظيم ان يثبتنا عليه ، ويكمله لنـا ويميتنا عليه وسائر اخواننا المسلمين .

والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

سئل شيخ الاسلام

ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ عن قول النبي صــلى الله عليــه وسلم :
« دعوة اخي ذي النون » : (لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين) .
ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته » ما معنى هذه الدعوة ؟ ولم كانت كاشفة
للــكرب ؟ وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟ وكيف مطــابقة اعتقاد
القلب لمعناها . حتى يوجب كشف ضره ؟ وما مناسبة ذكره : (اني كنت
من الظالمين) مع ان التوحيد . يوجب كشف الضر ؟ وهل يكفيه اعترافه .
ام لا بد من التوبة والعزم فى المستقبل ؟ وما هو السر فى ان كشف الضر
وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهــم ؟ وما الحيــلة في
انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالــكلية وتعلقه بالله تعالى
ورجائه وانصرافه اليه بالــكلية ، وما السبب المعين على ذلك؟؟ .

﴿ فأجاب ﴾ الحمد لله رب العالمين .

لفظ « الدعاء والدعوة » فى القرآن يتناول معنيين .

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قال الله تعالى : (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) وقال تعالى : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) وقال : (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال (إن يدعون من دونه الا إناثاً وان يدعون الا شيطاناً مريداً) وقال تعالى : (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه) وقال تعالى : (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر . ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون) وقال في آخر السورة : (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) .

قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل لولا دعاؤه اياكم . فان المصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، والى المفعول تارة ، ولكن إضافته الى الفاعل أقوى ؛ لأنه لا بد له من فاعل ، فلهذا كان هذا أقوى القولين ؟ اي ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه : (فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً) اي عذاب لازم للمكذبين .

ولفظ « الصلاة في اللغة » أصله الدعاء ، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء ، وهو العبادة والمسألة .

وقد فسر قوله تعالى : (ادعوني أستجب لكم) بالوجهين ، قيل : اعبدوني وامتثلوا أمري استجب لكم . كما قال تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) : أي يستجيب لهم ، وهو معروف في اللغة ، يقال : استجابه واستجاب له كما قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقيل : سلوني اعطكم .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » فذكر أولاً لفظ الدعاء ، ثم ذكر السؤال والاستغفار . والمستغفر سائل كما ان السائل داع ؛ لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير ، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام .

وقال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان) .

وكل سائل راغب راهب ، فهو عابد للمسؤول ، وكل عابد له

فهو ايضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عابد سائل وكل سائل عابد . فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما : فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب . ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وان لم يكن فى ذلك صيغ سؤال .

والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو ايضاً راج خائف راغب راهب : يرغب فى حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) وقال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) ولا يتصور ان يخلو داع لله — دعاء عبادة او دعاء مسألة — من الرغب والرهب من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ انه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر مراده بان المقربين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه ، وان لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء : لم اعبدك شوقا إلى جنتك ولا خوفا من نارك ،

فهو يظن ان الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا الم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما اعده الله لأوليائه فهو من الجنة والنظر إليه هو من الجنة ، ولهذا كان افضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار . ولما سأل بعض اصحابه عما يقول في صلاته « قال : إنى اسأل الله الجنة واعوذ بالله من النار ، اما انى لا احسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال : حولها ندندن »

وقد انكر على من قال هذا الكلام يعني أسألك لذة النظر الى وجهك فريق من اهل الكلام ، ظنوا ان الله لا يتلذذ بالنظر إليه ، وانه لا نعيم إلا بمخلوق . فغلط هؤلاء فى معنى الجنة كما غلط اولئك . لكن اولئك طلبوا ما يستحق ان يطلب ، وهؤلاء انكروا ذلك .

واما التألم بالنار فهو امر ضروري ، ومن قال : لو ادخلنى النار لكنت راضياً ، فهو عزم منه على الرضا . والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق ، ومثل هذا يقع فى كلام طائفة مثل سمنون الذي قال :

وليس لي فى سواك حظ فكيف ماشئت فامتحني

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف سى صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب . قال تعالى : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون) .

وبعض من تكلم فى علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وان من شهد القدر (١) فشهد توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعا.

أما الحقيقة فان الحي لا يتصور ان لايكون حساساً محباً لما يلائمه مبغضاً لما ينافره ، ومن قال ان الحي يستوى عنده جميع المقدورات فهو احد رجلين : إما انه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل ، وإما انه مكابر معاند ولو قدر ان الانسان حصل له حال أزال عقله — سواء سمي اصطلاما او محو او فناء او غشياً او ضعفاً — فهذا لم يسقط احساس نفسه بالكلية ، بل له احساس بما يلائمه وما ينافره ، وان سقط احساسه ببعض الأشياء فانه لم يسقط بجميعها .

فمن زعم ان المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقاً فانه غالط ، بل لا بد من الفرق فانه امر ضروري .

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي فى الفرق الطبعي ، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه .

---

(١) كذا فى نسختين وفي نسخة وأما من نظر الى القدر الخ

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة » بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم « الفرق الثاني » وهو : أن يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق فى القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الاسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية وان خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار ، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الالحاد ، بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة ، ويعصون الله ورسوله تارة ، كالعصاة من اهل القبلة . وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : ان لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وفى الحديث : « افضل الذكر لا إله إلا الله ، وافضل الدعاء الحمد لله » رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره : « دعوة أخي ذي النون (لا إله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين) ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » سماها « دعوة » لأنها تتضمن نوعي الدعاء . فقوله لا إله الا انت اعتراف بتوحيد الالهية .

وتوحيد الالهية يتضمن أحد نوعي الدعاء ، فان الاله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله الا هو .

وقوله : (إني كنت من الظالمين) . اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فان الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر ، اما بوصف حاله ، واما بوصف حال المسؤول ، وإما بوصف الحالين . كقول نوح عليه السلام : (رب إني اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين) فهذا ليس صيغة طلب ، وانما هو إخبار عن الله انه ان لم يغفر له ويرحمه خسر .

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام : (رب انى لما انزلت الى من خير فقير) فان هذا وصف لحاله بانه فقير الى ما انزل الله اليه من الخير ، وهو متضمن لسؤال الله انزال الخير اليه .

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين » رواه الترمذي وقال حديث حسن ورواه مالك بن الحويرث

وقال : « من شغله ذكري عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » وأظن البيهقي رواه مرفوعا بهذا اللفظ .

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله : « أفضل الدعاء يوم عرفة لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن ابى الصلت يمدح ابن جدعان .

أأذكر حاجتى ام قد كفانى   حباؤك ان شيمتك الحباء

اذا اثنى عليك المرء يوما   كفاه من تعرضه الثناء

قال : فهذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وانت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان » فهذا خبر يتضمن السؤال .

ومن هذا الباب قول ايوب عليه السلام : (انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين) فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره وهي صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب فى السؤال والدعاء ، فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه : انا جائع ، انا

مريض ، حسن ادب فى السؤال . وان كان فى قوله اطعمنى وداونى ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب طلب جازم من المسؤول ، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة « صيغة الطلب والاستدعاء » إذا كانت لمن يحتاج اليه الطالب او ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فانها تقال على وجه الأمر : إما لما فى ذلك من حاجة الطالب ، واما لما فيه من نفع المطلوب ، فاما اذا كانت من الفقير من كل وجه للغنى من كل وجه فانها سؤال محض بتذلل وافتقار واظهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو ابلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك اظهر من جهة القصد والارادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ؛ لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وان لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤل ، فان تضمن وصف حالهما كان اكمل من النوعين ، فانه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والاجابة ؛ ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والاجابة

كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه « لما قال : له علمني دعاء ادعو به فى صلاتى ، فقال : « قل : اللهم انى ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب الا انت ، فاغفر لي مغفرة من عنـدك ، وارحمني انك انت الغفور الرحيم » . اخرجاه فى الصحيحين .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة ، وفيه وصف ربه الذي يوجب انه لا يقدر على هـذا المطلوب غـيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للاجابة وهـو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه اكمل انواع الطلب .

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليـه السلام : (أنت ولينـا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين) فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضى الاجابة . وقوله : (رب انى ظلمت نفسي فاغفر لي) فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله : (إني لمـا انزلت الي من خير فقـير) فيـه الوصف المتضمن للسؤال بالحـال ، فهـذه انواع لـكل نوع منهـا خاصة .

يبقى ان يقـال فصاحب الحوت ومن اشبهه لماذا ناسب حالهـم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأن المقام مقام اعـتراف بان ما اصابني من الشركان بذنبي ،
فأصل الشر هو الذنب ، والمقصود دفـع الضر والاستغفار جاء بالقصـد
الثاني ، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره انه مسيء ظـالم ، وهو
الذي ادخل الضر على نفسه ، فناسب حاله ان يذكر ما يرفـع سببه من
الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب
بالقصد الثاني ؛ بخلاف كشف الكرب فانه مقصود له فى حال وجوده بالقصد
الأول ، اذ النفس بطبعها تطلب ماهي محتاجة اليه من زوال الضرر الحاصل
من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر فى المستقبل بالقصـد
الثاني ، والمقصود الأول فى هـذا المقـام هو المغفرة وطلب كشف الضر ،
فهذا مقـدم فى قصده وارادته ، وأبلـغ ما ينال بـه رفع سببه فجاء بما
يحصل مقصوده .

وهذا يتبين بالـكلام عـلى قوله : (سبحانك) فان هـذا اللفظ
يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير
ذنب ؛ يقول : انت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب ؛ بل انـا
الظالم الذي ظلمت نفسي . قال تعالى : (ومـا ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم
يظلمون) وقال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم) وقال : (وما
ظلمنـاهم ولكن كانوا هم الظالـمين) وقال آدم عليـه السـلام : (ربنـا
ظلمنا انفسنا) .

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذي فى مسلم فى دعاء الاستفتاح « اللهم انت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبى ، فاغفر لي ذنوبى جميعا فانه لايغفر الذنوب إلا أنت » وفى صحيح البخاري « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ، اعوذ بك من شر ما صنعت ، ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي فاغفر لي فانه لايغفر الذنوب إلا انت . من قالها إذا اصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها اذا امسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

فالعبد عليه ان يعترف بعدل الله واحسانه فانه لايظلم الناس شيئاً فلا يعاقب احداً الا بذنبه ، وهو يحسن اليهم فكل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل .

فقوله : (لا إله إلا انت) فيه اثبات انفراده بالالهية ، والالهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها اثبات احسانه إلى العباد فان « الاله » هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق ان يعبد ، وكونه يستحق ان يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم ان يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل .

وقوله : (سبحانك) يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغـيره من النقائص ؛ فان التسبيح وان كان يقال : يتضمن نفي النقائص، وقد روى فى حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول العبد : سبحان الله : « انها براءة الله من السوء » فالنفي لايكون مدحا الا إذا تضمن ثبوتا وإلا فالنفى المحض لا مـدح فيـه . ونفى السوء والنقص عنه يستلزم اثبات محاسنه وكماله ، ولله الأسماء الحسنى .

وهكذا عامة ما يأتى به القرآن فى نفى السوء والنقص عنـه يتضمن اثبات محاسنه وكماله . كقوله تعالى : (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخـذه سنة ولا نوم) فنفى اخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياتـه وقيوميته وقوله : (وما مسنا من لغوب) يتضمن كمال قدرتـه ، ونحـو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ، ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله : (سبحانك) تبرئته من الظلم ، واثبات العظمة الموجبة له براءته من الظـلم ، فان الظالم انما يظلم لحاجته الى الظلم او لجهله ، والله غني عن كل شيء ، عليـم بـكل شيء ، وهو غـني بنفسه ، وكل ما سواه فقـير اليـه ، وهـذا كمال العظمة .

وايضاً ففي هـذا الدعاء التهليل والتسبيح فقوله : (لا اله الا انت) تهليل . وقولـه : (سبحانك) تسبيح . وقـد ثبت فى الصحيـح عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع . وهن من القرآن . سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، و الله اكبر » .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل اي الكلام افضل؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وفى القرآن (فسبح بحمد ربك) وقالت الملائكة : (ونحن نسبح بحمدك) .

وهاتان الكلمتان احداهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم ، فانا قد ذكرنا ان التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن اثبات المحاسن والكمال ، والحمد انما يكون على المحاسن . وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والاكرام ، إذ ليس كل معظم محبوبا محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظما ، وقد تقدم ان العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه . ففيها اجلاله واكرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام ، فهو مستحق غاية الاجلال وغاية الاكرام .

ومن الناس من يحسب ان « الجلال » هو الصفات السلبية و « الاكرام » الصفات الثبوتيـة ، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق ان كليهما صفات ثبوتية ، واثبات الكمال يستلزم نـفي النقائص ، لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق ان يحب وما يستحق ان يعظـم : كقولـه : (ان الله هو الغني الحميد) وقول سليمان عليـه السلام : (فان ربي غني كريم) وكذلك قوله : (له الملك وله الحمد) فان كثيراً ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل مذموما ، إذ الحمـد يتضمن الاخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبـة ، فيتضمن اخباراً بمحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيـه عجز وضعف وذل ينافى العظمة والغنى والملك . فالأول يهاب ويخاف ولا يحب . وهذا يحب ويحمد ، ولا يهاب ولا يخـاف . والكمال اجتماع الوصفـين . كما ورد فى الأثر « ان المؤمن رزق حلاوة ومهابة » وفى نعت النبي صـلى الله عليه وسـلم « كان من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفـة احبه » .

فقرن التسبيح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ؛ كما فى كلمات الأذان . ثم ان كل واحـد من النوعـين يتضمن الآخر إذا افرد : فان التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن اثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الالهية فان الالهية تتضمن كونه محبوبا ؛ بل تتضمن انـه لا يستحق كمال الحب الا هو . والحمـد هو الاخبـار عن المحمود بالصفات الـتى يستحق ان يحب فالالهية

تتضمن كمال الحمد؛ ولهذا كان «الحمدلله» مفتاح الخطاب؛ وكل أمر ذى بال لا ...أ
فيه بالحمد لله فهو اجذم «وسبحان الله» فيها اثبات عظمته كما قدمناه؛ ولهذا قال :
(فسبح باسم ربك العظيم) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها
فى ركوعكم » رواه اهل السنن وقال : « اما الركوع فعظموا فيه الرب واما
السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن ان يستجاب لكم » رواه مسلم . فجعل
التعظيم فى الركوع اخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففي قوله « سبحان الله وبحمده » اثبات تنزيهه وتعظيمه والهيته وحمده .
واما قوله : «لا اله الا الله والله أكبر» ففي لا اله الا الله [اثبات] محامده فانها
كلها داخلة فى اثبات الهيته وفى قوله : « الله اكبر » اثبات عظمته فان
الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء اكمل .

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول : « الله
أكبر » فان ذلك اكمل من قول الله اعظم ، كما ثبت في الصحيح عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله تعالى الكبرياء ردائي
والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته » فجعل العظمة كالازار ،
والكبرياء كالرداء ، ومعلوم ان الرداء اشرف ، فلما كان التكبير ابلغ من
التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفي قوله : سبحان الله ،
صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين

متضمنا معنى الكلمتين الأخريين إذا افردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها .

وهذا كما ان كل اسم من اسماء الله فانه يستلزم معنى الآخر ؛ فانه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا باللزوم . واما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة ، ودلالتهما على احدهما بالتضمن .

فقول الداعي : (لا اله الا انت سبحانك) يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتى هن افضل الكلام بعد القرآن . وهذه الكلمات تتضن معانى اسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : (اني كنت من الظالمين) فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد ان يبرىء نفسه عن هذا الوصف ، لاسيما فى مقام مناجاته لربه . وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لاينبغي لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متى» . وقال : « من قال : انا خير من يونس ابن متى فقد كذب، فمن ظن انه خير من يونس بحيث يعلم انه ليس عليه ان يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون انفسهم على يونس فى هذا المقام ، بل يقولون : كما قال ابوهم آدم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

واما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله . كما قال تعالى : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله) والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فاخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفراً . وفى الحديث : « من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » وقال تعالى : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) .

فقوله : (انى كنت من الظالمين) اعتراف بالذنب وهو استغفار ، فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : (لا إله الا انت) تحقيق لتوحيد الألهية ، فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، والمعوق له

من العبد هو ذنوبه ، وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله ، وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى ، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سبباً للنجاة ، والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر .

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه : فان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون ؛ بل يخاف ان يجزيه بذنوبه ، وهذا معنى ماروى عن علي رضي الله عنه انه قال : لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن إلا ذنبه .

وفى الحديث المرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم « انه دخل على مريض فقال : كيف تجدك ؟ فقال ارجو الله واخاف ذنوبى ، فقال ما اجتمعا في قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » .

فالرجاء ينبغي ان يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله ، فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك ، وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لا بد له ، من معاون ، ولا بد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل ، والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع . ولهذا قال الله تعالى : (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده ، وقال : (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه ، فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله او صديقه او قرابته او شيخه او ملكه او ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا احد مخلوقاً او توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح فى مكان سحيق) .

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعب كما قال تعالى : (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) والخالص من الشرك يحصل له الامن كما قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون) وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك . ففي الصحيح عن ابن مسعود « ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : اينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انما هذا الشرك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح : (ان الشرك لظلم عظيم ؟)

وقال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً وان الله شديد العذاب ، اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ، كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذوراً) ولهذا يذكر الله الأسباب ، ويأمر بأن لا يعتمد عليها ، ولا يرجى الا الله ، قال تعالى لما أنزل الملائكة : (وما جعله الله الا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) وقال : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان :

دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح الا لله ، فمن جعل مع الله الهاً آخر قعد مذموماً مخذولاً ، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو الا الله ، ولا يسأل

غيره ؛ ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسـلم في الحديث الصحيح : « ما أتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » . فالمشرف الذي يستشرف بقلبه ، والسائل الذي يسأل بلســانه ، وفى الحديث الذي فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدري « قال : أصابتنا فاقة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول : « ايها الناس والله ! مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم ، وانه من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله، وما اعطي احد عطاء خيراً واوسع من الصبر »

و « الاستغنــاء » أن لا يرجو بقلبــه أحــداً فيستشرف إليــه . و « الاستعفاف » أن لا يسأل بلسانه أحداً ؛ ولهذا لما سئل احمد بن حنبل عن التوكل فقال : قطع الاستشراف الى الخلق ؛ اي لا يكون فى قلبك ان احداً يأتيك بشيء فقيل له ؛ فما الحجــة في ذلك ؟ فقــال : قول الخليــل لما قال له جبرائيل هــل لك من حاجة ؟ فقــال : « امــا اليك فلا » .

فهذا وما يشبهه مما يبين ان العبد فى طلب ما ينفعـه ودفــع ما يضره لا يوجه قلبه الا الى الله ؛ فلهذا قال المكروب : (لا اله الا انت) . ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: عند الـكرب « لا إله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب العرش العظيم،

لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتأله العبد ربه ، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له ، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب .

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إله الا الله ، فقول العبد لها مخلصاً من قلبه له حقيقة اخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله . قال تعالى : (افرأيت من اتخذ الهه هواه افأنت تكون عليه وكيلاً ، ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ؟ ! ان هم الا كالأنعام ؛ بل هم اضل سبيلاً) فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه ، اي جعل معبوده هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون انداداً من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل : (لا احب الآفلين) .

فان قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعاً له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بين ان الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره ، فأي وجه لعبادة من يأفل ؟! .

وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول : لا اله الا الله خرج من قلبه

تأله ما يهواه ، وتصرف عنه المعاصي والذنوب ، كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) . فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال الشيطان : (فبعزتك لأغوينهم اجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين) . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال لا اله الا الله مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار » .

فان الاخلاص ينفي اسباب دخول النار ؛ فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار ؛ بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذي اوقعه فيما ادخله النار ، والشرك في هذه الأمة اخفى من دبيب النمل ؛ ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة ان يقول : (اياك نعبد واياك نستعين) . والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله . اما خوفاً منه . واما رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً الى تخليص توحيده من شوائب الشرك . وفى الحديث الذي رواه ابن ابي عاصم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الشيطان : اهلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ؛ لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » .

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر ؛ فلهذا قال ذو النون : (لا اله الا انك سبحانك انى كنت من الظالمين) .

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع . كقوله تعالى : (فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات) وقوله : (الا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير ، وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) وقوله : (والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) الى قوله : (وياقوم ! استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) وقوله : (فاستقيموا اليه واستغفروه) .

وخاتمة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك » ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه ، وان كان مجلس لغو كانت كفارة له ، وقد روى ايضاً انها تقال فى آخر الوضوء بعد ان يقال : « اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » .

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ؛ فان صدره الشهادتان

اللتان هما اصلا الدين وجماعه ؛ فان جميع الدين داخل فى « الشهادتين » إذ مضمونها ان لا نعبد الا الله ، وان نطيع رسوله ، و « الدين » كله داخل فى هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، وكل ما يجب او يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله .

وقد روى انه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت ، استغفرك واتوب اليك » وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح انه كان يقول فى آخر صلاته : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما انت اعلم به مني ؛ انت المقدم وانت المؤخر ، لا اله الا انت » وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد ؛ لأن الدعاء مأمور به في آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فان تقديم التوحيد افضل .

فان جنس الدعاء الذي هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذي هو سؤال وطلب ، وان كان المفضول قد يفضل على الفاضل فى موضعه الخاص ، بسبب وبأشياء اخر ، كما ان الصلاة افضل من القراءة ، والقراءة افضل من الذكر الذي هو ثناء ، والذكر افضل من الدعاء الذي هو سؤال ، ومع هذا فالمفضول له امكنة وازمنة

واحوال يكون فيها افضل من الفاضل ، لكن اول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد ، واخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله .

فان المسلمين وان اشتركوا في الاقرار بها ، فهم متفاضلون فى تحقيقها تفاضلاً لا نقدر ان نضبطه ، حتى ان كثيراً منهم يظنون ان التوحيد المفروض هو الاقرار والتصديق بان الله خالق كل شيء وربه ، ولا يميزون بين الاقرار بتوحيد الربوبية الذي اقر به مشركو العرب ، وبين توحيد الالهية الذي دعاهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي .

فان المشركين ما كانوا يقولون : إن العالم خلقه اثنان ، ولا ان مع الله رباً ينفرد دونه بخلق شيء ؛ بل كانوا كما قال الله عنهم : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : الله) وقال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟)

وكانوا مع إقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة

أخرى ، يجعلونهم شفعاء لهم إليه . ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . ويحبونهم كحب الله .

والاشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الاشراك فى الاعتقاد والاقرار ، كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فهو مشرك به ، قد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله . وإن كان مقراً بان الله خالقه .

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقاً لله ، وبين من أحب مخلوقاً مع الله ، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره ؛ لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله وفرعاً عليه وداخلاً فيه .

بخلاف من أحب مع الله فجعله نداً لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعة لله ، ويتخذه شفيعاً له من غير ان يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله !)

وقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله الا هو ، سبحانه عما يشركون) وقد قال عدي بن حاتم للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما عبدوهم . قال : احلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم اياهم » قال تعالى : (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقال تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ! ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً ، لقد اضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولاً) .

فالرسول وجبت طاعته ؛ لأنه من يطع الرسول فقد اطاع الله ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم طاعة لله ، وهم اذا امر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة فى طاعة الرسول ، قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم) .

فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا اولى الامر منكم ؛ بل جعل طاعة اولى الامر داخلة فى طاعة الرسول ؛ وطاعة الرسول طاعة لله ، واعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة اولى الامر ؛ فانه من يطع الرسول

فقد اطاع الله ؛ فليس لاحد اذا امره الرسول بأمر ان ينظر هــل امر الله به ام لا ، بخلاف اولي الامر فانهم قد يأمرون بمعصية الله ، فليس كل من اطاعهم مطيعاً لله ، بل لا بد فيما يأمرون به ان يعلم انه ليس معصية لله ، وينظر هـل امر الله به ام لا ، سواء كان اولى الامر من العلمـاء او الامراء ، ويدخل فى هــذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك ، وبهــذا يكون الدين كله لله قال تعــالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال النبي صـلى الله عليه وسلم : « لما قيل له : يارسول الله ! الرجل يقاتـل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأي ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتـل لتـكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » .

ثم ان كثيراً من الناس يحب خليفة او عالما او شيخاً او اميراً فيجعله نداً لله ، وان كان قد يقول : انه يحبه لله .

فمن جعل غــير الرسول تجب طاعتــه فى كل ما يأمر به وينهى عنــه وان خالف امر الله ورسوله فقد جعله نداً ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالي اولياءه ، ويعادي اعداءه مع ايجابه طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه فى قوله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) .

فالتوحيد والاشراك يكون في اقوال القلب ، ويكون فى اعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب اراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق ، فانه لما قرنه بالتوكل جعله اصله ، واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

وهذا كلفظ « الايمـان » فانه إذا افرد دخلت فيه الاعمال الباطنـة والظاهرة ، وقيل الايمـان قول وعمـل ، اي قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « الايمان بضع وستون شعبة ، اعلاها قول لا إله الا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » . ومنه قوله تعـالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) وقوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليه آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقاً) وقوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، واذا كانوا معـه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) .

و « الايمان المطلق » يدخل فيه الاسلام كما فى الصحيحين عن النبي صـلى الله عليه وسـلم انه قال لوفد عبد القيس : « آمركم بالايمـان بالله اتدرون ما الايمان بالله ؟ شهـادة ان لا اله الا الله ، وان محمـداً رسول الله

واقام الصلاة ، وايتـاء الزكاة ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم ، ولهـذا قال من قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً .

واما اذا قرن لفظ الايمان بالعمل او بالاسلام فانه يفرق بينهما كما في قوله تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهو فى القرآن كثـير ، وكما فى قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لما سأله جبريل عـن الاسلام والايمان والاحسان فقال : « الاسلام : ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت. قال : فما الايمان ؟ قال ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : فما الاحسان؟ قال : ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . ففرق فى هذا النص بين الاسلام والايمان لما قرن بين الاسمين وفى ذلك النص ادخل الاسلام في الايمان لما افرده بالذكر .

وكذلك لفظ « العمل » فان الاسلام المذكور هو من العمل والعمل الظاهر هو موجب ايمان القلب ومقتضاه ، فاذا حصل ايمـان القلب حصل ايمان الجوارح ضرورة ، وايمـان القلب لا بد فيـه من تصديق القلب وانقياده ، والا فلو صدق قلبه بان محمداً رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه .

و « الايمان » وان تضمن التصديق فليس هو مرادفاً له ، فـلا يقـال

لكل مصدق بشيء : انه مؤمن به . فلو قال : انا اصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وان السماء فوقنا والارض تحتنا ، ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا : انه مؤمن بذلك ؛ بل لا يستعمل الا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول اخوة يوسف : (وما انت بمؤمن لنا) فانهم اخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالاول يقال للمخبر ، والثانى يقال للمخبر به كما قال اخوة يوسف (وما انت بمؤمن لنا) وقال تعالى: (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه).

وقال تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) ففرق بين ايمانه بالله وايمانه للمؤمنين ؛ لان المراد يصدق المؤمنين اذا أخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به .

ومنه قوله تعالى عن فرعون وملائه : (أنؤمن لبشرين مثلنا) اي نقر لهما ونصدقهما . ومنه قوله : (أفتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) ومنه قوله تعالى : (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربي) . ومن المعنى الآخر قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) وقوله : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله) وقوله : (ولكن البر من

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) أي اقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير .

و (المقصود هنا) ان لفظ « الايمان » انما يستعمل فى بعض الاخبار ، وهو مأخوذ من الأمن ، كما ان الاقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب امن ، كما ان المقر صاحب إقرار ، فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه ، فاذا كان عالماً بأن محمداً رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء ، فان ابليس لم يكذب خبراً ولا مخبراً . بل استكبر عن امر ربه . وفرعون وقومه قال الله فيهم : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) وقال له موسى : (لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر) وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم)

فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم

يقول : « اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ، ونفس لاتشبع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع »

ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الأيمان ، وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه ، وهـذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقتـه توجب التسوية بين المؤمن والكافر ؛ ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ، فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالماً بالحق ويبغضه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبراً عن الحق يكون غير عالم به ، وحينئذ فالايمان لا بـد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الايمان قول وعمل .

ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعـال الظاهرة ، فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بهـا القدرة التامـة لزم وجود المراد قطعاً ، وانمـا ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة ، او لعـدم كمال الارادة ، والا فمع كمالهـا يجب وجود الفعل الاختياري ، فاذا اقر القلب اقراراً تاماً بان محمداً رسول الله واحبـه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكـن ان كان عاجزاً لخرس ونحوه او لخوف ونحوه لم يكن قادراً على النطق بهما .

و « ابو طالب » وان كان عالماً بان محمداً رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة ، واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة ، فأصل محبوبه هو الرئاسة ؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذي يحبه ، فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما — فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذي قال الله فيه : (وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) وكما كان يحبه سائر المؤمنين به ، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعاً — فكان حبه حباً مع الله لا حباً لله ، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم يعمله لله ، والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه ، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

وهذا مما يحقق ان « الايمان » . « والتوحيد » لا بد فيهما من عمل القلب ، كحب القلب ، فلا بد من اخلاص الدين لله ، والدين لا يكون ديناً الا بعمل ؛ فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة ؛ وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص : (قل يا أيها الكافرون) (وقل هو الله احد) . احداهما فى توحيد القول والعلم . والثانية فى توحيد العمل

والارادة ؛ فقال فى الأول : (قل هو الله احـد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد) فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال فى الثانى : (قل يا أيهـا الـكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابـدون ما اعبد ، ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما اعبـد ، لـكم دينـكم ولي دين) فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله واخلاص العبادة لله .

و « العبادة » اصلها القصد والارادة . والعبـادة اذا افردت دخل فيها التوكل ونحوه ، واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيما لهـا ، كما ذكرناه فى لفظ الايمـان . قال تعـالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقال تعالى : (يا ايها الناس اعبدوا ربكم) فهذا ونحوه يدخل فيـه فعل المأمورات وترك المحظورات ؛ والتوكل من ذلك ، وقـد قال فى موضع آخر : (اياك نعبد واياك نستعين) وقال : (فاعبده وتوكل عليه)

ومثل هذا كثيراً ما يجيء فى القرآن : تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران ؛ كلفـظ « المعروف والمنكر » فانه قد قال : (كنتم خير امة اخرجت للنـاس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر) وقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اوليـاء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنـكر) وقال : (يأمرهم بالمعروف وينهـاهم عن

المنكر) فالمنكر يدخل فيه ما كرهه الله ؛ كما يدخل في المعروف ما يحبه الله .

وقد قال فى موضع آخر : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فعطف المنكر على الفحشاء ، ودخل في المنكر هنا البغي . وقال فى موضع آخر: (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) فقرن بالمنكر الفحشاء والبغي .

ومن هذا الباب لفظ « الفقراء ، والمساكين » اذا أفرد احدهما دخل فيه الآخر ، واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق ؛ لكن هناك احد الاسمين اعم من الآخر ، وهنا بينهما عموم وخصوص ، فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل فى توحيد الله تعالى ، قال تعالى فى المحبة : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله) وقال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره) وقال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من

فضله ورسوله ، إنا الى الله راغبون) وقال تعالى : (فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده .

وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) ان قول القائل : (لا اله إلا انت) فيه افراد الالهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملا ، فالمشركون كانوا يقرون بان الله رب كل شيء ؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى ، فلا يخصونه بالالهية . وتخصيصه بالالهية يوجب ان لا يعبد الا إياه ، وان لا يسأل غيره ، كما فى قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) فان الانسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه ، لكن فى امور لايحبها الله ؛ بل يكرهها وينهى عنها ، فهذا وان كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه ، لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير من اهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله ، فانهم يعانون على هذه الأمور .

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة ، قال تعالى : (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفوراً) وقال تعالى : (وإذا مس الانسان

الضر دعانا لجنبه ، او قاعداً ، او قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) .

وطائفة اخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله ، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به . فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ؛ ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة ، وبالاعجاب أخرى ، فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه ، وربما حصل له جزع ، فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب ، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل . قال تعالى : (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) الى قوله : (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) .

وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الاشراك بالخلق ، والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر ، فالمرائي لا يحقق قوله : (اياك نعبد) والمعجب لا يحقق قوله : (اياك نستعين) فمن حقق قوله : (اياك نعبد) خرج عن الرياء ومن حقق قوله ، (اياك نستعين) خرج عن الاعجاب ، وفى الحديث المعروف : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بالله بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين .

ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كأصحاب الأحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التى تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله . كما قد بسط الكلام عليهم فى مواضع اخر . وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن انه من كرامات الأولياء . وانما هو من احوال السحرة والكهان ؛ ولهذا يجب الفرق بين الأحوال الايمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه .

وقول المكروب : (لا اله الا انت) قد يستحضر فى ذلك احد النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد فى النوعين ، فان المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه ، فقد يقول « لا اله الا الله » مستشعراً أنه لا يكشف الضر غيرك ، ولا يأتي بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية ، ومستحضر توحيد السؤال والطلب ، والتوكل عليه ، معرض عن توحيد الالهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر

به وهو أن لايعبد الا اياه ولا يعبده الا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا فى قوله : (لا اله الا أنت) كان عابداً لله متوكلا عليه وكان ممتثلا قوله : (فاعبده وتوكل عليه) وقوله : (عليه توكلت واليـــه أنيب ، وقوله : (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا) .

ثم ان كان مطلوبه محرما أثم وان قضيت حاجته . وان كان طالباً مباحاً لغير قصد الاستعانة بـه على طاعـة الله وعبادته لم يكن آثما ولا مثابا . وان كان طالباً ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابا مأجوراً .

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه ، وبين النبي الملك، فان نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خير بين ان يكون نبيا ملـكا او عبـداً رسولاً ، فاختار ان يكون عبداً رسولاً ؛ فان العبـد الرسول هو الذي لايفعل الا ما امر به ، ففعله كله عبـادة لله ، فهو عبد محض منفذ امر مرسله ، كما ثبت عنه فى صحيح البخاري انه قال : « إني والله لا اعطي احداً ولا امنع احداً وإنما انا قاسم أضع حيث امرت » وهو لم يرد بقوله « لا اعطي احداً ولا امنع » إفراد الله بذلك قدراً وكونا ، فان جميع المخلوقين يشاركونه فى هذا فلا يعطي احداً ولا يمنـع إلا بقضاء الله وقدره ؛ وانما اراد إفراد الله بذلك شرعا ودينـاً . أي لا أعطي إلا من امرت

باعطائه ، ولا امنع الا من امرت بمنعه ، فأنا مطيع لله فى إعطائي ومنعي فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم المواريث بـين اهلها ؛ لأن الله امره بهذه القسمة .

ولهذا كان المال حيث اضيف الى الله ورسوله فالمراد بـه ما يجب ان يصرف فى طاعة الله ورسوله ، ليس المراد بـه انـه ملك للرسول ، كما ظنه طائفة من الفقهاء ، ولا المراد به كونه مملوكا لله خلقاً وقدراً ؛ فان جميع الأموال بهذه المثابة . وهذا كقوله : (قل الأنفال لله والرسول) وقوله : (واعلموا انما غنمتـم من شيء فان لله خمسه وللرسول) الآية وقوله : (وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليـه من خيل ولا ركاب) الى قوله : (ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى) الآية . فذكر فى الفيء ما ذكر في الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء ان الاضافة الى الرسول تقتضي انه يملـكه ، كما يملك الناس املاكهم . ثم قال بعضهم : ان غنـائم بدر كانت ملـكا للرسول . وقال بعضهم : ان الفيء واربعة اخماسـه كان ملـكا للرسول . وقال بعضهم: ان الرسول انمـا كان يستحق من الخمس خمسه. وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحق من خمس الفيء خمسه ، وهذه الأقوال توجـد فى كلام طوائف من اصحاب الشافعي واحمد وابي حنيفة وغـيرهم ، وهـذا غلط من وجوه :

(منها) ان الرسول لم يكن يملك هـذه الاموال كما يملك الناس اموالهم ، ولا كما يتصرف الملوك فى ملكهم ، فان هؤلاء وهؤلاء لهم ان يصرفوا اموالهـم فى المباحات ، فاما ان يكون مالكا له فيصرفه فى اغراضه الخاصة ، واما ان يكون ملكا له فيصرفه فى مصلحة ملكه ، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان . قال تعالى : (فامنن او امسك بغير حساب) اي اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك ، ونبينا كان عبداً رسولاً لا يعطي الا من امر باعطائه ، ولا يمنع الا من امر بمنعه ، فلم يكن يصرف الأموال الا في عبادة الله وطاعة له .

(ومنها) ان النبي لا يورث ولو كان ملكا ، فان الأنبياء لا يورثون فاذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس اموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذي هو عبد رسول مالكا .

(ومنها) ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال فى طاعة الله لا يستفضله ، وليست هـذه حال الملاك ، بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى ان الله امر رسوله ان يصرف ذلك المال في طاعته ، فتجب طاعته فى قسمه ، كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به ؛ فانه من يطع الرسول فقد اطاع الله ، وهو فى ذلك مبلغ عن الله .

والأموال التي كان يقسمها النبي صلى الله عليه وسلم على وجهين :

(منها) : ما تعين مستحقه ومصرفه كالمواريث .

(ومنها) ما يحتاج الى اجتهاده ونظره ورأيه ، فان ما امر الله به منه ماهو محدود بالشرع : كالصلوات الخمس ، وطواف الاسبوع بالبيت ، ومنه ما يرجع في قدره الى اجتهاد المأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يحبها الله .

فمن هذا ما اتفق عليه الناس ، ومنه ما تنازعوا فيه : كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات : هل هي مقدرة بالشرع ؟ ام يرجع فيها الى العرف ، فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف احوال الناس ؟ . وجمهور الفقهاء على القول الثانى ، وهو الصواب لقول النبي صلى الله عليه وسلم لهند : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف » وقال ايضاً : فى خطبته المعروفة « للنساء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف » .

وكذلك تنازعوا ايضاً فيما يجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع او بالعرف ؟ .

فما اضيف الى الله والرسل من الأموال كان المرجع فى قسمته الى امر

النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بخلاف ما سمي مستحقوه كالمواريث ، ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عام حنين « ليس لي مما افاء الله عليكم الا الخمس . والخمس مردود عليكم » اي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه الى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس ، ولهذا قال : « وهو مردود عليكم » بخلاف اربعة اخماس الغنيمة فانه لمن شهد الوقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخمس يرفع الى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امته فيقسمونها بأمرهم ، فأما اربعة الاخماس فانما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستحق المستحق ، وكما كانوا فى الحدود لمعرفة الامر الشرعي ، والنبي صلى الله عليه وسلم اعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما اعطاهم ؛ فقيل : إن ذلك كان من الخمس ؛ وقيل : انه كان من اصل الغنيمة ؛ وعلى هـذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ؛ ولهذا اجاب من عتب من الأنصار بما ازال عتبه واراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنيمة قبل القسمة لم يملكها الغانمون ؛ وان للامام ان يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

فان المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه ، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) :

توحيد الالهية .وتوحيد الربوبية ؛ وان كانت الالهية تتضمن الربوبيـة ؛ والربوبية تستلزم الالهية ؛ فان احدهما اذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع ان يختص بمعناه عند الاقتران ، كما فى قوله : (قـل اعوذ برب النـاس ، ملك الناس ، اله الناس) وفى قوله : (الحمد لله رب العالمـين) فجمع بـين الاسمين : اسم الاله واسم الرب . فان « الاله » هو المعبود الذي يستحق ان يعبد . و«الرب» هو الذي يرب عبده فيدبره .

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله ، والسؤال متعلقاً باسمه الرب ؛ فان العبادة هي الغاية التى لها خلق الخلق . والالهية هي الغاية ؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ؛ والمصـلي اذا قال : (اياك نعبد واياك نستعين) فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التى هي البداية ؛ فالعبادة غاية مقصودة ؛ والاستعانة وسيلة اليها : تلك حكمة وهذا سبب ؛ والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف؛ ولهذا يقال : أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك . فالعلة الغائية متقدمة فى التصور والارادة وهي متأخـرة في الوجود . فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم ان ذلك لا يحصل إلا باعانتـه فيقول : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان : الله اكبر ، الله اكبر . ومثل الشهادتين :

اشهد ان لا إله الا الله ، [اشهد ان محمداً رسول الله] ومثل التشهد : التحيات لله ، ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكبر .

وأما السؤال فكثيراً ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء : (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقول نوح : (رب اني أعوذ بك أن اسألك ما ليس لي به علم) وقول موسى : (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي) وقول الخليل : (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة) الآية وقوله مع اسماعيل : (ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) وكذلك قول الذين قالوا : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ومثل هذا كثير .

وقد نقل عن مالك أنه قال : أكره للرجل ان يقول فى دعائه: يا سيدي ! ياسيدي ! يا حنان ! يا حنان ! ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء ؛ ربنا ! ربنا ! نقله عنه العتبي فى العتبية . وقال تعالى : عن أولى الألباب : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) الآيات .

فاذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب. وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسناً، واما إذا سبق الى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك. اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب، ولهذا قال يونس: (لا إله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) وقال آدم: (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فان يونس عليه السلام ذهب مغاضباً، وقال تعالى: (واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) وقال تعالى: (فالتقمه الحوت وهو مليم) ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله ان يبدأ بالثناء على ربه، والاعتراف بانه لا اله الا هو فهو الذي يستحق ان يعبد دون غيره فلا يطاع الهوى، فان اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده. وقد روى ان يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد ان اظلهم وخاف ان ينسبوه الى الكذب فغاضب. وفعل ما اقتضى الكلام الذي ذكره الله تعالى وان يقال: (لا اله الا انت) وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الالهية، سواء صدر ذلك [عن] هوى النفس او طاعة الخلق او غير ذلك. ولهذا قال: (سبحانك انى كنت من الظالمين).

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق، وفيما يريده وهو غير حسن.

واما آدم عليه السلام فانه اعترف اولاً بذنبه فقال : (ظلمنا انفسنا)
ولم يكن عند آدم من ينازعه الارادة لما امر الله به ، مما يزاحم الالهية
بل ظن صدق الشيطان الذي (قاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما
بغرور) فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما فكانا فى قبول غروره وما
اظهر من نصحه حالهما مناسباً لقولهما : (ربنا ظلمنا انفسنا) لما حصل
من التفريط ، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الالهية وكانا محتاجين الى
ان يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما . حتى لا يغترا بمثل ذلك ، فهما
يشهدان حاجتهما الى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره .

وذو النون شهد ما حصل من التقصير فى حق الالهية بما حصل من
المغاضبة وكراهة انجاء اولئك ، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب
شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له وان يقول : (لا اله الا
انت) فان قول العبد : لا اله الا انت ، يمحو ان يتخذ الهه هواه .
وقد روي « ما تحت أديم السماء اله يعبد اعظم عند الله من هوى
متبع » فكمل يونس صلوات الله عليه تحقيق الهيته لله ، ومحو الهوى
الذي يتخذ الهاً من دونه ، فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند
تحقيق قوله لا اله الا انت ارادة تزاحم الهية الحق ، بل كان مخلصاً لله الدين اذ
كان من افضل عباد الله المخلصين .

و (ايضاً) فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه

نوع مغاضبة للقدر ومعارضة له في خلقه وامره ، ووساوس فى حكمته ورحمته ، فيحتاج العبد ان ينفي عنه شيئين : الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة ، فيعلم ان الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته لا فيما اقتضاه علم العبد وحكمته ، ويكون هواه تبعاً لما امر الله به ، فلا يكون له مع امر الله وحكمه هوى يخالف ذلك . قال الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » رواه ابو حاتم فى صحيحه . وفى الصحيح « ان عمر قال له : يا رسول الله ! والله لأنت احب الي من نفسي . قال : الآن يا عمر » . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » وقال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم ، واموال اقترفتموها . وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره) .

فاذا كان الايمان لا يحصل حتى يحكم العبد رسوله ويسلم له ويكون هواه تبعاً لما جاء به ، ويكون الرسول والجهاد فى سبيله مقدماً على حب الانسان نفسه وماله واهله ، فكيف فى تحكيمه الله تعالى والتسليم له ؟!

فمن راى قوماً يستحقون العذاب في ظنه . وقد غفر الله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا اما ان يكون عن ارادة تخالف حكم الله واما عن ظن يخالف علم الله ، والله عليم حكيم . واذا علمت انه عليم ، وانه حكيم لم يبق لكراهية ما فعله وجه . وهذا يكون فيما امر به وفيما خلقه ولم يأمرنا ان نكرهه ونغضب عليه .

فأما ما امرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا ان نطيعه فى امره بخلاف توبته على عباده وانجائه اياهم من العذاب فان هذا من مفعولاته التى لم يأمرنا ان نكرهها ، بل هي مما يحبها فانه يحب التوابين ويحب المتطهرين . فكراهة هذا من نوع اتباع الارادة المزاحمة للالهية . فعلى صاحبها ان يحقق توحيد الالهية فيقول : لا اله الا انت .

فعلينا ان نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهى عما ينهى . فاذا كان (يحب التوابين) و (يحب المتطهرين) فعلينا ان نحبهم ؛ ولا نأله مراداتنا المخالفة لمحابه .

والكلام فى هذا المقام مبنى على « اصل » : وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه . وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة . ولهذا وجب الايمان بكل ما أوتوه كما

قال تعالى : (قولوا آمنـا بالله وما انزل الينـا وما انزل الى ابراهيـم واسماعيل واسحـاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتى موسى وعيسى ، وما اوتي النبيون من ربهم ؛ لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقال : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وقال : (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بـين احد مـن رسـله، وقالوا سمعنـا وأطعنا غفرانك ربنـا وإليك المصير).

بخلاف غير الأنبيـاء فانهم ليسوا معصومـين كما عصم الأنبيـاء ، ولو كانوا اولياء لله ، ولهذا من سب نبياً من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سب غيرهم لم يقتل .

وهذه العصمة الثابتـة للأنبياء هي التي يحصل بهـا مقصود النبوة والرسالة ؛ فان « النبي » هو المنبأ عن الله ، و « الرسول » هو الذي ارسـله الله تعـالى ، وكل رسـول نبي وليس كـل نبي رسولاً ، والعصمـة فيما يبلغونه عـن الله ثابتـة فـلا يستقر في ذلك خطـأ باتفاق المسلمين .

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ؟ هذا فيه قولان . والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك . والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة فى سورة النجم بقوله : (تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى) وقالوا : ان هذا لم يثبت ، ومن علم انه ثبت : قال هذا ألقاه الشيطان فى مسامعهم ولم يلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن السؤال وارد على هذا التقدير ايضاً . وقالوا فى قوله : (إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته) هو حديث النفس .

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم) فقالوا الآثار فى تفسير هذه الآية معروفة ثابتة فى كتب التفسير والحديث ، والقرآن يوافق ذلك فان نسخ الله لما يلقى الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع فى آياته ، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته

بغيرها . وجعل ما القى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم انما يكون اذا كان ذلك ظاهراً يسمعه الناس لا باطناً فى النفس والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنـــة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول صـــلى الله عليه وسلم وبعده عن الهوى من ذلـــك النوع ، فانه اذا كان يأمر بامر ثم يأمر بخلافـــه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك ، فاذا قال عن نفسه إن الثـــانى هو الذي من عند الله وهو الناسخ وان ذلك المرفوع الذي نسخـــه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق ، وهـــذا كما قالت عائشـــة رضي الله عنها : لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هـــذه الآ ية : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه) ألا ترى ان الذي يعظم نفسه بالبـــاطل يريد ان ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ ، فبيان الرسول صـــلى الله عليه وســـلم ان الله احكم آياته ونسخ ما القاه الشيطان هو ادل على تحريه للصدق وبراءتـه من الكذب ، وهـــذا هو المقصود بالرسالة فانه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تسليما ، ولهذا كان تكذيبه كفراً محضاً بلا ريب .

واما العصمة فى غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل او بالسمع ؟ ومتنازعون فى العصمة من الكبائر والصغائر او من

بعضها ، ام هل العصمة انما هي فى الاقرار عليها لا فى فعلها ؟ام لا يجب القول بالعصمة إلا فى التبليغ فقط ؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث ام لا ؟ والكلام على هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والقول الذي عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف اثبات العصمة من الاقرار على الذنوب مطلقاً ، والرد على من يقول انه يجوز اقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة اذا حررت انما تدل على هذا القول .

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب اقر عليه الانبياء ، فان القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع ، وذلك لا يجوز الا مع تجويز كون الأفعال ذنوباً ، ومعلوم ان التأسي بهم إنما هو مشروع فيما اقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه ، كما ان الأمر والنهي انما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه ، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأموراً به ولا منهياً عنه ، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

وكذلك ما احتجوا به من ان الذنوب تنافى الكمال ، او انها ممن عظمت عليه النعمة اقبح . او انها توجب التنفير ، اونحو ذلك من الحجج العقلية ، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، والا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها الى اعظم مما كان عليه ، كما قال

بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وقال آخر : لو لم تكن التوبة احب الأشياء اليه ، لما ابتلى بالذنب اكرم الخلق عليه ، وقد ثبت فى الصحاح حديث التوبة « لله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً » الخ .

وقد قال تعالى : (ان الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين) وقال تعالى : (الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) وقد ثبت فى الصحيح حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها ان تظهر ، فيقول الله له : « اني قد غفرتها لك وابدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول : اي رب ! إن لي سيئآت لم ارها » اذا رأى تبديل السيئآت بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقاً منها ان تظهر ، ومعلوم ان حاله هذه مع هذا التبديل اعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار ، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة ، وقد قال تعالى : (وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ،

ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنـــات ، وكان الله غفوراً رحيما) فغـــاية كل انسان ان يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم .

وفى الكتـــاب والسنة الصحيحـــة والكتب التى انزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدريـــة والدهرية لنصوص « الأسماء والصفات » ونصوص « القدر » ونصوص « المعاد » وهي من جنس تأويلات القرامطة البـــاطنية التى يعلم بالاضطرار انها باطلة ، وانها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء يقصد احدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم ، ويريد الايمان بهم فيقع فى الكفر بهم .

ثم ان العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والاجماع ، وهي « العصمة فى التبليغ » لم ينتفعوا بهـــا إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبيـــاء ، وإنمـــا يقرون بلفظ حرفوا معنـــاه او كانوا فيـــه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب الا اماني ، والعصمة التى كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بهـــا ولا حاجـــة بهم اليها عندهم ، فآنها متعلقـــة بغيرهم لا بمـــا امروا بالايمان به ، فيتكلم احدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم ، وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى : (فانما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم) الآية .

والله تعالى لم يذكر فى القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء الا مقروناً بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته : (ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقول نوح : (رب انى اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين) ، وقول الخليل عليه السلام : (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقوله : (والذي اطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وقول موسى : (أنت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وانت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة إنا هدنا اليك) وقوله : (رب انى ظلمت نفسي فاغفر لي) وقوله : (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) وقوله تعالى عن داود : (فاستغفر ربه وخر راكعاً واناب ، فغفرنا له ذلك وان لهعندنا لزلفى وحسن مآب) وقوله تعالى عن سليمان : (رب : اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ، انك انت الوهاب) .

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنباً فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار ، بل قال : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فاخبر انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وهذا يدل على انه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء .

وأما قوله : (ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه)

فالهم اسم جنس تحتــه « نوعان » كما قال الامام احمــد الهم همان : هم خطرات ، وهم إصرار ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وان عملها كتبت له سيئة واحدة » وان تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليــه سيئة ويوسف صلى الله عليه وسلم هم هما تركه لله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لاخلاصه ، وذلك إنما يكون اذا قام المقتضي للذنب وهو الهم ، وعارضه الاخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليــه السلام لم يصدر منــه إلا حسنة يثاب عليها ، وقال تعــالى : (ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون)

وأما ما ينقل : من انــه حل سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وانه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فانما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من اعظم الناس كذبا على الأنبياء وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقــله ؛ لم ينقل من ذلك احــد عن نبينــا صلى الله عليــه وسلم حرفا واحداً .

وقوله : (وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي) فمن كلام امرأة العزيز ، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة ، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى : (وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال : ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم ، قال : ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وان الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما ابرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى ان ربي غفور رحيم)

فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر بعد الى الملك ، ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته فى غيبته ــ كما قالت امرأة العزيز : (ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب) اي لم اخنه فى حال مغيبه عني وان كنت فى حال شهوده راودته ــ فحينئذ : (قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال : انك اليوم لدينا مكين أمين) وقد قال كثير من المفسرين ان هذا من كلام يوسف ، ومنهم من لم يذكر الا هذا القول ، وهو قول فى غاية الفساد ، ولا دليل عليه ؛ بل الادلة تدل على نقيضه ، وقد

بسط الـكلام على هذه الأمور فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) ان ما تضمنته « قصة ذي النون » مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات ؛ ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته اعظم درجة منه قبل ان يقع ما وقع ، قال تعالى: (فاصبر لحـكم ربك ولا تـكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعرآء وهو مذموم ، فاجتبـاه ربه فجعله مـن الصالحين) وهذا بخـلاف حال التقام الحـوت فانه قـال : (فالتقمه الحوت وهو مليم) فاخبر انه فى تلك الحال مليم ، و « المليم» الذي فعل ما يلام عليه ، فالملام فى تلك الحال لا فى حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله بعـد قوله : (لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) ارفع من حاله قبل ان يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى فى البداية ، والأعمال بخواتيمها ،

والله تعالى خلق الأنسان واخرجه من بطن امه لا يعلم شيئاً ثم علمه فنقله من حال النقص الى حـال الـكمال ، فلا يجوز ان يعتـبر قدر الانسان بمـا وقع منـه قبل حال الـكمال ، بل الاعتبـار بحال كماله ، ويونس صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء فى حال النهـاية حالهم اكمل الأحوال .

ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فانهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان، ورضى الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فاذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين وإلا فهل يجوز لعاقل ان يعتبر حال أحدهم قبل الكمال فى مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب.

ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم حين نفخت فيه الروح، ثم هو وليد، ثم رضيع ثم فطيم، الى أحوال أخر فعلم ان الواحد فى هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التى يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل؛ وانما فضله باعتبار المآل، عند حصول الكمال.

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الاسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله فى عاقبته كان أفضل. فانه من المعلوم ان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم افضل ممن ولد على الاسلام من اولادهم وغير اولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه

فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له اكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقها؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف انه شر، فاما ان يقع فيه، وإما ان لا ينكره كما انكره الذي عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية. وهو كما قال عمر؛ فان كمال الاسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لاهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر واسبابه اذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم اعظم ايمانا وجهاداً ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف احرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك. ولهذا يقال:

والضد يظهر حسنه الضد.

ويقال :

وبضدها تتبين الأشياء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لست بخب ولا يخدعني الخب . فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر ، وكمال ذلك بان يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به .

وليس المراد ان كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون اعلم بذلك واكره له ممن لم يذقه مطلقاً ، فان هذا ليس بمطرد ، بل قد يكون الطبيب اعلم بالأمراض من المرضى ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اطباء الأديان فهم اعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها ، وان كان احدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس .

ولكن المراد ان من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به ، والنفور عنه ، والمحبة للخير اذا ذاقه مالا يحصل لبعض الناس ، مثل من كان مشركا او يهوديا او نصرانياً ، وقد عرف ما فى الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر ، ثم شرح الله صدره للاسلام ، وعرفه محاسن الاسلام ، فانه قد يكون ارغب فيه ، واكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والاسلام ؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا ، او مقلد فى مدح هذا وذم هذا .

ومثال ذلك من ذاق طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده ، او ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده ، او ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده ، فان محبة هذا ورغبته فى العافية والأمن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض اعظم ممن لم يبتل بذلك ولم يعرف حقيقته .

وكذلك من دخل مع اهل البدع والفجور ، ثم بين الله له الحق وتاب عليه توبة نصوحا ، ورزقه الجهاد فى سبيل الله ، فقد يكون بيانه لحالهم ، وهجره لمساويهم ، وجهاده لهم اعظم من غيره ، قال نعيم بن حماد الخزاعي — وكان شديداً على الجهمية — انا شديد عليهم ؛ لانى كنت منهم . وقد قال الله تعالى: (والذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) نزلت هذه الآية فى طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب الله عليهم ، فهاجروا الى الله ورسوله ؛ وجاهدوا وصبروا .

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من اشد الناس على الاسلام فلما اسلما تقدما على من سبقهما الى الأسلام ؛ وكان [بعض من سبقهما] دونهما فى الايمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله ؛ وكان عمر لكونه اكمل ايمانا واخلاصاً وصدقا ومعرفة وفراسة ونوراً ابعد عن هوى النفس واعلى همة

في اقامة دين الله ، مقدما على سائر المسلمين ، غير ابي بكر رضي الله عنهم اجمعين .

وهذا وغيره مما يبين ان الاعتبار بكمال النهاية لابنقص البداية .

وما يذكر فى الاسرائيليات : « ان الله قال لداود : اما الذنب فقد غفرناه ؛ واما الود فلا يعود » فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا ان نبني ديننا على هذا ؛ فان دين محمد صلى الله عليه وسلم فى التوبة جاء بما لم يجيء به شرع من قبله ؛ ولهذا قال : « انا نبي الرحمة ؛ وانا نبي التوبة » وقد رفع به من الآصار والاغلال ما كان على من قبلنا .

وقد قال تعالى فى كتابه : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) واخبر انه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب اعظم من فرح الفاقد لما يحتاج اليه من الطعام والشراب والمركب اذا وجده بعد اليأس. فاذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته ؛ كيف يقال : انه لا يعود لمودته (وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد) ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب اليه العبد بعد التوبة ؛ فان كان مايأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة افضل مما كان يأتى بـه قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ؛ وان كان انقص

كان الأمر انقص ؛ فان الجزاء من جنس العمل ؛ وما ربك بظلام للعبيد .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ؛ وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها : فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ؛ ولئن استعاذني لاعيذنه وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه » . ومعلوم ان افضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار ؛ وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان اعظم محبة ومودة ، وكلما تقربوا اليه بالنوافل بعد الفرائض احبهم وودهم .

وقد قال تعالى : (عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير ، والله غفور رحيم) . نزلت فى المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل « اهل الاحزاب » كأبي سفيان بن حرب ، وأبي سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة ابن ابي جهل ، وصفوان بن أمية ، وغيرهم . فانهم بعد معاداتهم لله ورسوله

جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة · وكانوا فى ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودة من أبى سفيان بن حرب ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح « أن هنـد امرأة أبى سفيان أم معاوية قالت : والله يارسول الله ! ما كان على وجه الارض أهل خباء احب إلي ان يذلوا من اهـل خبائك ، وقـد اصبحت وما عـلى وجه الأرض اهل خباء احب الي ان يعزوا من اهـل خبائك فذكر النبى صلى الله عليه وسلم لها نحو ذلك » .

ومعلوم ان المحبة والمودة التى بين المؤمنين انما تكون تابعة لحبهم لله تعـالى ، فان اوثق عرى الايمـان الحب في الله · والبغض فى الله . فالحب لله من كمال التوحيد ؛ والحب مع الله شرك . قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ؛ والذين امنوا اشد حباً لله) فتلك المودة التى صارت بـين الرسول والمؤمنين وبـين الذين عادوهم من المشركين إنما كانت مودة لله ومحبة لله ومن احب الله احبه الله ، ومن ود الله وده الله · فعلم ان الله احبهم وودهم بعـد التوبة ، كما احبوه وودوه ، فكيف يقال : ان التائب انمـا تحصل له المغفرة دون المودة ؟! .

وان قال قائل : أولئك كانوا كفاراً ، لم يعرفوا ان ما فعلوه محرم ؛ بل كانوا جهالا · بخلاف من علم ان الفعل محرم واتاه .

قيل : الجواب من وجهين :

(احدهما) انــه ليس الأمر كذلك ؛ بل كان كثـير من الكفار يعلمون ان محمداً رسول الله ، ويعادونه حسـداً وكبراً وابو سفيان قـد سمع من اخبار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم مالم يسمع غيره ، كما سمع من امية بن ابي الصلت ، وما سمعه من هرقل ملك الروم ، وقد اخبر عن نفسه انه لم يزل موقناً ان امر النبي صلى الله عليه وسـلم سيظهر حتى ادخل الله عليه الاسلام ، وهو كاره له ، وقـد سمـع منـه عام اليرموك وغـيره مادل عـلى حسن اسلامـه ومحبتـه لله ورسوله بعـد تلـك العداوة العظيمة .

وقد قال تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) فاذا كان الله يبـدل سيئاتهـم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهـم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصاً بمن كان كافراً ، وقد قال تعالى : (أنما التوبة على الله للذين يعمـلون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما) قال ابو العالية : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن هذه الآية فقالوا لي : كل من عصى الله فهو

جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

(الوجه الثانى) : ان ما ذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة الله تعالى للتائبين فرق لا أصل له ؛ بل الكتاب والسنة يدل على ان الله يحب التوابين ، ويفرح بتوبة التائبين ، سواء كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنباً أو لم يكونوا عالمين بذلك .

ومن علم ان ما اتاه ذنباً ثم تاب فلا بد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود ؛ فاذا كان يبغض الحق فلا بد ان يحبه ، وإذا كان يحب الباطل فلا بد ان يبغضه . فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محابه ، فكل من كان اعظم فعلا لمحبوب الحق كان الحق اعظم محبة له ، وانتقاله من مكروه الحق الى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل ، وقوة حب ما انتقل اليه من حب الحق ،فوجب زيادة محبة الحق له ومودته اياه ؛ بل يبدل الله سيئاته حسنات لانه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسنات ، فان الجزاء من جنس العمل . وحينئذ فاذا كان اتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من اتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم وإذا كان فعله لما يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت

مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبـة ، فكيف يقال الود لا يعود .

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : إن الله لا يبعث نبياً الا من كان معصوماً قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك من قال إنه لا يبعث نبياً الا من كان مؤمناً قبل النبوة ، فان هؤلاء توهموا ان الذنوب تكون نقصاً وان تاب التائب منها ، وهـذا منشأ غلطهم فمـن ظن ان صاحب الذنوب مـع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً ، فان الذم والعقاب الذي يلحق اهـل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء اصلاً ؛ لكن ان قدم التوبة لم يلحقه شيء ، وان اخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله .

والانبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة ؛ بـل يسارعون اليها ، ويسابقون اليها ؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك ، ومن اخر ذلك زمناً قليلاً كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون صلى الله عليه وسلم هـذا عـلى المشهور ان القاءه كان بعد النبوة ؛ واما من قال ان القاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا .

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون افضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب ؛ واذا كان قد يكون افضل ، فالافضل احق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة ، وقد اخبر الله عن اخوة يوسف بما اخبر من ذنوبهم وهم الاسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعالى : (فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي) . فآمن لوط لابراهيم عليه السلام ثم ارسله الله تعالى الى قوم لوط وقد قال تعالى في قصة شعيب : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا ، قال : او لو كنا كارهين ؛ قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين) وقال تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا ، فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الارض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) .

واذا عرف ان الاعتبار بكمال النهاية ، وهذا الكمال انما يحصل بالتوبة والاستغفار ، ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الأولين والآخرين . كما قال تعالى : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقد اخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما الى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وآخر ما نزل عليه — او من آخر ما نزل عليه — قوله تعالى : (اذا جاء نصر الله والفتح ، ورايت الناس يدخلون فى دين الله افواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان تواباً) . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر ان يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن .

وقد انزل الله عليه قبل ذلك : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رؤوف رحيم) . وفى صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : « ياايها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اكثر من سبعين مرة » . وفى صحيح مسلم عن الأغر المزنى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إنه ليغان على قلبي وانى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » . وفى السنن عن ابن عمر انه قال : كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب علي انك انت التواب الغفور » مائة مرة .

وفى الصحيحين عن ابى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان

يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتى وجهـلي واسرافي فى امري وما انت اعلم به مني ؛ اللهم ! اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، اللهـم اغفر لي ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما انت اعلم به مني . انت المقدم وانت المؤخر ، وانت على كل شيء قدير » . وفى الصحيحين عـن ابي هريرة انه قال : « يا رسول الله ! ارايت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : اقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم ! نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى مـن خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد » .

وفى صحيـح مسلم وغيره انه كان يقول : نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع ، وفى صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى دعاء الاستفتاح : « اللهم ! أنت الملك لا إله إلا انت ، انت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا انت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا انت » . وفى صحيـح مسـلم عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنـه كان يقول فى سجوده : « اللهم ! اغفر لي ذنبي كله دقه وجـله ، علانيته وسره ، أوله وآخره » .

وفى السنن عن على « ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى بدابة ليركبها وانه حمد الله وقال (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ثم كبره وحمده ثم قال : سبحانك ظلمت نفسي فاغفـر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك ! وقال إن الرب يعجب من عبده إذا قال اغفر لي ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، يقول علـم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا ».

وقد قال تعالى : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وقال : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وثبت في الصحيحين فى حديث الشفاعة « أن المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » . وفى الصحيح « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم حتى ترم قدماه ، فيقـال له : انفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال افلا اكون عبداً شكوراً ».

ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار فى ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة .

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف فى هذا الباب . وتأويلاتهم تبين لمن

تدبرها انها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب امته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه :

(احدها) أن آدم قد تاب الله عليه قبل ان ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذي انزل الله فيه هذه السورة قال تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وقال : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) وقد ذكر انه قال : (ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

و (الثاني) ان يقال : فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج ان يغفر له ذنبه عند المنازع فانه نبي ايضاً ، ومن قال : إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما .

الوجه (الثالث) ان الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله فانه هو القائل : (ولا تزر وازرة وزر اخرى) . فمن الممتنع ان يضاف الى محمد صلى الله عليه وسلم ذنب آدم صلى الله عليه وسلم او امته او غيرهما . وقد قال تعالى : (فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) وقال تعالى : (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) ولو جاز هذا المجاز

ان يضاف الى محمد ذنوب الأنبياء كلهم ، ويقال : إن قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) المراد ذنوب الأنبيــاء وامهم قبلك ، فانه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم ، وهو سيد ولد آدم ، وقال : « انا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيــامة . انا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ، وإمامهم إذا اجتمعوا » وحينئذ فلا يختص آدم باضافة ذنبه إلى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له . فان قال : ان الله لم يغفر ذنوب جميــع الامم ، قيل : وهو ايضاً لم يغفر ذنوب جميع امته .

(الوجه الرابــع) انه قد ميز بــين ذنبه وذنوب المؤمنــين بقوله (واستغفر لذنبــك وللمؤمنــين والمؤمنــات) فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له .

(الوجه الخامس) انه ثبت فى الصحيح ان هذه الآية لما نزلت قال الصحابة يارسول الله ! هذا لك فما لنا فأنزل الله (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم) فدل ذلك على ان الرسول والمؤمنين علموا ان قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مختص به دون امته .

(الوجه السادس) ان الله لم يغفر ذنوب جميع امته بل قد ثبت

ان من امته من يعاقب بذنوبه اما فى الدنيا واما فى الآخرة ، وهـذا مما تواتر به النقـل واخبر به الصـادق المصدوق واتفق عليه سلف الامـة وائمتها ، وشوهد فى الدنيا من ذلك ما لا يحصيه الا الله ، وقـد قال الله تعالى : (ليس بأمانيـكم ولا اماني اهل الكتاب ، من يعمل سوء يجزبه) والاستغفار والتوبة قد يـكونان من ترك الافضل . فمن نقـل الى حال افضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الاول ؛ لكن الذم والوعيد لا يكون الا على ذنب .

فصـــل

واما قول السائل : هل الاعتراف بالخطيئـة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانهـا وكـشف الكـربة الصادرة عنهـا ؛ ام يحتـاج إلى شيء آخر ؟؟

فجوابه : ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ؛ فان الشرك لا يغفره الله الا بتوبة ؛ كما قال تعالى : (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فى موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور ؛ وبدون التوبة معلق بالمشيئة . كما قال تعالى : (قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهذا فى حق التائبين ، ولهـذا عمم واطلق ، وحتم انـه يغفر الذنوب جميعـاً ، وقال في تلك الآيـة : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فخص مادون الشرك وعلقـه بالمشيئة فاذا كان الشرك لا يغفر الا بتوبة ؛ وأما ما دونه فيغفره الله للتائب ؛ وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء :

فالاعـتراف بالخطيئـة مع التوحيـد إن كان متضمنـاً للتوبـة أوجب المغفرة ؛ واذا غفر الذنب زالت عقوبتـه ؛ فـان المغفرة هي وقاية شر الذنب .

ومن النـاس من يقول الغفر الستر ، ويقول : انمـا سمى المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار ، وهذا تقصير فى معنى الغفر ؛ فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب عـلى الذنب فمن غفر ذنبـه لم يعاقب عليـه . واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن ، ومن عوقب على الذنب باطناً او ظاهراً فلم يغفر له ، وانمـا يكون غفران الذنب اذا لم يعـاقب عليـه العقوبة المستحقة بالذنب .

وأمـا اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سبباً فى حقه لزيادة اجره فهذا لا ينافى المغفرة .

وكذلك اذا كان من تمام التوبة ان يأتى بحسنات يفعلهـا ، فان من يشترط فى التوبة من تمام التوبة ؛ وقد يظن الظـان انه تائب ولا يكون تائباً بل يكون تاركا ، والتارك غير التائب ، فانه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله او المقتضى لعجزه عنه ، أو تنتفى ارادته له بسبب غير ديني ، وهذا ليس بتوبـة ، بل لا بد من ان يعتقـد انه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى ؛ لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق ؛ فان التوبة من اعظم الحسنات ؛ والحسنات كلها يشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره ، كما قال الفضيل بن عياض فى قوله: (ليبلوكم أيكم احسن عملا) قال أخلصـه واصوبه . قالوا: يا ابا علي ! ما اخلصه واصوبه ؟ قال : ان العمل اذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل . واذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل ؛ حتى يكون خالصـاً صوابا . والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وبسط الـكلام فى التوبة له موضع آخر .

وأمـا الأعتراف بالذنب على وجـه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا فى نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه ، وهو كالذي يسأل

الله تعالى ان يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه ، وهذا يأس من رحمة الله ، ولا يقطع بالمغفرة له فانه داع دعوة مجردة . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم الا كان بين احدى ثلاث : إما ان يعجل له دعوته ، وإما ان يدخر له من الجزاء مثلها ؛ واما ان يصرف عنه من الشر مثلها . قالوا : يارسول الله : اذاً نكثر قال الله اكثر » فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة واذا لم تحصل ، فلا بد ان يحصل معه صرف شر آخر او حصول خير آخر ، فهو نافع كما ينفع كل دعاء .

وقول من قال من العلماء . الاستغفار مع الاصرار توبة الكذابين ، فهذا اذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة او يدعي ان استغفاره توبة ، وانه تائب بهذا الاستغفار فلا ريب انه مع الاصرار لا يكون تائباً ، فان التوبة والاصرار ضدان : الاصرار يضاد التوبة ، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة .

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة ام لا بد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبنى على اصول :

(أحدهما) ان التوبة تصح من ذنب مع الاصرار على ذنب آخر اذا كان المقتضي للتوبة من احدهما اقوى من المقتضى للتوبة من الآخر ، او كان المانع من احدهما اشد ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف .

وذهب طائفة من اهل الكلام كأبي هاشم الى ان التوبة لا تصح من قبيح مع الاصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة ان لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها ، وحكى القاضي ابو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن احمد ، لأن المرذوي نقل عنه انه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لو مرضت لم اعد لكن لا يدع النظر ، فقال احمد : اي توبة ذه ؟! قال جرير بن عبد الله سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم من نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك »

والمعروف من احمد وسائر الائمة هو القول بصحة التوبة ، واحمد في هذه المسألة انما اراد ان هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً ، لم يرد ان ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فان نصوصه المتواترة عنه واقواله الثابتة تنافي ذلك ، وحمل كلام الامام على ما يصدق بعضه بعضاً أولى من حمله على التناقض ، لاسيما إذا كان القول الآخر مبتدعا لم يعرف عن احد من السلف ، واحمد يقول :

إياك ان تتكلم فى مسألة ليس لك فيها امام ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول مالم يقل ؟ واتباع احمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك ، وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وما ذكروه من ان الخشية توجب العموم .

فجوابه انه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر ، وانما يتوب مما يعلم قبحه .

و (ايضاً) فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه فى احدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن ادى بعض الواجبات دون بعض ؛ فان ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم اصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم وان خالفوهم في الاسم ، فقالوا : ان اصحاب الكبائر يخلدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع ان يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ؛ ولهذا يقولون : بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

واما الصحابة واهل السنة والجماعة فعلى ان اهل الكبائر يخرجون

من النار ويشفع فيهم ، وان الكبيرة الواحدة لاتحبط جميع الحسنات ؛ ولكن قد يحبط مايقابلها عند اكثر اهل السنة ، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وان كان مستحقا للعقوبة على كبيرته .

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً ، وبين حكم الكفار فى « الاسماء ، والأحكام » . والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم واجماع الصحابة يدل على ذلك ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله : (انما يتقبل الله من المتقين) فعلى قول الخوارج والمعتزلة لاتقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة انما يتقبل ممن اتقى الشرك ، فجعلوا اهل الكبائر داخلين في اسم « المتقين » وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله ، فمن اتقاه في عمل تقبله منه ، وان كان عاصياً فى غيره . ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعاً في غيره .

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور

بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالايمان المشروط فى غـيره من الأعمال ، كما قال الله تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لهـا سعيهـا وهو مؤمن فأولئـك كان سعيهم مشكوراً) وقال تعـالى : (ومن يعمـل من الصالحـات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبـة) وقال : (ومن يرتدد منكم عن دينـه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيـا والآخرة ، وأولئـك اصحـاب النار هم فيها خالدون) .

(الاصل الثانى) ان من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فان التوبة إنما تقتضي مغفرة ماتاب منه أما مالم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب ، لا على حـكم من تاب ، وما علمت فى هـذا نزاعا إلا فى الـكافر إذا أسـلم ، فان اسلامـه يتضمن التوبـة من الـكفر فيغفر له بالأسلام الـكفر الذي تاب منه ، وهل تغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الـكفر ولم يتب منها في الاسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان .

(احدها) يغفر له الجميع ، لاطـلاق قوله صلى الله عليـه وسـلم : « الاسلام يهدم ما كان قبله » رواه مسلم . مع قوله تعالى (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) .

(والقول الثانى) انه لا يستحق ان يغفر له بالاسلام إلا ماتاب منه ؛

فاذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم امثاله من أهل الكبائر ، وهذا القول هو الذي تدل عليه الاصول والنصوص ؛ فان فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال له حكيم بن حزام : يارسول الله ! أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : من احسن منكم فى الاسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن اساء في الاسلام اخذ بالاول والآخر » فقد دل هذا النص على انه إنما ترفع المؤاخذة بالاعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن احسن لاعمن لا يحسن ؛ وان لم يحسن اخذ بالاول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) يدل على ان المنتهى عن شيء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على ان المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره ؛ وذلك لأن قول القائل لغيره : ان انتهيت غفرت لك ما تقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند الاطلاق انك ان انتهيت عن هذا الامر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله : « ان تبت » ، لا يفهم منه انك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره .

واما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الاسلام يهدم ما قبله » وفى رواية « يجب ما كان قبله » فهذا قاله لما اسلم عمرو بن العاص وطلب

ان يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « يا عمرو اما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وان التوبة تهدم ما كان قبلها ، وان الهجرة تهدم ما كان قبلها » ومعلوم ان التوبة انما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

(الاصل الثالث) ان الانسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور .

و « الندم » سواء قيل : انه من باب الاعتقادات ، او من باب الارادات ، او قيل : انه من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ؛ فاذا استشعر القلب انه فعل ما يضره ، حصل له معرفة بان الذي فعله كان من السيئات ، وهذا من باب الاعتقادات ، وكراهية لما كان فعله ، وهو من جنس الارادات ؛ وحصل له أذى وغم لما كان فعله ؛ وهذا من باب الآلام ، كالغموم والأحزان ، كما ان الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والارادات .

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم : إن اللذة هى إدراك الملائم

من حيث هو ملائم ، وان الألم هو إدراك المنافر من حيث هو منافر فقد غلط فى ذلك . فان اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فان الحب لما يلائمه ، كالطعام المشتهى مثلا له ثلاثة احوال :

(احدها) الحب ، كالشهوة للطعام .

و (الثانى) ادراك المحبوب ، كأكل الطعام .

و (الثالث) : اللذة الحاصلة بذلك ، واللذة أمر مغاير للشهوة ولذوق المشتهى ؛ بل هي حاصلة لذوق المشتهي ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكذلك « المكروه » كالضرب مثلا . فان كراهته شيء ، وحصوله شيء آخر ، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ما للعارفين اهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك ؛ فان حبهم لله شيء ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيء ، ثم اللذة الحاصلة بذلك امر ثالث ، ولا ريب ان الحب مشروط بشعور المحبوب ، كما أن الشهوة مشروطة بشعور المشتهى ؛ لكن الشعور المشروط فى اللذة غير الشعور المشروط فى المحبة ، فهذا الثاني يسمى إدراكا وذوقا ونيلاً ووجداً ووصالاً ، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب ،

سواء كان بالباطن او الظاهر ، ثم هـذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة امر يحسه الحي باطناً وظاهراً .

وقـد قال النبي صلى الله عليـه وسلم فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمـان من رضي بالله رباً ، وبالاسلام دينـاً ، وبمحمد صلى الله عليه وسـلم نبياً » وفى الصحيحين عنه صلى الله عليـه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمـان : من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبـه إلا الله ، ومن كان يـكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منـه كما يـكره ان يلقى فى النـار »

فبين صلى الله عليه وسـلم أن ذوق طعم الايمان لمن رضي بالله ربا ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وان وجد حلاوة الايمـان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله اشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يحب شخصـاً لله لا لغيره ، ومن كان يـكره ضد الايمان ، كما يـكره ان يلقى فى النار ؛ فهذا الحب للايمان . والكراهية للـكفر استلزم حلاوة الايمـان ، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الايمـان ، وهذا هو اللذة ؛ وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة فى القلب ، ولا نفس الحب الحاصل فى القلب ؛ بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له ، وهي أمور متلازمة ، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق ، وإلا فمن أحب شيئاً ولم يذق منه

شيئاً لم يجد لذة ، كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئاً ، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة ، كمن ذاق مالا يريده ، فاذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

وان حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم ، فالذي يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم ، والذي لا يبغضه لا يندم على فعله ، فاذا فعله وعرف ان هذا مما يبغضه ويضره ندم على فعله إياه . وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الندم توبة » .

إذا تبين هذا . فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وان لم يستحضر أعيان الذنوب إلا ان يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص ، مثل ان يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده انه حسن ليس بقبيح ، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل فى التوبة ، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فان التوبة العامة شاملته .

وأما « التوبة المطلقة » : وهي ان يتوب توبة مجملة ، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب ، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق ؛ لكن هذه تصلح ان تكون سبباً لغفران المعين . كما تصلح ان تكون سبباً لغفران الجميع ؛ بخلاف

العامة فانها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً .

وكثير من النـاس لا يستحضر عنـد التوبة إلا بعض المتصفـات بالفاحشة أو مقدماتها او بعض الظلم باللسان او اليد ، وقـد يـكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظـاهره من شعب الايمان وحقائقه اعظم ضرراً عليه ممـا فعله من بعض الفواحش ، فان ما أمر الله به من حقائق الايمـان التى بهـا يصير العبد من المؤمنين حقاً اعظم نفعـاً من نفـع ترك بعض الذنوب الظـاهرة ، كحب الله ورسوله ؛ فان هذا اعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح « انه كان على عهد النبي صلى الله عليـه وسلم رجل يدعى حمـاراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم جلده الحد ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعنـه رجل فقـال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » .

فنهى عن لعنه مع اصراره عـلى الشرب لكونه يحب الله ورسوله ، مع انه صلى الله عليه وسلم لعن فى الخمر عشرة : «لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة اليه ، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها» .

ولكن لعـن المطلق لا يستلزم لعن المعـين الذي قام به ما يمنـع لحوق اللعنة له .

وكذلك « التكفير المطلق » و « الوعيد المطلق » . ولهذا كان الوعيد المطلق فى الكتاب والسنة مشروطاً بثبوت شروط وانتفاء موانع ، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين ، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته ، ولا يلحق المشفوع له ، والمغفور له ؛ فان الذنوب تزول عقوبتها التى هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة — لكنها من عقوبات الدنيا — وكذلك ما يحصل فى البرزخ من الشدة ، وكذلك ما يحصل فى عرصات القيامة ، وتزول ايضاً بدعاء المؤمنين : كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع . كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً .

وحينئذ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجبه ، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التى لم يتب منها . فالشدة اذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه ، بخلاف ما لم يتب منه ؛ بخلاف صاحب التوبة العامة .

والناس فى غالب احوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم الى ذلك فان التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال ؛ لانه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور او ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه ان يتوب دائماً . والله اعلم .

واما قول السائــل : ما السبب فى ان الفرج يأتى عند انقطــاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة فى صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقــال : سبب هــذا تحقيق التوحيد : « توحيد الربوبيــة » ، و « توحيد الالهية » .

« فتوحيد الربوبية » أنه لا خالق إلا الله ، فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الأمور ؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ فكل ما سواه إذا قدر سبباً فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فاذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا باعانة الله له ، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود المقدور .

فمشيئة الله وحده مستلزمة لــكل ما يريده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً ؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بهــا لم يحصل مراده ، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى . كما قال تعالى : (لمن شاء منــكم أن يستقيــم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمــين) وقال

تعالى : (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً وما تشاؤون الا ان يشاء الله ان الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين اعد لهم عذاباً أليماً) وقال : (فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا ان يشاء الله ، هو اهل التقوى واهل المغفرة) .

والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه ، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، فمن كمال نعمته وإحسانه الى عباده المؤمنين ان يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم الى التوحيد ، ثم ان وحده العبد توحيد الالهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة .

وان كان ممن قيل فيه : (وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وفى قوله : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر اعرضتم ، وكان الانسان كفوراً) كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له ، قال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون؟ سيقولون : لله ، قل : افلا تذكرون ؟

قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله قل : افلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير و! يجار عليه ان كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله ، قل: فانى تسحرون ؟) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخرالشمس والقمر ليقولن الله، فانى يؤفكون) وهذا قد ذكر فى القرآن فى غير موضع .

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين ان ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم الى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون احداً سواه ، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والانابة إليه ، وحلاوة الايمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ما هو اعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف ، او الجدب ، او حصول اليسر وزوال العسر فى المعيشة ، فان ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها اعظم مما يحصل للمؤمن .

واما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من ان يعبر عن كنهه مقال ، او يستحضر تفصيله بال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر ايمانه ، ولهذا قال بعض السلف : يا ابن آدم ! لقد بورك لك فى حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك . وقال بعض الشيوخ انه ليكون لي الى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا احب معه ان يعجل قضاء حاجتى خشية ان تنصرف نفسي

عن ذلك ؛ لأن النفس لا تريد الا حظها فاذا قضى انصرفت . وفى بعض الاسرائيليات يابن آدم ! البلاء يجمع بينى وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

وهذا المعنى كثير ، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن ، وما من مؤمن الا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه ، فان ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه الا من كان له ذوق وحس بذلك .

ولفظ « الذوق » وان كان قد يظن انه فى الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل فى الاحساس بالملائم والمنافر ، كما ان لفظ « الاحساس » فى عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس ، بل وبالباطن .

واما فى اللغة فأصله « الرؤية » كما قال : (هل تحس منهم من احد) .

و (المقصود) لفظ « الذوق » قال تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فجعل الخوف والجوع مذوقاً ؛ واضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللابس ؛

بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع ، وقال تعالى : (فذوقوا العذاب الأليم) وقال تعالى : (ذق انك انت العزيز الكريم) وقال تعالى : (ذوقوا مس سقر) وقال : (لا يذوقون فيها الموت) وقال تعالى : (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً الا حميماً وغساقاً) وقال : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً » .

فاستعمال لفظ « الذوق » في ادراك الملائم والمنافر كثير . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان » كما تقدم ذكر الحديث . فوجود المؤمن حلاوة الايمان في قلبه وذوق طعم الايمان امر يعرفه من حصل له هذا الوجد .

وهذا الذوق ، اصحابه فيه يتفاوتون ، فالذي يحصل لاهل الايمان عند تجريد توحيد قلوبهم الى الله واقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين ، لا يحبون شيئاً الا له ، ولا يتوكلون الا عليه ، ولا يوالون الا فيه ، ولا يعادون الا له ولا يسألون الا اياه ، ولا يرجون الا اياه ، ولا يخافون الا اياه ، يعبدونه ويستعينون له وبه ، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق ، وعند الخلق بلا هوى ؛ قد فنيت عنهم ارادة ما سواه بارادته ، ومحبة ما سواه بمحبته ، وخوف

ما سواه بخوفه ، ورجاه ما سواه برجائه ، ودعاء ما سواه بدعائه ، هو امر لا يعرفه بالذوق والوجد الا من له نصيب ، وما من مؤمن الا له منه نصيب .

وهذا هو حقيقة الاسلام الذي بعث الله به الرسل ، وانزل به الكتب وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه . والله سبحانه اعلم .

قال شيخ الاسلام

رحمه الله تعالى

فصل

« الفناء » الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة امور .

(احدها) : فناء القلب عن ارادة ماسوى الرب ، والتوكل عليه وعبادته ، وما يتبع ذلك ، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والاخلاص ، وهو فى « الحقيقة » عبادة القلب ، وتوكله ، واستعانته ، وتألهه وانابته ، وتوجهه الى الله وحده لاشريك له ، وما يتبع ذلك من المعارف والاحوال . وليس لاحد خروج من هذا .

وهذا هو « القلب السليم » الذي قال الله فيه : (إلا من اتى الله بقلب سليم) وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة . والارادات الفاسدة ، وما يتبع ذلك .

وهذا « الفناء » لا ينافيه البقاء ؛ بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن ارادة ما سواه ، وان كان شاعراً بالله وبالسوى ، وترجمته قول لا اله إلا الله ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا اله إلا الله ، ولا نعبد إلا اياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن » وهذا فى « الجملة » هو اول الدين وآخره .

(الامر الثانى) : فناء القلب عن شهود ماسوى الرب ، فذاك فناء عن الارادة ، وهذا فناء عن الشهادة . ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه ، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر اليه . فهذا الفناء فيه نقص ؛ فان شهود الحقائق على ما هي عليه ، وهو شهود الرب مدبراً لعباده ، آمراً بشرائعه ، اكمل من شهود وجوده ، او صفة من صفاته ، او اسم من اسمائه ، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك .

ولهذا كان الصحابة اكمل شهوداً من ان ينقصهم شهود للحق مجملا عن شهوده مفصلا ، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة . كما عرض لهم عند تجلى بعض الحقائق : الموت والغشي والصياح والاضطراب ، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ماهي عليه ، وعن شهود التفرقة فى الجمع ، والكثرة فى الوحدة ، حتى اختلفوا فى امكان ذلك ، وكثير منهم يرى انه لا يمكن سوى ذلك لما رأى انه إذا ذكر الخلق او الامر اشتغل عن الخالق الآمر . وإذا عورض بالنبي

صلى الله عليه وسلم وخلفائه ادعى الاختصاص ، او اعرض عن الجواب او تحير في الامر .

وسبب ذلك انه قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه ؛ ولهذا يقول بعض هؤلاء : انه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه ، ويحكى عن ابن عربي انه لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي انه جوز اجتماع الامرين . قال : نحن نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات ، والصواب مع شهاب الدين . فانه كان صحيح الاعتقاد فى امتياز الرب عن العبد . وانما بنى ابن عربى على اصله الكفرى فى ان الحق هو الوجود الفائض على الممكنات ، ومعلوم ان شهود هذا لا يقع فيه خطاب ، وانما الخطاب فى مقام العقل [1] .

وفي هذا الفناء قد يقول : انا الحق ، او سبحانى ، او ما في الجبة الأ الله ، اذا فني بمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده . وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه . كما يحكون ان رجلا كان مستغرقا في محبة آخر ، فوقع المحبوب فى اليم فألقى الآخر نفسه خلفه . فقال ما الذي اوقعك خلفي ؟ فقال : غبت بك عني فظننت انك أنى .

وفى مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود

---

(١) هذه الكلمة غير متضحة في خط المؤلف لخرم الأصل

حلاوة الايمان ، كما يحصل بسكر الخمر ، وسكر عشيق الصور . ولذلك قـد يحصل الفناء بحـال خوف او رجاء ، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منـه قول او عمل من جنس امـور السكارى وهي شطحات بعض المشائخ : كقـول بعضهم : انصب خيمتي على جهنم ، ونحو ذلك من الاقوال والاعمال المخالفة للشرع ؛ وقد يكون صاحبها غير مأثوم ، وان لم يكن فيشبه هذا الباب امر خفراء العدو ومن يعين كافراً او ظالماً بحال ويزعم انه مغلوب عليه . ويحكم [على] هؤلاء ان احدهم اذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهـم من الاقوال والافعال المحرمـة بخلاف ما اذا كان سبب زوال العقل والغلبة امراً محرما .

وهذا كما قلنا فى عقلاء المجانين والمولهين ، الذين صار ذلك لهـم مقاما دائماً كما انه يعرض لهؤلاء فى بعض الاوقات ، كما قال بعض العلماء ذلك فى من زال عقـله حتى ترك شيئاً من الواجبات . ان كان زواله بسبب غير محرم مثل الاغماء بالمرض او اسقى مكرها شيئاً يزيل عقله فلا اثم عليه ، وان زال بشرب الخمر ونحو ذلك من الاحوال المحرمة اثم بترك الواجب ، وكذلك الامر فى فعل المحرم .

وكما انه لا جناح عليهـم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمـل كلامهم وفعالهم على الصحـة بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون فى التـكاليف

الظاهرة ؛ وقال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم اعطاهم الله عقولاً واحوالاً فسلب عقولهم وترك احوالهم واسقط مافرض بما سلب .

ولهذا اتفق العارفون على ان حال البقاء افضل من ذلك ، وهو شهود الحقائق باشهاد الحق ، كما قال الله تعالى فيما روى عنه رسوله : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي » وفي رواية « وبي ينطق ، وبي يعقل » فاذا سمع بالحق ورأى به سمع الامر على ماهو عليه وشهد الحق على ما هو عليه .

وعامة ما تجده فى كتب اصحاب الصوفية مثل شيخ الاسلام ومن قبله من الفناء هو هذا ، مع انه قد يغلط بعضهم فى بعض احكامه كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع .

وفى الجملة فهذا الفناء صحيح وهو فى عيسوية المحمدية ، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث فى التابعين . ولهذا يقع كثير من هؤلاء فى نوع ضلال ؛ لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلى عدم العلم والشهود . وهو وصف نقص لا وصف كمال ، وإنما يمدح من جهة

عدم إرادة ما سواه ؛ لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى ارادته والفتنة به .

ولهذا غالب عباد « العيسوية » فى عدم العلم بالسوى ، وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بسلامة القلوب . وغالب علماء « الموسوية » في العلم بالسوى وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بالعلم ؛ لكن الأولون موصفون بالجهل والعدل . والآخرون موصفون بالظلم [1] وكلاهما صحيح .

فأما العلم بالحق والخالق ، وإرادة الله وحده لاشريك له فهذا نعت المحمدية الكاملون فى العلم والارادة ، وسلامة القلب المحمودة ، هي سلامة [1] إذ الجهل لا يكون بنفسه صفة مدح . إلا انه قد يمدح لسلامته به عن الشرور ؛ فان اكثر النفوس إذا عرفت الشر الذي تهواه اتبعته او فزعت منه او فتنها .

(الثالث) : فناء عن وجود السوى : بمعنى انه يرى ان الله هو الوجود ، وانه لا وجود لسواه ، لا به ولا بغيره ، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبليانى والتلمساني والقونوني ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة انه عين الموجودات وحقيقة الكائنات ، وانه

---

(١) خرم فى الاصل .

لا وجود لغيره ؛ لا بمعنى ان قيـام الأشياء به ووجودهـا به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد]

ألا كل شيء ما خـلا الله باطل .

وكما قيل فى قوله : (كل شيء هـالك الا وجهـه) فانهم لو أرادوا ذلك لـكان ذلك هو الشهود الصحيح ؛ لكنهم يريدون انه هو عين الموجودات ، فهذا كفر وضلال ربما تمسك اصحابه بألفاظ متشابهة توجد فى كلام بعض المشايخ . كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح . ويرجعون الى وجد فاسد او قياس فاسد . فتدبر هذا التقسيم فانه بيان الصراط المستقيم .

وقال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصـــــل[1]

« الأمر والنهي » الذي يسميه بعض العلماء « التكليف الشرعي » هو مشروط بالممكن من العلم والقـدرة ، فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم كالمجنون والطفـــل ، ولا تجب على من يعجز كالأعمى والأعرج والمريض في الجهاد ، وكما لا تجب الطهارة بالماء ، والصلاة قائماً والصوم ، وغير ذلك على من يعجز عنه .

سواء قيل : يجوز تكليف ما لا يطاق او لم يجز ؛ فانه لا خلاف ان تكليف العـاجز الذي لا قدرة له على الفعل بحـال غير واقع في

---

(١) يقول المؤلف : « هذا الفصل يتعلق بما قبله ، ويتعلق بما كتبه [اى في المسودة] في حال القناه قبل هـذا .

الشريعة ، بل قد تسقط الشريعة التكليف عمن لم تكمل فيه أداة العلم والقدرة تخفيفاً عنه ، وضبطاً لمناط التكليف ، وان كان تكليفه ممكناً كما رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم ، وان كان له فهم وتمييز ؛ لكن ذاك لأنه لم يتم فهمه ؛ ولأن العقل يظهر فى الناس شيئاً فشيئاً ؛ وهم يختلفون فيه ، فلما كانت الحكمة خفية ومنتشرة قيدت بالبلوغ .

وكما لا يجب الحج الا على من ملك زاداً وراحلة عند جمهور العلماء ؛ مع امكان المشي لما فيه من المشقة ، وكما لا يجب الصوم على المسافر مع امكانه منه تخفيفاً عليه ، وكما تسقط الواجبات بالمرض الذي يخاف معه زيادة المرض وتأخر البرء ، وان كان فعلها ممكناً .

لكن هذه المواضع هي مما تختلف فيها الشرائع ؛ فقد يوجب الله فى شريعة ما يشق ، ويحرم ما يشق تحريمه : كالآصار والأغلال التى كانت على بني اسرائيل ، وقد يخفف فى شريعة اخرى كما قال المؤمنون: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) وكما قال الله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وقال : (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال : (يريد الله ان يخفف عنكم)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى قصة الأعرابي : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » وقال لمعاذ وابي موسى : « يسرا ولا تعسرا » وقال : « إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه » وقال : « لا تشددوا على انفسكم فيشدد الله عليكم فان اقواماً شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » وقال : « لا رهبانية فى الاسلام » وقال « لكني اصوم وافطر واقوم وانام واتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » وقال : « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته » وروى عنه انه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

واما كون الانسان مريداً لما امر به او كارهاً له فهذا لا تلتفت اليه الشرائع ، بل ولا امر عاقل ، بل الانسان مأمور بمخالفة هواه .

و« الارادة » هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار ، كما قال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً) وقال تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) وقال تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم

أعمالهم فيها) الآية وقال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) ونظائره كثيرة .

فان هذه الأصول ممهدة في الكتاب والسنة، وكلام العلماء والعارفين، وليس الغرض هنا تقريرها .

وإنما الغرض شيء آخر ، وهو انه إذا كان التكليف مشروطاً بالتمكن من العلم الذي اصله العقل ، وبالقدرة على الفعل فنقول : كل من هذين قد يزول بأسباب محظورة ، وبأسباب غير محظورة ، فاذا ازال عقله بشرب الخمر او البنج ونحوهما لم يزل عنه بذلك أثم بما يتركه من الواجبات ويفعله من المحرمات ، إذا كان السكر يقتضي ذلك ؛ بخلاف ما إذا زال بسبب غير محرم ، كالاغماء لمرض او خوف او سكر بشرب غير محرم ، مثل أن يجرع الخمر مكرهاً ، فان هذا لا إثم عليه .

واما قضاء الصلاة عليه عند أحمد وعند من يقول : يقضي صلاة يوم وليلة ، فذاك نظير وجوب قضائها على النائم والناسي ، ولا إثم عليها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس في النوم تفريط وإنما التفريط في اليقظة » وقال : « من نام عن صلاة او نسيها فليصلها إذا ذكرها فان ذلك وقتها لا كفارة لها إلا ذلك »

وكذلك « قدرة العبد » فانه لو فرط بعد وجوب الحج عليه حتى ضيع ماله بقي الحج فى ذمته ، وكذلك في استحلال المحرمات قال الله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) . فالضرورة بسبب محظور لا تستباح بها المحرمات ؛ بخلاف الضرورة التى هي بسبب غير محظور .

وقد اختلف العلماء فى العاصي بسفره هل يترخص ترخص المسافر؟ ومذهب الشافعي واحمد أنه لا يترخص .

فالأحوال التى ترد على العباد واهل المعرفة والزهاد ونحوهم مما توجب زوال عقل احدهم وعلمه ، حتى تجعله كالمجنون والموله والسكران والنائم ، او زوال قدرته حتى تجعله كالعاجز ، او تجعله كالمضطر الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره ، فان زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزه عن اداء واجبات ، وقد يوجب وقوعه فى محرمات .

فهؤلاء يقال فيهم : إن كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات ، ويفعلونه من المحرمات ، ولا يجوز ايضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من اقوالهم وافعالهم ، ولا نذمهم على ذلك ، بل قد يمدحون على ماوافقوا فيه الشريعة من

الأقوال والأعمال ، ويرفع عنهم اللوم فيما عذرهم فيه الشارع ، كما يقال في المجتهد المخطيء سواء ، بل المجتهد المخطىء نوع من هذا الجنس حيث سقط عنه اللوم لعجزه عن العلم .

وإن كان زوال ذلك بسبب محرم استحقوا الذم والعقاب على ما يتركونه من واجب ويفعلونه من محرم .

مثال « الأول » من يسمع القرآن على الوجه المشروع ، فهاج له وجد يحبه ، او مخافة او رجاء ، فضعف عن حمله حتى مات او صعق او صاح صياحاً عظيما ، او اضطرب اضطرابا كثيراً ، فتولد عن ذلك ترك صلاة واجبة ، او تعدى على بعض الناس ، فان هذا معذور فى ذلك ؛ فان هذا في هذه الحال بمنزلة عقلاء المجانين المولهين الذين حصل لهم الجنون ؛ مع انهم من الصالحين واهل المعرفة ، إما لقوة الوارد الذي ورد عليهم ؛ واما لضعف قلوبهم عن حمله ؛ واما لانحراف امزجتهم وقوة الخلط ؛ واما لعارض من الجن ؛ فان هؤلاء كما بلغنا عن الامام أبى محمد المقدسي حيث سئل عنهم فقال : هؤلاء قوم اعطاهم الله عقولاً واحوالاً ؛ فسلب عقولهم وابقى احوالهم ، واسقط ما فرض بما سلب .

ولهذا كان هذا الصنف والذي قبله موجوداً فى التابعين ومن

بعدهم ؛ لا سيا في عباد البصريين ، فان فيهم من مات من سماع القرآن كزرارة بن اوفى ، وابى جهير الضرير وغيرهما ،

واما الصحابة فان حالهم كان اكمل من ان يكون فيهم مجنون او مصعوق ؛ ومن هؤلاء ايضاً من غلب عليه الذكر لله والتوحيد له والمحبة حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه ؛ كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه ، فيقول احدهم فى هذه الحال : انا الحق ، او سبحانى ، او ما في الجبة الا الله . ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة حتى قال : ابسط سجادتى على جهنم . فمن قال هذا فى حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران او المولـه ، وكان السبب الذي اوجب ذلك غير منهى عنه شرعاً فلا اثم عليه .

ومثال « الثانى » : ما قد يحصل عند سماع المكاء والتصدية لكثير من اهل السماع ، فانه قد ينشد أشعاراً فيها ما يخالف الشرع بأصوات مخالفة للشرع ، ويكون الانسان فيه استعداد فيوجب ذلك اختلاطاً وزوال عقل ، حتى يقتل بعضهم بعضاً ، اما ظاهراً واما باطناً بالهمة والقلوب ، ويوجب أيضاً من ترك واجبات الشريعة ، ومن الاعتداء على المؤمنين فى الدين والدنيا ما الله به عليم.

وكذلك قد يسلك أحدهم عبادات غير شرعية فى الاعتقادات والأعمال فتورثه تلك العبادات والأعمال أحوالاً قوية قاهرة يترك بها الواجبات ويفعل بها المحرمات أعظم مما يفعله الملك الجبار ، اذا سكر بشرب الخمر بالنفوس والأموال .

واذا خوطب أحدهم فى حال صحوه وعقله قال : كنت مغلوباً ، وورد علي وارد فعل بى هذا ، والحكم للوارد ، وهذه حال كثير من خفراء العدو وكثير ممن يعين الكفرة والظلمة ، ويعتدي على المسلمين والمؤمنين من أهل الاحوال ، ويقول : انه مغلوب فى ذلك ، وأنه ورد عليه وارد اوجب ذلك ، وانه خوطب بذلك الفعل .

فيقال : اما زوال عقلك حتى صرت لا تفهم امر الله ونهيه وزوال قدرتك حتى صرت مضطراً الى تلك الأفعال ، وان كنت صادقا فى ذلك فسببه تفريطك وعدوانك اولاً حتى صرت فى حال المجانين والسكارى ، فأنت بمنزلة شارب الخمر الذي سكر منها ، والمتعرض للعشق حتى يعشق فيفعل فيه العشق الافاعيل ، اذ لافرق بين سكر الأصوات والصور والشراب ؛ فان هذا سكر الأجسام وهذا سكر النفوس وهذا سكر الأرواح ، فاذا كان السبب محظور لم يكن السكران معذوراً فى دين الاسلام .

ولهذا انما تقع هذه الأحوال ممن فيه نصرانية يميل بسببها الى السكر كما يفعله النصارى فى الشراب والأصوات والصور ، ولهذا كان هؤلاء فى عالم الضلال .

وأما قولك : انك خوطبت بذلك وأمرت فمن اي الجهتين ؟ أمن جهة الكلمات الدينية ؟ أم من جهة الكلمات الكونية ؟ .

فالأولى مثل قوله : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقوله : (هو الذي بعث فى الأميين) وقوله : (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات) .

والثانية مثل قوله : (أمرنا مترفيها) وقوله : (بعثنا عليكم عباداً لنا) وقوله : (انا ارسلنا الشياطين) فان ذكرت انه من الجهة « الأولى » فباطل بخلاف الكتاب والسنة .

وان اقررت انه من « الثانية » فصحيح ، لكن هذا حال الكفار والمنافقين مثل ابليس وفرعون ونمرود ، وسائر من اطاع الأوامر الكونية ، وتبع الارادة القدرية واعرض عن الأوامر الشرعية ، ولم يقف عند الارادة الدينية .

فتدبر هذا الأصل فانه عظيم نافع جداً ، فتتكشف به الأحوال المخالفة للشرع . وانقسام أهلها إلى معذور وموزور ، كانقسامها الى

مسطور على صاحبه ومغفور بمنزلة الأحوال الصادرة عن غير اهل العبادات والزهادات من العقل والصحو ، ومن الاغماء والسكر والجنون ومن الاضطرار والأختيار ، فان احوال الملوك والأمراء واحوال الهداة والعلماء ، واحوال المشايخ والفقراء تشترك فى هذه القاعدة الشريفة ، وتحكم الشريعة فيها بالفرقان .

وإذا ضم إلى ذلك ان مايصدر من ذوي الأحوال من كشف علمي او تأثير قدري ليس بمستلزم لولاية الله ، بل ولا للصلاح ، بل ولا للايمان ، إذ قد يكون هذا الجنس فى كافر ومنافق وفاسق وعاص ، وانما اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ففرق بين ولاية الله وبين الأحوال ، كما فرق بين خلافة النبوة وبين جنس الملك ، وفرق بين العلم الذي ورثته الأنبياء ، وبين جنس الكلام ، فبين هذين النوعين خصوص وعموم ، فقد يكون الرجل ولياً لله له حال تأثير وكشف ، وقد يكون ولياً ليس له تلك الحال بكما لها ، وقد يكون له شيء من هذه الأحوال وليس ولياً لله ، كما قد يكون خليفة نبي مطاعا وقد يكون خليفة نبي مستضعفاً ، وقد يكون جباراً مطاعا ليس من النبوة في شيء ، وقد يكون عالماً ليس متكلما بما يخالف كلام الأنبياء ، وقد يكون عالماً متكلما بكلام الأنبياء .

فصـــــل

واعلم ان عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات فى هذا القدر وغيره انما وقع فى الامـة فى اواخر خلافـة الخلفاء الراشدين ، كما اخــبر به النبي صلى الله عليـه وسـلم حيث قال : « من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثـيراً ، فعليـكم بسنتى ، وسنة الخلفـاء الراشدين المهديين من بعدي » .

ومعلوم انـه إذا استقام « ولاة الامور » الذين يحكمون في النفوس والاموال استقام عامة الناس ، كما قال أبو بكر الصديق فيما رواه البخاري فى صحيحه للمرأة الاحمسية لما سألته فقالت : « ما بقاؤنا على هــذا الامر الصالح » ؟ قال : « ما استقامت لـكم أئمتـكم » وفى الأثر « صنفان إذا صلحوا صلح الناس : العلماء و الامراء » : أهل الكتاب واهل الحديد ، كما دل عليه قوله : (ولقد ارسلنا) الآية .

وهم « أولوا الامر » فى قـوله : (اطيعوا الله واطيعوا الرســول وأولى الامر منكم) .

وكذلك من جهتهم يقع الفساد كما جاء فى الحديث مرفوعا ، وعن جماعة من الصحابة « ان اخوف ما خاف عليكم زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون » فالأئمة المضلون هم الامراء . والعالم والمجادل هم العلماء ، لكن (احدهما) صحيح الاعتقاد يزل ، وهو العالم كما يقع من أئمة الفقهاء اهل السنة والجماعة .

و (الثاني) كالمتفلسفة والمتكلمين الذين يجادلون بشبهات القرآن مع انهم فى الحقيقة منسلخون من آيات الله ، وانما احتجاجهم به دفعاً للخصم ، لا اهتداء به واعتماداً عليه ؛ ولهذا قال : « جدال منافق بالقرآن » فان السنة والاجماع تدفع شبهته .

والدين القائم بالقلب من الايمان علماً وحالاً هو « الاصل » ، والاعمال الظاهرة هي « الفروع » وهي كمال الايمان .

فالدين اول ما يبنى من اصوله ويكمل بفروعه ، كما انزل الله بمكة اصوله من التوحيد والامثال التى هي المقاييس العقلية ، والقصص والوعد والوعيد ، ثم أنزل بالمدينة — لما صار له قوة — فروعه الظاهرة من الجمعة والجماعة ، والأذان والاقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا ، والميسر وغير ذلك من واجباته ومحرماته .

فأصوله تمد فروعه وتثبتها ، وفروعه تكمل اصوله وتحفظهـا ، فاذا وقع فيه نقص ظاهر فانمـا يقع ابتداء من جهـة فروعه ، ولهـذا قال صلى الله عليه وسلم « اول ماتفقدون من دينكم الامانة ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة » وروى عنه انه قال : « اول مايرفع الحكم بالامانة » و « الحكم » هو عمل الأمراء وولاة الأمور ، كما قال تعـالى : (ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها وإذا حكمتم بـين الناس ان تحكموا بالعـدل) . وأما « الصلاة » فهي اول فرض ، وهي من اصول الدين والايمان ، مقرونة بالشهادتين ، فلا تذهب إلا فى الآخر ، كما قال صلى الله عليـه وسـلم : « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فأخبر ان عوده كبدئه .

فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين ، وصـار ملكا ظهر النقص في الأمراء ، فلا بد ان يظهر ايضاً فى اهل العلم والدين فحدث في آخـر خلافة علي بدعتا الخوارج والرافضة ، إذ هي متعلقة بالامامة والخلافة ، وتوابع ذلك من الاعمال والاحكام الشرعية .

وكان ملك « معاوية » ملـكا ورحمة ، فلما ذهب معاوية ـــ رحمة الله عليه ـــ وجاءت امارة « يزيد » وجرت فيها فتنة قتل « الحسين » بالعراق ، وفتنة أهل « الحرة » بالمدينـة ، وحصروا مـكة ، لما قام عبد الله بن الزبير .

ثم مات يزيد وتفرقت الأمة : ابن الزبير بالحجاز ، وبنوا الحكم بالشام ، ووثب المختار بن أبي عبيد وغيره بالعراق . وذلك فى اواخر عصر الصحابة ، وقد بقى فيهم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وغيرهم ، حدثت « بدعة القدرية والمرجئة » فردها بقايا الصحابة كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الأسقع وغيرهم — رضي الله عنهم — مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافض .

وعامة ما كانت القدرية إذ ذاك يتكلمون فيه : أعمال العباد ، كما يتكلم فيها المرجئة ، فصار كلامهم فى الطاعة والمعصية ، والمؤمن والفاسق ونحو ذلك من مسائل « الأسماء والأحكام » ، و « الوعد » و « الوعيد » ولم يتكلموا بعد فى ربهم ولا فى صفاته الا [في] أواخر عصر صغار التابعين ، من حين أواخر « الدولة الأموية » حين شرع « القرن الثالث » — تابعوا التابعين — ، ينقرض أكثرهم — فان الاعتبار فى القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه ، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة ، حتى انه لم يكن بقى من أهل بدر إلا نفر قليل ، وجمهور التابعين باحسان . انقرضوا فى أواخر عصر أصاغر الصحابة فى امارة ابن الزبير وعبد الملك ، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا فى أواخر الدولة الأموية ؛ وأوائل الدولة العباسية — وصار

فى ولاة الأمور كثير من الأعاجم ، وخرج كثير من الأمر عن ولاية العرب وعربت بعض الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم ، وظهر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : « ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد ، ويحلف ولا يستحلف » ـــ حدث ثلاثة أشياء .

« الرأي » و « الكلام » و « التصوف » .

وحدث « التجهم » وهو نفى الصفات . وبازائه « التمثيل » .

فكان جمهور الرأي من الكوفة ؛ إذ هو غالب على أهلها مع ما كان فيهم من التشيع الفاحش . وكثرة الكذب فى الرواية ، مع ان فى خيار اهلها من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة امر عظيم ؛ لكن الغرض ان فيها نشأ كثرة الكذب فى الرواية . وكثرة الآراء فى الفقه والتشيع فى الأصول ، وكان جمهور الكلام والتصوف فى البصرة .

فانه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ؛ ومن اتبعهما من اهل الكلام والاعتزال .

وظهر احمد بن علي الهجيمي [1] الذي صحب عبد الواحد بن زيد ،

---

(١) فى ميزان الاعتدال: احمد بن عطاء الهجيمي البصرى الزاهد .

وعبد الواحد صحب الحسن البصرى ومن اتبعه من المتصوفة ، وبنى دويرة للصوفية ؛ هي اول ما بنى فى الاسلام ، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يسمونهم « الفقرية » وكانوا يجتمعون في دويرة لهم .

وصار لهؤلاء من الكلام المحدث طريق يتدينون به ، مع تمسكهم بغالب الدين .

ولهؤلاء من التعبد المحدث طريق يتمسكون به مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع ، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى ان احدهم يموت او يغشى عليه .

ولهؤلاء حال في الكلام والحروف حتى خرجوا به الى تفكير اوقعهم فى تحير .

وهؤلاء اصل امرهم « الكلام » .

وهؤلاء اصل امرهم « الارادة » .

وهؤلاء يقصدون « بالكلام » التوحيد ؛ ويسمون نفوسهم الموحدين .

وهؤلاء يقصدون « بالارادة » التوحيد ويسمون نفوسهم اهل

التوحد والتجريد .

وقد كتبت قبل هذا في « القواعد » ما في طريقي اهل الكلام والنظر وأهل الارادة والعمل من الانحراف ، إذا لم يقترن بمتابعة الرسول . كما بينت في « قاعدة كبيرة » ان اصل العلم والهدى والدين هو الإيمان بالله ورسوله ، واستصحاب ذلك في جميع الأقوال والأعمال .

وكان « علماء المدينة » اقرب من هؤلاء وهؤلاء في القول والعمل إذ لم ينحرفوا انحراف الطائفتين من الكوفيين والبصريين : هوى ورواية ورأيا وكلاما وسماعا ، وإن كان في بعضهم نوع انحراف لكن هم اقرب .

واما « الشاميون » فكان غالبهم مجاهدين ، واهل اعمال قلبية ، اقرب الى الحال المشروع من صوفية البصريين إذ ذاك .

ولهذا تجد كتب « الكلام ؛ والتصوف » انما خرجت في الأصل من البصرة . فمتكلمة المعتزلة ائمتهم بصريون : مثل ابى الهذيل العلاف وابى علي الجبائي وابنه ابي هاشم وابى عبد الله [1] ، وابى الحسين

---

(١) بالأصل كلمة غير متضحة .

البصري ، وكذلك متكلمة الكلابية والأشعرية : كعبد الله بن سعيد ابن كلاب ؛ وابى الحسن الاشعري وصاحبه ابى الحسن الباهلى والقاضي ابى بكر بن الباقلانى وغيرهم .

وكذلك كتب « المتصوفة ومن خلط التصوف بالحديث والكلام » ككتب الحارث بن اسد المحاسبي ، وابى الحسن بن سالم ، وابى سعيد الاعرابى وابى طالب المكي .

وقد شرك هؤلاء من البغداديين والخراسانيين والشاميين خلق .

لكن الغرض ان الاصول من ثم .

كما ان « علم النبوة » من الايمان والقرآن ؛ وما يتبع ذلك من الفقه والحديث واعمال القلوب انما خرجت من الامصار التى يسكنها جمهور اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهي الحرمان والعراقان والشام : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام ، وسائر الامصار تبع .

فالقراء السبعة من هذه الامصار ؛ وكذلك ائمة اهل الحديث واتباعهم اهل المدينة واهل البصرة كالزهري ومالك ، وكقتادة وشعبة ويحيى ابن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي .

واهل الكوفة فيهم الصادق والكاذب .

واهل الشام لم يكن فيهم كثير كاذب ، ولا ائمة كبار فى القراءة والحديث ، وكذلك ائمة الفقهاء ، فمالك عالم اهل المدينة . والثوري وأبو حنيفة وغيرهما من أهل الكوفة . وابن جريج وغيره من أهل مكة ؛ وحماد بن سلمة وحماد بن زيد من أهل البصرة ، والأوزاعي وطبقته بالشام ، وقد قيل إن مالكا إنما احتذي موطأه على كتاب حماد بن سلمة ، وقيل : ان كتاب ابن جريج قبل ذلك .

ثم الشافعي وان كان أصله مكياً فانه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بمصره .

وكذلك الامام احمد : وإن كان أجداده بصريين فانه تفقه على طريقة أهل الحديث غير متقيد بالبصريين ، ولا غيرهم . كما ان عبد الله ابن المبارك ، واسحاق بن ابراهيم ، ومحمد بن اسماعيل البخاري ، وغيرهم من الخراسانيين ، وكذلك أئمة الزهاد والعباد من هذه الأمصار ، كما ذكره ابو الفرج بن الجوزي فى « صفوة الصفوة » .

فالعلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما ما جاء عمن بعدهم فلا ينبغي ان يجعل

اصلاً ، وان كان صاحبه معذوراً ، بل مأجوراً لاجتهاد او تقليد .

فمن بنى الكلام فى العلم : الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة ، وكذلك من بنى الارادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الاعمال وفروعها من الاحوال القلبية والاعمال البدنية على الايمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقد اصاب طريق النبوة ، وهذه طريق أئمة الهدى .

تجد « الامام احمد » إذا ذكر أصول السنة قال : هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكتب كتب التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين . وكتب الحديث والآثار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وعلى ذلك يعتمد فى أصوله العلمية وفروعه ، حتى قال فى رسالته الى خليفة وقته « المتوكل » : لا أحب الكلام فى شيء من ذلك إلا ما كان فى كتاب الله ، او في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . او الصحابة او التابعين ، فاما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود .

وكذلك فى « الزهد » و « الرقاق » و « الاحوال » ،فانه اعتمد فى «كتاب الزهد » على المأثور عن الانبياء صلوات الله عليهم من آدم الى محمد ، ثم على طريق الصحابة والتابعين . ولم يذكر من بعدهم ، وكذلك وصفه لآخذ العلم ان يكتب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن الصحابة ، ثم عن التابعين . — وفى رواية اخرى — ثم أنت في التابعين مخير .

وله كلام فى « الكلام الكلامي » . و « الرأي الفقهي » وفي « الكتب الصوفية » ، و « السماع الصوفى » ليس هذا موضعه . يحتاج تحريره الى تفصيل ، وتبيين كيفية استعماله فى حال دون حال .

فانه ينبني على الأصل الذي قدمناه من انه قد يقترن بالحسنات سيئات إما مغفورة ، او غير مغفورة ، وقد يتعذر او يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علماً وعملاً . فاذا لم يحصل النور الصافى ، بأن لم يوجد الا النور الذي ليس بصاف . والا بقي الانسان فى الظلمة ، فلا ينبغي ان يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة . إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه ، والا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية ، إذا خرج غيره عن ذلك؛ لما رآه فى طرق الناس من الظلمة .

وإنما قررت هذه « القاعدة » ليحمل ذم السلف والعلماء للشيء على موضعه ، ويعرف ان العدول عن كمال خلافة النبوة المأمور به شرعا : تارة يكون لتقصير بترك الحسنات علماً وعملا ، وتارة بعدوان بفعل السيئات علماً وعملا ، وكل من الأمرين قد يكون عن غلبة ، وقد يكون مع قدرة .

فا « لأول » قد يكون لعجز وقصور ، وقد يكون مع قدرة وامكان .

و « الثاني » : قد يكون مع حاجة وضرورة ، وقد يكون مع غنى وسعة . وكل واحد من العاجز عن كمال الحسنات ، والمضطر إلى بعض السيئات معذور ، فان الله يقول : (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) — فى البقرة والطلاق — وقال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذ امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وقال سبحانه : (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) وقال : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وقال : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) وقال : (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) .

وهـذا (اصل عظيم) وهو : ان تعرف الحسنة فى نفسها علمـاً وعملا ، سواء كانت واجبة او مستحبة . وتعرف السيئة فى نفسها علماً وقولاً وعمـلا ، محظورة كانت او غـير محظورة — ان سميت غير المحظورة سيئـة — وان الدين تحصيل الحسنات والمصالح ، وتعطيل السيئات والمفاسد .

وانه كثيراً ما يجتمع في الفعل الواحـد ، او فى الشخص الواحـد الأمران ، فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه الى ما تضمنه احـدهما ، فلا يغفل عما فيه من النوع الآخر ، كما يتوجـه المدح والأمر والثواب الى ما تضمنه احدهما فلا يغفل عمـا فيه من النوع الآخر ، وقـد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية والفجورية ، لكن قد يسلب مع ذلك ما حمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية .

فهـذا طريق الموازنة والمعـادلة ، ومن سلـكه كان قائماً بالقسط الذي انزل الله له الكتاب والميزان .

فصـــــل

ثم المتقـدمون الذين وضعـوا طرق « الرأي » و « الـكلام » و « التصوف » وغير ذلك : كانوا يخلطون ذلـك بأصول من الكتـاب

والسنة والآثار ، اذ العهد قريب . وانوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور ، ولها برهان عظيم ، وان كان عند بعض الناس قد اختلط نورها بظلمة غيرها .

فاما المتأخرون فكثير منهم جرد ماوضعه المتقدمون . مثل من صنف فى « الكلام » من المتأخرين فلم يذكر إلا الأصول المبتدعة واعرض عن الكتاب والسنة ، وجعلها اما فرعين ، او آمن بهما مجملا ، او خرج به الأمر الى نوع من الزندقة ، ومتقدموا المتكلمين خير من متأخريهم .

وكذلك من صنف فى « الرأي » فلم يذكر الا رأى متبوعه واصحابه ، واعرض عن الكتاب والسنة ، ووزن ما جاء به الكتاب والسنة على رأى متبوعه ككثير من اتباع ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وغيرهم .

وكذلك من صنف فى « التصوف » و « الزهد » جعل الأصل ماروى عن متأخري الزهاد — واعرض عن طريق الصحابة والتابعين ، كما فعل صاحب « الرسالة » ابو القاسم القشيري ، وابو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي ، وابن خميس الموصلي في « مناقب الأبرار » ؛ وابو عبد الرحمن السلمى فى تاريخ الصوفية ، لكن ابو عبد الرحمن صنف ايضاً « سير السلف » من الأولياء والصالحين . وسير الصالحين من السلف ، كما صنف فى سير الصالحين من الخلف ونحوهم من ذكرهم لاخبار اهل

« الزهد والأحوال » من بعـد القرون الثلاثة ، من عنـد ابراهيم بن ادهم ، والفضيل بن عيـاض ، وابي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، ومن بعدهم . واعراضهم عن حال الصحابة والتابعين الذين نطق الكتـاب والسنة بمدحهم . والثناء عليهم ، والرضوان عنهم .

وكان احسن من هذا ان يفعلوا كما فعله ابو نعيم الأصبهاني فى « الحلية » من ذكره للمتقدمين والمتأخرين. وكذلك ابو الفرج بن الجوزي فى « صفوة الصفوة » وكذلك ابو القاسم التيمي فى « سير السلف » وكذلك (١) ابن اسد بن موسى ، ان لم يصعدوا الى طريقة عبد الله بن المبارك . واحمد بن حنبل . وهنـا دبن السرى وغيرهم فى كتبهم فى الزهد ، فهذا هذا . والله اعلم واحكم .

فان معرفة اصول الأشياء ومبادئهـا . ومعرفة الدين واصله ، واصل ما تولد فيه من اعظم العلوم نفعاً . اذ المرء ما لم يحط علمـاً بحقائق الأشيـاء التى يحتاج اليها يبقى فى قلبه حسكة .

وكان « للزهاد » عدة اسمـاء يسمون بالشام « الجوعيـة » ويسمون بالبصرة « الفقرية » و « الفكرية » ويسمون بخراسان « المغـاربة » ويسمون ايضاً « الصوفية والفقراء » .

---

(١) بياض قدر كلمة .

والنسبة فى « الصوفية » الى الصوف ؛ لأنه غالب لباس الزهاد ؛ وقد قيل هو نسبة الى « صوفة » بن مراد بن أُد بن طـابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون حول البيت . واما من قال : هم نسبة الى « الصفة » فقد قيل : كان حقه ان يقال : صفية ، وكذلك من قال : نسبة الى الصفا ؛ قيل له : كان حقه ان يقال : صفائية . ولو كان مقصوراً لقيل صفوية ؛ وان نسب الى الصفوة قيل : صفوية . ومن قال : نسبة الى الصف المقـدم بين يدي الله . قيل له : كان حقه ان يقال : صفية ، ولا ريب ان هذا يوجب النسبة والاضافة ؛ اذا اعطى الاسم حقه من جهة العربية .

لـكن « التحقيق » أن هـذه النسب انما اطلقت على طريق الاشتقـاق الأكبر والأوسط ، دون الاشتقاق الاصغر ؛ كما قال ابو جعفر « العـامة » اسم مشتق من العمى ؛ فراعوا الاشتراك فى الحروف دون الترتيب ، وهو الاشتقاق الاوسط ، او الاشتراك فى جنس الحروف دون اعيانها وهو الاكبر .

وعلى الاوسط قول نحاة الـكوفيين « الاسم » مشتق من السمة .

وكـذلك اذا قيل الصوفي من « الصفـا » وامـا اذا قيل هو من « الصفة » او « الصف » فهو على الاكبر .

وقد تكلم بهذا الاسم قوم من الأئمة : كأحمد بن حنبل ، وغيره

وقد تكلم به ابو سليمان الداراني وغيره ، واما الشافعي فالمنقول عنه ذم الصوفية ، وكذلك مالك ــ فيما اظن ــ وقد خاطب به احمد لأبي حمزة الخراساني ، وليوسف بن الحسين الرازي ، ولبدر بن ابى بدر المغازلي ، وقد ذم طريقهم طائفة من اهل العلم ، ومن العباد ايضاً من اصحاب احمد ومالك والشافعي وابى حنيفة واهل الحديث والعباد ، ومدحه آخرون .

و « التحقيق » فيه : انه مشتمل على الممدوح والمذموم ، كغيره من الطريق ، وان المذموم منه قد يكون اجتهاديا ، وقد لا يكون ، وانهم فى ذلك بمنزلة الفقهاء في « الرأي » فانه قد ذم الرأي من العلماء والعباد طوائف كثيرة ، و « القاعدة » التى قدمتها تجمع ذلك كله ، وفى المتسمين بذلك من اولياء الله وصفوته وخيار عباده مالا يحصى عده . كما فى اهل « الرأي » من اهل العلم والايمان من لايحصى عدده إلا الله . والله سبحانه اعلم .

وبهذا يتبين لك ان البدعة فى الدين وان كانت فى الأصل مذمومة كما دل عليه الكتاب والسنة ، سواء فى ذلك البدع القولية والفعلية . وقد كتبت فى غير هذا الموضع ان المحافظة على عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة » متعين ، وانه يجب العمل بعمومه ، وان من اخذ يصنف « البدع » إلى حسن وقبيح ، ويجعل ذلك

ذريعة إلى ان لا يحتج بالبدعة على النهي فقد اخطأ ، كما يفعل طائفة من المتفقهة ، والمتكلمة والمتصوفة ، والمتعبدة ؛ اذا نهوا عن « العبادات المبتدعة » و « الكلام في التدين المبتدع » ادعوا ان لا بدعة مكروهة الا ما نهى عنه ، فيعود الحديث الى ان يقال : « كل ما نهى عنه » او « كل ما حرم » او « كل ما خالف نص النبوة فهو ضلالة » وهذا اوضح من ان يحتاج الى بيان ، بل كلما لم يشرع من الدين فهو ضلالة .

وما سمى « بدعة » وثبت حسنه بادلة الشرع فأحد « الامرين » فيه لازم :

اما ان يقال : ليس ببدعة فى الدين ، وان كان يسمى بدعة من من حيث اللغة . كما قال عمر : « نعمت البدعة هذه »

واما ان يقال : هذا عام خصت منه هذه الصورة لمعارض راجح ، كما يبقى فيما عداها على مقتضى العموم كسائر عمومات الكتاب والسنة وهذا قد قررته فى « اقتضاء الصراط المستقيم » وفى « قاعدة السنة والبدعة » وغيره .

وإنما « المقصود هنا » ان ما ثبت قبحه من البدع وغير البدع من المنهى عنه في الكتاب والسنة ، او المخالف للكتاب والسنة إذا صدر عن شخص من الأشخاص فقد يكون على وجه يعذر فيه : اما

لاجتهاد او تقليد يعذر فيه ، وإما لعدم قدرته كما قد قررته في غير هذا الموضع ، وقررته ايضاً فى اصل « التكفير والتفسيق » المبنى على أصل الوعيد .

فان نصوص « الوعيد » التى فى الكتاب والسنة ، ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها فى حق المعين ، إلا اذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع . هذا فى عذاب الآخرة فان المستحق للوعيد من عذاب الله ولعنته وغضبه فى الدار الآخرة خالد فى النار ، او غير خالد ، واسماء هذا الضرب من الكفر والفسق ، يدخل فى هذه « القاعدة » سواء كان بسبب بدعة اعتقادية او عبادية ، او بسبب فجور فى الدنيا ، وهو الفسق بالاعمال .

فأما احكام الدنيا فكذلك ايضاً ؛ فان جهاد الكفار يجب ان يكون مسبوقاً بدعوتهم ؛ اذ لا عذاب الا على من بلغته الرسالة ، وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت الا بعد قيام الحجة .

وهنا

قاعدة شريفة

ينبغي التفطن لها : وهو ان ما عاد من الذنوب باضرار الغير فى دينه ودنياه فعقوبتنا له فى الدنيا اكبر ، واما ما عاد من الذنوب بمضرة الانسان فى نفسه فقد تكون عقوبته فى الآخرة اشد ، وان كنا نحن لا نعاقبه فى الدنيا .

واضرار العبد فى دينه ودنياه هو ظلم الناس ، فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة فى الدنيا لا محالة لكف ظلم الناس بعضهم عن بعض ، ثم هو نوعان :

(احدهما) : منع ما يجب لهم من الحقوق ، وهو التفريط .

و (الثاني) : فعل ما يضر به وهو العدوان . فالتفريط في حقوق العباد [1] .

---

(١) خروم في الاصل .

ولهذا يعاقب الداعية إلى البدع بما لا يعاقب به الساكت ، ويعاقب من اظهر المنكر بمالا يعاقب به من استخفى به ، ونمسك عن عقوبة المنافق في الدين وان كان في الدرك الاسفل من النار .

وهذا لأن الاصل ان تكون العقوبة من فعل الله تعالى ، فانه الذي يجزي الناس على اعمالهم في الآخرة ، وقد يجزيهم ايضاً في الدنيا . واما نحن فعقوبتنا للعباد بقدر ما يحصل به اداء الواجبات وترك المحرمات بحسب امكاننا ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وقال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال : (والفتنة اكبر من القتل) .

ولهذا من تاب من الكفار والمحاربين وسائر الفساق قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة التي لحق الله ، فاذا اسلم الحربي قبل القدرة عليه عصم دمه واهله وماله ، وكذلك قاطع الطريق والزاني والسارق والشارب إذا تابوا قبل القدرة عليهم لحصول المقصود بالتوبة واما إذا تابوا بعد القدرة لم تسقط العقوبة كلها ؛ لأن ذلك يفضي إلى تعطيل الحدود وحصول الفساد ؛ ولأن هذه التوبة غير موثوق بها ؛ ولهذا اذا اسلم الحربي عند القتال صح اسلامه لأنه اسلم قبل القدرة عليه ،

بخلاف من اسلم بعد الاسر فانه لايمنع استرقاقه وان عصم دمه .

ويبنى على هذه « القاعدة » : انه قد يقر من الكفار والمنافقين بلا عقوبة من يكون عذابه فى الآخرة اشد إذا لم يتعد ضرره الى غيره : كالذين يؤتون الجزية عن يد وهم صاغرون ، والذين اظهروا الاسلام والتزموا شرائعه ظاهراً مع نفاقهم ؛ لأن هذين الصنفين كفوا ضررهم فى الدين والدنيا عن المسلمين ، ويعاقبون فى الآخرة على ما اكتسبوه من الكفر والنفاق ، واما من اظهر مافيه مضرة فانه تدفع مضرته ولو بعقابه وان كان مسلماً فاسقاً او عاصياً او عدلاً مجتهداً مخطئاً ، بل صالحاً او عالماً ، سواء فى ذلك المقدور عليه والممتنع .

مثال المقدور عليه انما يعاقب من اظهر الزنا والسرقة وشرب الخمر وشهادة الزور ، وقطع الطريق وغير ذلك لما فيه من العدوان على النفوس والاموال والابضاع ، وان كان [مع] هذا حال الفاسق فى الآخرة خيرا من حال اهل العهد الكفار ، ومن حال المنافقين ؛ إذ الفاسق خير من الكافر والمنافق بالكتاب والسنة والاجماع .

وكذلك يعاقب من دعا إلى بدعة تضر الناس فى دينهم ؛ وان كان قد يكون معذوراً فيها فى نفس الأمر لاجتهاد او تقليد .

وكذلك نجوز قتال « البغاة » : وهم الخارجون على الامام او غير الامام بتأويل سائغ مع كونهم عدولا . ومع كوننا تنفذ احكام قضائهم ونسوغ ما قبضوه من جزية او خراج او غير ذلك . إذ الصحابة لاخلاف فى بقائهم على العدالة . وذلك ان التفسيق انتفى للتأويل السائغ . وأما القتال : فليؤدوا ما تركوه من الواجب . وينتهوا عما ارتكبوه من المحرم وان كانوا متأولين .

وكذلك نقيم الحد على من شرب النبيذ المختلف فيه ، وان كانوا قوما صالحين ، فتدبر كيف عوقب اقوام فى الدنيا على ترك واجب او فعل محرم بين فى الدين او الدنيا ، وان كانوا معذورين فيه لدفع ضرر فعلهم فى الدنيا ، كما يقام الحد على من تاب بعد رفعه إلى الامام وان كان قد تاب توبة نصوحا ، وكما يغزو هذا البيت جيش من الناس فبينما هم ببيداء من الارض إذ خسف بهم وفيهم المكره فيحشرون على نياتهم وكما يقاتل جيوش الكفار وفيهم المكره كأهل بدر لما كان فيهم العباس وغيره ، وكما لو تترس الكفار بمسلمين ولم يندفع ضرر الكفار إلا بقتالهم ، فالعقوبات المشروعة والمقدورة قد تتناول فى الدنيا من لا يستحقها فى الآخرة . وتكون فى حقه من جملة المصائب كما قيل فى بعضهم : القاتل مجاهد والمقتول شهيد .

وعلى هذا فما امر به آخر اهل السنة من ان داعية اهل البدع

يهجر فلا يستشهد ولا يروى عنه . ولا يستفتى ولا يصلى خلفه ، وقد يكون من هذا الباب : فان هجره تعزير له وعقوبة له جزاء لمنع الناس من ذلك الذنب الذي هو بدعة او غيرها ، وان كان فى نفس الامر تائباً او معذوراً ؛ إذ الهجرة مقصودها أحد شيئين : اما ترك الذنوب المهجورة واصحابها ، وإما عقوبة فاعلها ونكاله . فأما هجره بترك[1] فى غير هذا الموضع .

ومن هذا الباب هجر الامام احمد للذين اجابوا فى المحنة قبل القيد ولمن تاب بعد الاجابة ، ولمن فعل بدعة ما ؛ مع ان فيهم أئمة في الحديث والفقه والتصوف والعبادة ؛ فان هجره لهم وللمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم ، كما ان الثلاثة الذين خلفوا لما امر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بهجرهم لم يمنع ذلك ما كان لهم من السوابق . حتى قد قيل ان اثنين منهما شهدا بدراً ، وقد قال الله لاهل بدر : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وأحدهم كعب بن مالك شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد أهل العقبة ، فهذا « اصل عظيم » ان عقوبة الدنيا المشروعة من الهجران إلى القتل لايمنع ان يكون المعاقب عدلا أو رجلا صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة ؛ وبين عقوبة الآخرة ، والله سبحانه اعلم .

---

(١) خرم في الاصل مقدار نصف سطر .

فصـــــل

ومما يناسب « هــذا الباب » قولهم : فــلان يسلم إليه حاله أو لا يسلم إليه حاله ؛ فان هذا كثيراً ما يقع فيه النزاع فيما قد يصدر عن بعض المشائخ والفقراء والصوفية من أمور يقال : إنها تخالف الشريعة ، فمن يرى أنها منكرة وان انـكار المنكر من الدين ، ينكر تلك الامور ، وينكر عــلى ذلك الرجل ، وعلى مــن احسن به الظن ويبغضه ويذمه ويعاقبـه ، ومن راى ما فى ذلك الرجل من صلاح وعبــادة : كزهد واحوال وورع وعلم لا ينكرها بــل يراها سائغة او حسنة او يعرض عن ذلك .

وقد يغلو كل واحد من هذين : حتى يخــرج « بالاول » انـكاره الى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد ، متبعاً لظاهر من ادلة الشريعة ، ويخرج « بالثاني » إقراره إلى الاقرار بما يخالف دين الاسلام مما يعلم بالاضطرار ان الرسول جاء بخلافه ، إتباعاً في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر ، و « الاول » يكثر فى الموسوية ومن انحرف منهم إلى يهودية و « الثاني » يكثر فى العيسوية ومن انحرف منهم إلى نصرانية .

و (الاول) كثيراً ما يقع فى ذوي العلم لكن مقروناً بقسوة وهوى .

و (الثاني) : كثيراً ما يقع في ذوي الرحمة لكن مقروناً بضلال وجهل .

فأما « الامة الوسط » : فلهم العلم والرحمة ، كما اخبر عن نفسه بقوله : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) وقال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شيء) وقال : (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً) وكذلك وصف العبد الذي لقيه موسى حيث قال : (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) .

والعدل في « هذا الباب » قولاً وفعلاً ان تسليم الحال له معنيان :

(احدهما) : رفع اللوم عنه بحيث لا يكون مذموماً ولا مأثوماً (١) .

(والثاني) : تصويبه على ما فعل بحيث يكون محموداً مأجوراً . « فالاول » عدم الذم والعقاب . و « الثاني » : وجود الحمد والثواب . « الاول » : عدم سخط الله وعقابه . و « الثاني » : وجود رضاه وثوابه . ولهذا

---

(١) خرم في الاصل .

تجد المنكرين غالباً فى إثبات السخط والذم والعقاب ، والمقرين فى إثبات الرضا والحمد والثواب ، وكلاهما قد يكون مخطئاً ويكون الصواب في « امر ثالث وسط » ، وهو انه لا حمد ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب .

وبيان ذلك : ان ذلك الامر الصادر عنه سواء كان قولاً اوفعلاً ، إذا علم انه مخالف للكتاب والسنة ، بحيث يكون قولاً باطلاً او عملاً محرماً فانه يعذر فى موضعين :

(احدهما) : عدم تمكنه من العلم به .

و (الثانى) عدم قدرته على الحق المشروع .

مثال (الاول) : ان يكون صاحب الحال مولها مجنوناً قد سقط عنه القلم ، فهذا إذا قيل فيه : يسلم له حاله ، بمعنى انه لا يذم ولا يعاقب ؛ لا بمعنى تصويبه فيه ؛ كما يقال فى سائر المجانين فهو صحيح .

وان عنى به ان ذلك القول صواب فهذا خطأ .

وكذلك إذا كان ذلك الحال صادراً عنه باجتهاد ، كمسائل الاجتهاد المتنازع فيها بين اهل العلم والدين . فان هذا إذا قيل : يسلم إليه حاله ، كما يقال : يقر على اجتهاده ، بمعنى انه لا يذم ولا يعاقب فهو صحيح .

واما إذا قيل ذلك بمعنى انه صواب او صحيح فلا بد من دليل على تصويبه . والا فمجرد القول ، او الفعل الصادر من غير الرسول ليس حجة على تصويب القائل او الفاعل ، فاذا علم ان ذلك الاجتهاد خطأ كان تسليم حاله بمعنى رفع الذم عنه لا بمعنى اصابته . وكذلك اذا اريد بتسليم حاله واقراره انه يقر على حكمه فلا ينقض ، او على فتياه فلا تنكر ، او على جواز اتباعه لمن هو من اهل تقليده واتباعه ، بأن للقاصرين ان يقلدوا ويتبعوا من يسوغ تقليده واتباعه من العلماء والمشايخ فيما لم يظهر لهم أنه خطأ ، لكن بعض هذا يدخل في القسم الثاني الذى لم يعلم مخالفته للشريعة .

وتسليم الحال في مثل هذا إذا عرف انه معذور ، او عرف انه صادق فى طريقه ، وان هذا الأمر قد يكون اجتهاداً منه ، فهذه « ثلاثة مواضع » يسلم إليه فيها حاله لعدم تمكنه من العلم ، وخفاء الحق عليه فيها على وجه يعذر به .

ومثال (الثانى) : عدم قدرته — ان يرد عليه من الأحوال ما يضطره الى ان يخرق ثيابه ، او يلطم وجهه ، او يصيح صياحاً منكراً ، او يضطرب اضطراباً شديداً . فهذا اذا عرف ان سبب ذلك لم يكن محرماً ، وانه مغلوب عليه سلم اليه حاله ، وان شك هل هو مغلوب او متصنع فان عرف منه الصدق قبل هذا يسلم اليه حاله ،

وان عرف كذبه انكر عليه ، وان شك فيه توقف فى التسليم والانكار حتى يتبين امره ، كما يفعل بمن شهد شهادة ، او اتهم بسرقة . فان ظهر صدقه وعدله قبلت الشهادة ودفعت اليهم ، وان ظهر كذبه وخيانته ردت الشهادة ، وعوقب على السرقة . وان اشتبه الأمر توقف فيه ؛ فان المؤمن وقاف متبين ، هكذا قال الحسن البصري .

وكذلك إذا ترك الواجبات مظهراً انه مغلوب لا يقدر على فعلها : مثل ان يترك الصلاة مظهراً انه بمنزلة المغمى عليه ، والنائم الذي لا يتمكن من فعلها . كما قد يعترى بعض المصعوقين من وارد خوف الله او محبته ، او نحو ذلك بحيث يسقط تمييزه فلا يمكنه الصلاة ، فهو فيما يتركه من الواجبات نظير ما يرتكبه من المحرمات ، فتسليم الحال بمعنى عدم اللوم قد يراد به الحكم بأنه معذور ، وقد يراد به ترك الحكم بأنه ملوم .

هذا فيما يعلم من الاقوال والافعال انه مخالف للشرع بلا ريب ، كالشطحات المأثورة عن بعض المشائخ ، كقول ابن هود : إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتى على جهنم ، وكون الشبلي كان يحلق لحيته ويمزق ثيابه حتى ادخلوه المارستان مرتين ، وما يحكى عن بعضهم انه قال : إذا كانت لك حاجة فتعال إلى قبري واستغث به وكترك آخر صلاة الجمعة خلف امام صالح لكونه دعا لسلطان وقته وسماه العادل ، وترك آخر الصلاة خلف امام لما كوشف به من حديث نفسه ، وما يحكى عن عقلاء

المجانين الذين قيل فيهم : ان الله اعطاهم عقولا واحوالا فسلب عقولهم وترك احوالهم ، واسقط ما فرض بما سلب .

فجماع هذا ان هذه الامور تعطى حقها من الكتاب والسنة ، فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والامر والنهي وجب اتباعه ، ولم يلتفت الى من خالفه كائناً من كان ، ولم يجز اتباع احد في خلاف ذلك كائناً من كان ، كما دل عليه الكتاب والسنة واجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته وان الرجل الذي صدر عنه ذلك يعطى عذره حيث عذرته الشريعة بأن يكون مسلوب العقل ، أو ساقط التمييز أو مجتهداً مخطئاً اجتهاداً قولياً أو عملياً ، أو مغلوباً على ذلك الفعل او الترك بحيث لا يمكنه رد ما صدر عنه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله ولا يمكنه اداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله ويكون هذا الباب نوعه محفوظاً بحيث لايتبع ماخالف الكتاب والسنة ولا يجعل ذلك شرعة ولا منهاجا ؛ بل لا سبيل إلى الله ولا شرعة إلا ما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واما الاشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجوه المتقدمة فيعذرون ، ولا يذمون ، ولا يعاقبون . فان كل احد من الناس قد يؤخذ من قوله وافعاله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما من الأئمة الا من له أقوال وافعال لا يتبع عليها ، مع انه لا يذم عليها ، واما الاقوال والأفعال التي لم يعلم قطعاً مخالفتها للكتاب والسنة ، بل

هي من موارد الاجتهاد التى تنازع فيها اهل العلم والايمان ؛ فهذه الأمور قد تكون قطعية عند بعض من بين الله له الحق فيها ؛ لكنه لايمكنه ان يلزم الناس بما بان له ولم يبن لهم ، فيلتحق من وجه بالقسم الأول . ومن وجه بالقسم الثانى .

وقد تكون اجتهادية عنده ايضاً فهذه تسلم لكل مجتهد ، ومن قلده طريقهم تسليما نوعياً بحيث لا ينكر ذلك عليهم ، كما سلم فى القسم الأول تسليما شخصياً .

واما الذي لا يسلم اليه حاله : فثل ان يعرف منه انه عاقل يتوله ليسقط عنه اللوم ككثير من المنتسبة إلى الشيخ احمد بن الرفاعى ، و « اليونسية » فيما يأتونه من المحرمات ، ويتركونه من الواجبات ، او يعرف منه انه يتواجد ويتساكر فى وجده ليظن به خيراً ، ويرفع عنه الملام فيما يقع من الأمور المنكرة ، او يعرف منه ان الحق قد تبين له ، وانه متبع لهواه ، او يعرف منه تجويز الانحراف عن موجب الشريعة المحمدية ، وانه قد يتفوه بما يخالفها ، وان من الرجال من قد يستغنى عن الرسول او له ان يخالفه ، او ان يجري مع القدر المحض المخالف للدين كما يحكى بعض الكذابين الضالين : ان اهل الصفة قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار لما انهزم اصحابه وقالوا : نحن مع الله ، من غلب كنا معه ، وانه صبيحة الاسراء سمع منه ما جرى بينه وبين ربه من المناجاة

وانه تواجد فى السماء حتى وقع الرداء عنـه ، وان السر الذي اوصى اليه او دعه فى ارض نبت فيها اليراع فصار فى الشبابة بمعنى ذلك السر ، او يسوغ لأحد بعد محمـد الخروج عن شريعته ، كما ساغ للخضر الخروج عن امر موسى ، فانه لم يكن مبعوثاً اليه كما بعث محمد إلى الناس كافـة . فهؤلاء ونحوهم ممن يخالف الشريعة ويبين له الحق فيعرض عنـه يجب الانكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب .

وكذلك ايضا ينكر على من اتبع الاولـين المعذورين فى اقوالهـم وافعالهم المخالفة للشرع ، فان العذر الذي قام بهم منتف فى حقه فلا وجه لمتابعته فيه .

ومن اشتبه امره من اي القسمين هو : توقف فيـه ، فان الامام إن يخطىء فى العفو خير من ان يخطىء فى العقوبـة ، لكن لايتوقف في رد ما خالف الكتاب والسنة ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد » . فـلا يسوغ الخروج عن موجب العموم والاطلاق فى الكتاب والسنة بالشبهات ، ولا يسوغ الذم والعقوبة بالشبهات ، ولا يسوغ جعل الشيء حقا او باطـلا او صـوابا او خطأً بالشبهات ، والله يهدينا الصراط المستقيم : صراط الذين انعـم عليهـم من النبيين والصديقـين والشهداء والصالحـين ؛ غـير المغضوب عليهـم ولا الضالين .

وبقيت هنا « المسألة » التي تشتبه غالباً ، وهو ان يظهر من بعض الرجال المجهول الحال امر مخالف للشرع في الظاهر ، ويجوز ان يكون معذوراً فيه عذراً شرعياً . مثل وجد خرج فيه عن الشرع لا يدري أهو صادق فيه ام متصنع ، واخذ مال بغير اذن صاحبه في الظاهر ، مع تجويز ان يكون علم طيب قلب صاحبه به ، فهذا ان قيل : ينكر عليه جاز ان يكون معذوراً ، وان قيل : لا ينكر عليه لزم إقرار المجهولين على مخالفة الشرع في الظاهر ، فالواجب في مثل هذا ان يخاطب صاحبه اولا برفق ، ويقال له : هذا في الظاهر منكر ، واما في الباطن فأنت امين الله على نفسك ، فاخبرنا بحالك فيه اولا تظهره حيث يكون اظهاره فتنة ، وتسلك في ذلك طريقة لا تفضي إلى اقرار المنكرات ، ولا لوم البرآء .

والضابط ان من عرف من عادته الصدق والامانة اقر على ما لم يعلم انه كذب وحرام ، ومن عرف منه الكذب او الخيانة لم يقر على المجهول ، واما المجهول فيتوقف فيه .

وقال الشيخ الامام العالم العلامة

شيخ الاسلام ، بقية السلف الكرام ، العالم الربانى ، المقذوف فى قلبه النور القرآنى ، ابو العباس احمد بن تيمية الحرانى ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، واسكنه فسيح الجنان :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد ان محمداً عبده ورسوله ، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . فبلغ الرسالة ، وادى الامانة ، ونصح الامة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله مخلصاً حتى اتاه اليقين من ربه . صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين .

فصـــــل

في « العبادات » و « الفرق بين شرعيها وبدعيها » .

فان هذا باب كثر فيه الاضطراب كما كثر في باب الحلال والحرام . فان اقواماً استحلوا بعض ما حرمه الله ، واقواماً حرموا بعض ما احل الله تعالى ، وكذلك اقواماً احدثوا عبادات لم يشرعها الله بل نهى عنها .

و « اصـل الدين » ان الحلال ما احـله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، ليس لأحد ان يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله . قال الله تعالى : (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بـكم عـن سبيله ، ذلـكم وصاكم به لعلـكم تتقون) .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه خط خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينـه وشماله ، ثم قال : « هـذه سبيل الله ، وهـذه سبل على كل سبيل منهـا شيطان يدعو

اليه » ثم قرأ : (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

وقد ذكر الله تعالى فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ماذم به المشركين حيث حرموا مالم يحرمه الله تعالى ، كالبحيرة والسائبة ، واستحلوا ما حرمه الله كقتل اولادهم ، وشرعوا دينا لم يأذن به الله ، فقال تعالى : (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) ومنه اشياء هي محرمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش ، مثل الطواف بالبيت عراة وغير ذلك .

والكلام فى « الحلال والحرام » له مواضع أخر .

والمقصود هنا « العبادات » فنقول :

العبادات التي يتقرب بها الى الله تعالى منها ما كان محبوبا لله ورسوله مرضياً لله ورسوله ، اما واجب واما مستحب ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها

في يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه » .

ومعلوم ان الصلاة منها فرض ، وهي الصلوات الخمس ، ومنها نافلة كقيام الليل وكذلك الصيام فيه فرض ، وهو صوم شهر رمضان ومنه نافلة كصيام ثلاثة ايام من كل شهر ، وكذلك السفر الى المسجد الحرام فرض والى المسجدين الآخرين : مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس ــ مستحب .

وكذلك الصدقة منها ما هو فرض ومنها ما هو مستحب ، وهو العفو كما قال تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا ابن آدم ! انك ان تنفق الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » والفرق بين الواجب والمستحب له موضع آخر غير هذا . والمقصود هنا الفرق بين ما هو مشروع سواء كان واجباً او مستحباً وما ليس بمشروع .

فالمشروع هو الذي يتقرب به الى الله تعالى ، وهو سبيل الله ،

وهو البر والطاعة والحسنات والخير والمعروف ، وهو طريق السالكين ومنهاج القاصدين والعابدين ، وهو الذي يسلكه كل من أراد الله هدايته وسلك طريق الزهد والعبادة ، وما يسمى بالفقر والتصوف ونحو ذلك .

ولا ريب أن هذا يدخل فيه الصلوات المشروعة واجبها ومستحبها ، ويدخل فى ذلك قيام الليل المشروع وقراءة القرآن على الوجه المشروع ، والاذكار والدعوات الشرعية . وما كان من ذلك موقتاً بوقت كطرفي النهار ، وما كان متعلقاً بسبب كتحية المسجد ، وسجود التلاوة ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستخارة ، وما ورد من الاذكار والأدعية الشرعية فى ذلك . وهذا يدخل فيه أمور كثيرة ، وفى ذلك من الصفات ما يطول وصفه ، وكذلك يدخل فيه الصيام الشرعي كصيام نصف الدهر وثلثه أو ثلثيه أو عشره ، وهو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ويدخل فيه السفر الشرعي ، كالسفر إلى مكة والى المسجدين الآخرين ، ويدخل فيه الجهاد على اختلاف أنواعه ، واكثر الأحاديث النبوية فى الصلاة والجهاد ، ويدخل فيه قراءة القرآن على الوجه المشروع .

و « العبادات الدينية » أصولها : الصلاة والصيام والقراءة التى جاء ذكرها فى الصحيحين فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، لما اتاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « ألم أحدث انك قلت لأصومن

النهار ، ولأقومن الليل ، ولأقرأن القرآن فى ثلاث ؟ قال : بلى ! قال : فلا تفعل : فانك اذا فعلت ذلك هجمت له العين ، ونفهت له النفس ثم أمره بصيام ثلاثة ايام من كل شهر ، فقال اني اطيق اكثر من ذلك ، فانتهى به الى صوم يوم وفطر يوم فقال : اني اطيق اكثر من ذلك فقال : لا أفضل من ذلك وقال : افضل الصيام صيام داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر اذا لاقى . وافضل القيام قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وأمره ان يقرأ القرآن فى سبع » .

ولما كانت هذه العبادات هي المعروفة قال فى حديث الخوارج الذي فى الصحيحين : « يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فذكر اجتهادهم بالصلاة والصيام والقراءة ، وانهم يغلون فى ذلك حتى تحقر الصحابة عبادتهم فى جنب عبادة هؤلاء .

وهؤلاء غلوا في العبادات بلا فقه فآل الأمر بهم إلى البدعة فقال : « يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما وجدتموهم فاقتلوهم ، فان فى قتلهم اجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » . فانهم قد استحلوا دماء المسلمين ، وكفروا من خالفهم . وجاءت فيهم الأحاديث

الصحيحة ، قال الامام احمد بن حنبل رحمه الله تعالى : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ، وقد اخرجها مسلم فى صحيحه وأخرج البخاري قطعة منها :

ثم هذه الأجناس الثلاثة مشروعة ؛ ولكن يبقى الكلام فى القدر المشروع منها ، وله صنف « كتاب الاقتصاد فى العبادة » . وقال أُبي بن كعب وغيره : اقتصاد فى سنة ، خير من اجتهاد فى بدعة.

والكلام فى سرد الصوم وصيام الدهر سوى يومي العيدين وايام التشريق وقيام جميع الليل ، هل هو مستحب ؟ كما ذهب الى ذلك طائفة من الفقهاء والصوفية والعباد ، او هو مكروه ــ كما دلت عليه السنة وان كان جائزاً ؟ لكن صوم يوم وفطر يوم افضل ، وقيام ثلث الليل افضل ، ولبسطه موضع آخر .

اذ المقصود هنا الكلام فى اجناس عبادات غير مشروعة حدثت فى المتأخرين كالخلوات فانها تشتبه بالاعتكاف الشرعي . والاعتكاف الشرعي فى المساجد كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله هو واصحابه من العبادات الشرعية .

واما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه بغار حراء قبل الوحي ، وهذا خطأ ؛

فان ما فعله صلى الله عليــه وسلم قبل النبوة إن كان قــد شرعه بعــد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه والا فلا . وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعــد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون . وقــد اقام صــلوات الله عليه بمكــة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ، ودخل مكة فى عمرة القضاء . وعام الفتح اقام بهــا قريباً من عشرين ليلة ، وآتاها في حجة الوداع ، واقام بها أربع ليال ، وغار حراء قريب منه ولم يقصده .

وذلك ان هذا كانوا يأتونه فى الجاهلية ويقال : ان عبد المطلب هو سن لهم اتيانه لانه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التى جاء بها بعــد النبوة صلوات الله عليه ، كالصلاة والاعتكاف فى المساجد فهذه تغني عن اتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي ، فانــه لم يكن يقرأ بل قال له الملك عليه السلام : (اقرأ) قال صلوات الله عليه وسلامه « فقلت لست بقاريء » ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة ؛ ولهــذا لما صلاها النبي صــلى الله عليه وسلم نهاه عنها من نهاه من المشركين كابي جهل قال الله تعالى : (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ أرأيت إن كان على الهدى ، او امر بالتقوى ؟ ارأيت ان كذب وتولى ؟ الم يعلم بان الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية . كلا لاتطعه واسجد واقترب) .

و « طائفة » يجعلون الخلوة أربعــين يوما ويعظمون امر الاربعينية ،

ويحتجون فيها بان الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، وقد روى ان موسى عليه السلام صامها وصام المسيح ايضاً اربعين لله تعالى وخوطب بعدها . فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزل ، كما يقولون فى غار حراء حصل بعده نزول الوحي .

وهذا ايضاً غلط فان هذه ليست من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت والمسلمون لا يسبتون ، وكما حرم فى شرعه اشياء لم تحرم فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا تمسك بشرع منسوخ ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة .

وقد جرب ان من سلك هذه العبادات البدعية اتته الشياطين ، وحصل له تنزل شيطاني ، وخطاب شيطانى ، وبعضهم يطير به شيطانه ، وأعرف من هؤلاء عدداً طلبوا ان يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين ؛ لانهم خرجوا عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم التى امروا بها . قال تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون ؛ انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وان الظالمين بعضهم اولياء بعض ، والله ولي المتقين) .

وكثير منهم لا يحد للخلوة مكانا ولا زمانا بل يأمر الانسان ان يخلو فى الجملة .

ثم صار اصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية : الصلاة والصيام والقراءة والذكر . واكثرهم يخرجون الى أجناس غير مشروعة . فمن ذلك طريقة ابى حامد ومن تبعه ، وهولاء يأمرون صاحب الخلوة ان لا يزيد على الفرض ، لا قراءة ولا نظراً فى حديث نبوي ولا غير ذلك ، بل قد يأمرونه بالذكر ، ثم قد يقولون ما يقوله ابو حامد : ذكر العامة : « لا اله الا الله » وذكر الخاصة : « الله ، الله » وذكر خاصة الخاصة : « هو » « هو » .

والذكر بالاسم المفرد مظهراً ومضمراً بدعة فى الشرع وخطأ فى القول واللغة ، فان الاسم المجرد ليس هو كلاما لا ايمانا ولا كفراً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا اله الا الله ، والله اكبر » وفي حديث آخر : « افضل الذكر لا اله الا الله» وقال : « افضل ما قلت انا والنبيون من قبلي : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . والاحاديث فى فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة .

وأما ذكر الاسم المفرد فبدعة لم يشرع وليس هو بكلام يعقل ولا فيه ايمان ؛ ولهذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين انه ليس

قصدنا ذكر الله تعالى ، ولكن جمع القلب على شيء معين حتى تستعد النفس لما يرد عليها ، فكان يأمر مريده بأن يقول هذا الاسم مرات ، فاذا اجتمع قلبه القى عليه حالاً شيطانيا فيلبسه الشيطان ، ويخيل اليه انه قد صار فى الملأ الاعلى ، وانه اعطي مالم يعطه محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، ولا موسى عليه السلام يوم الطور . وهذا واشباهه وقع لبعض من كان فى زماننا .

وابلغ من ذلك من يقول ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان ، حتى يقول لافرق بين قولك : ياحي ! وقولك يا جحش ! . وهذا مما قاله لي شخص منهم وانكرت ذلك عليه ، ومقصودهم بذلك ان تجتمع النفس حتى يتنزل عليها الشيطان .

ومنهم من يقول : اذا كان قصد وقاصد ومقصود فاجعل الجميع واحداً فيدخله فى اول الامر فى وحدة الوجود .

واما ابو حامد وأمثاله ممن امروا بهذه الطريقة فلم يكونوا يظنون انها تفضي الى الكفر — لكن ينبغي ان يعرف ان البدع بريد الكفر — ولكن امروا المريد ان يفرغ قلبه من كل شيء ، حتى قد يأمروه ان يقعد في مكان مظلم ويغطي رأسه ويقول : الله ، الله . وهم يعتقدون انه اذا فرغ قلبه استعد بذلك فينزل على قلبه من المعرفة ما هو المطلوب ، بل

قد يقولون : انه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء .

ومنهم من يزعم انه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد يكثر من مدح هذه الطريقة فى « الاحياء » وغيره كما انه يبالغ فى مدح الزهد، وهذا من بقايا الفلسفة عليه . فان المتفلسفة كابن سينا وأمثاله يزعمون ان كل ما يحصل فى القلوب من العلم للأنبياء وغيرهم فانما هو من العقل الفعال ؛ ولهذا يقولون : النبوة مكتسبة ، فاذا تفرغ صفى قلبه ـ عندهم ـ وفاض على قلبه من جنس مافاض على الانبياء . وعندهم ان موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم كلم من سماء عقله ؛ لم يسمع الكلام من خارج ، فلهذا يقولون انه يحصل لهم مثل ما حصل لموسى واعظم مما حصل لموسى .

و « ابو حامد » يقول : انه سمع الخطاب كما سمعه موسى عليه السلام ، وان لم يقصد هو بالخطاب ، وهذا كله لنقص ايمانهم بالرسل وانهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض ، وهذا الذي قالوه باطل من وجوه :

(احدها) ان هذا الذي يسمونه « العقل الفعال » باطل لاحقيقة له كما قد بسط هذا فى موضع آخر .

(الثاني) ان ما يجعله الله فى القلوب يكون تارة بواسطة الملائكة

ان كان حقاً ، وتارة بواسطة الشياطين إذا كان باطلا والملائكة والشياطين احياء ناطقون كما قد دلت على ذلك الدلائل الكثيرة من جهة الانبياء ، وكما يدعي ذلك من باشره من اهل الحقائق . وهم يزعمون ان الملائكه والشياطين صفات لنفس الانسان فقط . وهذا ضلال عظيم .

(الثالث) ان الانبياء جاءتهم الملائكة من ربهم بالوحي ، ومنهم من كلمه الله تعالى فقربه وناداه ، كما كلم موسى عليه السلام لم يكن ما حصل لهم مجرد فيض كما يزعمه هؤلاء .

(الرابع) ان الانسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر ، فمن اين يعلم ان ما يحصل فيه حق ؟ هذا اما ان يعلم بعقل او سمع وكلاهما لم يدل على ذلك .

(الخامس) ان الذي قد علم بالسمع والعقل انه إذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين ، ثم تنزلت عليه الشياطين ، كما كانت تتنزل على الكهان ؛ فان الشيطان انما يمنعه من الدخول الى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذي ارسل به رسله فاذا خلا من ذلك تولاه الشيطان قال الله تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون) وقال الشيطان فيما اخبر الله عنه : (فبعزتك لاغوينهم اجمعين . الا عبادك منهم

المخلصين) وقال تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً ، وانما يعبد الله بما امر به على السنة رسله فمن لم يكن كذلك تولته الشياطين ،

وهذا باب دخل فيه امر عظيم على كثير من السالكين ، واشتبهت عليهم الاحوال الرحمانية بالاحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكهان والسحرة ، وظنوا ان ذلك من كرامات اولياء الله المتقين ، كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

(السادس) ان هذه الطريقة لو كانت حقاً فانما تكون فى حق من لم يأته رسول فاما من اتاه رسول وامر بسلوك طريق فمن خالفه ضل . وخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم قد امر امته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل .

فهذه الطريقة لو قدر انها طريق لبعض الانبياء لكانت منسوخة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول الى المطلوب الا بطريق الاتفاق ، بان يقذف الله تعالى فى قلب

العبـد إلهاماً ينفعه ؟ وهذا قد يحصل لـكل احد ليس هو من لوازم هذه الطريق .

ولكن التفريـغ والتخلية التى جاء بهـا الرسول ان يفرغ قلبه ممـا لا يحبه الله ويملؤه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرغه عن محبة غير الله ويملؤه بمحبة الله ، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفي عنه التوكل على غير الله ويثبت فيه التوكل على الله . وهذا هو الاسلام المتضمن للايمان الذي يمده القرآن ويقويه ، لا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايماناً » .

واما الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي مثل قول : لا إله إلا الله ـــ فهذا قد ينتفع به الانسان احياناً ، لكن ليس هذا الذكر وحـده هو الطريق الى الله تعالى دون ما عداه ، بل افضل العبادات البدنيـة الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء ، والمفضول في وقته الذي شرع فيه افضل من الفاضل كالتسبيح فى الركوع والسجود فانه افضل مـن القراءة ، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة افضل من القراءة ، ثم قد يفتح على الانسان فى العمل المفضول ما لا يفتح عليه فى العمل الفاضـل . وقد ييسر عليه هذا دون هذا فيكون هذا افضل فى حقه لعجزه عـن الأفضل ، كالجائع اذا وجد الخبز المفضول متيسراً عليه والفاضل متعسراً

عليـه فانه ينتفـع بهـذا الخبز المفضول ، وشبعـه واغتـذاؤه بـه حينئذ اولى به .

(السابـع) ان ابا حامد يشبه ذلك بنقش [اهل] الصين والروم على تزويق الحائط ، واولئك صقلوا حائطهم حتى تمثل فيه ما صقله هؤلاء ، وهذا قياس فاسد ؛ لان هـذا الذي فرغ قلبه لم يكن هنـاك قلب آخر يحصل له به التحلية كما حصل لهـذا الحائط من هـذا الحائط . بل هو يقول ان العلم منقوش فى النفس الفلـكية ؛ ويسمى ذلك « اللوح المحفوظ » تبعاً لابن سينا .

وقد بينا فى غير هذا الموضع ان « اللوح المحفوظ » الذي ذكره الله ورسوله ليس هـو النفس الفلـكية ، وابن سينا ومن تبعـه اخذوا اسماء جاء بها الشرع فوضعوا لها مسميات مخالفة لمسميات صاحب الشرع ، ثم صاروا يتكلمون بتلك الاسماء فيظن الجاهل انهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع ، فأخذوا مخ الفلسفة وكسوه لحاء الشريعة .

وهذا كلفظ « الملك » و « الملـكوت » و « الجبروت » و « اللوح المحفوظ » و « الملك » و « الشيطان » و « الحدوث » و « القـدم » وغير ذلك .

وقد ذكرنا من ذلك طرفاً فى الرد على « الاتحادية » لما ذكرنا قول ابن سبعين وابن عربى وما يوجد فى كلام أبى حامد ونحوه من اصول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يحرفون كلام الله ورسوله عن مواضعه، كما فعلت طائفة القرامطة الباطنية .

و (المقصود هنا) انه لو كانت العلوم تنزل على القلوب من النفس الفلكية كما يزعم هؤلاء فلا فرق في ذلك بين الناظر والمستدل والمفرغ قلبه . فتمثيل ذلك بنقش اهل الصين والروم تمثيل باطل .

ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة وقوت معين ، ولهم تنزلات معروفة . وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله كالتلمسانى . وهي تنزلات شيطانية قد عرفتها وخبرت ذلك من وجوه متعددة ، لكن ليس هذا موضع بسطها ، وانما المقصود التنبيه على هذا الجنس .

ومما يأمرون به الجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية ، بل سهر مطلق ، وجوع مطلق ، وصمت مطلق مع الخلوة ، كما ذكر ذلك ابن عربى وغيره ، وهي تولد لهم احوالاً شيطانية . وابو طالب قد ذكر بعض ذلك ؛ لكن ابو طالب اكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء . ولكن يذكر احاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة ،

من جنس احاديث المسبعات التى رواها عن الخضر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو كذب محض وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن ، ويذكر احياناً عبادات بدعية من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما ، وذكروا انه يزن الخبز بخشب رطب ، كلما جف نقص الأكل .

وذكروا صلوات الأيام والليالي ، وكلها كذب موضوعة ؛ ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك .

وانما الغرض التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية وهي « الخلوات البدعية » سواء قدرت بزمان او لم تقدر ، لما فيها من العبادات البدعية . إما التى جنسها مشروع ولكن غير مقدرة . وإما ما كان جنسه غير مشروع ؛ فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع فهو ما كان مأموراً به امر ايجاب او استحباب .

(فالأول) كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها كما قال تعالى : (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ومنه قوله تعالى عن الخليل : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) وقوله عن أهل

الكهف : (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأوا الى الكهف) فان اولئك لم يكونوا فى مكان فيه جمعة ولا جماعة ، ولا من يأمر بشرع نبي فلهذا اووا الى الكهف وقد قال موسى : (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) .

واما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع ، وذلك بالزهد فيه فهو مستحب ، وقد قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته يكف فيه بصره وسمعه .

واذا اراد الانسان تحقيق علم او عمل فتخلى فى بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة ، فهذا حق كما فى الصحيحين « ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل : اي الناس افضل ؟ قال : رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها يتتبع الموت مظانه ، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدع الناس الا من خير » وقوله : « يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة » دليل على ان له مالا يزكيه وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم ، فقد قال صلوات الله عليه : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة الا وقد استحوذ عليهم الشيطان » وقال : « عليكم بالجماعة فانما يأخذ الذئب القاصية من الغنم » .

فصـــــل

وهذه « الخلوات » قد يقصد اصحابها الأماكن التى ليس فيهـا أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلى فيه الصلوات الخمس ، إما مساجد مهجورة وإما غير مساجد : مثل الكهوف والغيران التى في الجبال ، ومثل المقابر لاسيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التى يقال ان بهـا اثر نبي أو رجل صالح ، ولهذا يحصل لهم فى هذه المواضع احوال شيطانية ، يظنون انها كرامات رحمانية .

فمنهم من يرى أن صاحب القبر قد جاء اليـه وقد مات من سنين كثيرة ويقول : أنا فلان ، وربما قال له : نحن إذا وضعنـا فى القبر خرجنا كما جرى للتونسي مع نعمان السلامي .

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الانس فى اليقظة والمنـام ، وقـد تأتي لمن لا يعرف فتقول : أنا الشيخ فلان او العـالم فلان ، وربما قالت : أنا ابو بكر وعمر وربما اتى في اليقظة دون المنام وقال : أنا المسيح ، أنا موسى ، أنا محمد ، وقد جرى مثل ذلك انواع اعرفها

وثم من يصدق بان الانبيـاء يأتون فى اليقظة فى صورهم ، وثم شيوخ لهم زهد وعلم وورع ودين يصدقون بمثل هذا .

ومن هؤلاء من يظن انه حين يأتي الى قبر نبي ان النبي يخرج من قبره فى صورته فيكلمـه . ومن هؤلاء من رأى في دائرة ذرى الكعبة صورة شيخ قال : انه ابراهيم الخليل ، ومنهم من يظن ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الحجرة وكلمه . وجعلوا هذا من كراماته ، ومنهم من يعتقد انه إذا سأل المقبور أجابه .

وبعضهم كان يحكي : ان ابن منده كان إذا اشـكل عليـه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأجابه . وآخر من اهل المغرب حصل له مثل ذلك ، وجعل ذلك من كراماته ، حتى قال ابن عبـد البر لمن ظن ذلك : ويحك أترى هـذا افضل من السابقين الأولين من المهاجرين والانصـار ؟ فهل فى هؤلاء من سأل النبي صلى الله عليه وسـلم بعد الموت واجابه ؟ وقـد تنازع الصحابة فى أشيـاء ، فهلا سألوا النبي صلى الله عليه وسـلم فأجابهم ، وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثه فهلا سألته فأجابها ؟

فصــــل

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه اجمعين قد أمرنا ان نؤمن بما أوتوه وان نقتدي بهم وبهداهم . قال تعالى : (قولوا آمنـا بالله وما أنزل الينا وما انزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بـين احد منهم ونحن له مسلمون) وقال تعالى : (اولئك الذين هـدى الله فبهداهم اقتده) ومحمـد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا نبي بعده ، وقـد نسخ بشرعه ما نسخه من شرع غيره ، فلم يبق طريق الى الله الا باتباع محمد صلى الله عليه وسـلم فما امر به من العبادات امر ايجاب او استحباب فهو مشروع ، و [كذلك] ما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله .

ولا يجوز ان يقال ان هذا مستحب او مشروع الا بدليل شرعي ولا يجوز ان يثبت شريعـة بحديث ضعيف ، لكن اذا ثبت ان العمل مستحب بدليل شرعي ، وروي له فضـائل بأسانيد ضعيفـة جاز ان تروى اذا لم يعلم انها كذب . وذلك ان مقادير الثواب غير معلومـة ، فاذا روي فى مقدار الثواب حديث لا يعرف انه كذب لم يجز ان يكذب

به ، وهذا هو الذي كان الامام احمد بن حنبل وغيره يرخصون فيه وفى روايات احاديث الفضائل . واما ان يثبتوا ان هذا عمل مستحب مشروع بحديث ضعيف فحاشا لله ، كما أنهم اذا عرفوا ان الحديث كذب فانهم لم يكونوا يستحلون روايته الا ان يبينوا انه كذب لقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من روى عني حديثاً يرى انه كذب فهو احد الكاذبين » .

وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التعبد فهو عبادة يشرع التأسي به فيه . فاذا خصص زمان او مكان بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سنة : كتخصيصه العشر الاواخر بالاعتكاف فيها وكتخصيصه مقام ابراهيم بالصلاة فيه ، فالتأسي به ان يفعل مثل مافعل ، على الوجه الذي فعل ؛ لأنه فعل .

وذلك انما يكون بان يقصد مثلما قصد ، فاذا سافر لحج او عمرة او جهاد وسافرنا كذلك كنا متبعين له ، وكذلك اذا ضرب لاقامة حد ؛ بخلاف من شاركه في السفر وكان قصده غير قصده ، او شاركه في الضرب وكان قصده غير قصده ، فهذا ليس بمتابع له ، ولو فعل فعلا بحكم الاتفاق مثل نزوله فى السفر بمكان ، او ان يفضل فى إداوته ماء فيصبه في اصل شجرة ، او ان تمشي راحلته فى احد جانبى الطريق ونحو ذلك ، فهل يستحب قصد متابعته في ذلك ؟ كان ابن عمر يحب ان

يفعل مثل ذلك . واما الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة فلم يستحبوا ذلك ؛ لأن هذا ليس بمتابعة له ، اذ المتابعة لا بد فيها من القصد ، فاذا لم يقصد هو ذلك الفعل بل حصل له بحكم الاتفاق كان فى قصده غير متابع له وابن عمر رضي الله عنه يقول : وان لم يقصده ؛ لكن نفس فعله حسن على اي وجه كان ، فاحب ان افعل مثله ، اما لأن ذلك زيادة فى محبته واما لبركة مشابهته له .

ومن هذا الباب اخراج التمر فى صدقة الفطر لمن ليس ذلك قوته واحمد قد وافق ابن عمر على مثل ذلك ، ويرخص فى مثل ما فعله ابن عمر وكذلك رخص احمد فى التمسح بمقعده من المنبر اتباعا لابن عمر . وعن احمد فى التمسح بالمنبر روايتان :

اشهرها انه مكروه كقول الجمهور واما مالك وغيره من العلماء فيكرهون هذه الأمور وان فعلها ابن عمر ؛ فان اكابر الصحابة كابي بكر وعمر وعثمان وغيرهم لم يفعلها . فقد ثبت بالاسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان فى السفر فرآهم ينتابون مكانا يصلون فيه فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اتريدون ان تتخذوا آثار انبيائكم مساجد ؟! انما هلك من كان قبلكم بهذا ، من ادركته فيه الصلاة فليصل فيه والا فليمض .

وهكذا للناس قولان فيما فعله من المباحات على غير وجه القصد هل متابعته فيه مباحة فقط او مستحبة ؟ على قولين في مذهب احمد وغيره كما قد بسط ذلك في موضعه، ولم يكن ابن عمر ولا غيره من الصحابة يقصدون الاماكن التي كان ينزل فيها ويبيت فيها مثل بيوت ازواجه ومثل مواضع نزوله في مغازيه ، وانما كان الكلام في مشابهته في صورة الفعل فقط ، وان كان هو لم يقصد التعبد به ، فاما الامكنة نفسها فالصحابة متفقون على انه لا يعظم منها الا ما عظمه الشارع .

فصل

واهل « العبادات البدعية » يزين لهم الشيطان تلك العبادات ويبغض اليهم السبل الشرعية حتى يبغضهم في العلم والقرآن والحديث ، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره ، وقد يبغض اليهم حتى الكتاب فلا يحبون كتاب ولا من معه كتاب ، ولو كان مصحفاً او حديثاً ؛ كما حكى النصرباذي انهم كانوا يقولون : يدع علم الخرق ويأخذ علم الورق، قال : وكنت استر الواحي منهم ، فلما كبرت احتاجوا الى علمي .

وكذلك حكى السري السقطي : ان واحداً منهم دخل عليه فلما رأى عنده محبرة وقلما خرج ولم يقعد عنده ؛ ولهذا قال سهل بن عبد

الله التستري : يامعشر الصوفية لاتفـارقوا السواد على البياض ، فما فارق احد السواد على البياض إلا تزندق . وقال الجنيد : علمنا هـذا مبني على الكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايقتدى به في هذا الشأن .

وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع او القرآن او يكون معه كتـاب او يكتب ؛ وذلك لأنهم استشعروا ان هـذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم ، فصـارت شياطينهم تهربهم من هـذا ، كما يهرب اليهودي والنصراني ابنه ان يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده في دينه . وكما كان قوم نوح يجعلون اصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه . وقال الله تعـالى عن المشركين : (وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلـكم تغلبون) وقال تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضـين ؛ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) . وهم من ارغب الناس فى السماع البدعي سماع المعازف. ومن ازهدهم فى السماع الشرعي سماع آيات الله تعالى .

وكان ممـا زين لهم طريقهم ان وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعـلم والكتب معرضين عـن عبادة الله تعـالى وسلوك سبيله ، اما اشتغـالا بالدنيا وإما بالمعاصي واما جهلا وتـكذيباً بما يحصل لأهل التأله والعبادة فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم ، وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه

من بعض الوجوه مـا بين اهل الملتين : هؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شيء . وهؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شيء ، وقد يظنون انهم يحصل لهم بطريقهم اعظم مما يحصل فى الكتب .

فمنهم من يظن انه يلقن القرآن بلا تلقين . ويحكون ان شخصاً حصل له ذلك ، وهذا كذب . نعم قد يكون سمع آيات الله فلما صفى نفسه تذكرها فتلاها . فان الرياضة تصقل النفس فيذكر اشيـاء كان قد نسيها ، ويقول بعضهم او يحكى أن بعضهم قال : اخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، واخـذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت . وهـذا يقع ، لكن منهم من يظن انمـا يلقى اليه من خطـاب او خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة ، وقد يكون من الشيطان وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني ، فان الفرق الذي لا يخطيء هو القرآن والسنة فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ .

وقد قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عـن السبيل ويحسبون انهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين ! فبئس القرين)

وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى : (وهذا ذكر مبارك انزلناه) وقال تعالى : (وما هو الا ذكر للعالمين) وقال تعالى :

(فاما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هـداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى ، قال رب لما حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً ؟! قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى : (ان هذا لقرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم اجراً كبيراً . وان الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما) وقال تعالى : (وكذلك اوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، الا الى الله تصير الأمور) وقال تعالى : (كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) وقال تعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) .

ثم ان هؤلاء لما ظنوا ان هـذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند انفسهم اعظم من اتباع الرسول . يقول احدهم : فلان عطيته على يد محمد ، وانا عطيتي من الله بلا واسطة . ويقول ايضاً : فلان يأخذ عن الكتاب ، وهذا الشيخ يأخذ عن الله ، ومثل هذا .

وقول القائل : « يأخذ عن الله ، واعطاني الله » لفظ مجمل ، فان

اراد به الاعطاء والاخذ العام وهو «الكوني الخلقي» اي : بمشيئة الله وقدرته حصل لي هذا ، فهو حق ، ولكن جميع الناس يشاركونه فى هذا ، وذلك الذي اخذ عن الكتاب هو ايضاً عن الله اخذ بهذا الاعتبار . والكفار من المشركين واهل الكتاب ايضاً هم كذلك ، وان اراد ان هذا الذي حصل له هو مما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه ، وهذا الخطاب الذي يلقى اليه هو كلام الله تعالى . فهنا طريقان :

(احدهما) : ان يقال له من اين لك ان هذا إنما هو من الله لا من الشيطان والقائه ووسوسته ؟ فان الشياطين يوحون الى أوليائهم وينزلون عليهم ، كما اخبر الله تعالى بذلك فى القرآن ، وهذا موجود كثيراً فى عباد المشركين واهل الكتاب وفى الكهان والسحرة ونحوهم وفى اهل البدع بحسب بدعتهم . فان هذه الاحوال قد تكون شيطانية وقد تكون رحمانية ، فلا بد من الفرقان بين أولياء الرحمن واولياء الشيطان ، والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو : (الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الرشاد والغي ، وبين طريق الجنة وطريق النار ، وبين سبيل اولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان . كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) انه يقال لهم : إذا كان جنس هـذه الأحوال مشتركا بين اهل الحق واهل الباطل فلا بد من دليل يبين ان ماحصل لـكم هو الحق .

(الطريق الثاني) ان يقال : بل هذا من الشيطان لأنه مخـالف لما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك انه ينظر فيما حصل له والى سببه والى غايته ، فان كان السبب عبادة غير شرعية مثل ان يقال له ! : اسجد لهذا الصنم حتى يحصل لك المراد ، او استشفع بصاحب هذه الصورة حتى يحصل لك المطلوب ، او ادع هـذا المخلوق واستغث به مثل ان يدعو الكواكب كما يذكرونه في كتب دعوة الكواكب ، او ان يدعو مخلوقاً كما يدعو الخالق سواء كان المخلوق ملـكا او نبيـاً او شيخاً ، فاذا دعاه كما يدعو الخالق سبحانه اما دعاء عبادة واما دعاء مسألة صار مشركا به ، فحينئذ ما حصل له بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين .

وكانت الشياطين تتراءى لهم احياناً ، وقد يخاطبونهم من الصنم ويخبرونهم ببعض الأمور الغـائبة . او يقضون لهم بعض الحوائـج ، فكانوا يبذلون لهم هـذا النفع القليل بمـا اشتروه منهم من توحيدهم وإيمانهم الذي هلـكوا بزواله كالسحر قال الله تعالى : (وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تـكفر ، فيتعلمون منهـما ما يفرقون

به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من احد إلا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون) .

وكذلك قد يكون سببه سماع المعازف وهـذا كما يذكر عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه أنه قال : « اتقوا الخمر فانها ام الخبائث ؛ وان رجلا سأل امرأة فقالت : لا افعل حتى تسجد لهذا الوثن ، فقال لا أشرك بالله ، فقالت : او تقتل هذا الصبي ؟ فقال : لا أقتل النفس التى حرم الله ، فقالت : او تشرب هذا القدح ؟ فقال هذا اهون ، فلما شرب الخمر قتل الصبي وسجد للوثن وزنا بالمرأة » .

و « المعازف » هي خمر النفوس ، تفعل بالنفوس اعظم مما تفعل حميا الكؤوس ، فاذا سكروا بالاصوات حل فيهم الشرك ومالوا إلى الفواحش وإلى الظلم ، فيشركون ويقتلون النفس التى حرم الله ويزنون .

وهذه « الثلاثة » موجودة كثيراً فى اهل « سماع المعازف » : سماع المكاء والتصدية ، أما « الشرك » فغالب عليهم بان يحبوا شيخهم أو غيره مثل ما يحبون الله ويتواجدون على حبه .

وأما « الفواحش » فالغناء رقية الزنا ، وهو من اعظم الأسباب

لوقوع الفواحش ، ويكون الرجل والصبي والمرأة في غاية العفة والحرية حتى يحضره ، فتنحل نفسه وتسهل عليه الفاحشة ويميل لهـا فاعلا او مفعولا به أو كلاهما كما يحصل بين شاربي الخمر وأكثر .

وأما « القتل » فان قتل بعضهم بعضاً في السماع كثير يقولون : قتله بحاله ويعدون ذلك من قوته ، وذلك ان معهم شياطين تحضرهم فأيهم كانت شياطينه اقوى قتل الآخر ، كالذين يشربون الخمر ومعهم أعوان لهم فاذا شربوا عربدوا فأيهم كانت اعوانه اقوى قتل الآخر ، وقد جرى مثل هذا لكثير منهم ، ومنهم من يقتل إما شخصاً وإما فرساً او غير ذلك بحاله ، ثم يقوم صاحب الثأر ويستغيث بشيخه فيقتل ذلك الشخص وجماعة معه : اما عشرة ، واما أقل او أكثر . كما جرى مثل هذا لغير واحد ، وكان الجهال يحسبون هذا من (باب الكرامات) .

فلما تبين لهم ان هذه أحوال شيطانية ، وان هؤلاء معهم شياطين تعينهم على الاثم والعدوان عرف ذلك من بصره الله تعالى وانكشف التلبيس والغش الذي كان لهؤلاء .

وكنت في اوائل عمري حضرت مع جماعة من اهل « الزهد والعبادة والارادة » فكانوا من خيار اهل هذه الطبقة . فبتنا بمكان وأرادوا ان

يقيموا سماعا وان احضر معهم فامتنعت من ذلك فجعلوا لي مكانا منفرداً قعدت فيه ، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بي فى حال وجده ويقول : يافلان قد جاءك نصيب عظيم تعال خذ نصيبك ، فقلت فى نفسي ثم اظهرته لهم لما اجتمعنا : انتم فى حل من هذا النصيب فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله فانى لا آكل منه شيئاً . وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم انه كان معهم الشياطين ، وكان فيهم من هو سكران بالخمر .

والذي قلته معناه ان هذا النصيب وهذه العطية والموهبة والحال سببها غير شرعي ، ليس هو طاعة لله ورسوله ولا شرعها الرسول فهو مثل من يقول : تعال اشرب معنا الخمر ونحن نعطيك هذا المال ، او عظم هذا الصنم ونحن نوليك هذه الولاية ونحو ذلك .

وقد يكون سببه نذراً لغير الله سبحانه وتعالى : مثل ان ينذر لصنم او كنيسة ، او قبر او نجم ، او شيخ ونحو ذلك من النذور التى فيها شرك ، فاذا اشرك بالنذر فقد يعطيه الشيطان بعض حوائجه كما تقدم فى السحر .

وهذا بخلاف النذر لله تعالى فانه ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى عن النذر وقال : « انه لا يأتى

بخير ، وانما يستخرج به من البخيل » وفى الصحيحين عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وفى رواية : « فان النذر يلقي ابن آدم الى القدر » فهذا المنهي عنه هو النذر الذي يجب الوفاء به منهي عن عقده ، ولكن اذا كان قد عقده فعليه الوفاء به كما فى صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصي الله فلا يعصه » .

وانما نهى عنه صلى الله عليه وسلم لانه لافائدة فيه الا التزام ما التزمه وقد لايرضى به فيبقى آثماً . وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيراً له ، والناس يقصدون بالنذر تحصيل مطالبهم ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان النذر لا يأتى بخير ، فليس النذر سبباً فى حصول مطلوبهم ، وذلك ان الناذر إذا قال : لله علي إن حفظني الله القرآن ان اصوم مثلا ثلاثة ايام ، او ان عافانى الله من هذا المرض ، او ان دفع الله هذا العدو ، او ان قضى عنى هذا الدين فعلت كذا ، فقد جعل العبادة التى التزمها عوضاً من ذلك المطلوب . والله سبحانه لا يقضي تلك الحاجة بمجرد تلك العبادة المنذورة ، بل ينعم على عبده بذلك المطلوب ليبتليه ايشكر ام يكفر ؟ وشكره يكون بفعل ما امره به وترك ما نهاه عنه .

واما تلك العبادة المنذورة فلا تقوم بشكر تلك النعمة ولا ينعم الله تلك النعمة ليعبده العبد تلك العبادة المنذورة التى كانت مستحبة فصارت

واجبة ؛ لانــه سبحانه لم يوجب تلك العبادة ابتــداء ، بل هو يرضى من العبد بان يؤدي الفرائض ويجتنب المحارم ، لكن هذا الناذر يكون قــد ضيع كثيراً من حقوق الله ثم بذل ذلك النذر لأجل تلك النعمة ، وتلك النعمة اجل من ان ينعم الله بها لمجرد ذلك المبذول المحتقر .

وان كان المبذول كثيراً والعبد مطيع لله : فهو أكرم على الله من ان يحوجه الى ذلك المبذول الكثير ؛ فليس النذر سبباً لحصول مطلوبه كالدعاء ، فان الدعاء من اعظــم الاسباب وكذلك الصدقة وغيرهــا من العبادات جعلها الله تعالى اسبابا لحصول الخير ودفع الشر اذا فعلها العبد ابتداء ، واما ما يفعله على وجه النذر فانه لا يجلب منفعة ولا يدفع عنه مضرة ، لكنه كان بخيــلا فلمــا نذر لزمــه ذلك ، فالله تعــالى يستخرج بالنــذر من البخيل ، فيعطى عــلى النــذر مالم يكن يعطيــه بدونــه والله اعلم .

سئل شيخ الاسلام

رحمه الله

ما عمل اهل الجنة ؟ وما عمل اهل النار ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

« عمل اهل الجنة » الايمان والتقوى ، وعمل اهل النار الكفر والفسوق والعصيان . فاعمال اهل الجنة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والايمان بالقدر خيره وشره والشهادتان : شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

ومن « اعمال اهل الجنة » : صدق الحديث ، واداء الامانة والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين وصلة الارحام والاحسان الى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم .

ومن « اعمال اهل الجنة » الاخلاص لله والتوكل عليه ، والمحبة له ولرسوله ، وخشية الله ورجاء رحمته ، والانابة اليه ، والصبر على حكمه والشكر لنعمه .

ومن « اعمال اهل الجنة » : قراءة القرآن وذكر الله ودعاؤه ومسألته والرغبة اليه .

ومن « اعمال اهل الجنة » : الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله للكفار والمنافقين .

ومن « اعمال اهل الجنة » : ان تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ؛ فان الله اعد الجنة للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين .

ومن « اعمال اهل الجنة » : العدل فى جميع الامور ، وعلى جميع الخلق حتى الكفار . وامثال هذه الاعمال .

واما « عمل اهل النار » : فمثل الاشراك بالله ، والتكذيب بالرسل والكفر والحسد ، والكذب والخيانة ، والظلم والفواحش ، والغدر وقطيعة ، الرحم والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من

روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجـزع عنـد المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله واعتـداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، ورجاء المخلوق دون الخالق ، والتوكل على المخلوق دون الخالق ، والعمل رياء وسمعة ، ومخالفـة الـكتاب والسنة وطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، والتعصب بالباطل ، والاستهزاء بآيات الله وجحد الحق ، والـكتمان لما يجب اظهاره من علم وشهادة .

ومن « عمل اهـل النار » السحر وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله بغـير الحق ، واكل مال اليتيم واكل الربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . .

وتفصيل « الجملتين » لا يمكن ؛ لكن « اعمال اهـل الجنة » كلهـا تدخل فى طاعة الله ورسوله ، و « اعمال اهل النار » كلها تدخل فى معصية الله ورسوله ، (ومن يطـع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتهـا الانهار خالدين فيهـا وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعـد حدوده يدخله ناراً خالداً فيهـا ، وله عذاب مهـين) والله اعـلم .

وقال الشيخ رحمه الله

فصـــــل

وأما قوله : هل الأفضل للسالك العزلة او الخلطة ؟

فهذه « المسألة » وان كان الناس يتنازعون فيها ؟ اما نزاعاً كلياً واما حالياً . فحقيقة الأمر : ان « الخلطة » تارة تكون واجبة او مستحبة ، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة ، وبالانفراد تارة . وجماع ذلك : ان « المخالطة » ان كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها ، وان كان فيها تعاون على الاثم والعدوان فهي منهي عنها ، فالاختلاط بالمسلمين فى جنس العبادات :كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما امر الله به ورسوله .

وكذلك الاختلاط بهم فى الحج وفى غزو الكفار والخوارج المارقين ، وان كان ائمة ذلك فجاراً ، وان كان فى تلك الجماعات فجار ،

وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به ايماناً : اما لانتفاعه به ، واما لنفعه له ، ونحو ذلك .

ولا بد للعبد من اوقات ينفرد بها بنفسه فى دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه واصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التى لا يشركه فيها غيره ، فهذه يحتاج فيها الى انفراده بنفسه ، اما فى بيته . كما قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه . واما فى غير بيته .

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ . واما مقدار ما يحتاج اليه كل انسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له فى كل حال فهذا يحتاج الى نظر خاص كما تقدم .

وكذلك « السبب وترك السبب » : فمن كان قادراً على السبب ، ولا يشغله عما هو انفع له فى دينه فهو مأمور به ، مع التوكل على الله ، وهذا خير له من ان يأخذ من الناس ولو جاءه بغير سؤال ، وسبب مثل هذا عبادة الله ، وهو مأمور ان يعبد الله ويتوكل عليه ، فان تسبب بغير نية صالحة ، او لم يتوكل على الله ، فهو مطيع فى هذا وهذا ، وهذه طريق الأنبياء والصحابة .

واما من كان من الفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون

ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف ، فهذا اما ان يكون عاجزاً عن الكسب او قادراً عليه بتفويت ما هو فيه اطوع لله من الكسب ، ففعل ما هو فيه اطوع هو المشروع فى حقه ،وهذا يتنوع بتنوع احوال الناس .

وقد تقدم ان الأفضل يتنوع « تارة » بحسب اجناس العبادات ، كما ان جنس الصلاة افضل من جنس القراءة ، وجنس القراءة افضل من جنس الذكر ، وجنس الذكر افضل من جنس الدعاء ، و« تارة » يختلف باختلاف الأوقات كما ان القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة .

و « تارة » باختلاف عمل الانسان الظاهر ، كما ان الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة ، وكذلك الذكر والدعاء فى الطواف مشروع بالأتفاق ، واما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف .

و « تارة » باختلاف الأمكنة : كما ان المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها ، والطواف بالبيت للوارد افضل من الصلاة ، والصلاة للمقيمين بمكة افضل .

و « تارة » باختلاف مرتبة جنس العبادة : فالجهاد للرجال افضل من الحج ، واما النساء فجهادهن الحج ، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها افضل من طاعتها لأبويها ؛ بخلاف الأيمة فانها مأمورة بطاعة ابويها .

و « تارة » يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه : فما يقدر عليه من العبادات افضل فى حقه مما يعجز عنه ، وإن كان جنس المعجوز عنه افضل ، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس ، ويتبعون اهواءهم .

فان من الناس من يرى ان العمل اذا كان افضل في حقه لمناسبة له ولكونه انفع لقلبه واطوع لربه يريد ان يجعله افضل لجميع الناس ، ويأمرهم بمثل ذلك .

والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة ، وجعله رحمة للعباد وهدياً لهم يأمر كل إنسان بما هو اصلح له ، فعلى المسلم ان يكون ناصحاً للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو اصلح له .

وبهذا تبين لك ان من الناس من يكون تطوعه بالعلم افضل له ، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد افضل ، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات

البدنية ـــ كالصلاة والصيام ـــ افضل له ، والأفضـــل المطلق ما كان اشبه بحـــال النبي صلى الله عليـــه وسلم باطنـــاً وظاهراً .

فان خير الـكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

والله سبحانه وتعالى اعلم .

وقال الشيخ[1]

الحمد لله رب العالمين واشهد ان لا إله الا الله وحده لاشريك له ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : اعلم أنه يجب على كل بالغ عاقل من الأنس والجن أن يشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله إلى جميع الخلق : انسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم ، وفرسهم وهندهم ، وبربرهم وررومهم ، وسائر أصناف العجم اسودهم وابيضهم ، والمراد بالعجم من ليس بعربي على اختلاف السنتهم .

فمحمد صلى الله عليه وسلم أرسل الى كل أحد : من الانس والجن كتابيهم وغير كتابيهم ، فى كل ما يتعلق بدينه من الأمور الباطنة والظاهرة ، فى عقائده وحقائقه ، وطرائقه وشرائعه ، فلا عقيدة إلا عقيدته ولا حقيقة إلا حقيقته ، ولا طريقة إلا طريقته ولا شريعة إلا شريعته ولا يصل احد من الخلق الى الله والى رضوانه وجنته وكرامته

---

(١) « مسألة فى اتباع الرسول بصريح المعقول » .

وولايته إلا بمتابعته باطنا وظاهراً فى الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة فى اقوال القلب وعقائده ، وأحـوال القلب وحقائقـه ، وأقوال اللسان وأعمال الجوارح .

وليس لله ولي إلا من اتبعه باطناً ، وظاهراً ، فصدقه فيما أخبر به من الغيوب ، والتزم طاعتـه فيما فرض عـلى الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات . فمن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزماً طاعته فيما أوجب ، وامر به فى الامور الباطنة التى فى القلوب والاعمال الظاهرة التى عـلى الابدان لم يكن مؤمناً فضلا عن ان يكون ولياً لله ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى ان يحصل فانـه لايكون مـع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من اداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتهـا وواجباتها إلا من اهل الاحوال الشيطانية ، المبعدة لصاحبها عن الله ، المقربة الى سخطه وعذابه .

لكن من ليس بمكلف من الاطفال والمجانين قـد رفع القلم عنهم ، فلا يعاقبون وليس لهم من الايمـان بالله وتقواه باطناً وظاهراً مايكونون به من اولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ، لكن يدخلون فى الاسلام تبعاً لآبائهم كما قال تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم ، وما التناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين) .

وهم مع عدم العقل لا يكونون ممن فى قلوبهم حقائق الايمان ومعارف أهل ولاية الله واحوال خواص الله ؛ لأن هذه الأمور كلهـا مشروطة بالعقل ؛ فالجنون مضاد العقل والتصديق والمعرفة واليقين والهدى والثناء ، وانما يرفـع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات . فالمجنون وان كان الله لا يعاقبه ويرحمه فى الآخرة فانه لايكون من أولياء الله المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم .

ومن ظن ان احداً من هؤلاء الذين لايؤدون الواجبـات ، ولا يتركون المحرمات سواء كان عاقلا او مجنوناً او مولها او متولهاً ، فمن اعتقد ان احداً من هؤلاء من اولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين ، وعباده الصالحـين وجنده الغالبين ، السابقين ، المقربين والمقتصدين الذين يرفع الله درجاتهم بالعلم والايمان مع كونه لايؤدي الواجبات ولا يترك المحرمات ، كان المعتقد لولاية مثل هذا كافراً مرتداً عن دين الاسـلام ، غـير شاهد ان محمداً رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، بل هو مكذب لمحمد صلى الله عليـه وسلم فيما شهد به ؛ لأن محمداً اخـبر عن الله أن أوليـاء الله هم المتقون المؤمنون قال تعالى : (ألا ان أوليـاء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعـالى: (يا ايهـا الناس انا خلقنا كم من ذكر وانثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

و « التقوى » أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله ، ولا يتقـرب ولي الله إلا بأداء فرائضــه ، ثم بأداء نوافله . قال تعـالى : « وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليـه ، ولا يزال عبـدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبـه » كما جاء فى الحديث الصحيح الالهي . الذي رواه البخاري .

فصـــــل

ومن احب الأعمال الى الله وأعظم الفرائض عنده الصلوات الخمس فى مواقيتها ، وهي اول ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة ، وهي التى فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج لم يجعل فيها بينه وبين محمد واسطة ، وهي عمود الاسلام الذي لا يقوم الا به ، وهي اهم امر الدين كما كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب يكتب الى عماله : إن اهم امركم عندي الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله اشد إضاعة .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » وقال : « العهـد الذي بيننا وبينهـم

الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . فمن لم يعتقد وجوبها على كل عاقل بالغ غير حائض ونفساء فهو كافر مرتد باتفاق أئمة المسلمين ، وان اعتقد انها عمل صالح وأن الله يحبها ويثيب عليها وصلى مع ذلك وقام الليل وصام النهار وهو مع ذلك لا يعتقد وجوبها على كل بالغ فهو أيضاً كافر مرتد ، حتى يعتقد انها فرض واجب على كل بالغ عاقل .

ومن اعتقد انها تسقط من بعض الشيوخ : العارفين والمكاشفين والواصلين ؛ او ان لله خواصاً لا تجب عليهم الصلاة ؛ بل قد سقطت عنهم لوصولهم الى حضرة القدس ، او لاستغنائهم عنها بما هو اهم منها او اولى . او ان المقصود حضور القلب مع الرب ، او ان الصلاة فيها تفرقة فاذا كان العبد فى جمعيته مع الله فلا يحتاج الى الصلاة ؛ بل المقصود من الصلاة هي المعرفة ، فاذا حصلت لم يحتج الى الصلاة، فان المقصود ان يحصل لك خرق عادة كالطيران فى الهواء ، والمشي على الماء او ملء الأوعية ماء من الهواء او تغوير المياه واستخراج ما تحتها من الكنوز ، وقتل من يبغضه بالأحوال الشيطانية . فمتى حصل له ذلك استغنى عن الصلاة ونحو ذلك .

او ان لله رجالاً خواصاً لا يحتاجون الى متابعة محمد صلى الله عليه وسلم بل استغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى . او ان كل

مـن كاشف وطار في الهواء او مشي على الماء فهو ولي سواء صـلى او لم يصل .

او اعتقد ان الصلاة تقبل من غير طهارة ، او ان المولهين والمتولهين والمجانين الذين يكونون فى المقابر والمزابل والطهارات والخانات والقمامين وغير ذلك من البقاع وهم لا يتوضئون ولا يصلون الصلوات المفروضات. فمن اعتقد ان هؤلاء اولياء الله فهو كافر مرتد عن الاسلام باتفاق ائمـة الاسلام ، ولو كان فى نفسه زاهداً عابداً . فالرهبان ازهد وأعبد ،وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول ، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون اتباعه ولكنهم لم يؤمنـوا بجميع ما جاء به ، بل آمنـوا ببعض وكفروا ببعض ، فصاروا بذلك كافرين كما قال تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونـكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بـين ذلك سبيلاً ، اولئـك هم الـكافرون حقاً ، واعتدنا للـكافرين عذاباً مهيناً ، والذين آمنـوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين احد منهم ، اولئك سوف يؤتيهم اجورهم وكان الله غفوراً رحيما) .

ومن كان مسلوب العقل او مجنوناً فغايته ان يكون القلم قد رفـع عنـه ، فليس عليه عقاب ، ولا يصح ايمانه ولا صلاته ولا صيـامه ولا شيء من اعماله ؛ فان الأعمال كلها لا تقبل الا مع العقل . فمن لا عقل

له لا يصح شيء من عباداته لا فرائضه ولا نوافله ، ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من اولياء الله ؛ ولهذا قال تعالى : (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) اي العقول وقال تعالى : (هل فى ذلك قسم لذى حجر) اي لذى عقل . وقال تعالى : (فاتقون يا اولى الألباب) وقال : (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقال تعالى : (انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) .

فانما مدح الله واثنى على من كان له عقل . فاما من لا يعقل فان الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط . بل قال تعالى عن اهل النار : (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير) وقال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون) وقال : (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلاً) .

فمن لا عقل له لا يصح ايمانه ولا فرضه ولا نفله ، ومن كان يهودياً او نصرانياً ثم جن واسلم بعد جنونه لم يصح اسلامه لا باطناً ولا ظاهراً . ومن كان قد آمن ثم كفر وجن بعد ذلك فحكمه حكم الكفار . ومن كان مؤمناً ثم جن بعد ذلك اثيب على ايمانه الذي كان فى

حال عقله ، ومن ولد مجنوناً ثم استمر جنونه لم يصح منه ايمان ولا كفر . وحكم المجنون حكم الطفل اذا كان ابواه مسلمين كان مسلماً تبعاً لأبويه باتفاق المسلمين ، وكذلك اذا كانت امه مسلمة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي واحمد .

وكذلك من جن بعد اسلامه يثبت لهم حكم الاسلام تبعاً لآبائهم . وكذلك المجنون الذي ولد بين المسلمين يحكم له بالاسلام ظاهراً تبعاً لابويه او لاهل الدار كما يحكم بذلك للأطفال . لا لاجل ايمان قام به فأطفال المسلمين ومجانينهم يوم القيامة تبع لآبائهم ، وهذا الاسلام لا يوجب له مزية على غيره ، ولا ان يصير به من اولياء الله المتقين الذين يتقربون اليه بالفرائض والنوافل . وقد قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا) فنهى الله عز وجل عن قربان الصلاة اذا كانوا سكارى حتى يعلموا ما يقولون .

وهذه الآية نزلت باتفاق العلماء قبل ان تحرم الخمر بالآية التي انزلها الله في « سورة المائدة » . وقد روى انه كان سبب نزولها : ان بعض الصحابة صلى باصحابه وقد شرب الخمر قبل ان تحرم فخلط في القراءة ، فأنزل الله هذه الآية ؛ فاذا كان قد حرم الله الصلاة مع السكر والشرب الذي لم يحرم حتى يعلموا ما يقولون ، علم ان ذلك يوجب ان لايصلي

احد حتى يعلم ما يقول . فمن لم يعلم ما يقول لم تحل له الصلاة ، وان كان عقله قد زال بسبب غير محرم ؛ ولهذا اتفق العلماء على انه لا تصح صلاة من زال عقله بأي سبب زال ، فكيف بالمجنون ؟ !

وقد قال بعض المفسرين — وهو يروى عن الضحاك — لاتقربوها وانتم سكارى من النوم . وهذا إذا قيل ان الآية دلت عليه بطريق الاعتبار او شمول معنى اللفظ العام ، وإلا فلا ريب ان سبب نزول الآية كان السكر من الخمر . واللفظ صريح فى ذلك ؛ والمعنى الآخر صحيح ايضاً . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا قام أحدكم يصلي بالليل فاستعجم القرآن على لسانه فليرقد ، فانه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه — وفى لفظ — إذا قام يصلي فنعس فليرقد » .

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة مع النعاس الذي يغلط معه الناعس . وقد احتج العلماء بهذا على ان النعاس لا ينقض الوضوء ؛ إذ لو نقض بذلك لبطلت الصلاة ، أو لوجب الخروج منها لتجديد الطهارة ، والنبي صلى الله عليه وسلم انما علل ذلك بقوله « فانه لا يدري لعله يريد أن يستغفر فيسب نفسه » فعلم أنه قصد النهي عن الصلاة لمن لا يدري ما يقول وان كان ذلك بسبب النعاس . وطرد ذلك أنه ثبت عنه فى الصحيح انه قال : « لا يصلي

احدكم وهو يدافع الأخبثين ولا بحضرة طعام » لما فى ذلك من شغل القلب . وقال أبو الدرداء : من فقه الرجل ان يبدأ بحاجته فيقضيها ثم يقبل على صلاته وقلبه فارغ .

فاذا كانت الصلاة محرمة مع ما يزيل العقل ولو كان بسبب مباح حتى يعلم ما يقول كانت صلاة المجنون ومن يدخل فى مسمى المجنون وان سمي مولها أو متولها اولى ان لا تجوز صلاته .

ومعلوم ان الصلاة « افضل العبادات » كما فى الصحيحين من ابن مسعود انه قال : « قلت : للنبي صلى الله عليه وسلم اي العمل احب الى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم اي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم اي ؟ قال : الجهاد . قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني » . وثبت ايضاً فى الصحيحين عنه انه جعل افضل الأعمال إيمان بالله ، وجهاد فى سبيله ، ثم الحج المبرور . ولا منافاة بينهما ؛ فان الصلاة داخلة فى مسمى الايمان بالله ، كما دخلت في قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) قال البراء ابن عازب وغيره من السلف : اي صلاتكم الى بيت المقدس .

ولهذا كانت الصلاة كالايمان لا تدخلها النيابة بحال فلا يصلى احد عن احد الفرض لا لعذر ولا لغير عذر . كما لا يؤمن احد عنه ، ولا

تسقط بحال كما لا يسقط الايمان ؛ بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضراً وهو متمكن من فعل بعض افعالها ، فاذا عجز عن جميع الأفعال ولم يقدر على الأقوال فهل يصلي بتحريك طرفه ويستحضر الأفعال بقلبه ؟ فيه قولان للعلماء ، وان كان الأظهر ان هذا غير مشروع .

فاذا كان كذلك تبين ان من زال عقله فقد حرم ما يتقرب به الى الله من فرض ونفل ، و « الولاية » هي الايمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل . فقد حرم ما به يتقرب اولياء الله إليه ؛ لكنه مع جنونه قد رفع القلم عنه فلا يعاقب ، كما لا يعاقب الأطفال والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليهم فى هذه الحال . ثم إن كان مؤمناً قبل حدوث الجنون به وله اعمال صالحة وكان يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل قبل زوال عقله كان له من ثواب ذلك الايمان والعمل الصالح ما تقدم ، وكان له من ولاية الله تعالى بحسب ما كان عليه من الايمان والتقوى ، كما لا يسقط ذلك بالموت ؛ بخلاف ما لو ارتد عن الاسلام ؛ فان الردة تحبط الاعمال ، وليس من السيئات ما يحبط الاعمال الصالحة إلا الردة . كما انه ليس من الحسنات ما يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فلا يكتب للمجنون حال جنونه مثل ما كان يعمل في حال إفاقته ، كما لا يكون مثل ذلك لسيئاته فى زوال عقله بالاعمال المسكرة والنوم ؛ لانه فى هذه الحال ليس له قصد صحيح ، ولكن في الحديث

الصحيح عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا مرض العبد او سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى غزوة تبوك « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟! قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » فهؤلاء كانوا قاصدين للعمل الذي كانوا يعملونه راغبين فيه لكن عجزوا فصاروا بمنزلة العامل ؛ بخلاف من زال عقله فانه ليس له قصد صحيح ولا عبادة اصلا ، بخلاف اولئك فان لهم قصداً صحيحاً يكتب لهم به الثواب .

وأما ان كان قبل جنونه كافراً او فاسقاً او مذنباً لم يكن حدوث الجنون به مزيلا لما ثبت من كفره وفسقه ، ولهذا كان من جن من اليهود والنصارى بعد تهوده وتنصره محشوراً معهم ، وكذلك من جن من المسلمين بعد إيمانه وتقواه محشوراً مع المؤمنين من المتقين . وزوال العقل بجنون او غيره سواء سمي صاحبه مولهاً او متولهاً لا يوجب مزيد حال صاحبه من الايمان والتقوى ، ولا يكون زوال عقله سبباً لمزيد خيره ولا صلاحه ولا ذنبه ؛ ولكن الجنون يوجب زوال العقل ، فيبقى على ما كان عليه من خير وشر ، لا أنه يزيده ولا ينقصه ، لكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير ، كما انه يمنع عقوبته على الشر .

واما ان كان زوال عقله بسبب محرم : كشرب الخمر ، واكل الحشيشة ، او كان يحضر السماع الملحن فيستمع حتى يغيب عقله ، او الذي يتعبد بعبادات بدعية حتى يقترن به بعض الشياطين فيغيروا عقله او يأكل بنجاً يزيل عقله ، فهؤلاء يستحقون الذم والعقاب على ما أزالوا به العقول . وكثير من هؤلاء يستجلب الحال الشيطانى بان يفعل ما يحبه فيرقص رقصاً عظيما حتى يغيب عقله ، او يغط ويخور حتى يجيئه الحال الشيطاني ، وكثير من هؤلاء يقصد التوله حتى يصير مولهاً . فهؤلاء كلهم من حزب الشيطان وهذا معروف عن غير واحد منهم .

واختلف العلماء هل هم «مكلفون» فى حال زوال عقلهم ؟ والأصل « مسألة السكران » والمنصوص عن الشافعي واحمد وغيرهما انه مكلف حال زوال عقله . وقال كثير من العلماء ليس مكلفاً ، وهو احد القولين فى مذهب الشافعي واحمد واحدى الروايتين عن احمد ان طلاق السكران لا يقع وهذا اظهر القولين . ولم يقل احد من العلماء ان هؤلاء الذين زال عقلهم بمثل هذا يكونون من اولياء الله الموحدين المقربين وحزبه المفلحين . ومن ذكره العلماء من عقلاء المجانين الذين ذكروهم بخير فهم من القسم الأول الذين كان فيهم خير ثم زالت عقولهم .

ومن « علامة هؤلاء » أنهم إذا حصل لهم فى جنونهم نوع من الصحو

تكلموا بما كان فى قلوبهم من الايمان ، لا بالكفر والبهتان بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع افاقه بالكفر والشرك ، ويهذى فى زوال عقله بالكفر فهذا انما يكون كافراً لا مسلماً ، ومن كان يهذى بكلام لا يعقل بالفارسية او التركية او البربرية وغير ذلك مما يحصل لبعض من يحضر السماع ويحصل له وجد يغيب عقله حتى يهذي بكلام لا يعقل — او بغير العربية — فهؤلاء إنما يتكلم على السنتهم الشيطان كما يتكلم على لسان المصروع .

ومن قال : ان هؤلاء اعطاهم الله عقولاً واحوالاً فأبقى احوالهم واذهب عقولهم واسقط ما فرض عليهم بما سلب .

قيل : قولك وهب الله لهم احوالاً كلام مجمل ؛ فان الأحوال تنقسم الى : حال رحماني ، وحال شيطاني ، وما يكون لهؤلاء من خرق عادة بمكاشفة وتصرف عجيب ، « فتارة » يكون من جنس ما يكون للسحرة والكهان ، و « تارة » يكون من الرحمن من جنس ما يكون من اهل التقوى والايمان ؛ فان كان هؤلاء فى حال عقولهم كانت لهم مواهب إيمانية ، وكانوا من المؤمنين المتقين فلا ريب انه اذا زالت عقولهم سقطت عنهم الفرائض بما سلب من العقول ، وان كان ما اعطوه من الأحوال الشيطانية — كما يعطاه المشركون واهل الكتاب والمنافقون — فهؤلاء إذا زالت عقولهم لم يخرجوا بذلك مما كانوا عليه من الكفر والفسوق ، كما لم يخرج الأولون عما كانوا عليه من الايمان

والتقوى كما ان نوم كل واحد من الطائفتين وموته وإغماءه لا يزيل حكم ما تقدم قبل زوال عقله من إيمانه وطاعته او كفره وفسقه بزوال العقل ، غايته ان يسقط التكليف .

ورفع القلم لا يوجب حمداً ولا مدحاً ولا ثواباً ولا يحصل لصاحبه بسبب زوال عقله موهبة من مواهب اولياء الله ، ولا كرامة من كرامات الصالحين ، بل قد رفع القلم عنه كما قد يرفع القلم عن النائم والمغمى عليه والميت ولا مدح فى ذلك ولا ذم ، بل النائم احسن حالاً من هؤلاء ؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام ينامون وليس فيهم مجنون ولا موله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يجوز عليه النوم والاغماء ، ولا يجوز عليه الجنون ، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه وقد اغمي عليه فى مرضه .

واما « الجنون » فقد نزه الله أنبياءه عنه ؛ فانه من اعظم نقائص الانسان ؛ اذ كمال الانسان بالعقل ، ولهذا حرم الله إزالة العقل بكل طريق ، وحرم ما يكون ذريعة الى ازالة العقل ، كشرب الخمر ؛ فحرم القطرة منها وان لم تزل العقل ؛ لانها ذريعة الى شرب الكثير الذي يزيل العقل ، فكيف يكون مع هذا زوال العقل سبباً او شرطاً أو مقربا الى ولاية الله كما يظنه كثير من اهل الضلال ؟! حتى قال قائلهم في هؤلاء :

هم معشر حـلوا النظـام وخرقوا السـ
يـاج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين الا ان سـر جنـونهم
عزيز عـلى أبوابه يسجـد العقل

فهذا كلام ضال ؛ بل كافر ، يظن ان للمجنون سراً يسجد العقل على بابه ؛ وذلك لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة او تصرف عجيب خارق للعادة . ويكون ذلك بسبب ما اقترن بـه من الشيـاطين كما يكون للسحرة والكهان . فيظن هـذا الضال أن كل من كاشف او خرق عادة كان وليا لله . ومن اعتقد هذا فهو كافر باجماع المسلمين واليهود والنصارى ؛ فان كثيراً من الكفار والمشركين فضلا عن اهل الكتاب يكون لهم من المكاشفات وخرق العادات بسبب شيـاطينهم أضعاف ما لهؤلاء ؛ لأنه كلما كان الرجل أضل واكفر كان الشيطان إليـه أقرب ؛ لكن لا بـد فى جميع مكاشفـة هؤلاء من الكذب والبهتان . ولا بد فى أعمالهم من فجور وطغيان ، كما يكون لاخوانهم من السحرة والكهان ، قال الله تعالى : (هل أنبئـكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم)

فـكل من تنزلت عليـه الشياطين لا بد أن يكون فيـه كذب

وفجور ، من اي قسم كان . والنبي صلى الله عليه وسلم قد اخبر ان أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بالفرائض ، وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون ، وعباده الصالحون . فمن اعتقد فيمن لا يفعل الفرائض ولا النوافل أنه من اولياء الله المتقين اما لعدم عقله او جهله أو لغير ذلك فمن اعتقد فى مثل هؤلاء انه من اولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين فهو كافر مرتد من دين رب العالمين ، واذا قال : أنا اشهد أن لا إله إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله كان من الكاذبين الذين قيل فيهم : (اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) .

وقد ثبت فى الصحيح من النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه » فاذا كان طبع على قلب من ترك الجمع وان صلى الظهر ، فكيف بمن لا يصلي ظهراً ولا جمعة ولا فريضة ولا نافلة ولا يتطهر للصلاة لا الطهارة الكبرى ولا الصغرى ؟! فهذا لو كان قبل مؤمناً ، وكان قد طبع على قلبه كان كافراً مرتداً بما تركه ولم يعتقد وجوبه من هذه الفرائض ، وان اعتقد أنه مؤمن كان كافراً مرتداً ، فكيف يعتقد انه من أولياء

الله المتقين . وقد قال تعالى فى صفة المنافقين : (استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله (اي : استولى ، يقال : حاذ الابل حوذاً إذا استاقها ، فالذين استحوذ عليهم الشيطان فساقهم إلى خلاف ما أمر الله به ورسوله قال تعالى : (الم تر أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) أي تزعجهم ازعاجا ، فهؤلاء (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله : اولئك حزب الشيطان ، إلا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) .

وفى السنن عن ابى الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من ثلاثة فى قرية لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة الا استحوذ عليهم الشيطان » . فأي ثلاثة كانوا من هؤلاء لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلاة كانوا من حزب الشيطان الذين استحوذ عليهم لا من أولياء الرحمن الذين اكرمهم ؛ فان كانوا عباداً زهاداً ولهم جوع وسهر وصمت وخلوة كرهبان الديارات والمقيمين فى الكهوف والمغارات كأهل جبل لبنان وأهل جبل الفتح الذي باسون ، وجبل ليسون ، ومغارة الدم بجبل قاسيون ، وغير ذلك من الجبال والبقاع التى يقصدها كثير من العباد الجهال الضلال ويفعلون فيها خلوات ورياضات من غير ان يؤذن ، وتقام فيهم الصلاة الخمس بل يتعبدون بعبادات لم يشرعها الله ورسوله بل يعبدونه بأذواقهم ومواجيدهم من غير اعتبار لأحوالهم بالكتاب والسنة

ولا قصد المتابعة لرسول الله الذي قال الله فيه : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) الآية . فهؤلاء اهل البدع والضلالات من حزب الشيطان لا من اولياء الرحمن . فمن شهد لهم بولاية الله فهو شاهد زور كاذب وعن طريق الصواب ناكب .

ثم ان كان قد عرف ان هؤلاء مخالفون للرسول ، وشهد مع ذلك انهم من أولياء الله فهو مرتد عن دين الاسلام وإما مكذب للرسول ، وإما شاك فيما جاء به مرتاب وإما غير منقاد له بل مخالف له إما جحوداً أو عناداً او اتباعا لهواه وكل من هؤلاء كافر .

واما ان كان جاهلا بما جاء به الرسول ، وهو معتقد مع ذلك انه رسول الله الى كل أحد فى الأمور الباطنة والظاهرة وأنه لا طريق الى الله إلا بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، لكن ظن ان هذه العبادات البدعية والحقائق الشيطانية هي مما جاء بها الرسول ولم يعلم انها من الشيطان ، لجهله بسنته وشريعته ومنهاجه وطريقه وحقيقته ؛ لا لقصد مخالفته ، ولا يرجو الهدى فى غير متابعته ، فهذا يبين له الصواب ويعرف ما به من السنة والكتاب ، فان تاب واناب والا ألحق بالقسم الذي قبله وكان كافراً مرتداً ، ولا تنجيه عبادته ولا زهادته من عذاب الله ، كما لم ينج من ذلك الرهبان وعباد الصلبان وعباد النيران وعباد الأوثان ، مع كثرة من فيهم ممن له خوارق شيطانية ، ومكاشفات شيطانية قال

تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) .

قال سعد بن ابي وقاص وغيره من السلف نزلت في اصحاب الصوامع والديارات . وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره انهم كانوا يتأولونها فى الحرورية ونحوهم من اهل البدع والضلالات . وقال تعالى : (هل انبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل افاك اثيم) فالافاك هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال : (لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة) .

ومن تكلم فى الدين بلا علم كان كاذبا وان كان لا يتعمد الكذب ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفى عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع فكانت حاملا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل ، فقال لها ابو السنابل بن بعكك : ما انت بناكحة حتى يمضى عليك آخر الأجلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذب ابو السنابل ، بل حللت فانكحي » وكذلك لما قال سلمة بن الاكوع انهم يقولون : ان عامراً قتل نفسه وحبط عمله فقال : « كذب من قالها ؛ انه لجاهد مجاهد » وكان قائل ذلك لم يتعمد الكذب فانه كان رجلا صالحاً ، وقد روى انه كان أسيد بن الحضير ؛ لكنه لما تكلم بلا علم كذبه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قال ابو بكر وابن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتون فيه باجتهادهم : إن يكن صوابا فمن الله، وان يكن خطأ فهو مني ومن الشيطان والله ورسوله بريآن منه. فاذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا اجتهاد يبيح له الكلام في الدين ؟ فهذا خطؤه ايضاً من الشيطان مع انه يعاقب عليه إذا لم يتب، والمجتهد خطؤه من الشيطان وهو مغفور له ؛ كما ان الاحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا اجتهاد يبيح له ذلك، فهذا كاذب آثم في ذلك، وان كانت له حسنات في غير ذلك فان الشيطان ينزل على كل انسان ويوحي اليه بحسب موافقته له، ويطرد بحسب اخلاصه لله وطاعته له قال تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) .

وعباده هم الذين عبدوه بما امرت به رسله من اداء الواجبات والمستحبات، وأما من عبده بغير ذلك فانه من عباد الشيطان ؛ لا من عباد الرحمن . قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد اضل منكم جبلا كثيراً افلم تكونوا تعقلون) .

والذين يعبدون الشيطان اكثرهم لا يعرفون انهم يعبدون الشيطان بل قد يظنون انهم يعبدون الملائكة أو الصالحين، كالذين يستغيثون بهم

ويسجدون لهم فهم في الحقيقة انما عبدوا الشيطان وان ظنوا انهم يتوسلون ويستشفعون بعباد الله الصالحين . قال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟! قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ؛ بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ؛ فان الشيطان يقارنها حينئذ حتى يكون سجود عباد الشمس له ، وهم يظنون انهم يسجدون للشمس وسجودهم للشيطان ، وكذلك اصحاب دعوات الكواكب الذين يدعون كوكباً من الكواكب ويسجدون له ويناجونه ويدعونه ويصنعون له من الطعام واللباس والبخور والتبركات(١) ما يناسبه ، كما ذكره صاحب « السر المكتوم » المشرقي ، وصاحب « الشعلة النورانية » البوني المغربي وغيرهما ؛ فان هؤلاء تنزل عليهم ارواح تخاطبهم وتخبرهم ببعض الأمور وتقضي لهم بعض الحوائج ويسمون ذلك روحانية الكواكب .

ومنهم من يظن انها ملائكة وانما هي شياطين تنزل عليهم ، قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وذكر الرحمن هو الذي انزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما (واذكروا نعمة الله عليكم ، وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة

---

(١) نسخة والتسبيحات .

يعظكم به) وقال تعالى : (لقــد من الله عـلى المؤمنين اذ بعث فيهــم رسولاً من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى : (هو الذي بعث فى الأميين رسولاً منهم يتـلو عليهم آياتــه ويزكيهم ويعلمهــم الكتاب والحــكمة) وهو الذكر الذي قال الله فيه : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فمن اعرض عن هــذا الذكر وهو الـكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه .

وان كان موالياً للرحمن تارة وللشيطان أخرى كان فيه من الايمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن، وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان ، كما قال حذيفة بن اليمان القلوب « اربعة » قلب اجرد فيــه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف فذلك قلب الـكافر ـ و « الاغلف » الذي يلف عليه غلاف . كما قال تعالى عن اليهود : (وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) وقـــد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم « من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه » ـ وقلب منكوس فذلك قلب المنافق. وقلب فيه مادتان : مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له . وقد روى هذا فى « مسند الامام احمد » مرفوعاً .

وفي الصحيحين عن عبــد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى

الله عليه وسلم انه قال : « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان القلب يكون فيه شعبة نفاق ، وشعبة إيمان . فاذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته ؛ ولهذا يكون بعض هؤلاء يجري على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه تكون من كرامات الأولياء ، وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين ؛ ولهذا أمرنا الله تعالى : ان نقول كل صلاة : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

و « المغضوب عليهم » هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، و « الضالون » الذين يعبدون الله بغير علم . فمن اتبع هواه وذوقه ووجده ، مع علمه انه مخالف للكتاب والسنة فهو من (المغضوب عليهم) وان كان لا يعلم ذلك فهو من « الضالين » .

نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

والحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . وصلى الله على محمد .

وسئل عمن يقول

الطرق إلى الله عدد انفاس الخلائق . هل قوله صحيح ؟ ؟ .

فأجاب : إن اراد بذلك الاعمال المشروعة الموافقة للكتاب والسنة: كالصلاة ، والصدقة ، والجهاد ، والذكر ، والقراءة وغير ذلك . فهذا صحيح .

وان أراد إلى الله طريقاً مخالفاً للكتاب والسنة ؛ فهو باطل . والله اعلم .

قال شيخ الاسلام: علامة الزمان

ابو العباس احمد بن تيمية ــ قدس الله روحه ــ ونور ضريحه.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ، ومن سيئات اعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

واشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

قال الشيخ ابو محمد « عبد القادر » فی کتاب (فتوح الغيب) :

لا بد لكل مؤمن في سائر احواله من ثلاثة اشياء :

امر يمتثله .

ونهي يجتنبه .

وقدر يرضى به .

فاقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من احد هـذه الأشياء الثلاثـة ، فينبغي له ان يلزم بهـا قلبه ، ويحدث بها نفسه ، ويأخذ بها الجوارح في كل احواله » .

(قلت) : هذا كلام شريف ، جامع يحتاج اليه كل احد ، وهو تفصيل لما يحتاج اليه العبد ، وهي مطابقة لقوله تعالى : (إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) ولقوله تعالى : (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) ولقوله تعـالى : (وان تصبروا وتتقـوا فان ذلك من عزم الأمور) ؛ فان « التقوى » تتضمن : فعل المأمور ، وترك المحظور ، و « الصبر » يتضمن : الصبر على المقدور . « فالثلاثة » ترجع إلى هذين الأصلين ، والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر ، وهو طاعة الله ورسوله .

فحقيقة الأمر ان كل عبد فانه محتاج فى كل وقت إلى طاعـة الله ورسوله ، وهو : ان يفعل فى ذلك الوقت ما امر به فى ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التى خلق لهـا الجن والانس . كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقال تعـالى : (واعبـد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال تعـالى : (يا أيهـا الناس اعبدوا ربكم : الذي خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون) .

والرسل كلهم امروا قومهم ان يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) .

وانما كانت « الثلاثة » ترجع الى امتثال الأمر ؛ لأنه فى الوقت الذي يؤمر فيه بفعل [شيء] من الفرائض : كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك يحتاج إلى فعل ذلك المأمور ، وفى الوقت الذي تحدث أسباب المعصية يحتاج إلى الامتناع والكراهة والامساك عن ذلك ، وهذا فعل لما أمر به فى هذا الوقت ، واما من لم تخطر له المعصية ببال فهذا لم يفعل شيئاً يؤجر عليه ، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب ، والعدم المحض المستمر لا يؤمر به ، وإنما يؤمر بأمر يقدر عليه العبد ، وذاك لا يكون إلا حادثاً : سواء كان احداث إيجاد أمر ، أو اعدام امر .

وأما « القدر الذي يرضى به » فانه إذا ابتلى بالمرض أو الفقر او الخوف فهو مأمور بالصبر امر ايجاب ، ومأمور بالرضا ، إما امر ايجاب واما امر استحباب ؛ وللعلماء من أصحابنا وغيرهم فى ذلك قولان ، ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله ، فهو من امتثال الأمر وهو عبادة لله .

لكن هذه « الثلاثة » وإن دخلت في امتثال الأمر عند الاطلاق فعند التفصيل والاقتران : اما ان تخص بالذكر واما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا ، كما فى قوله : (فاعبده وتوكل عليه) وقوله : (فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) فان هذا داخل فى العبادة إذا اطلق اسم العبادة ، وعند « الاقتران » إما ان يقال : ذكره عموماً وخصوصاً ، واما ان يقال ذكره خصوصاً يغني عن دخوله فى العام .

ومثل هذا قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا) وقد يقال : لفظ « التبتيل » لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة .

و « بالجملة » فرق ما بين ما يؤمر به الانسان ابتداء ، وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة ، او عند حب الشيء وبغضه .

وكلام الشيخ — قدس الله روحه — يدور على هذا القطب ، وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور ، ويخلو فيما سواهما عن إرادة ؛

لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به ، وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد ، او فعله بالعبد بلا هوى من العبد . فهذا هو القدر الذي عليه ان يرضى به .

وسيأتي في كلام الشيخ ما يبين مراده ، وأن العبد في كل حال عليه ان يفعل ما امر به ، ويترك ما نهي عنه . وأما إذا لم يكن هو امر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله ، وهذه هي « الحقيقة » في كلام الشيخ وأمثاله . وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام ان هذا « نوعان » :

(احدهما) : ان يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب . اما بحب له وإعانة عليه . واما ببغض له ودفع له .

و (الثاني) : ان لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما .

(فالاول) مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره ، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه : كاعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الامكان ، وبمحبة ذلك والرضا به ، وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير : اما بنصر مظلوم ، واما بتعزية مصاب ، واما باغناء فقير ونحو ذلك .

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه فمثل : ما اذا اظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه ، وإنكاره بحسب الامكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك اضعف الايمان » .

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما : فمثل ما يظهر له من فعل الانسان للمباحات التى لم يتبين له انه يستعان بها على طاعة ولا معصية . فهذه لا يؤمر بحبها ، ولا ببغضها ، وكذلك مباحات نفسه المحضة التى لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية .

مع ان هذا نقص منه ، فان الذي ينبغي انه لا يفعل من المباحات الا ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة ، فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا الى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ، ولم يزل احدهم يتقرب إليه بذلك حتى احبه ، فكان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها واما من فعل المباحات مع الغفلة ، او فعل فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة مع اداء الفرائض واجتناب المحارم باطناً وظاهراً ، فهذا من المقتصدين اصحاب اليمين .

و (بالجملة) الافعال التى يمكن دخولها تحت الامر والنهي لاتكون مستوية من كل وجه ، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودهـا خيراً للعبد ؛ والا كان تركها خيراً له وان لم يعاقب عليهـا ، ففضول المباح التى لا تعين على الطاعة عدمها خير من وجودها ، اذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله ، فانها تكون شاغلة له عن ذلك ، واما اذا قدر انها تشغله عما دونها فهي خير له مما دونها ، وان شغلته عن معصيـة الله كانت رحمـة فى حقـه ، وان كان اشتغـاله بطاعة الله خيراً له مـن هـذا وهذا .

وكذلك افعال الغفلة والشهوة الـتى يمكن الاستعانة بها عـلى الطاعة : كالنوم الذي يقصد به الاستعانة على العبادة ؛ والاكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة ؛ اذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصاً من العبد وفوات حسنة ؛ وخير يحبـه الله . ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لسعد : « انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة تضعها في فى امرأتك » وقال فى الصحيح : « نفقة المسلم عـلى اهله يحتسبها صدقة » .

فما لا يحتاج اليه من المباحات ، او يحتاج اليه ولم يصحبه ايمـان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده ، اذا كان مع عدمه يشتغل بما هو

خير منه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « في بضع احدكم صدقة . قالوا : يارسول الله ! يأتي احدنا شهوته ويكون له أجر . قال : ارأيتم لو وضعها في الحرام اما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى ! قال : فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له بها أجر . فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال » .

وذلك ان المؤمن عند شهوة النكاح يقصد ان يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله ؛ ويقصد فعل المباح معتقداً ان الله أباحه « والله يحب ان يأخذ برخصه ، كما يكره ان تؤتى معصيته » كما رواه الامام أحمد في المسند ورواه غيره ، ولهذا أحب القصر والفطر ، فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التى يثيبه الله عليها ، وان فعل مباحاً لما اقترن به من الاعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله . فانما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى.

و (أيضاً) فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات ، هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ، ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة ان يأكل منها ، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجباً للوعيد ، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه ، بل وهو مأمور

بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه . فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « فى بضع أحدكم صدقة » فان المباضعة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك ، فان قضاء حاجتها التى لا تنقضي إلا به بالوجه المباح صدقة.

و « السلوك » سلوكان :

سلوك الأبرار اهل اليمين ، وهو اداء الواجبات وترك المحرمات باطناً وظاهراً .

و (الثاني) : سلوك المقربين السابقين ، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الامكان ، وترك المكروه والمحرم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وكلام الشيوخ الكبار : كالشيخ « عبد القادر » وغيره يشير الى هذا السلوك ؛ ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو مكروه غير محرم ، فانهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة ، وبالعامة مسلك العامة، وطريق الخاصة طريق المقربين أن لا يفعل العبد الا ما امر به ، ولا يريد الا ما امر الله ورسوله بارادته ، وهو مايحبه

الله ويرضاه ، ويريده ارادة دينية شرعية ، والا فالحوادث كلها مرادة له خلقاً وتكويناً .

والوقوف مع الارادة الخلقية القدرية مطلقاً غير مقدور عقلاً ، ولا مأمور شرعاً ؛ وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه ولا تجوز ارادته ، كمن اراد تكفير الرجل او تكفير اهله ، او الفجور به او بأهله او اراد قتل النبي وهو قادر على دفعه ، او اراد اضلال الخلق وافساد دينهم ودنياهم ، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهتها ؛ لا تجوز ارادتها .

واما الامتناع عقلا ؛ فلان الانسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره ، فهو عند الجوع يحب ما يغنيه كالطعام ، ولا يحب ما لا يغنيه كالتراب فلا يمكن ان تكون ارادته لهذين سواء .

وكذلك يحب الايمان والعمل الصالح الذي ينفعه ، ويبغض الكفر والفسوق الذي يضره ، بل ويحب الله وعبادته وحده ، ويبغض عبادة ما دونه . كما قال الخليل : (افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لي إلا رب العالمين) وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى

تؤمنوا بالله وحده) .

فقد امرنا الله ان نتأسي بابراهيم والذين معه إذ تبرؤا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله ، وقال الخليل : (انى براء ممـا تعبدون إلا الذي فطرنى فانه سيهدين) والبراءة ضد الولاية ، واصل البراءة البغض واصل الولاية الحب ، وهذا لأن حقيقة التوحيد ان لايحب إلا الله ، ويحب ما يحبه الله لله ، فـلا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله . قال تعـالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) .

والفرق ثابت بـين الحب لله والحب مـع الله ، فأهل التوحيـد والاخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غـير الله مع الله ، كحب المشركين لآلهتهـم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب اهـل الأهواء رؤوسهم .

فاذا عرف ان العبد مفطور على حب ما ينفعه ، وبغض ما يضره لم يمكن ان تستوي إرادته لجميـع الحوادث فطرة وخلقاً ، ولا هو مأمور من جهـة الشرع ان يكون مريداً لجميـع الحوادث ، بل قـد امره الله بارادة امور وكراهة اخرى .

والرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبوا يهودانه وينصرانه ويمجسانه » قال تعالى : (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وفى الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما احللت لهم ، وامرتهم ان يشركوا بي مالم انزل به سلطانا » .

و « الحنيفية » هي الاستقامة باخلاص الدين لله ، وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيء ، لا فى الحب ولا في الذل ، فان العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده ، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده ، والتوكل على الله وحده .

والرسول يطاع ويحب ، فالحلال ما احله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه . قال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وقال تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) .

وهذا حقيقة دين الاسلام .

والرسل بعثوا بذلك ، كما قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه) وقال تعالى : (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً ، إني بما تعملون عليم . وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون) .

فهذا هو الاصل الذي يجب على كل أحد ان يعتصم به ، فلا بد ان يكون مريداً محباً لما امره الله بارادته ومحبته ، كارها مبغضاً لما امره الله بكراهته وبغضه .

والناس في هذا الباب « اربعة انواع » :

ا كملهم الذين يحبون ما احبه الله ورسوله ، ويبغضون ما ابغضه الله ورسوله ، فيريدون ما امرهم الله ورسوله بارادته ، ويكرهون ما امرهم الله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك . فيأمرون بما أمر الله به ورسوله ، ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك ، وهذه حال الخليلين افضل البرية : محمد وابراهيم صلى الله عليهما وسلم ، وقد

ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « انى والله لا اعطي احداً ، ولا امنع احداً ، وإنما انا قاسم اضع حيث امرت » .

وذكر : ان ربه خيره بين ان يكون نبياً ملكا ؛ وبين ان يكون عبداً رسولاً ، فاختار ان يكون عبداً رسولاً . فان « النبي الملك » مثل داود وسليمان ، قال تعالى : (هــذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب) قالوا : معناه اعط من شئت ، وامنع من شئت ، لانحاسبك .

« فالنبي الملك » يعطي بارادته لا يعاقب على ذلك ، كالذي يفعل المباحات بارادته ، واما « العبد الرسول » فلا يعطى ولا يمنع إلا بامر ربه ، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية ، والسابقون المقربون اتباع العبد الرسول ، والمقتصدون اهل اليمين اتباع النبي الملك ، وقد يكون للانسان حال هو فيها خال عن الارادتين : وهو ان لا تكون له إرادة فى عطاء ولا منع ، لا ارادة دينية هو مأمور بها ، ولا ارادة نفسانية سواء كان منهياً عنها او غير منهي عنها ، بل ما وقع كان مراداً له ، ومهما فعل به كان مراداً له ، من غير ان يفعل المأمور به شرعا فى ذلك .

فهذا بمنزلة من له اموال يعطيها وليس له ارادة في اعطاء معين ، لا ارادة شرعية ولا ارادة مذمومة ؛ بل يعطي كل احـد . فهذا اذا قدر انه قام بما يجب عليـه بحسب امكانه ولكنه خفي عليـه الارادة الشرعية فى تفصيل افعاله . فانه لا يذم على ما فعل ولا يمدح مطلقـاً . بل يمدح لعدم هواه ، ولو علم تفصيل المأمور به واراده ارادة شرعية لـكان اكمل . بل هذا مع القدرة اما واجب واما مستحب . وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه ؛ وان كان ذلك مباحاً له ، وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ، ولا بالقدر المحض .

فمضمون هذا المقام ان الناس فى المباحات من الملك والمـال وغير ذلك على « ثلاثة اقسام » :

(قوم) لا يتصرفون فيهـا الا بحكم الأمر الشرعي . وهو حال نبينـا صلى الله عليـه وسلم . وهو حال العبد الرسول ومن اتبعـه فى ذلـك .

و (قوم) يتصرفون فيهـا بحكم ارادتهم والشهوة التى ليست محرمة . وهذا حال النبي الملك . وهو حال الأبرار اهل اليمين .

و (قوم) لا يتصرفون بهـذا ولا بهذا . اما « الأول) فلعـدم

علمهم به . واما « الثانى » فلزهدم فيه ؛ بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض ، اتباعا لارادة الله الخلقيــة القدرية حين تعذر معرفــة الارادة الشرعية الأمرية ، وهــذا كالترجيح بالقرعــة اذا تعذر الترجيح بسبب شرعي معلوم ، وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بالهام يقع فى قلوبهم وخطاب .

وكلام « الشيخ عبد القادر » ـــ قدس الله روحه ـــ كثيراً مايقع فى هــذا المقام ؛ فانه يأمر بالزهــد فى إرادة النفس وهواهــا ، حتى لا يتصرف بحكم الارادة والنفس ، وهذا رفع له عن حال الأبرار اهل اليمين ومن طريق الملوك مطلقــاً ، ومن حصل هــذا وتصرف بالأمر الشرعي المحمدي القرآنى فهو اكمل الخلق ، لكن هذا قد يخفى عليه ؛ فان معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر او يتعسر فى كثير من المواضع ألا ترى ان النبي صــلى الله عليه وسـلم لمــا حكم سعد بن معاذ فى بني قريظة فحــكم بقتل مقاتلتهم ، وبسبي ذراريهم ، وغنيمة اموالهم . قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعــة ارقعة » . وذلك ان تخيير ولي الأمر بين القتل والاسترقاق ، والمن والفداء ليس تخيير شهوة ، بل تخيير رأي ومصلحة ، فعليه ان يختار الأصلح ، فان اختار ذلك فقد وافق حكم الله ، وإلا فلا .

ولمـا كان هذا يخفى كثيراً قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث

الصحيح : « إذا حاصرت اهل حصن فسألوك ان تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فانك لا تدري ماحكم الله فيهم ، ولكن انزلهم على حكمك وحكم اصحابك » والحاكم الذي ينزل اهل الحصن على حكمه عليه ان يحكم باجتهاده ، فلما امر سعد بما هو الأرضى لله ، والأحب اليه ، حكم بحكمه ، ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه فانه حكم باجتهاده ، وان لم يكن ذلك هو حكم الله فى الباطن .

ففي مثل هذه الحال التى لايتبين الأمر الشرعي فى الواقعة المعينة يأمر الشيخ عبد القادر وامثاله من الشيوخ : « تارة » بالرجوع إلى الأمر الباطن والالهام إن امكن ذلك ، و « تارة » بالرجوع الى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجحة من جهة الشرع ، كما يرجح الشارع بالقرعة . فهم يأمرون ان لا يرجح بمجرد إرادته وهواه ، فان هذا اما محرم واما مكروه ، واما منقص ، فهم فى هذا النهي كنهيهم عن فضول المباحات .

ثم ان تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به ، والا رجحوا : اما « بسبب باطن » من الالهام والذوق ، واما « بالقضاء والقدر » الذي لا يضاف إليهم . ومن يرجح فى مثل هذه الحال « باستخارة الله » كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم اصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن ، فقد اصاب .

وهذا كما انه اذا تعارضت ادلة « المسألة الشرعية » عند الناظر المجتهد ، وعند المقلد المستفتى ، فانه لا يرجح شيئاً ؛ بل ما جرى به القدر اقروه ، ولم ينكروه . وتارة يرجح احدهم : إما بمنام ، واما برأي مشير ناصح ، واما برؤية المصلحة فى احد الفعلين .

واما الترجيح بمجرد الاختيار ، بحيث اذا تكافأت عنده الأدلة رجح بمجرد ارادته واختياره . فهذا ليس قول احد من أئمة الاسلام ، وانما هو قول طائفة من اهل الكلام ، ولكن قاله طائفة من الفقهاء فى العامي المستفتى : انه يخير بين المفتين المختلفين . وهذا كما ان طائفة من السالكين اذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجح بمجرد ذوقه وارادته ، فالترجيح بمجرد الارادة التى لا تستند الى امر علمي باطن ولا ظاهر ، لا يقول به احد من أئمة العلم والزهد . فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا .

ولكن من جوز لمجتهد او مقلد الترجيح بمجرد اختياره وارادته فهو نظير من شرع للسالك الترجيح بمجرد ارادته وذوقه .

لكن قد يقال : القلب المعمور بالتقوى اذا رجح بارادته فهو ترجيح شرعي . وعلى هذا التقدير ليس من هذا فمن غلب على قلبه ارادة ما يحبه الله ، وبغض ما يكرهه الله ، اذا لم يدر فى الأمر المعين

هل هو محبوب لله او مكروه ، ورأى قلبه يحبه او يكرهه كان هـذا ترجيحاً عنده . كما لو اخبره من صدقه اغلب من كذبه ، فان الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه الترجيح ترجيح بدليل شرعي .

ففي « الجملة » متى حصل ما يظن معه ان احد الأمرين احب الى الله ورسوله كان هـذا ترجيحاً بدليل شرعي ، والذين انكروا كون الالهام طريقاً على الاطلاق اخطأوا ، كما اخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الاطلاق .

ولكن اذا اجتهد السالك فى الأدلة الشرعيـة الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً ، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى ، فالهام مثل هذا دليل فى حقه ؛ قد يكون اقوى مـن كثير من الأقيسـة الضعيفة ؛ والأحـاديث الضعيفة ، والظواهر الضعيفـة ، والاستصحابات الضعيفة التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذهب ، والخلاف واصول الفقه .

وفى الترمذي عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليـه وسلم انـه قال : « اتقوا فراسـة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعـالى : (ان فى ذلك لآيات للمتوسمين) . » وقال عمر بن الخطاب : اقتربوا من افـواه المطيعين ؛ واسمعوا منهم ما يقولون ، فانه تتجلى لهم امـور

صادقة . وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى : « ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي »

و (ايضاً) فالله سبحانه وتعالى فطر عباده على الحنيفية : وهو حب المعروف ، وبغض المنكر ، فاذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق ، فاذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الأيمان ، منورة بنور القرآن ، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة ، ورأى قلبه يرجح احد الأمرين ، كان هذا من اقوى الامارات عند مثله ، وذلك ان الله علم القرآن والايمان . قال الله تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، او يرسل رسولا) الآية . ثم قال : (وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ؛ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الايمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً .

وفي الصحيحين عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله انزل الأمانة في جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » وفي الترمذي وغيره حديث النواس عن النبي صلى الله عليه

وسلم انه قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما . وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين ابواب مفتحة ، وعلى الابواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو من فوق الصراط . فالصراط المستقيم هو الاسلام ، والستور حدود الله ، والابواب المفتحة محارم الله ، فاذا اراد العبد ان يفتح بابا من تلك الابواب ناداه المنادي — او كما قال — ياعبد الله ! لا تفتحه ، فانك ان تفتحه تلجه . والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » .

فقد بين ان فى قلب كل مؤمن واعظ ، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب ؛ فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ، ولهذا يقوى احدهما بالآخر . كما قال تعالى : (نور على نور) قال بعض السلف في الآية : هو المؤمن ينطق بالحكمة وان لم يسمع فيها بأثر ، فاذا سمع بالاثر كان نوراً على نور . نور الايمان الذي فى قلبه يطابق نور القرآن ، كما ان الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل ؛ فان الله انزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

وقد يؤتى العبد احدهما ولا يؤتى الآخر . كما فى الصحيحين عن ابي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب . ومثل

المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » .

والالهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والارادة والطلب . فقد يقع في قلبه ان هذا القول ارجح واظهر واصوب ، وقد يميل قلبه إلى احد الامرين دون الآخر . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قد كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن فى امتى احد فعمر » والمحدث الملهم المخاطب ، وفى مثل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث وابصة : « البر ما اطمأنت اليه النفس وسكن إليه القلب والاثم ما حاك فى نفسك وان افتاك الناس وافتوك » وهو في السنن . وفى صحيح مسلم عن النواس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « البر حسن الخلق والاثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت ان يطلع عليه الناس » وقال ابن مسعود : الاثم حزاز القلوب .

و (أيضاً) فاذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً او ظناً ، فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى ، فانه إلى كشفها احوج . لكن هذا فى الغالب لابد ان يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون

بـدليل ينقدح فى قلب المؤمــن ، ولا يمكنــه التعبـير عنه ، وهــذا احد ما فسر به معنى « الاستحسان » .

وقد قال من طعن فى ذلك ــ كأبي حامـد وابى محمد ــ : مالا يعبر عنه فهو هوس ، وليس كذلك ؛ فانه ليس كل احـد يمكنه إبانــة المعاني القائمة بقلبه ، وكثير من الناس يبينها بيانا ناقصاً ، وكثير من اهل الـكشف يلقي فى قلبه ان هذا الطعام حرام ، او ان هـذا الرجل كافر او فاسق ، من غير دليل ظاهر ، وبالعكس قـد يلقى فى قلبـه محبة شخص وانه ولي لله او ان هذا المال حلال .

وليس المقصود هنا بيان ان هذا وحده دليل على الاحكام الشرعية ؛ لكن ان مثل هـذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة . فالترجيح بها خير من التسوية بـين الأمرين المتناقضين قطعاً ، فان التسوية بينها باطلة قطعاً . كما قلنـا : ان العمل بالظن الناشيء عن ظاهر او قياس خير مــن العمل بنقيضه إذا احتيـج إلى العمل باحدهما . والصواب الذي عليـه السلف والجمهور انه لابد فى كل حادثة من دليل شرعي ، فـلا يجوز تكافؤ الادلة فى نفس الأمر ، لكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له ، واما من قال: انه ليس في نفس الامر حق معين ، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة ، وليس لأحدهما على الآخر مزية فى عـلم ولا عمل ، فهؤلاء

قد يجوزون او بعضهم تكافؤ الأدلة ، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين ، وهؤلاء يقولون ليس على الظن دليل في نفس الامر ؛ وانما رجحان احد القولين هو من باب الرجحان بالميل والارادة ، كترجيح النفس الغضبية للانتقام ، والنفس الحليمة للعفو .

وهذا القول خطأ ؛ فانه لابد فى نفس الامر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه اخرى . كالكعبة فى حق من اشتبهت عليه القبلة والمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى جهة سقط عنه الفرض بالصلاة اليها ، كالمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه كلاهما مطيع لله ، وهو مصيب بمعنى انه مطيع لله وله اجر على ذلك ؛ وليس مصيباً بمعنى انه علم الحق المعين ؛ فان ذلك لا يكون إلا واحداً ومصيبه له اجران وهذا فى كشف الانواع التى يكون عليها دليل شرعي لكن قد يخفى على العبد . فان الشارع بين (الاحكام الكلية) .

وأما (الأحكام المعينات) التى تسمى « تنقيح المناط » مثل كون الشخص المعين عدلاً او فاسقاً او مؤمناً او منافقاً او ولياً لله او عدواً له ، وكون هذا المعين عدواً للمسلمين يستحق القتل ، وكون هذا العقار ليتيم او فقير يستحق الأحسان اليه ، وكون هذا المال يخاف عليه من ظلم ظالم ، فاذا زهد فيه الظالم انتفع به اهله ، فهذه

الأمور لا يجب ان تعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية ، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها .

ومن طرق ذلك « الالهام » فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص المعين ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالى ؛ فانه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي ان يخالف شرع الله ، لكن فيها علم حال ذاك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل الى دار واخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها اذن له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة اخذها ولم يعرفها ، لعلمه بأنه اتى بها هدية له ، ونحو ذلك . ومثل هذا كثير عند اهل الالهام الصحيح .

و (النوع الثاني) عكس هذا . وهو انهم يتبعون هواهم ، لا امر الله ؛ فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون الا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون الا عن ما يكرهونه بهواهم ، وهؤلاء شر الخلق . قال تعالى : (افرأيت من اتخذ إلهه هواه افأنت تكون عليه وكيلاً) قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً الا ركبه . وقال تعالى :

(ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال عمر بن عبد العزيز : لا تكن ممن يتبع الحق اذا وافق هواه ، ويخالفه اذا خالف هواه ، فاذا انت لا تثاب على ما اتبعته من الحق ، وتعاقب على ماخالفته . وهو كما قال — رضي الله عنه — لأنه فى الموضعين انما قصد اتباع هواه لم يعمل لله .

الا ترى ان « ابا طالب » نصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذب عنه اكثر من غيره ، لكن فعل ذلك لأجل القرابة ، لا لأجل الله تعالى ، فلم يتقبل الله ذلك منه ، ولم يثبه على ذلك ؟ ! و ابو بكر الصديق — رضي الله عنه — اعانه بنفسه وماله لله ، فقال الله فيه : (وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لاحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى) .

(القسم الثالث) : الذي يريد تارة ارادة يحبها الله ، وتارة ارادة يبغضها الله . وهؤلاء اكثر المسلمين فانهم يطيعون الله تارة ، ويريدون ما احبه ، ويعصونه تارة ويريدون ما يهوونه ، وان كان يكرهه .

و (القسم الرابع) : ان يخلو عن الارادتين ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثير من الناس فى بعض الاشياء ، ويقع لكثير

من الزهاد والنساك فى كثير من الامور .

واما خلو الانسان عن الارادة مطلقاً فممتنع ، فانه مفطور على ارادة ما لا بد له منه وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه ، والزاهد الناسك اذا كان مسلماً فلا بد ان يريد اشياء يحبها الله : مثل اداء الفرائض وترك المحارم ؛ بل وكذلك عموم المؤمنين لا بد ان يريد احدهم اشياء يحبها الله ، والا فمن لم يحب الله ، ولا احب شيئاً لله ، فلم يحب شيئاً من الطاعات ، لا الشهادتين ولا غيرها ولا يريد ذلك فانه لا يكون مؤمناً ، فلا بد لكل مؤمن من ان تكون له ارادة لبعض ما يحبه الله ؛ واما ارادة العبد لما يهواه ولا يحبه الله ، فهذا لازم لكل من عصى الله ، فانه اراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها . واما الخلو من الارادتين المحمودة والمذمومة فيقع على وجهين :

(احدهما) : مع إعراض العبد عن عبادة الله تعالى وطاعته وان علم بها ، فانه قد يعلم كثيراً من الأمور انه مأمور بهما ، وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها . وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله ، ولا لانتصار هؤلاء الذي يبغضه الله .

و (الوجه الثانى) : يقع من كثير من الزهاد العباد الممتثلين لما

يعلمون ان الله أمر به المجتبين لمـا يعلمون ان الله نهى عنـه ، وأمور أخرى لا يعلمون انهـا مأمور بها ولا منهي عنها ، فلا يريدونهـا ولا يكرهونها لعدم العـلم ، وقد يرضونها من جهة كونها مخلوقة مقدرة ، وقد يعاونون عليها ، ويرون هذا موافقة لله وانهم لما خلوا عـن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث ؛ بل والمعاونة عليه . وهـذا موضع يقع فيه الغلط ، فان ما أحبه الله ورسوله علينـا أن نحب ما أحبه الله ورسوله ، وما أبغضه الله ورسوله فعلينـا أن نبغض ما أبغضـه الله ورسوله ، وأما ما لا يحبـه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تـكليف فيها مثل أفعـال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لا يحبها ويرضاها ولا يكرههـا ويذمهـا ، فالمؤمن ايضـاً لا ينبغي ان يحبهـا ويرضاها ولا يكرهها .

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فـذلك لا يختص بها ، بـل هو شامل لجميـع المخلوقات . والله تعـالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته ، وقد احسن كل شيء خلقه ، والرضا بالقضاء « ثلاثة أنواع » :

(احدها) الرضا بالطاعات ؛ فهذا طاعة مأمور بها .

و (الثانى) : الرضا بالمصائب ، فهذا مأمور به : اما مستحب ، واما واجب .

و (الثالث) : الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا لا يؤمر بالرضا به ، بل يؤمر ببغضه وسخطه ، فان الله لا يحبه ولا يرضاه . كما قال تعالى : (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) وقال : (والله لا يحب الفساد) وقال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (إن الله لا يحب الكافرين) وقال : (إن الله لا يحب المعتدين) .

وهو وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لافضائه الى الحكمة التى يحبها ، كما خلق الشياطين . فنحن راضون عن الله فى أن يخلق ما يشاء ، وهو محمود على ذلك .

واما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله فلا نرضى به ولا نحمده . وفرق بين ما يحب لنفسه ، وما يراد لافضائه الى المحبوب مع كونه مبغضاً من جهة اخرى ؛ فان الأمر الواحد يراد من وجه ويكره من وجه آخر . كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه ؛ فانه يبغض الدواء ويكرهه ، وهو مع هذا يريد استعماله لافضائه الى المحبوب ، لا لأنه فى نفسه محبوب .

وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « وماترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي

يكره الموت كان هذا مقتضياً أن يكره إماتته مع انه يريد اماتته ؛ لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى . فالأمور التى يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تحب ولا ترضى ؛ لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فكذلك الأفعال التى لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغي ان تحب ولا ترضى كما لا ينبغي ان تبغض .

والرضا الثابت بالنص هو ان يرضى بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من رضى بالله رباً ، وبالأسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، كان حقاً على الله ان يرضيه » واما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله ، إذ له الحمد على كل حال ، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التى خلق لأجلها ماخلق وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات ، فحيث انتفى الأمر الشرعي او خفى الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة ، كما يكون فى الأمر الشرعي ، وإن كان ذلك مقدوراً .

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة « السالكين » وشيوخهم ، فضلا عن عامتهم ، ويتفاوتون فى ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له .

فمنهم من هو اعرف من غيره بالأمر الشرعي واطوع له ، فهذا

تكون حاله احسن ممن يقصر عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له .

ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ، ويسترسل حتى ينسلخ من الاسلام بالكلية ، ويبقى واقفاً مع هواه والقدر .

ومن هؤلاء من يموت كافراً ، ومنهم من يتوب الله عليه ، ومنهم من يموت فاسقاً ، ومنهم من يتوب الله عليه .

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي ولا بد مع ذلك من اتباع امر ونهي غير الأمر الشرعي ، اما من انفسهم واما من غير الله ورسوله ، إذ الاسترسال مع القدر مطلقاً ممتنع لذاته ، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة اشياء وبغض اشياء .

وقول من قال : « ان العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل » لا يصح ولا يسوغ على الاطلاق عن احد من المسلمين ، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع ؛ ومع هذا فانما ذلك لخفاء امر الله عليه ، وإلا فاذا علم ما امر الله به واحبه . فلا بد ان يحب ما احبه الله ، ويبغض ما ابغضه .

فصــــــل

وكما ان الطريقة العلمية بصحة النظر في الأدلة والأسباب هي الموجبة للعلم : كتدبر القرآن والحديث ، فالطريقة العملية بصحة الارادة والأسباب هي الموجبة للعمل ، ولهذا يسمون السالك فى ذلك « المريد » كما يسميه اولئك « الطالب » و « النظر » جنس تحته حق وباطل ، ومحمود ومذموم ، وكذلك « الارادة »

فكما ان طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي الشرعي ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ، ويكون علمك بها مطابقاً لما اخبرت به الرسل ، والا فلا ينفعك اي معلوم علمته ، ولا أي شيء اعتقدته فيما اخبرت به الرسل ، بل لا بد من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فكذلك « الارادة » لا بد فيها من تعيين « المراد » وهو الله و « الطريق اليه » وهو ما امرت به الرسل . فلا بد ان تعبد الله وتكون عبادتك اياه بما شرع على ألسنة رسله ، اذ لا بد من تصديق الرسول فيما اخبر علما ، ولا بد من طاعته فيما امر عملا .

ولهذا كان « الايمان » قولاً وعملا مع موافقة السنة ، فعلم الحق ما وافق علم الله ، والارادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه ، وهو حكمه الشرعي ، والله عليم حكيم .

فالأمور الخبرية لا بد ان تطابق علم الله وخبره ؛ والأمور العملية لا بد ان تطابق حب الله وامره ، فهذا حكمه ، وذاك علمه .

واما من جعل حكمه مجرد القدر ، كما فعل صاحب « منازل السائرين » وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه ان يستحسن حسنة او يستقبح سيئة ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه فى غير هذا الموضع . فلا ينفع المريد القاصد ان يعبد اي معبود كان ، ولا ان يعبد الله بأي عبادة كانت ، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، كالنصارى ومن اشبههم من اهل البدع الذين يعبدون غير الله بغير امر الله ، واما اهل الاسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده ، ويعبدونه بما شرع . لا يعبدونه بالبدع الا ما يقع من احدهم خطأً .

فالسالكون طريق الارادة قد يغلطون تارة فى المراد ؛ وتارة فى الطريق إليه ، وتارة يألهون غير الله بالخوف منه والرجاء له ، والتعظيم والمحبة له وسؤاله والرغبة إليه ، فهذا حقيقة الشرك المحرم ، فان حقيقة

التوحيد أن لا يعبد الا الله .

و « العبادة » تتضمن كمال الحب . وكمال التعظيم ، وكمال الرجاء، والخشية ، والاجلال والاكرام . و « الفناء » فى هـذا التوحيد فناء المرسلين واتباعهم ، وهو ان تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه عن رجاء ما سواه . وبحبه والحب فيـه عن محبـة ما سواه والحب فيه .

واما الغالطون فى الطريق فقد يريدون الله ؛ لكن لا يتبعون الأمر الشرعي فى ارادته ، لكن « تارة » يعبده احدهم بما يظنه يرضيـه ، ولا يكون كذلك . و « تارة » ينظرون القدر لكونـه مراده ، فيفنون فى القدر الذي ليس لهم فيه غرض ، وامـا الفناء المطلق فيـه فممتنع . وهؤلاء يفنى احدهم متبعاً لذوقـه ووجده المخـالف للامر الشرعي ، او ناظراً الى القدر . وهذا يبتلى به كثير من خواصهم .

و « الشيخ عبد القادر » ونحوه من اعظم مشـائخ زمانهم امراً بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمـه على الذوق والقدر ، ومن اعظم المشائخ امراً بترك الهوى والارادة النفسيـة . فان الخطـأ فى الارادة من حيث هي ارادة انما تقع من هذه الجهة ؛ فهو يأمر السالك

ان لا تـكون له ارادة من جهة هواه أصلا ؛ بل يريد ما يريده الرب عز وجل : امـــا ارادة شرعية ان تبين له ذلك ؛ والاجرى مـع الارادة القدرية ، فهو اما مع امر الرب ، واما مع خلقه ، وهو سبحانه له الخلق والأمر .

وهذه « طريقة شرعية صحيحة » إنما يخاف على صاحبهـا من ترك إرادة شرعية لأ يعلم انها شرعية ، او من تقديم ارادة قدرية على الشرعية فانه اذا لم يعلم أنها شرعية فقد يتركها ، وقد يريد ضدهـا ، فيكون ترك مأموراً أو فعل محظوراً وهو لا يعلم . فان « طريقة الارادة » يخاف على صاحبهـــا من ضعف العلم ؛ وما يقترن بالعلم من العمل ، والوقوع فى الضلال ، كما ان طريقة العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وضعف العلم الذي يقترن بالعمل ؛ لكن لا يكلف الله نفســاً الا وسعها من هذا وهذا . قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) فاذا نفقـــه السالك ، وتعلم الأمر والنهي بحسب اجتهاده ، وكان علمـــه وإرادته بحسب ذالك ، فهذا مستطاعه . وإذا أدى الطالب ما أمر به ، وترك مانهى عنه ، وكان علمه مطابقاً لعمله ، فهذا مستطاعه

فصـــــل

قال « الشيخ عبد القادر » قدس الله روحه : « افن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن ارادتك بفعله ، فحينئذ يصلح ان تكون وعاء لعلم الله » .

قلت : فحكمه يتناول خلقه وامره اي : افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم فى معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم فى جلب منفعة ولا دفع مضرة . واما الفناء عن الهوى بالامر وعن الارادة بالفعل بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه ، وان تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لارادة نفسه . فالارادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

فا « الأول » يكون بالأمر و « الثاني » لاتكون له إرادة . ولا بد فى هذا ان يقيد بان لا تكون له ارادة لم يؤمر بها والا فاذا امر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء فليرد ما امر بارادته سواء كان موافقاً للقدر ام لا . وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين .

والغالب على الصادقين منهم انهم لم يعرفوا الارادة الشرعية فى ذلك المعين وهم ليس لهم ارادة نفسانية فتركوا ارادتهم لغير المقدور .

قال الشيخ : « فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد اليهم واليأس مما فى ايديهم » . وهو كما قال .

فاذا كان القلب لا يرجوهم ، ولا يخافهم ، لم يتردد اليهم لطلب شيء منهم وهذا يشبه بما يكون مأموراً به من المشي اليهم لأمرهم بما امر الله به ، ونهيهم عما نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل ، واتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله ، فان التوكل إنما يصح مع القيام بما امر به العبد . ليكون عابداً لله متوكلا عليه ، والا فمن توكل عليه ولم يفعل ما امر به ؛ فقد يكون ما اضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل ، او مثله او دونه ، كما ان من قام بامر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ؛ بل قد يكون ماتركه من التوكل والاستعانة اولى به مما فعله من الأمر او مثله او دونه .

قال الشيخ : « وعلامة فنائك عنك وعن هواك : ترك التكسب ، والتعلق بالسبب فى جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك ، ولا تذب عنك ، لكن تكل ذلك كله

الى من تولاه اولا فيتولاه آخراً . كما كان ذلك موكولا اليه فى حال كونك مغيباً فى الرحم، وكونك رضيعاً طفلا فى مهدك » .

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ودفع ما تبغضه ويضرها . فاذا فنى عن ذاك بالأمر فعل مايحبه الله وترك ما يبغضه الله فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون فى ذلك متوكلا على الله .

و « الشيخ رحمه الله » ذكر هنا التوكل دون الطاعة ؛ لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فان لم تكن متوكلة على الله فى ذلك واثقة به لم يمكن ان تنصرف عن ذلك فتمتثل الامر مطلقاً ؛ بل لابد ان تعصي الامر فى جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة امره بدون التوكل عليه، كما ان التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته . قال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال تعالى : (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلا) .

و (المقصود) ان امتثال الأمر على الاطلاق لا يصح بدون

التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله ان يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره امكن ان يدع هواه ويطيع امره ، والا فنفسه لا تدعه ان يترك ما يقول انه محتاج فيه إلى غيره .

قال الشيخ — رضي الله عنه — : « وعلامة فناء إرادتك بفعل الله انك لا تريد مراداً قط ، فلا يكن لك غرض ، ولا تقف لك حاجة ولا مرام ؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجري فعله فيك فتكون انت إرادة الله تعالى وفعله ، ساكن الجوارح مطمئن الجنان ، مشروح الصدر ، منور الوجه ، عامر الباطن ، غنيا عن الأشياء بخالقها ، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ، ويعلمك رب الملك ويكسوك نوراً منه والحلل ، وينزلك منازل من سلف من اولي العلم الأول ، فتكون منكسراً ابداً .

فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة : كالاناء المتلم — الذي لايثبت فيه مائع ولا كدر فتفنوا عن اخلاق البشرية ، فلن يقبل باطنك ساكنا غير إرادة الله ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك فى ظاهر العقل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقا فى العلم فتدخل حينئذ فى زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية ، وازيلت شهواتهم الطبيعية واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات اضافية . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حبب إلي من

دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » فاضيف ذلك اليه بعد ان خرج منه وزال عنه تحقيقاً لما اشرت اليه وتقدم ، قال الله تعالى : « انا عند المنكسرة قلوبهم من اجلي » وساق كلامه . وفيه : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » الحديث .

قلت : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر — رضي الله عنه — وحقيقته انه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأموراً بإرادته . فقوله : علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط . أي لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه ، فإرادته إما واجب واما مستحب ، وترك ارادة هذا اما معصية واما نقص .

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين ، فيظنون أن الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد ارادة أصلاً ، وان قول ابي يزيد : « اريد ان لا اريد » — لما قيل له : ماذا تريد ؟ — نقص وتناقض ؛ لأنه قد اراد ، ويحملون كلام المشائخ الذين يمدحون بترك الأرادة على ترك الارادة مطلقاً ، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين ، وان كان من الشيوخ من يأمر بترك الارادة مطلقاً ، فان هذا غلط ممن قاله ، فان ذلك ليس بمقدور ولا مأمور .

فان الحي لا بد له من ارادة ، فلا يمكن حياً ان لا تكون له ارادة ، فان الارادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر ايجاب او امر استحباب لا يدعها الا كافر او فاسق او عاص ان كانت واجبة ، وان كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له .

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه « الارادة » فقال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعالى : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى) وقال تعالى : (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) وقال تعالى : (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) وقال تعالى : (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقال تعالى : (فاعبد الله مخلصاً له الدين الا لله الدين الخالص) وقال تعالى : (قل الله اعبد مخلصاً له ديني) وقال تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) .

ولا عبادة الا بارادة الله ، ولما امر به . وقال تعالى : (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن) اي اخلص قصده لله . وقال تعالى : (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) واخلاص الدين له

هو ارادته وحده بالعبادة . وقال تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقال تعالى : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وقال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . وكل محب فهو مريد . وقال الخليل عليه السلام : (لا احب الآفلين) ثم قال : (انى وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، يأمر الله بارادته ، وارادة ما يأمر به ، وينهى عن ارادة غيره ، وارادة مانهى عنه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » فهما « ارادتان » : ارادة يحبها الله ويرضاها . وارادة لا يحبها الله ولا يرضاها . بل اما نهى عنها ، واما لم يأمر بها ، ولا ينهى عنها والناس فى الارادة « ثلاثة اقسام » .

(قوم) يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد انفسهم والشيطان .

و (قوم) يزعمون انهم فرغوا من الارادة مطلقاً ، ولم يبق لهم مراد الا ما يقدره الرب ، وان هذا المقام هو اكمل المقامات . ويزعمون ان من قام بهذا فقد قام بالحقيقة ، وهي الحقيقة القدرية الكونية : وانه

شهد القيومية العامة . ويجعلون الفناء فى شهود توحيد الربوبية . هو الغاية ؛ وقد يسمون هذا الجمع والفناء والاصطلام ، ونحو ذلك . وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع .

وفى « هذا المقام » كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من اصحابه الصوفية ؛ فانهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية . وان اللّه خالق كل شيء وربه ومليكه ، وهو شهود القدر ؛ وسموا هذا مقام الجمع . فانه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي بارادة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا . فان الانسان قبل ان يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرق به قلبه فى شهود افعال المخلوقات ؛ ويكون متبعاً لهواه فيما يريده ، فاذا اراد الحق خرج بارادته عن ارادة الهوى والطبع ، ثم شهد انه خالق كل شيء ، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد « الفرق الثانى » وهو بعد هذا الجمع ، وهو الفرق الشرعى . ألا ترى انك تريد ما أمرت به ، ولا تريد ما نهيت عنه ؟! وتشهد ان الله يستحق العبادة دون ما سواه ، وان عبادته هي بطاعة رسله ، فتفرق بين المأمور والمحظور ، وبين اوليائه واعدائه . وتشهد توحيد الألوهية ، فنازعوه فى هذا « الفرق » .

(منهم) من أنكره .

و (منهم) من لم يفهمه.

و (منهم) من ادعى ان المتكلم فيه لم يصل إليه .

ثم انك تجد كثيراً من الشيوخ انما ينتهي الى ذلك الجمع ، وهو « توحيد الربوبية » والفناء فيه . كما فى كلام صاحب « منازل السائرين » مع جلالة قدره ، مع انه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفين ،لكن قد يدعون ان هذا لأجل العامة .

و (منهم) من يتناقض .

و (منهم) من يقول الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة ، وقد يعبر عنهم بأهل المارستان .

و (منهم) من يسمى ذلك مقام التلبيس .

و (منهم) من يقول التحقيق ان يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً ، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور مع تفريقه بينهما .

و (منهم) من يرى ان هذه هي الحقيقة التى هي منتهى سلوك

العارفين ، وغاية منازل الأولياء الصديقين .

و (منهم) من يظن ان الوقوف مع ارادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية ، واما في النهاية فلا تبقى الا إرادة القدر ، وهو في الحقيقة قول بسقوط العبادة والطاعة ؛ فان العبادة لله والطاعة له ولرسوله انما تكون في امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور ، وان كان كفراً او فسوقاً او عصياناً ، ومن هنا صار كثير من السالكين من اعوان الكفار والفجار وخفرائهم ، حيث شهدوا القدر معهم ؛ ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين .

ومن هؤلاء من يقول : من شهد القدر سقط عنه الملام . ويقولون ان الخضر انما سقط عنه الملام لما شهد القدر .

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى احدهم ملكا من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف فيظن ذلك كما لا في الولاية ؛ وتكون تلك « الخوارق » انما حصلت بأسباب شيطانية ، وأهواء نفسانية ؛ وانما الكمال في الولاية ان يستعمل خرق العادات في اقامة الأمر والنهي الشرعيين مع حصولها بفعل المأمور وترك المحظور ، فاذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة ، وان حصلت بالاسباب الشرعية لكن استعملت ليتوصل بها الى محرم كانت مذمومة ، وان توصل بها الى مباح

لا يستعان بها على طاعة كانت للأبرار دون المقربين ، واما ان حصلت بالسبب الشرعي واستعين بها على فعل الآمر الشرعي : فهـذه خوارق المقربين السابقين.

فلا بد ان ينظر في « الخوارق » فى اسبابهـا وغاياتهـا : من أين حصلت ، وإلى ماذا اوصلت ـ كما ينظـر فى الأموال فى مستخرجهـا ومصروفها ـ ومـن استعملهـا ـ اعني الخوارق ـ فى إرادته الطبيعيـة كان مذموماً ، ومن كان خالياً عن الارادتين الطبيعيـة والشرعية فهـذا حسبه ان يعفى عنه ، لكونه لم يعرف الارادة الشرعية .

واما ان عرفها واعرض عنها فانه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب ان لم يعف عنه ، وهو يمدح بكون إرادته ليست بهواه ؛ لكن يجب مع ذلك ان تكون موافقة لأمر الله تعـالى ورسوله ، لا يكفيـه ان تكون لا من هذا ولا من هذا ، مع انه لا يمكن خلوه عن الارادة مطلقاً ، بل لا بد له من إرادة ، فان لم يرد ما يحبه الله ورسوله ، اراد ما لا يحبه الله ورسوله ؛ لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما تهواه بقي مريداً لما يظن انه مأمور به ، فيكون ضالاً .

فان هذا يشبه حال الضالين من النصـارى . وقـد قال تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم

ولا الضالين) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

فاليهود لهم إرادات فاسدة منهي عنها ، كما اخبر عنهم : بأنهم عصوا وكانوا يعتدون . وهم يعرفون الحق ولا يعملون به ، فلهم علم ، لكن ليس لهم عمل بالعلم ، وهم في الارادة المذمومة المحرمة يتبعون اهواءهم ليسوا فى الارادة المحمودة المأمور بها ، وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله .

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد لكنهم ضلال ، يعملون بغير علم ، فلا يعرفون الارادة التى يحبها الله ورسوله ، بل غاية احدهم تجريد نفسه عن الارادات ، فلا يبقى مريدا لما امر الله به ورسوله ، كما لا يريد كثيراً مما نهى الله عنه ورسوله ، وهؤلاء ضالون عن مقصودهم فان مقصودهم انما هو فى طاعة الله ورسوله ، ولهذا كانوا ملعونين : اي بعيدين عن الرحمة التى تنال بطاعة الله عز وجل .

و « العالم الفاجر » يشبه اليهود . و « العابد الجاهل » يشبه النصارى . ومن اهل العلم من فيه شيء من الأول ، ومن اهل العبادة من فيه شيء من الثاني .

وهذا الموضع تفرق فيه بنوا آدم ، وتباينوا تباينا عظيماً ، لا يحيط به الا الله . ففيهم من لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منه ، وهو خير البرية . ومنهم من هو شر البرية ، وافضل الاحوال فيه حال الخليلين : ابراهيم ومحمد — صلى الله عليهما وسلم — ومحمد سيد ولد آدم ، وافضل الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين وامامهم اذا اجتمعوا وخطيبهم اذا وفدوا ، وهو المعروج به الى ما فوق الانبياء كلهم — ابراهيم وموسى وغيرهما .

وأفضل الأنبياء بعده « ابراهيم » كما ثبت فى الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ابراهيم خير البرية » وقد ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه كان يقول فى خطبة الجمعة : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم » . وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس ، كما رواه البخاري فى صحيحه .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئاً قط الا ان يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه الا ان تنتهك محارم الله ، فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقال انس : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي : أف قط ، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ؟ » وكان بعض أهله اذا عنفني على شيء قال : « دعوه فلو قضى شيء لكان » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو افضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، وله الوسيلة فى المقامات كلها ، ولم يكن حاله انه لا يريد شيئاً ، ولا انه يريد كل واقع ، كما انه لم يكن حاله انه يتبع الهوى ، بل هو منزه عن هذا وهذا ، قال الله تعالى : (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) وقال تعالى : (وانه لما قام عبد الله يدعوه) وقال تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وقال : (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا) . والمراد بعبده عابده المطيع لأمره ؛ والا فجميع المخلوقين عباد بمعنى انهم معبدون مخلوقون مدبرون .

وقد قال الله لنبيه : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال الحسن البصري لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت ، وقد قال الله تعالى له : (وانك لعلى خلق عظيم) قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة واحمد بن حنبل على دين عظيم . و « الدين » فعل ما أمر به . وقالت عائشة : « كان خلقه القرآن » رواه مسلم . وقد اخبرت انه لم يكن يعاقب لنفسه . ولا ينتقم لنفسه ، لكن يعاقب لله

وينتقم لله ، وكذلك اخبر أنس انـه كان يعفو عـن حظوظه ، وأما حدود الله فقد قال : « والذي نفسي بيـده لو ان فاطمة بنت محمـد سرقت لقطعت يدها » أخرجاه فى الصحيحين .

وهذا هو كمال الارادة ؛ فانه اراد ما يحبه الله ويرضاه من الايمان والعمل الصالح ، وامر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ، ونهى عن ذلك . كما وصفـه الله تعـالى بقوله : (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبهـا للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهـاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغـلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا بـه وعزروه ونصروه . واتبعوا النور الذي انزل معه ، أولئك هم المفلحون)

واما لحظ نفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم بل يستوفى حق ربه . ويعفو عن حظ نفسه ، وفى حـظ نفسه ينظر إلى القـدر . فيقول : « لو قضي شيء لـكان » . وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعـل ما أمر الله به . ويجاهـد في سبيل الله اكمل الجهاد الممكن ، فجـاهدهم أولاً بلسانه بالقرآن الذي انزل عليه . كما قال تعالى : (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً فلا تطع الـكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) . ثم لما

هاجر إلى المدينة واذن له فى القتال ، جاهدهم بيده .

وهذا مطابق لما اخرجاه فى الصحيحين عن ابي هريرة ، وهو معروف ايضاً من حديث عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث احتجاج آدم وموسى لما لام موسى آدم لكونه اخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله فأجابه آدم بان هذا كان مكتوبا علي قبل ان اخلق بمدة طويلة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى »

وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله ، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم ان هذا كان أمراً مقدراً لا بد من كونه ، والمصائب التى تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر ؛ فان هذا هو الذي ينفعهم . واما لومهم لمن كان سبباً فيها فلا فائدة لهم فى ذلك ، وكذلك ما فاتهم من الأمور التى تنفعهم يؤمرون فى ذلك بالنظر إلى القدر ، واما التأسف والحزن فلا فائدة فيه . فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم ، او حصول مضرة لهم ، فلينظروا فى ذلك الى القدر ، واما ما كان بسبب اعمالهم فليجتهدوا فى التوبة من المعاصي ، والاصلاح فى المستقبل . فان هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم .

وفى صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن . وان اصابك شيء فلا تقل : لو اني فعلت لكان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فان لو تفتح عمل الشيطان »

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحرص العبد على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز ، وانفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، وهي عبادة الله تعالى . وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) ونهاه عن العجز وهو الاضاعة والتفريط والتوانى . كما قال فى الحديث الآخر : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » رواه الترمذي .

وفى سنن أبي داود : « ان رجلين تحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما . فقال : المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » فالكيس ضد العجز . وفى الحديث : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » رواه مسلم . وليس المراد بالعجز فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما يضاد

القدرة ؛ فان من لا قدرة له بحال لا يلام ، ولا يؤمر بما لايقدر عليه بحال .

ثم لما امره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز ، امره إذا غلبه امر ان ينظر الى القدر ويقول : قدر الله وما شاء فعل ،ولا يتحسر ويتلهف ويحزن . ويقول : لو انى فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ، فان لو تفتح عمل الشيطان .

وقد قال بعض الناس فى هذا المعنى : الأمر امران : امر فيه حيلة وامر لا حيلة فيه . فما فيه حيلة لا يعجز عنه ، وما لا حيلة فيه لايجزع منه . وهذا هو الذي يذكره ائمة الدين . كما ذكر (الشيخ عبد القادر) وغيره . فانه لا بد من فعل المأمور وترك المحظور ، والرضا والصبر على المقدور . وقد قال تعالى حكاية عن يوسف : (أنا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا ؛ انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين)

« فالتقوى » تتضمن فعل المأمور وترك المحظور . و « الصبر » يتضمن الصبر على المقدور . وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا — إلى قوله — وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) فبين سبحانه انه مع التقوى والصبر لايضر

المؤمنين كيد اعدائهم المنافقين . وقال تعالى : (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) فبين انـــه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة . وينصرهم على اعدائهم الذين يقاتلونهم .

وقال تعـــالى : (لتبلون فى اموالكم وانفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . ومن الذين اشركوا اذى كثيراً ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) فأخبرهم ان اعداءهم من المشركين واهل الكتـــاب لا بد ان يؤذوهم بألسنتهم ، واخبر انهم إن يصبروا ويتقوا فان ذلك من عزم الأمور . فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة ، المؤذين بألسنتهم والمؤذين بأيديهم ، وشر العدو المبطن للعداوة . وهم المنافقون ، وهذا الذي كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم وهديه هو اكمل الأمور .

فاما من اراد ما يحبه الله تارة ومالا يحبـه تارة ، او لم يرد لا هذا ولا هذا ، فكلاهما دون خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وان لم يكن على واحد منهما إثم ، كالذي يريد ما ابيح له من نيـل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحـين ، فهو وان كان جائزاً لا إثم فيه فخلق رسول الله صلى الله عليـه وسلم اكمل منه .

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة وإن كان يستعان بها على امر مستحب ، ولم يرد ان يغضب وينتقم ويجاهـد اذا جاز العفو وان كان الانتقام لله أرضى لله . كما هو ايضاً خلق بعض الأنبياء والصالحين فهذا وان كان جائزاً لا اثم فيـه فخلق رسول الله صلى الله عليـه وسـلم اكمل منه .

وهذا والذي قبله اذا كان شريعة لنبي فلا عيب على نبي فيما شرع الله له .

لكن قـد فضل الله بعض النبيـين عـلى بعض ، وفضل بعض الرسل على بعض . والشريعة التى بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم افضل الشرائع ؛ اذ كان محمـد صلى الله عليـه وسلم افضل الانبياء والمرسلين ، وامته خير امة اخرجت للناس . قال ابو هريرة في قوله تعالى : (كنتم خير امة أخرجت للناس) كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة . يبذلون اموالهم وانفسهم فى الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمـم للخلق . والخلق عيـال الله فاحبهم الى الله انفعهم لعياله . واما غير الأنبياء فمنهم من يكون ذلك شرعة لاتباعه لذلك النبي . واما من كان من اهل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فان كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرماً عليـه كان مستحقاً للذم والعقاب . الا ان يكون متأولاً مخطئاً فالله قد وضع عن هذه الأمـة

الخطأ والنسيان وذنب احدهم قد يعفو الله عنه باسباب متعددة .

ومن اسباب هذا الانحراف ان من الناس من تغلب عليه « طريقة الزهد » فى ارادة نفسه فيزهـد فى موجب الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباد المشركين، واهـل الكتاب كالرهبان وأشباههم، وهؤلاء يرون الجهاد نقصاً لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، ويرون ان الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء .

ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة، ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب الى الله بانه لا يذبح حيواناً ولا يأكل لحمـه ولا ينكح النساء ، ويقول مادحـه : فـلان ما نكح ، ولا ذبح .

وقد انكر النبي صلى الله عليـه وسـلم على هؤلاء كما فى الصحيحين عن انس : « ان نفـراً من اصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسـلم عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا أتزوج النساء وقال بعضهـم : لا آكل اللحـم ، وقال بعضهم : لا انام على فراش . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسـلم فحمد الله واثنى عليه وقال : مابال اقوام قالوا : كذا وكذا ؟ ! لكني أصـلي وأنام

واصوم وافطر ، واتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . وقد قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ، ونوع من الترهب وفى الصحيحين عن سعد قال رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو اذن له لا اختصينا .

و « الزهد » النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع فى الآخرة ، فاما ما ينفع فى الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد فى نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد انما يراد لأنه زهد فيما يضر ، او زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله ، وكلما صده عن ذلك فانه ضار لا نافع ، ثم الأنفع له ان تكون كل اعماله عبادة لله وطاعة له ، وان ادى الفرائض وفعل مباحا لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه ومالا ينفعه ولا يضره .

وكذلك « الورع » المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو

ما يعلم تحريمه ، وما يشك في تحريمه ، وليس فى تركه مفسدة اعظم من فعله — مثل محرم معين — مثل من يترك اخذ الشبهة ورعا مع حاجته اليها ويأخذ بدل ذلك محرما بينا تحريمه ، او يترك واجباً تركه اعظم فساداً من فعله مع الشبهة ، كمن يكون على ابيه او عليه ديون هو مطالب بها ، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ، ويدع ذمته او ذمة أبيه مرتهنة .

وكذلك من « الورع » الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه .

وتمام « الورع » ان يعم الانسان خير الخيرين ، وشر الشرين ، ويعلم ان الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات . ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة او فجور ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما فى صاحبه من بدعة خفية . ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع .

وكذلك « الزهد والرغبة » من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك ؛ وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل ، او اكل الدسم حتى يفسد عقله او تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى او حقوق عباده ، أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، لما فى فعل ذلك من اذى بعض الناس والانتقام منهم ، حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الابرار فلا ينظر المصلحة الراجحة فى ذلك .

وقد قال تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل) .

يقول سبحانه وتعالى : وإن كان قتل النفوس فيه شر فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور اهله اعظم من ذلك ، فيدفع اعظم الفسادين بالتزام ادناها .

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان او يرى ان فى ذبحه ظلماً له هو جاهل ، فان هذا الحيوان لا بد ان يموت ، فاذا قتل لمنفعة الآدميين

وحاجتهم كان خيراً من ان يموت موتا لا ينتفع به احد ، والآدمي اكمل منه ، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان فى الأكل والركوب ونحو ذلك ؛ لكن مالا يحتاج اليه من تعذيبه نهى الله عنه كصبر البهائم وذبحها فى غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك ، وأوجب الله الاحسان بحسب الامكان فيما اباحه من القتل والذبح . كما فى صحيح مسلم عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله كتب الاحسان على كل شيء : فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد احدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

وهؤلاء الذين زهدوا فى « الارادات » حتى فيما يحبه الله ورسوله من الارادات بازائهم « طائفتان » :

(طائفة) رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان .

و (طائفة) رغبت فيما أمر الله ورسوله ، لكن لهواء انفسهم لا لعبادة الله تعالى ، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه قيل له : يا رسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ،

فهو فى سبيل الله » . قال تعالى : (إن المنـافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا)

وهؤلاء أهل إرادات فاسـدة مذمومـة ، فهم مع تركهم الواجب فعـلوا المحرم . وهم يشبهون اليهود ، كما يشبه اولئك النصـارى . قال تعالى : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ؛ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وقال تعـالى : (سأصرف عـن آياتي الذين يتـكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخـذوه سبيلا) . وقال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بهـا) إلى قوله : (واتبـع هواه فمثله كمثل الـكلب ان تحمل عليـه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيا مع العلم بالحق ، واولئك يتبعون اهواءهم مع الضلال والجهل بالحق . كما قال تعالى : (لا تتبعوا أهواء قوم قـد ضلوا من قبل . واضلوا كثيراً . وضلوا عن سواء السبيل)

وكلا الطائفتين تاركة ما امر الله ورسوله بـه من الارادات ، والأعمال الصالحة ، مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنـه من الارادات والأعمال الفاسدة .

فصـــل

فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشائخ اهل الاستقامة ــ رضي الله عنهم ــ : بأنه لايريد السالك مراداً قط وانه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها ، بل يجري فعله فيه ، فيكون هو مراد الحق . إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد امر الله ورسوله فيه ، فأما ماعلم ان الله امر به فعليه أن يريده ويعمل به ، وقد صرحوا بذلك فى غير موضع . وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالارادة الخلقية هو الكمال ، وهو « الفناء في توحيد الربوبية » وأن السلوك إذا انتهى الى هذا الحد فصاحبه اذا قام بالأمر فلأجل غيره ، او انه لا يحتاج ان يقوم بالأمر ، فتلك اقوال وطرائق فاسدة قد تكلم عليها فى غير هذا الموضع .

فاما المستقيمون من السالكين كجمهور مشائخ السلف : مثل الفضيل بن عياض ، وابراهيم بن ادهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف

الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين . فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء ان يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه ان يفعل المأمور ، ويدع المحظور الى ان يموت ، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف .

وهذا كثير في كلامهم : كقول الشيخ عبد القادر في كتاب (فتوح الغيب) : « اخرج من نفسك ، وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك . وسلم الكل الى الله تبارك وتعالى ، وكن بوابه على باب قلبك ، وامتثل امره تبارك وتعالى في ادخال من يأمرك بادخاله ، وانته نهيه في صد من يأمرك بصده . فلا تدخل الهوى قلبك بعد ان خرج منه . واخراج الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته في الاحوال كلها ، وادخاله في القلب بمتابعته وموافقته ، فلا ترد ارادة غير ارادته تبارك وتعالى ، وغير ذلك منك غير ، وهو واد الحمقى ، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى ، وحجابك عنه .

احفظ ابداً امره ، وانته ابداً نهيه ، وسلم اليه ابداً مقدوره ، ولا تشركه بشيء من خلقه ، فارادتك وهواك وشهواتك خلقه ، فلا ترد ولا تهوى ولا تشته لئلا يكون شركا . قال الله تعالى : (فمن كان

يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً) ليس الشرك عبادة الاصنام فحسب ؛ بل هو ايضاً متابعتك لهواك ، وان تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فما سواه تبارك وتعالى غيره ، فاذا ركنت الى غيره فقد اشركت به غيره ، فاحذر ولا تركن ، وخف ولا تأمن ، وفتش ولا تغفل فتطمئن ، ولا تضف الى نفسك حالاً ولا مقاماً ، ولا تدع شيئاً من ذلك » .

وقال (الشيخ عبد القادر) ايضاً : « انما هو الله ونفسك ، وانت المخاطب ، والنفس ضد الله وعدوته ؛ والاشياء كلها تابعة لله ، فاذا وافقت الحق فى مخالفة النفس وعداوتها كنت خصماً له على نفسك — الى أن قال — :

« فالعبادة » في مخالفتك نفسك وهواك ، قال تعالى : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الى ان قال :

و الحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي — رحمه الله تعالى — لما رأى رب العزة فى المنام فقال له : كيف الطريق اليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال ، قال ابو زيد : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها .

فاذا ثبت ان الخير كله فى معاداتها فى الجملة في الأحوال كلها ، فان

كنت في حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من اجرام الخلق ، وشبههم ومنتهم ، والاتكال عليهم والثقة بهم ، والخوف منهم ؛ والرجاء لهم ، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا ، فلا ترج عطاءهم على طريق الهدية ، او الزكاة ، او الصدقة ، او الكفارة او النذر ، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب ، فاخرج من الخلق جداً ، واجعلهم كالباب يرد ويفتتح ، وكالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة وتحيل اخرى ، كل ذلك بفعل فاعل ، وتدبير مدبر ، وهو الله تبارك وتعالى .

فاذا صح لك هذا كنت موحداً له تبارك وتعالى ، ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية ، واعتقد ان الأفعال لا تتم لهم دون الله تبارك وتعالى ؛ لكيلا تعبدهم ، وتنسى الله تعالى ، ولا تقبل فعلهم دون الله فتكفر ، وتكون قدرياً . ولكن قل : هي لله خلقا وللعباد كسبا . كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب ، وامتثل امر الله فيهم ، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه ، فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم ، فلا تكن انت الحاكم ، وكونك معهم قدر ، والقدر ظلمة ، فادخل فى الظلمة بالمصباح وهو « الحكم » : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تخرج عنهما .

فان خطر خاطر او وجدت إلهاما فاعرضها على الكتاب والسنة ، فان وجدت فيهما تحريم ذلك ، مثل ان تلهم بالزنا او الربا او مخالطة

اهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك ، واهجره ولا تقبله ، ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين ، وان وجدت فيها اباحته كالشهوات المباحة من الاكل والشرب واللبس والنكاح فاهجره ايضاً ولا تقبله ، واعلم انه من الهام النفس وشهواتها ، وقد امرت بمخالفتها وعداوتها » .

قلت : ومراده بهجر المباح إذا لم يكن مأموراً به ، كما قد بين مراده فى غير هذا الموضع . فان المباح المأمور به إذا فعله بحكم الامر كان ذلك من اعظم نعمة الله عليه ، وكان واجباً عليه ، وقد قدمت انه يدعو إلى طريقة السابقين المقربين ؛ لا يقف عند طريقة الابرار اصحاب اليمين .

قال : « وان لم تجد فى الكتاب والسنة تحريمه ولا اباحته بل هو امر لا تعقله ، مثل ان يقال لك ائت موضع كذا وكذا ، الق فلانا الصالح ؛ ولا حاجة لك هناك ولا فى الصالح ؛ لاستغنائك عنه بما اولاك الله تعالى من نعمه من العلم والمعرفة ، فتوقف فى ذلك ولا تبادر اليه . فتقول : هل هذا الهام الا من الحق فاعمل به ؟ بل انتظر الخير فى ذلك ، وفعل الحق بأن يتكرر ذلك الالهام وتؤمر بالسعي ، او علامة تظهر لاهل العلم بالله تبارك وتعالى يفعلها العقلاء من اولياء الله ، والمؤيدون من الابدال .

وانما لم تبادر الى ذلك لانك لا تعلم عاقبته وما يؤول الامر اليه ، وربما

كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون عز وجل هو الفاعل فيك ، فاذا تجرد الفعل وحملت الى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولاً محفوظاً فيها ؛ لان الله تعالى لا يعاقبك على فعله ، وانما تتطرق العقوبات نحوك لكونك فى الشيء » .

قلت : فقد امر — رضي الله عنه — بأن ما كان محظوراً فى الشرع يجب تركه ولا بد ، وما كان معلوماً انه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك ايضاً ، واما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه او فيه مضرة مثل السفر الى مكان معين او شخص معين ، والذهاب الى مكان معين او شخص معين ، فان جنس هذا العمل ليس محرما ولا كل افراده مباحة ؛ بل يحرم على الانسان ان يذهب الى حيث يحصل له ضرر فى دينه فأمره بالكف عن الذهاب حتى يظهر او يتبين له فى الباطن ان هذا مصلحة ؛ لأنه اذا لم يتبين له ان الذهاب واجب او مستحب لم ينبغ له فعله ، واذا خاف الضرر ينبغى له تركه ، فاذا اكره على الذهاب لم يكن عليه حرج فلا يؤاخذ بالفعل . بخلاف ما اذا فعله باختياره او شهوته ؛ واذ تبين له انه مصلحة راجحة كان حسناً .

وقد جاءت شواهد السنة : بأن من ابتلى بغير تعرض منه اعين ومن تعرض للبلاء خيف عليه . مثل قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة « لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان اعطيتها

عن غير مسألة أعنت عليها » ومنه قوله : « لا تتمنوا لقاء العــدو واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا » . وفى السنن « من سأل القضاء واستعان عليه بالشفعاء وكل اليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه انزل الله عليه ملكا يسدده ـــ وفى رواية ـــ وان اكره عليه » وفى الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال فى الطاعون : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليــه ؛ واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » وعنه انه صلى الله عليــه وسلم « نهى عن النذر » ومنه قوله : « ذرونى ما تركتم ، فانما هلك مــن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم . فاذا نهيتــكم عــن شيء فاجتنبوه . واذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

فصـــــل

قال (الشيخ عبد القادر) : « وإن كنت فى حال الحقيقة ، وهي حال الولايــة : فخالف هواك واتبــع الأمــر فى الجملة ، واتباع الأمر على « قسمين » :

(احدهما) : ان تأخذ من الدنيـا القوت الذي هو حق النفس ، وتــترك الحظ وتؤدي الفرض وتشتغل بــترك الذنوب ما ظهر منهــا وما بطن .

و (القسم الثـاني) : ما كان بأمر باطن ، وهو امر الحق تبـارك وتعالى يأمر عبده وينهاه ، وانما يتحقق هذا الأمر فى المبـاح الذي ليس حكما في الشرع ، على معنى انه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره ، فسمي مباحا فلا يحدث العبد فيه شيئاً من عنده بل ينتظر الأمر فيه فاذا امر امتثل فيصير جميع حركاته وسكناته بالله تعـالى ، ماقى الشرع حكمه فبالشرع ، وما ليس له حـكم فى الشرع فبالأمر الباطن ، فحينئذ يصـير محققـاً من اهـل الحقيقـة وما ليس فيـه امـر باطن فهو مجـرد الفعـل حالة التسليم .

وان كنت فى حالة حق الحـق وهي حالة المحق ، والفنـاء حالة الابـدال المنكسري القـلوب ؛ لأجل الحق ، الموحـدين العـارفين أرباب العلوم والفعل السادة الأمراء السخى الخفراء للحق خلفاء الرحمن وأجلائه واعيانه واحبابه عليهـم السلام ، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة ، وان لا تكون لـك إرادة وهمة فى شيء البتة ، دنيا وأخرى عبد الملِك لا عبد الملَك ، وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر ، والميت الغسيل مع الغاسل ، والمريض المغلوب على حسه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي .

وقال ايضاً : « اتبع الشرع في جميـع ما ينزل بك ، ان كنت فى

حال التقوى التى هي القدم الأولى ، واتبع الامر فى حالة الولاية ووجود الهوى ولا تتجاوزه ، وهي القـدم الثانية ، وارض بالفعل ووافق وافن فى حالة البدليـة والعينية والصديقية ، وهي المنتهى . تنـح عن الطريق القذر ، خل عن سبيله ، رد نفسك وهواك ، كف لسانك عن الشكوى فاذا فعلت ذلك إن كان خـيراً زادك المولى طيبة ولذة وسروراً ، وان كان شراً حفظك فى طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة واقعدك فيه حتى يتجاوز ويريحك عند انقضاء اجله ، كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار والبرد فى الشتاء فيسفر عن الصيف ، ذلك النموذج عندك فاعتبر بـه . ثم ذنوب وآثـام واجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطايا ، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر عن انجاس الذنوب والزلات ، ولا يقبل عـلى شدته إلا طيب من دون الدعوى والهـواشات ، كما لا يصلح لمجالسـة الملوك إلا الطاهر من الانجـاس وانواع النـتن والاوسـاخ ، فالبلايا مكـفرات . قال النـبي صـلى الله عليـه وسـلم : « حمى يـوم كفارة سنة » .

قلت : فقد بين الشيخ عبد القادر ــ رضي الله عنه ــ ان لزوم الامر والنهي لا بد منـه فى كل مقـام ، وذكر الاحوال الثلاث الـتى جعلها : حال صاحب التقوى ، وحال الحقيقـة ، وحال حق الحق ، وقـد فسر مقصوده بأنه لابد للعبد فى كل حال من ان يريد فعل ما امر به

في الشرع وترك ما نهى عنه في الشرع ، وانه اذا امر العبد بترك ارادته فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وهذا حق . فانه لم يؤمر به فتكون له ارادة في وجوده ولا نهى عنه فتكون له ارادة في عدمه فيخلو في مثل هـذا عن ارادة النقيضين .

وقد بين ان صاحب الحقيقة عليه ان يلزم الامر دائماً الامر الشرعي الظاهر ان عرفه ، او الامر الباطن ، وبين ان الامر الباطن انما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم ، وان مثل هذا ينتظر فيه الامر الخاص حتى يفعله بحكم الامر .

فان قلت : فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله ؟ وصاحب الحق الذي بعده ؟ .

قيل : اما الذي بعده الذين سماهم « الابدال » فهم الذين لايفعلون الا بامر الحق ولا يفعلون الا به فلا يشهدون لأنفسهم فعلا فيما فعلوه من الطاعة ؛ بل يشهدون انـه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعـة امره . ولهـذا قال : فاتبـاع الأمر فيهـا مخالفتـك اياك بالتبري من الحول والقوة .

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الالهيـة ، فيشهدون

ان الله هو الذي خلق ما قام بهم من افعال البر والخير ، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منة على احد ، ويرون ان الله خالق افعال العباد فلا يرون أحداً مسيئاً اليهم ، ولا يرون لهم حقاً على احد اذ قد شهدوا ان الله خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها ، وهم يعلمون ان العباد لا يستحقون من انفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئاً ، بل هو الذي كتب على نفسه الرحمة ويشهدون انه يستحق ان يعبد ، ولا يشرك به شيء وانه يستحق ان يتقى حق تقاته ، وحق تقاته ان يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر ، فيرون انما قام بهم من العمل الصالح فهو جوده وفضله وكرمه له الحمد فى ذلك .

ويشهدون : انه لا حول ولا قوة الا بالله . واما ماقام بالعباد من أذاهم ، فهو خلقه وهو من عدله ، وما تركه الناس من حقوقهم التى يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه ، وله الحمد على كل حال على مافعل ومالم يفعل . ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم ؛ لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض ، ولا اعظم انكساراً ممن لم ير لنفسه الا العدم لا يرى له شيئاً ، ولا يرى به شيئاً .

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه فى إخلاص الدين لله ، وانه لا يفعل إلا ما أمر به ، فلا يفعل إلا لله ، لكن قصر عنه فى شهود توحيد الربوبية ورؤيته ، وانه لا حول ولا قوة الا بالله

وانه ليس له فى الحقيقة شيء ؛ بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به ، وان كمال هذا الشهود لا يبقى شيئاً من العجب ولا الكبر ونحو ذلك . فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله ، لكن هذا يشهد ان الله هو الذي جعله مسلماً مصلياً ، وانه فى الحقيقة لم يحدث شيئاً . وذاك وان كان يؤمن بهذا ويصدق به إذ كان مقراً بان الله خالق أفعال العباد ؛ لكن قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزلة المعدوم .

و (ايضاً) بينهما فرق من جهة ثانية : وهي ان الأول تكون له ارادة وهمة فى امور فيتركها ، فهو يميز فى مراداته بينما يؤمر به وما ينهى عنه ، ومالا يؤمر به ولا ينهى عنه ؛ ولهذا لم يبق له مراد اصلا الا ما اراده الرب ، اما امراً به فيمتثله هو بالله ، واما فعلا فيه فيفعله الله به ، ولهذا شبهه بالطفل مع الظئر ، فى غير الأمر والنهي .

واما (الأول) : الذي هو فى مقام التقوى العامة ، فان له شهوات للمحرمات ، وله التفات الى الخلق ، وله رؤية نفسه ، فيحتاج الى المجاهدة بالتقوى ، بأن يكف من المحرمات ، وعن تناول الشهوات بغير الأمر ، فهذا يحتاج ان يميز بين ما يفعله ومالا يفعله ، وهو التقوى ، وصاحب الحقيقة لم يبق له ما يفعله الا ما يؤمر به فقط ، فلا يفعل الا ما امر به فى الشرع ، وما كان مباحاً لم يفعل الا ما امر به .

واما (الثالث) : فقد تم شهوده فى انـه لا يفعل الا لله وبالله . فلا يفعل الا ما امر الله به لله ، ويشهد ان الله هو الذي فعل ذلك فى الحقيقة ، ولا تكون له همة ارادة ان يفعل لنفسه ولا لغير الله ، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله تعالى .

و (الثلاثة) مشتركون في الطريق ، فى ان كلامنهم لا يفعل الا الطاعة ، لكـن يتفـاوتون بـكمال المعرفة والشهادة ، وبصفـاء النية والارادة . والله اعلم .

فان قيل : كلام الشيخ كله يدور على انه يتبع الأمر مهما امكن معرفته باطناً وظاهراً ، وما ليس فيه امر باطناً ولا ظاهراً يكون فيـه مسلماً لفعل الرب ، بحيث لا يكون له اختيار لا فى هذا ولا فى هـذا بل ان عرف الأمر كان معه ، وان لم يعرفه كان مع القدر ، فهو مع امر الرب ان عرف والا فمع خلقه ، فانه سبحانه له الخلق والأمر ، وهذا يقتضي ان من الحوادث ما ليس فيه امر ولا نهي ، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة ، وقـد صرح بذلك هو والشيخ حماد الدباس ، وان السالك يصل الى امور لا يكون فيها حكم شرعي بأمر ولا نهي ، بل يقف العبد مع القدر ؛ وهذا الموضع هو الذي يـكون السالك فيـه عندهم مع « الحقيقـة القدريـة » المحضة . اذ ليس هنـا حقيقة شرعية .

وهذا مما ينازعهم فيه اهل العلم بالشريعة . ويقولون : « الفعل » اما ان يكون بالنسبة الى الشرع وجوده راجحاً على عدمه ، وهو الواجب والمستحب . واما ان يكون عدمه راجحاً على وجوده ، وهو المحرم والمكروه . واما ان يستوى الأمران وهو المباح . وهذا التقسيم بحسب الامر المطلق .

ثم « الفعل المعين » الذي يقال هو مباح ، اما ان تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانته به على طاعته وحسن نيته . فهذا يصير ايضاً محبوباً راجح الوجود بهذا الاعتبار ، واما ان يكون مفوتاً للعبد ما هو افضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب ، فهذا عدمه خير له .

والسالك المتقرب الى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين فى حقه مستوى الطرفين ، فانه اذا لم يستعن به على طاعته كان تركه وفعل الطاعة مكانه خيراً له ، وانما قدر وجوده وعدمه سواء اذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله . فيقال : لا فرق بين هذا وهذا فهذا يصلح للابرار اهل اليمين الذين يتقربون الى الله بالفرائض ، كأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، ويشتغلون مع ذلك بمباحات . فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، اذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ، ولا سبيل الى ان تترك النفس فعلا ان

لم تشتغل بفعل آخر يضـاد الاول ؛ اذ لا تكون معطلة عن جميـع الحركات والسكنات .

ومن هذا أنكر الكعبي « المباح » فى الشريعة ؛ لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرم ، وترك المحرم واجب ، ولا يمكنه تركه إلا ان يشتغل بضده ، وهذا المباح ضده ، والأمر بالشيء نهي عن ضده والنهي عنه أمر بضده إن لم يكن له إلا ضد واحد ، وإلا فهو أمر بأحد أضداده ، فأي ضد تلبس به كان واجباً من باب الواجب المخير .

وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظار ، فنهم من اعترف بالعجز عن جوابه : كأبي الحسن الآمدي ، وقواه طائفة ، بناء على ان النهي عن الشيء امر بضده كأبي المعالي . ومنهم من قال : هـذا فيما إذا كانت أضداده محصورة ، فأما ما ليست اضداده محصورة فلا يكون النهي عنه امراً بأحدها ، كما يفرق بين الواجب المطلق والواجب المخير . فيقال في المخير : هو أمر بأحد الثلاثة ، ويقـال فى المطلق هو أمر بالقدر المشترك . وجدنا ابو البركات يميل الى هذا .

وقد ألزموا « الكعبي » إذا ترك الحرام بحرام آخر ، وهـو قد يقول : عليه ترك المحرمات كلها الى ما ليس بمحرم ، بـل إما مبـاح وإما مستحب ، واما واجب .

و « تحقيق الأمر » ان قولنا : الامر بالشيء نهي عن ضده واضداده ، والنهي عنه امر بضده او بأحد اضداده ، من جنس قولنا : الامر بالشيء امر بلوازمه ، وما لا يتم الواجب الا به ، فهو واجب ، والنهي عن الشيء نهي عما لا يتم اجتنابه الا به . فان وجود المأمور يستلزم وجود لوازمه وانتفاء اضداده ، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء اضداده ، وعدم النهي عنه ؛ بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته ، واذا كان لا يعدم الا بضد يخلفه كالأكوان فلا بد عند عدمه من وجود بعض اضداده ، فهذا حق في نفسه ؛ لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود وان لم يكن مقصوده الامر . والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصداً ، وما يلزمه في الوجود .

(فالاول) هو الذي يذم ويعاقب على تركه بخلاف (الثاني) فان من امر بالحج او الجمعة وكان مكانه بعيداً فعليه ان يسعى من المكان البعيد ، والقريب يسعى من المكان القريب ، فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ، ومع هذا فاذا ترك هذان الجمعة والحج لم تكن عقوبة البعيد اعظم من عقوبة القريب ، بل ذلك بالعكس اولى مع ان ثواب البعيد اعظم ، فلو كانت اللوازم مقصودة للأمر لكان يعاقب بتركها ، فكان يكون عقوبة البعيد اعظم وهذا باطل قطعاً .

وهكذا اذا فعل المأمور به فانه لا بد من ترك اضداده ، لكن

ترك الاضداد هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصوداً للأمر ، بحيث انه اذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الاضداد التى اشتغل بها ، وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه ؛ ليس مقصوده فعل شيء من اضداده ، واذا تركه متلبساً بضد له كان ذلك من ضرورة الترك .

وعلى هذا اذا ترك حراماً بحرام آخر فانه يعاقب على الثانى ، ولا يقال فعل واجباً وهو ترك الاول ؛ لان المقصود عدم الاول ، فالمباح الذي اشتغل به عن محرم لم يؤمر به ولا بامتثاله امراً مقصوداً ؛ لكن نهي عن الحرام ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بضد من اضداده ، فذاك يقع لازماً لترك المنهي عنه ، فليس هو الواجب المحدود بقولنا « الواجب ما يذم تاركه ، ويعاقب تاركه » ، او « يكون تركه سبباً للذم والعقاب » .

فقولنا : « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » ، او « يجب التوصل الى الواجب بما ليس بواجب » . يتضمن ايجاب اللوازم . والفرق ثابت بين الواجب « الاول » ، و « الثانى » . فان الاول يذم تاركه ويعاقب ، والثانى واجب وقوعا ، اي لا يحصل الا به ، ويؤمر به امراً بالوسائل . ويثاب عليه ، لكن العقوبة ليست على تركه .

ومن هذا الباب اذا اشتبهت الميتة بالمذكى فان المحرم الذي يعاقب على فعله احدهما ، بحيث اذا اكلهما جميعاً لم يعاقب عقوبة من اكل ميتتين ، بل عقوبة من اكل ميتة واحدة ، والاخرى وجب تركها وجوب الوسائل . فقول من قال : كلاهما محرم صحيح بهذا الاعتبار ؛ وقول من قال : المحرم في نفس الامر احدهما صحيح ايضاً بذلك الاعتبار وهذا نظير قول من قال : يجب التوصل الى الواجب بما ليس بواجب .

وانكار ابي حامد الغزالي وابي محمد المقدسي على من قال هذا ، ومن قال المحرم احدهما لا يناسب طريقة الفقهاء ، وحاصله يرجع الى « نزاع لفظي » . فان الوجوب والحرمة الثابتة لاحدهما ليست ثابتة للآخر ، بل نوع آخر ، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها يعتقد حل وطء احداهما وتحريم وطء الاخرى ، كان ولده من مملوكته ثابتاً نسبه بخلاف الاخرى ، ولو قدرنا انها اشتبهت بأجنبية وتزوج احداهما فحد مثلاً ، ثم تزوج الاخرى لم يحد حدين ، مع انه لا حد في ذلك لجواز ان تكون المنكوحة هي الاجنبية .

وبهذا تنحل « شبهة الكعبي » . فان المحرم تركه مقصود ، واما الاشتغال بضد من اضداده فهو وسيلة ؛ فاذا قيل المباح واجب بمعنى وجوب الوسائل ، اي قد يتوسل به الى فعل واجب وترك محرم فهذا حق .

ثم ان هذا يعتبر فيه القصد ؛ فان كان الانسان يقصد ان يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر الى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر الى الاجنبية ووطئها ، او يأكل طعاماً حلالاً ليشتغل به عن الطعام الحرام ، فهذا يثاب على هذه النية والفعل ؛ كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « وفي بضع احدكم صدقة . قالوا : يارسول الله ؛ ايأتى احدنا شهوته ويكون له اجر ؟! قال : ارايتم لو وضعها فى حرام اما كان عليه وزر ، فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال ؟! » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته » رواه احمد وابن خزيمة فى صحيحه .

وقد يقال المباح يصير واجباً بهذا الاعتبار ، وان تعين طريقاً صار واجباً معيناً ، والا كان واجباً مخيراً ، لكن مع هذا القصد ، اما مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجباً اصلاً ، الا وجوب الوسائل الى الترك وترك المحرم لا يشترط فيه القصد . فكذلك ما يتوسل به اليه ، فاذا قيل هو مباح من جهة نفسه وانه قد يجب وجوب المخيرات من جهة الوسيلة لم يمنع ذلك . فالنزاع فى هذا الباب نزاع لفظي اعتباري . والا فالمعانى الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها .

و (المقصود هنا) : ان الابرار واصحاب اليمين قد يشتغلون بمباح

عن مباح آخر ، فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم .
أما السابقون المقربون فهم انما يستعملون المباحات إذا كانت طاعة لحسن
القصد فيها ، والاستعانة على طاعة الله . وحينئذ فمباحاتهم طاعات ،
وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده ،
فيؤمرون به شرعاً امر استحباب ، او ما يترجح عدمه فالأفضل لهم ان
لا يفعلوه ، وإن لم يكن فيه إثم ، والشريعة قد بينت احكام الأفعال
كلها فهذا « سؤال » .

و « سؤال ثان » وهو أنه إذا قدر ان من الأفعال ما ليس فيه
امر ولا نهي كما فى حق الأبرار ، فهذا الفعل لا يحمد ولا يذم ،
ولا يحب ولا يبغض ، ولا ينظر فيه الا وجود القدر وعدمه ؛ بل
إن فعلوه لم يحمدوا ، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا ، فلا يجعل مما يحمدون
عليه انهم يكونون فى هذا الفعل كالميت بين يدي الغاسل ، مع كون
هذا الفعل صدر باختيارهم وارادتهم . إذ الكلام فى ذلك .

وأما غير « الأفعال الاختيارية » : وهو ما فعل بالانسان كما يحمل
الانسان وهو لا يستطيع الامتناع ، فهذا خارج عن التكليف ،
مع ان العبد مأمور فى مثل هذا ان يحبه ان كان حسنة ، ويبغضه ان
كان سيئة ، ويخلو عنها ان لم يكن حسنة ولا سيئة ، فمن جعل
الانسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية كالميت بين

يدي الغاسل فقد رفع الامر والنهي عنه فى الافعال الاختيارية ، وهذا باطل .

و « سؤال ثالث » : وهو ان حقيقة هذا القول طي بساط الامر والنهي عن العبد فى هذه الاحوال ، مع كون افعاله اختيارية ، وهب انه ليس له هوى ، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الامر والنهي ، بل عليه ان يحب ما احبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله .

قيل : هذه الأسولة اسئلة صحيحة .

وفصل الخطاب ان السالك قد يخفى عليه الامر والنهي ، بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمور به شرعا او منهي عنه شرعا ؛ فيبقى هواه لئلا يكون له هوى فيه ، ثم يسلم فيه للقدر ، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وامره وحبه فى ذلك الفعل .

وهذا يعرض لكثير من ائمة العباد ، وائمة العلماء ، فانه قد يكون عندهم افعال واقوال لا يعرفون حكم الله الشرعي فيها ، بل قد تعارضت عندهم فيها الادلة او خفيت الادلة بالكلية ، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم ، وحكم الشرع انما يثبت فى حق العبد اذا تمكن من

معرفته . واما ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يطالب به ، وانما عليه ان يتقي الله ما استطاع . وهـذا خطأ في العلم ، وليس خطـأ فى العمـل ، وهو كالمجتهد المخطىء له اجر على قصده واجتهـاده ، وخطأه مرفوع عنه .

فان قيل : فاذا كان الامر هكذا . فالواجب على العبد ان يتوقف فى مثل هذه الحال اذا لم يتبين له ان ذلـك الفعل مأمور به او منهى عنه ، وهو لا يريد ان يفعل شيئاً لا مدح فيه ولا ذم ، فيقف لايستسلم للقدر ويصير محلا لما يستعمل فيه من الافعـال ، اللهم الا اذا فعل غيره فعلا ، فهو لا يمدحه ولا يذمه ، ولا يرضاه ولا يسخطه ؛ اذا لم يتبين له حكمه .

فأما كونه هو من أفعـاله الاختيارية يصير مستسلماً لمـا يستعمله القدر فيه : كالطفل مع الظئر ، والميت مع الغاسل ، فهذا مما لم يأمر الله به ولا رسوله ، بل هـذا محرم ، وان عفي عن صـاحبه وحسب صاحبه ان يعفى عنه ؛ لاجتهاده وحسن قصده ، اما كونـه يحمد على ذلك ، ويجعل هذا افضل المقامات فليس الأمر كذلك ، وكونـه مجرداً عن هواه ليس مسوغا له ان يستسلم لـكل ما يفعل به .

ثم يقال الأمور مع هذا نوعان :

(أحدهما) : أن يفعل به بغير اختياره كما يحمل الانسان ولا يمكنه الامتناع ، وكما تضجع المرأة قهراً وتوطأ ، فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء . واما ان يكره بالاكراه الشرعي حتى يفعل ، فهذا ايضاً معفو عنه فى الأفعال عند الجمهور ، وهو اصح الروايتين عن احمد لقوله تعالى : (ومن يكرهن فان الله بعد إكراههن غفور رحيم)

واما إذا لم يكره الاكراه الشرعي فاستسلامه للفعل المطلق الذي لا يعرف أخير هو أم شر ؟ ليس هو مأموراً به ، وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر ، فليس هو مأموراً ان يفعل إلا ماهو خير عند الله ورسوله .

قيل : هذا السؤال صحيح ، وحقيقة الأمر ان السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فيحسن قصدهم وتسليمهم وخضوعهم لربهم ، وطلبهم منه ان يختار لهم ما هو الأصلح ، إذا استعملوا فى امورهم لا يعرفون حكمه فى الشرع رجوا أن يكون خيراً ؛ لأن معرفتهم بحكمه قد تعذرت عليهم ، والانسان غير عالم فى كل حال بما هو الأصلح له فى دينه ، وبما هو أرضى لله ورسوله ، فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته ، إذا قال : « اللهم ! إنى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك ، واسألك من فضلك العظيم ؛ فانك تقدر ولا اقدر ؛ وتعلم ولا أعلم ؛ وانت علام الغيوب . اللهم ان كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني

ومعاشي وعاقبة امري فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه . وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي فى دبني ومعاشي وعاقبة امري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به »

فاذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له . إذ لم يكن معه دليل شرعي على ان عين هذا الفعل هو مأمور به فى هذه الحال ، فان الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمر مطلق عام ، لا بعين كل فعل من كل فاعل ، إذ كان هذا ممتنعاً ؛ وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام ؛ إذا كانت الافراد المعينة داخلة تحت الامر العام الكلي ؛ لكن لا يقدر كل احد على استحضار هذا ، ولا على استحضار أنواع الخطاب

ولهذا كان الفقهاء يعدلون الى القياس عند خفاء ذلك عليهم .

ثم « القياس » ايضاً قد لا يحصل فى كل واقعة ، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم باحسان دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام ، او اعتبارها بنظير لها ، فلا يعرف لها اصل ، ولا نظير . هذا مع كثرة نظرهم فى خطاب الشارع ومعرفة معانيه ، ودلالته على الاحكام . فكيف من لم يكن كذلك ؟!

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال والحرام ؛ بل مقصوده ان هذا الفعل المعين خير من هذا ، وهذا خير من هـذا ، وايهما احب الى الله فى حقه فى تلك الحال ، وهذا باب واسع لا يحيط به الا الله ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما ينهى عنه غيره ، ويؤمر فى حال بما ينهى عنه فى اخرى .

فقالوا : نحن نفعل الخير بحسب الامكان ، وهو فعل ما علمنا انا امرنا به ، ونترك اصل الشر وهو هوى النفس ، ونلجأ الى الله فيما سوى ذلك ان يوفقنا لما هو احب إليه وارضى له ؛ فما استعملنا فيه رجونا ان يكون من هذا الباب ؛ ثم ان اصبنا فلنا اجران ، والا فلنا اجر ، وخطؤنا محطوط عنا فهذا هذا .

وحينئذ فمن قدر انه علم المشروع وفعله فهو افضل من هـذا ؛ ولكن كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ولا يقصد احب الامور الى الله وكثير منهم يفعله بشوب من الهوى ، فيبقى هـذا فعل المشروع بهوى وهـذا ترك مالم يعـلم انه مشروع بلا هوى . فهـذا نقص فى العلم ، وذاك نقص فى العمل ؛ اذ العمل بهوى النفس نقص فى العمل ، ولو كان المفعول واجباً .

فيقال : ان تاب صاحب الهوى من هواه كان ارفع بعلمه ، وان

لم يتب فله نصيب من عالم السوء ؛ ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين فى مثل هـذا . فقال احدهما لصاحبه : انمـا مثلك مثل الكلب : ان تحمل عليـه يلهث أو تـتركه يلهث . وقال الآخر : انت كالحمار يحمل اسفاراً ؛ فهذا احسن قصداً واقوى علماً .

ولهذا تجد اصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة ، واهل العـلم يعيبون عـلى أولئك نقص علمهم بالشرع ، وعدولهم عن الأمر والنهي فهذا هذا .

والله تعالى المسؤول ان يهدينـا الى الصراط المستقيم صراط الذين انعـم عليهـم من النبيين والصديقـين والشهداء والصالحـين وحسن أولئك رفيقاً .

وقد قال بعض (اهل الفقه والزهـد) : من النـاس من سلك « الشريعة » ومنهم من سلك « الحقيقة » . ولعله اراد هؤلاء وهؤلاء ؛ فان هؤلاء يرجحون بمـا ييسره الله مـع حسن القصـد واتباع الأمر والنهي المعلوم لهم مع خفاء الادلة الشرعية فى ذلك المتيسر لهم ، وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر والاقيسة ، واخبار الآحاد واقوال العلماء مع خفاء الأمر المتيسر لهم .

و (ايضاً) فهؤلاء قـد يشهدون مافى ذلك الفعل المقـدر من

المصلحة والخير ، فيرجحونه بحكم الايمان وان لم يعرفوا دليلا من النص على حسنه ، وأولئك إنما يرجحون من النصوص، وما استنبط منها. فهؤلاء لهم القرآن ، وهؤلاء لهم الايمان. وسبب هذا ان كلا من الطائفتين خفي عليه ما مع الاخرى من الحق ، وكل من الطائفتين فى طريقها حق وباطل.

فاما المدعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين ، فهم ضالون ؛ كالذين يعرفون الامر والنهي ولا يفعلون إلا ما يهوونه من الكبائر ، فانهم فساق . وهؤلاء الذين قيل فيهم : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون » . و « الحقيقة » قد تكون قدرية وقد تكون ذوقية ، وقد تكون شرعية ولفظ « الشرع » يتناول المنزل ، والمؤول والمبدل .

و (المقصود هنا) ذكر اهل الاستقامة من الطائفتين والكلام على حال اهل العبادة والارادة ، الذين خرجوا عن الهوى وهو الفرق الطبعي ، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعي .

وبقي « قسم ثالث » ليس لهم فيه فرق طبعي ولا عندهم فيه فرق شرعي فهو الذي جروا فيه مع الفعل والقدر .

واما من جرى مع الفرق الطبعي ، اما عالماً بانه عاص وهو العالم

الفاجر ، او محتجاً بالقدر او بذوقه ووجده معرضاً عن الكتاب والسنة ، وهو العابد الجاهل فهذا خارج عن الصراط المستقيم .

وهذا مما بين حال كال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وانهم خير قرون هذه الامة ؛ إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية فى جليل الامور ودقيقها مع اتساع الامر ، والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه ، كما ان الواحد من هؤلاء يتبع هواه في امر قليل . فأولئك مع عظيم مادخلوا فيه من الامر والنهي لهم العلم الذي يميزون به بين الحسنات والسيئات ، ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به الحسنات ، والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت احدهم العلم فى كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس او يفوته القصد في كثير من الاعمال ، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي .

فنسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

هذا لعمري إذا كان عند العالم ما هو امر الشارع ونهيه حقيقة ، وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة ، فاما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول ، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى . فهؤلاء

وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم ، وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصـد ، وتخليـط هؤلاء في القصـد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم .

فانه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعـلم . و « حسن القصد » من أعون الاشياء على نيل العلم ودركه . و « العلم الشرعي » من اعون الاشياء على حسن القصد والعمل الصالح ؛ فان العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون ، فان وني قائدها لم تستقم لسائقها ، وان وني سائقهـا لم تستقم لقائدها ، فاذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر اين يسلك ، فغايته ان يستطرح للقـدر ، واذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه انه تركه ، فهذا حائر لا يدري اين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به .

قال تعالى : (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم) . هذا جاهل وهذا ظالم . قال تعالى : (وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) . مـع ان الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لايدري انـه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى : (إنما التوبـة عـلى الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) .

قال ابو العالية : سألت أصحاب محمد فقالوا : كل من عصى الله

فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال : « العلماء ثلاثة » فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله وبأمر الله .

فالعالم بالله الذي يخشاه ، والعالم بامر الله الذي يعرف امره ونهيه .

قلت : والخشية تمنع اتباع الهوى قال تعالى : (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ؛ فان الجنة هي المأوى) .

والكمال فى عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى) فنفى عنه الضلال والغي ووصفه بانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي ، فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد صلى الله عليه وسلم .

ووصف اعداءه بضد هذين فقال تعالى : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) فالكمال المطلق للانسان هو تكميل العبودية لله علماً وقصداً . قال تعالى : (وما خلقت

الجن والانس الا ليعبدون) وقال تعالى : (وانه لما قام عبد الله يدعوه) وقال تعالى فيما حكاه عن ابليس : (قال : فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) . قال تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) وقال تعالى : (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

و « عبادته » طاعة أمره ، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه ؛ فالكمال فى كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً ، ومن كان لم يعرف ما امر الله به فترك هواه واستسلم للقدر او اجتهد فى الطاعة فاخطأ فعل المأمور به الى ما اعتقده مأموراً به ، او تعارضت عنده الادلة فتوقف عما هو طاعة فى نفس الامر ، فهؤلاء مطيعون لله مثابون على ما أحسنوه من القصد لله ، واستفرغوه من وسعهم فى طاعة الله ، وما عجزوا من علمه فأخطأوه الى غيره فمغفور لهم .

وهذا من اسباب فتن تقع بين الأمة ، فان اقواماً يقولون ويفعلون اموراً هم مجتهدون فيها ، وقد أخطؤا فتبلغ اقواماً يظنون انهم تعمدوا فيها الذنب ، او يظنون انهم لا يعذرون بالخطأ ، وهم ايضاً مجتهدون مخطئون ، فيكون هذا مجتهداً مخطئاً فى فعله ، وهذا مجتهداً مخطئاً

في انكاره ، والكل مغفور لهم . وقد يكون احدهما مذنباً ، كما قد يكونان جميعاً مذنبين .

وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها وكل بدعة ضلالة .

والواحد من هؤلاء قد يعطى طرفاً بالامر والنهي ، فيولي ويعزل ويعطي ويمنع ، فيظن الظان ان هذا كمال ، وانما يكون كما لا اذا كان موافقاً للأمر ، فيكون طاعة لله ، والا فهو من جنس الملك ، وافعال الملك : اما ذنب ، واما عفو ، واما طاعة .

فالخلفاء الراشدون افعالهم طاعة وعبادة ، وهم اتباع العبد الرسول. وهي طريقة السابقين المقربين .

واما طريقة الملوك العادلين ، فاما طاعة واما عفو ؛ وهي طريقة الانبياء الملوك ؛ وطريقة الأبرار اصحاب اليمين .

واما طريقة الملوك الظالمين : فتتضمن المعاصي ؛ وهي طريقة الظالمين لانفسهم . قال تعالى : (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن ان يكون

مـن احد هـذه الاصنـاف : اما ظـالم لنفسه واما مقتصـد ، واما سابق بالخيرات .

و « خوارق العادات » اما مكاشفة وهي من جنس العلم الخارق . واما تصرف وهي من جنس القدرة الخارقة ؛ واصحابها لا يخرجون عن الاقسام الثلاثة .

قال شيخ الإسلام
رحمه الله تعالى

فصل

حدثني ابي عن محي الدين بن النحاس ؛ واظنى سمعتها منه انه رأى الشيخ عبد القادر فى منامه وهو يقول : اخباراً عن الحق تعالى : «من جاءنا تلقيناه من البعيد ، ومن تصرف بحولنا الناله الحديد ، ومن اتبع مرادنا اردنا ما يريد ، ومن ترك من اجلنا اعطيناه فوق المزيد » .

قلت : هذا من جهة الرب تبارك وتعالى .

فالاولتان : العبادة والاستعانة . والآخرتان : الطاعة والمعصية . فالذهاب الى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى : « من تقرب الي شبراً تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب الي ذراعا تقربت اليه باعا ، ومن اتانى يمشي اتيته هرولة » .

والتقرب بحوله هو الاستعانة ، والتوكل عليه ؛ فانه لا حول ولا

قوة الا بالله . وفى الاثر : « من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله » . وعن سعيد بن جبير : « التوكل جماع الايمان » ؛ وقال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وهذا على اصح القولين في ان التوكل عليه — بمنزلة الدعاء على اصح القولين ايضاً — سبب لجلب المنافع ودفع المضار ، فانه يفيد قوة العبد وتصريف الكون ولهذا هو الغالب على ذوى الاحوال متشرعهم وغير متشرعهم ، وبه يتصرفون ويؤثرون « تارة » بما يوافق الامر . و « تارة » بما يخالفه .

وقوله : « ومن اتبع مرادنا » يعنى المراد الشرعي كقوله : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله : (يريد الله ان يخفف عنكم) وقوله : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) هذا هو طاعة امره ، وقد جاء فى الحديث : « وانت ياعمر لو اطعت الله لأطاعك » . وفى الحديث الصحيح : « ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذنى لاعيذنه » وقد قال تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) .

وقوله : « ومن ترك من اجلنا اعطيناه فوق المزيد » . يعنى ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لاجل الله : رجاء ومحبة وخشية اعطيناه فوق المزيد ؛ لأن هذا مقام الصبر . وقد قال تعالى : (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) .

سئل

عن « احياء علوم الدين » و « قوت القلوب » الخ..

فأجاب : اما (كتاب قوت القلوب) و (كتاب الاحياء) تبع له فيما يذكره من اعمال القلوب : مثل الصبر والشكر ، والحب والتوكل ، والتوحيد ونحو ذلك . وابو طالب اعلم بالحديث والاثر وكلام اهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من ابي حامد الغزالي ، وكلامه اسد وأجود تحقيقاً ، وأبعد عن البدعة مع ان فى « قوت القلوب » احاديث ضعيفة وموضوعة ، وأشياء كثيرة مردودة .

واما ما فى (الاحياء) من الكلام فى « المهلكات » مثل الكلام على الكبر ، والعجب والرياء ، والحسد ونحو ذلك ، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي فى الرعاية ، ومنه ماهو مقبول ومنه ماهو مردود ، ومنه ماهو متنازع فيه .

و « الاحياء » فيه فوائد كثيرة ؛ لكن فيه مواد مذمومة ، فانه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، فاذا

ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من اخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين .

وقد انكر ائمة الدين على « أبى حامد » هذا فى كتبه . وقالوا : مرضه « الشفاء » يعني شفاء ابن سينا فى الفلسفة .

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة ؛ بل موضوعة كثيرة .

وفيه اشياء من اغاليط الصوفية وترهاتهم .

وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين فى أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ماهو موافق للكتاب والسنة ، ماهو اكثر مما يرد منه ، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه .

وقال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

قد دل الكتاب والسنة وآثار سلف الامة عـلى « جنس المشروع المستحب فى ذكر الله ودعائه » كسائر العبادات ، وبين النبي صـلى الله عليـه وســلم مراتب الاذكار كقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب : « أفضل الكلام بعد القرآن أربـع — وهن من القرآن — سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكـبر لا يضرك بأيهن بدأت » . وفى صحيحه عن ابي ذر قال : سئل رسول الله صلى الله عليـه وسلم أي الـكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » .

وفى « كتاب الذكر » لابن ابى الدنيا وغيره مرفوعا الى النبي صلى الله عليـه وسلم « أفضل الذكر : لا اله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمـد

لله » . وفى الموطأ وغيره حديث طلحة بن عبد الله بن كريز عن النبي صلى الله عليه وسلم : « افضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وفى السنن حديث الذي قال : يارسول الله ! إني لا أستطيع ان آخذ من القرآن شيئاً فعلمني ما يجزئني فى صلاتي فقال : قل : « سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله اكبر » . ولهذا قال الفقهاء : إن من عجز من القراءة فى الصلاة انتقل الى هذه الكلمات الباقيات الصالحات . وفضائل هذه الكلمات ونحوها كثير ليس هذا موضعه .

وانما (الغرض) من الذكر والدعاء ما ليس بمشروع الجنس أو هو منهى عنه أو عن صفته . كما قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين) وقال تعالى : (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) فلا يدعى إلا باسمائه الحسنى .

ومن المنهى عنه : ما كانوا يقولونه فى الجاهلية فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ومثل قول بعض الاعراب للنبي صلى الله عليه وسلم : « إنا نستشفع بالله عليك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : شأن الله اعظم من ذلك : إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه » ومثل ما كانوا يقولون فى اول الاسلام:

السلام على الله قبل عباده . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله هو السلام ، فاذا قعد احدكم فليقل : التحيات لله والصلوات والطيبات » .

أشار بذلك الى ان « السلام » انما يطلب لمن يحتاج اليه ، والله هو « السلام » فالسلام يطلب منه لا يطلب له . بل يثنى عليه ؛ فانه له فيقال : التحيات لله والصلوات والطيبات . فالحق سبحانه يثنى عليه ويطلب منه ، واما المخلوق فيطلب له . فيقال : السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون. ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) والرزق يعم كلما ينتفع به المرتزق ؛ فالانسان يرزق الطعام والشراب واللباس وما ينتفع بسمعه وبصره وشمه ، ويرزق ما ما ينتفع به باطنه من علم وايمان ،وفرح وسرور ،وقوة ونور ،وتأييد وغير ذلك ، والله سبحانه ما يريد من الخلق من رزق ، فانهم لن يبلغوا ضره فيضروه ، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه ؛ بل هو الغني وهم الفقراء . و (قد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . .

وكذلك الدعاء المكروه مثل الدعاء ببغي أو قطيعة رحم أو دعاء منازل الأنبياء ، او دعاء الاعرابي الذي قال : اللهم ما كنت معذبي به فى

الآخرة فعجله لي فى الدنيا . ومثل قوله صلى الله عليه وسلم للصابين بميت لما صاحوا : « لا تدعوا على انفسكم الا بخير ؛ فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . وقد قال تعالى : (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم اجلهم) وقال تعالى : (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً) وهذا باب واسع ليس الغرض هنا استيعابه . وانما نبهنا على جنس المكروه .

وانما (الغرض هنا) ان الشرع لم يستحب من الذكر الا ما كان كلاما تاما مفيداً مثل « لا اله الا الله » ومثل « الله اكبر » ومثل « سبحان الله والحمد لله » ومثل « لا حول ولا قوة الا بالله » ومثل (تبارك اسم ربك) ، (تبارك الذي بيده الملك) ، (سبح لله ما فى السموات والارض) (تبارك الذي نزل الفرقان) .

فأما « الاسم المفرد » مظهراً مثل : « الله » « الله » . أو « مضمراً » مثل « هو » « هو » . فهذا ليس بمشروع فى كتاب ولا سنة ، ولا هو مأثور ايضاً عن احد من سلف الامة ، ولا عن اعيان الامة المقتدى بهم ، وانما لهج به قوم من ضلال المتأخرين .

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه ، مثلما يروى عن الشبلي انه كان يقول : « الله ، الله » . فقيل له : لم لا تقول لا إله إلا الله ؟

فقال : اخاف ان اموت بين النفي والاثبات . وهـذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه ، وقوة وجده ، وغلبة الحال عليه ، فانه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان ، ويحلق لحيته . وله اشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها ؛ وان كان معذوراً او مأجوراً ، فان العبد لو أراد ان يقول : « لا إله إلا الله » ومات قبل كمالهـا لم لم يضره ذلك شيئاً . إذ الأعمال بالنيات ؛ بل يكتب له مانواه .

وربما غلا بعضهم فى ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة ، وذكر الكلمة التامة للعامة . وربمـا قال بعضهم : « لا إله إلا الله » للمؤمنين ، و « الله » للعارفين ، و « هو » للمحققين ، وربمـا اقتصر احدهم فى خلوته أو في جماعته على « الله ، الله ، الله » . او على « هو » أو « ياهو » او « لا هو الا هو » .

وربما ذكر بعض المصنفين فى الطريق تعظيم ذلك . واستدل عليه تارة بوجـد ، وتارة برأي ، وتارة بنقل مكذوب . كما يروى بعضهم ان النبي صلى الله عليـه وسلم لقن علي بن أبي طـالب أن يقـول : « الله ، الله ، الله » . فقالهـا النبي صـلى الله عليه وسـلم ثلاثاً . ثم أمر علياً فقالهـا ثلاثاً . وهـذا حديث موضوع باتفـاق أهـل العلم بالحديث .

وإنما كان تلقين النبي صلى الله عليه وسلم للذكر المأثور عنه ، ورأس الذكر « لا إله إلا الله » وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت . « وقال : ياعم ! قل : لا اله الا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » وقال : « اني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً » وقال : « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » وقال : « من مات وهو يعلم ان لا إله الا الله دخل الجنة » وقال : « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » والأحاديث كثيرة فى هذا المعنى .

وقد كتبت فيما تقدم من « القواعد » بعض ما يتعلق بهاتين « الكلمتين » العظيمتين الجامعتين الفارقتين : شهادة ان لا اله الا الله ، وشهادة ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

فاما ذكر « الاسم المفرد » فلم يشرع بحال ، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه .

وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى : (قل :

الله ، ثم ذرهم) ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم لخطـأ واضح ؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية ؛ فانه سبحانه قال : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء قل : من أنزل الكتـاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للنـاس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم ؟ قل : الله) . أي : قـل : الله انزل الكتـاب الذي جاء به موسى . فهذا كلام تام ، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر ، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب .

وهذا قياس مطرد فى مثل هـذا في كلام العرب كقوله : (ولئن سـألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : الله . قل افرأيتم) الآية . وقوله : (ام من خلـق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها . أ إله مع الله ؟!) وكذلك ؟ ما بعدهـا وقوله : (قـل : مـن رب السمـوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون : الله) على قراءة أبي عمرو . وتقول فى الـكلام من جاء ؟ فتقول : زيد . ومـن اكرمت ؟ فتقول : زيـداً . وبمن مررت ؟ فتقول : بزيد . فيذكرون الاسم الذي هو جواب مـن ؛ ويحذفون المتصل به ، لانه قـد ذكر فى السؤال مرة ، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان ، لما فى ذلك من التطويل والتـكرير .

واغرب من هذا ما قاله : لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله : (وما يعلم تأويله الا الله) قال المعنى وما يعلم تأويل (هو) اي اسم « هو » الذي يقال فيه : « هو . هو » وصنف ابن عربي كتابا فى « الهو » فقلت له — وأنا اذ ذاك صغير جداً — لو كان كما تقول : لكتبت فى المصحف مفصولة (تأويل هو) ولم تكتب موصولة ، وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار . وانما كثير من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة فى الكتاب والسنة .

وقد يكون المعنى الذي يعنونه صحيحاً ، لكن لا يدل عليه الكلام وليس هو مراد المتكلم ، وقد لا يكون صحيحاً . فيقع الغلط « تارة » فى الحكم ، و « تارة » فى الدليل كقول بعضهم : (أن رآه استغنى) اي : ان رأى ربه استغنى ، والمعنى انه ليطغى ان رأى نفسه استغنى ، وكقول بعضهم : « فان لم تكن تراه » : يعني فان فنيت عنك رأيت ربك . وليس هذا معنى الحديث ، فانه لو اريد هذا لقيل : فان لم تكن تره . وقد قيل : « تراه » ثم كيف يصنع بجواب الشرط ؟ وهو قوله : فانه يراك ؛ ثم انه على قولهم الباطل تكون كان تامة . فالتقدير : فان لم تكن : اي لم تقع ، ولم تحصل . وهذا تقدير محال فان العبد كائن موجود ليس بمعدوم . ولو اريد فناؤه عن هواه او فناء شهوده للاغيار لم يعبر بنفي كونه ؛ فان هذا محال . ومتى كان المعنى صحيحاً والدلالة ليست مرادة فقد يسمي ذلك « اشارة »

وقد اودع الشيخ ابو عبد الرحمن السلمى « حقائق التفسير » من هذا قطعة .

وليس المقصود الآن الكلام فى هذا فانه باب آخر .

وانما الغرض بيان حكم ذكر الاسم وحده من غير كلام تام، وقد ظهر بالادلة الشرعية انه غير مستحب .

وكذلك بالادلة العقلية الذوقية ، فان الاسم وحده لا يعطي ايمانا ولا كفراً ، ولا هدى ولا ضلالاً ، ولا علماً ولا جهلا ، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء ، او فرعون من الفراعنة ، او صنم من الاصنام ، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكم الا ان يقرن به ما يدل على نفي او اثبات ، او حب او بغض ، وقد يذكر الموجود والمعدوم .

ولهذا اتفق اهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على ان الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه ؛ ولا هو جملة تامة ؛ ولا كلاماً مفيداً ولهذا سمع بعض العرب مؤذنا يقول : اشهد ان محمداً رسولَ الله . قال : فعل ماذا ؟ ! فانه لما نصب الاسم صار صفة ، والصفة من تمام الاسم الموصوف ، فطلب بصحة طبعه الخبر المفيد ؛ ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن .

ولو كرر الانسان اسم « الله » الف الف مرة لم يصر بذلك مؤمناً ، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته ؛ فان الكفار من جميع الامم يذكرون الاسم مفرداً ، سواء اقروا به وبوحدانيته ام لا ؛ حتى انه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله : (فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه) وقوله : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وقوله : (سبح اسم ربك الأعلى) وقوله : (فسبح باسم ربك العظيم) ونحو ذلك : كان ذكر اسمه بكلام تام مثل ان يقول : بسم الله ، او يقول : سبحان ربي الأعلى ، وسبحان ربي العظيم ، ونحو ذلك . ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط ، ولا يحصل بذلك امتثال امر ولا [حل صيد][1] ولا ذبيحة ولا غير ذلك .

فان قيل : فالذاكر او السامع للاسم المجرد قد يحصل له وجد محبة ، وتعظيم لله ، ونحو ذلك .

قلت : نعم ، ويثاب على ذلك الوجد المشروع ، والحال الايماني لا لأن مجرد الاسم مستحب ، واذا سمع ذلك حرك ساكن القلب ، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم او مكروه ، حتى قد يسمع المسلم من يشرك بالله ؛ او يسبه فيثور في قلبه حال وجد ومحبة لله بقوة نفرته

---

(١) بالأصل كلمة لم تتضح لقدم الاصل ولعل ما بين القوسين هو المعنى المقصود .

وبغضه لما سمعه ، وقد قال الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم : « ان أحدنا ليجد في نفسه ما لان يحترق حتى يصير حممة او يخر من السماء الى الارض احب إليه من ان يتكلم به . قال : او قد وجدتموه ؟! قالوا : نعم ، قال : ذاك صريح الايمان » وفي رواية « قال : الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة »

فالشيطان لما قذف في قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الايمان الذي في قلوبهم بالكراهة لذلك ، والاستعظام له ، فكان ذلك صريح الايمان ؛ ولا يقتضي ذلك ان يكون السبب الذي هو الوسوسة مأموراً به .

والعبد ايضاً قد يدعوه داع إلى الكفر او المعصية فيستعصم ويمتنع ويورثه ذلك ايمانا وتقوى ؛ وليس السبب مأموراً به ؛ وقد قال تعالى: (الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ؛ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) الآية . فهذا الايمان الزائد والتوكل كان سبب تخويفهم بالعدو وليس ذلك مشروعا بل العبد يفعل ذنباً فيورثه ذلك توبة يحبه الله بها ، ولا يكون الذنب مأموراً به ، وهذا باب واسع جداً .

ففرق بين أن يكون نفس السبب موجباً للخير ومقتضياً ، وبين

أن لا يكون ؛ وانما نشأ الخير من المحل . فالمأمور به من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات ، هي موجبة للخير والرحمة والثواب . واذا اقترن بها قوة ايمان العبد وما يجده من حلاوة الايمان وتذوقه من طعمه تضاعف الخير والرحمة والبركة ، وما ليس مأموراً به : اما من فعل العبد : محرمه ومكروهه ومباحه . واما من فعل غيره معه : من الانس والجن ، وإما من الحوادث السمائية التى يصيبه بها الرب ، إذا صادفت منه ايماناً ويقيناً فحركت ذلك الايمان واليقين ، وازداد العبد بذلك [إيمانا] لم يكن ذلك مما يوجب أن تحب تلك الأسباب ، او تحمد او يؤمر بها ، إذا لم يكن كذلك ، فانها ليست مقتضية لذلك الخير ، وانما مقتضاها تحريك الساكن وطال ما جرت الى شر وضرر .

ويشبه هذا الباب ذكر الحب المطلق والشوق المطلق ، والوجل المطلق ، وما يتضمن ذلك من نظم ونثر . فان هذا من المجمل أيضاً : يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فلذلك لم يشرعها الله ورسوله ، ولم يأمر بها فان الله انما يأمر بالخير والعمل الصالح والبر وذلك ليس من هذا الباب ، فان شعر المحبين مشترك بين محب الايمان ومحب الأوثان ، ومحب النسوان ، ومحب المردان ، ومحب الأوطان ، ومحب الأخدان .

فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحباً ؛ فضلاً عن ان يكون هو ذكر الخاصة .

وأبعد من ذلك ذكر « الاسم المضمر » وهو : « هو » . فان هذا بنفسه لا يدل على معين ، وانما هو بحسب ما يفسره من مذكور او معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته ؛ ولهذا قد يذكر به من يعتقد [أن] الحق الوجود المطلق . وقد يقول : « لا هو الا هو » ويسرى قلبه في « وحدة الوجود » ومذهب فرعون والاسماعيلية وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله « هو » كقوله : « وجوده » . وقد يعني بقوله : « لا هو الا هو » اي : أنه هو الوجود وأنه ما ثم خلق أصلاً ، وأن الرب والعبد والحق والخلق شيء واحد . كما بينته من مذهب « الاتحادية » في غير هذا الموضع .

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول الينا صلى الله عليه وسلم . فان البدع هي : مبادىء الكفر ومظان الكفر . كما أن السنن المشروعة هي : مظاهر الايمان ، ومقوية للايمان ؛ فانه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . كما اخبر الله عن زيادته في مثل قوله : (الذين قال : لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً) وقوله : (ايكم زادته هذه ايماناً ؟)

وقوله : (هو الذي انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم) وغير ذلك.

فان قيل : إذا لم يكن هذا الذكر مشروعا . فهل هو مكروه؟

قلت : اما فى حق المغلوب فلا يوصف بكراهة ؛ فانه قد يعرض للقلب احوال يتعسر عليه فيها نطق اللسان مع امتلاء القلب بأحوال الايمان ، وربما تيسر عليه ذكر الاسم المجرد دون الكلمة التامة وهؤلاء يأتون على ما فى قلوبهم من احوال الايمان وما قدروا عليه من نطق اللسان ؛ فان الناس فى الذكر اربع طبقات :

(احداها) الذكر بالقلب واللسان ، وهو المأمور به.

(الثاني) الذكر بالقلب فقط ، فان كان مع عجز اللسان فحسن وان كان مع قدرته فترك للأفضل .

(الثالث) الذكر باللسان فقط ، وهو كون لسانه رطباً بذكر الله ، وفيه حكاية التى لم تجد الملائكة فيه خيراً الا حركة لسانه بذكر الله . ويقول الله تعالى : « انا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه .

(الرابع) عدم الأمرين وهو حال الخاسرين .

وأما مع تيسر الكلمة التامة فالاقتصار على مجرد الاسم مكرراً بدعة ، والأصل فى البدع الكراهة .

وما نقل عن « ابى يزيد » و « النوري » و « الشبلي » وغيرهم : من ذكر الأسم المجرد ، فمحمول على انهم مغلوبون ، فان احوالهم تشهد بذلك ، مع ان المشائخ الذين هم أصح من هؤلاء وا كمل لم يذكروا الا الكلمة التامة ، وعند التنازع يجب الرد الى الله والرسول، وليس فعل غير الرسول حجة على الاطلاق .

والله اعلم .

وقال الشيخ رحمه الله

فصـــل

في الصراط المستقيم : في « الزهد » و « العبادة » و « الورع » فى ترك المحرمات والشهوات ، و « الاقتصاد » فى العبادة . وان لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة ، فان اصحابها لا بد ان يقعوا فى الآصار والاغلال ، وان كانوا متأولين ، فلابد لهم من اتباع الهوى ؛ ولهذا سمي اصحاب البدع اصحاب الاهواء ؛ فان طريق السنة علم وعدل وهدى ؛ وفى البدعة جهل وظلم ، وفيها اتباع الظن وما تهوى الانفس .

و « الرسول » ما ضل وما غوى ، و « الضلال » مقرون بالغي ؛ فكل غاو ضال ؛ والرشد ضد الغي والهدى ضد الضلال ، وهو مجانبة طريق الفجار واهل البدع ، كما كان السلف ينهون عنها . قال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) .

و « الغي » في الاصل : مصدر غوى يغوي غياً : كما يقال : لوى يلوى لياً . وهو ضد الرشد كما قال تعالى : (وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً) .

و « الرشد » العمل الذي ينفع صاحبه ، والغي العمل الذي يضر صاحبه ، فعمل الخير رشد ، وعمل الشر غي ؛ ولهذا قالت الجن : (وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشداً ؟ !) فقابلوا بين الشر وبين الرشد ، وقال في آخر السورة : (قل اني لا املك لكم ضراً ولا رشداً) ومنه « الرشيد » الذي يسلم اليه ماله . وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر .

وقال الشيطان : (لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وهو ان يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى : (وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي) وقال : (وبرزت الجحيم للغاوين) الى ان قال : (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس اجمعون) وقال : (قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا) وقال : (ما ضل صاحبكم وما غوى) .

ثم ان « الغي » اذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فان عاقبة العمل ايضاً تسمى غياً ، كما ان عاقبة الخير تسمى رشداً ، كما

يسمى عاقبة الشر شراً ، وعاقبة الخير خيراً ؛ وعاقبة الحسنات حسنات ؛ وعاقبة السيئات سيئات .

« فالحسنات والسيئات » في كتاب الله يراد بها اعمال الخير واعمال الشر ، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل ، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات ، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات . كذلك من عمل غياً لقي غياً ، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقى صاحبه غياً . فلهذا قال الزمخشري : كل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد . كما قيل :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً .

وقال الزجاج : جزاؤه غي ؛ لقوله : (يلق اثاماً) اي مجازات آثام . وفى الحديث المأثور : « ان غيا واد فى جهنم تستعيذ منه اوديتها » وهذا تعبير عن ملاقات الشر ، وقال سبحانه : (اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) فان الصلاة فيها إرادة وجه الله . كما قال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) : اي يصلون صلاة الفجر والعصر . والداعي يقصد ربه ويريده ، فتكون القلوب فى هذه الأشياء مريدة لربها محبة له .

و (إتباع الشهوات) هو إتباع ما تشتهيه النفس ؛ فان « الشهوات » جمع شهوة ، والشهوة هى فى الأصل : مصدر ، ويسمى المشتهى شهوة . تسمية للمفعول باسم المصدر . قال تعالى : (ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاً عظيماً) فجعل التوبة فى مقابلة اتباع الشهوات ، فانه يريد ان يتوب علينا : اي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به ، (ويريد الذين يتبعون الشهوات) وهم الغاوون (ان تميلو ميلاً عظيماً) بعدل بكم عن الصراط المستقيم الى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً ، فان اصل « الميل » العدول ، فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا ان خير اعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن » رواه احمد وابن ماجه من حديث ثوبان .

فأخبر انا لا نطيق الاستقامة او ثوابها إذا استقمنا . وقال : (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) فقوله : « كل الميل » اي يريد نهاية الميل ، يريد الزيغ عن الطريق ، والعدول عن سواء الصراط الى نهاية الشر ؛ بل إذا بليت بذلك فتوسط ، وعد الى الطريق بالتوبة .

كما فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ميل المؤمن كميل الفرس فى اخيته يحول ثم يرجع الى اخيته . كذلك المؤمن يحول ثم يرجع

الى ربه » قال تعالى : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين) الى قوله : (ونعم اجر العاملين) فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون . بل قال : (اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم) اي بذنب آخر غير الفاحشة ؛ فعطف العام على الخاص . كما قال موسى : (رب اني ظلمت نفسي) وقالت بلقيس : (رب انى ظلمت نفسي) وقال تعالى عموماً عن اهل القرى المهلكة : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم) فظلموا انفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه ؛ وبعصيانهم لانبيائهم ؛ وبتركهم التوبة الى ربهم .

وقوله تعالى : (ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) ولهذا قال : (والله يريد ان يتوب عليكم) ثم قال : (يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً) . قال مجاهد وغيره : يتبعون الشهوات الزنا وقال ابن زيد : هم اهل الباطل . وقال السدي : هم اليهود والنصارى والجميع حق ؛ فانهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر ، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية .

ثم ذكر انه « خلق الانسان ضعيفاً » وسياق الكلام يدل على انه ضعيف عن ترك الشهوات ، فلا بد له من شهوة مباحة يستغنى بها عن المحرمة ؛ ولهذا قال طاووس ومقاتل : ضعيف فى قلة الصبر عن النساء ، وقال الزجاج وابن كيسان : ضعيف العزم عن قهر الهوى . وقيل : ضعيف فى اصل الخلقة ؛ لأنه خلق من ماء مهين ، يروى ذلك

عن الحسن . لكن لا بد ان يوجد مع ذلك انه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر فى الآية . فانه قال : (يريد الله ان يخفف عنكم) وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه . كما اباح نكاح الفتيات ، وقد قال قبل ذلك : (لمن خشي العنت منكم . وان تصبروا خير لكم . والله غفور رحيم).

فهو سبحانه مع اباحته نكاح الاماء عند عدم الطول وخشية العنت قال : (وان تصبروا خير لكم) فدل ذلك على انه يمكن الصبر مع خشية العنت وانه ليس النكاح كاباحة الميتة عند المخمصة ، فان ذلك لا يمكن الصبر عنه .

وكذلك من اباح « الاستمناء » عند الضرورة فالصبر عن الاستمناء افضل . فقد روى عن ابن عباس : ان نكاح الاماء خير منه . وهو خير من الزنا ، فاذا كان الصبر عن نكاح الاماء افضل فعن الاستمناء بطريق الاولى افضل .

لا سيما وكثير من العلماء او اكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً ، وهو احد الأقوال فى مذهب احمد . واختاره ابن عقيل في المفردات والمشهور عنه – يعني عن احمد – انه محرم إلا اذا خشي العنت . والثالث انه مكروه الا اذا خشي العنت . فاذا كان الله قد قال فى نكاح الاماء : (وان

تصبروا خير لكم) ففيه اولى . وذلك يدل على ان الصبر عن كلاهما ممكن .

فاذا كان قد اباح ما يمكن الصبر عنه ، فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى : (يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) .

و « الاستمناء » لا يباح عند اكثر العلماء سلفا وخلفاً سواء خشي العنت او لم يخش ذلك . وكلام ابن عباس وما روى عن احمد فيه انما هو لمن خشي « العنت » وهو الزنا واللواط خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع فى ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته .

واما من فعل ذلك تلذذاً او تذكراً او عادة ؛ بان يتذكر فى حال استمنائه صورة كانه يجامعها ، فهذا كله محرم لا يقول به احمد ولا غيره وقد اوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من [الواجبات لا من] المستحبات .

واما الصبر عن المحرمات فواجب ، وان كانت النفس تشتهيها وتهواها . قال تعالى : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) و « الاستعفاف » هو ترك المنهي عنه . كما فى الحديث

الصحيح عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما اعطي احد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » .

« فالمستغني » لا يستشرف بقلبه ، و « المستعف » هو الذي لا يسأل الناس بلسانه ، و « المتصبر » هو الذي لا يتكلف الصبر . فأخبر انه من يتصبر يصبره الله . وهذا كانه فى سياق الصبر على الفاقة ، بان يصبر على مرارة الحاجة ، لا يجزع مما ابتلى به من الفقر ، وهو الصبر فى البأساء والضراء . قال تعالى : (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) .

و « الضراء » المرض . وهو الصبر على ما ابتلى به من حاجة ومرض وخوف . والصبر على ما ابتلى به باختياره كالجهاد ؛ فان الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره ؛ ولذلك اذا ابتلى بالعنت فى الجهاد فالصبر على ذلك افضل من الصبر عليه فى بلده ؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد . وكذلك لو ابتلى فى الجهاد بفاقة او مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل . كما قد بسط هذا فى مواضع .

وكذلك مايؤذي الانسان به فى فعله للطاعات كالصلاة والامر بالمعروف

والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب ، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك ، وكذلك اذا دعته نفسه الى محرمات: من رئاسة ، وأخذ مال ، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ماهو دون ذلك ؛ فان اعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها اعظم مما دونها .

فان فى « العلم » و « الامارة » و « الجهاد » و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » و « الصلاة » و « الحج » و « الصوم » و « الزكاة » من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها . ويعرض فى ذلك ميل النفس الى الرئاسة والمال والصور . فاذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه ، كما تطمع مع القدرة ؛ فانها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة ؛ بخلاف حالها بدون القدرة فان الصبر مع القدرة جهاد ؛ بل هو من افضل الجهاد . وأكمل من ثلاثة أوجه :

(احدها) : ان الصبر عن المحرمات افضل من الصبر على المصائب .

(الثاني) : ان ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها افضل من تركها بدون ذلك .

(الثالث) : ان طلب النفس لها إذا كان بسبب امر ديني – كمن

خرج لصلاة او طلب علم او جهاد فابتلي بما يميل اليه من ذلك فان صبره عن ذلك ــ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور ؛ بخلاف ما اذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح ؛ ولهذا كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول : لا تدخل على سلطان ، وان قلت : آمره بطاعة الله . ولا تدخل على امرأة ، وان قلت : اعلمها كتاب الله . ولا تصغ اذنك الى صاحب بدعة ، وان قلت : أرد عليه .

فامره بالاحتراز من « اسباب الفتنة » فان الانسان اذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم .

فاذا قدر انه ابتلي بذلك بغير اختياره او دخل فيه باختياره ، وابتلي فعليه ان يتقي الله ويصبر ويخلص ويجاهد . وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من افضل الاعمال ، كمن تولى ولاية وعدل فيها . او رد على اصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يفتتوه ، او علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة .

لكن الله اذا ابتلى العبد وقدر عليه اعانه ، واذا تعرض العبد بنفسه الى البلاء وكله الله الى نفسه . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان اعطيتها عن غير مسألة اعنت عليها » وكذلك

قال فى الطاعون : « اذا وقع ببلد وانتم بها فلا تخرجوا فراراً منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فان الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها .

لكن باب التوبة مفتوح ؛ فان الرجل قد يسأل الامارة فيوكل اليها ، ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه ؛ اما على اقامة الواجب ، واما على الخلاص منها ؛ وكذلك سائر الفتن . كما قال : (قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع .

و (المقصود) أن الله سبحانه يريد ان يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وهم الذين أمرنا ان نسأله الهداية لسبيلهم فى قوله : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم) فهو يحب لنا ويأمرنا ان نتبع صراط هؤلاء ، وهو سبيل من أناب إليه ، فذكر هنا ثلاثة أمور : البيان ، والهداية ، والتوبة .

وقيل : المراد بالسنن هنا سنن اهل الحق والباطل . أي : يريد ان يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدي عباده المؤمنين الى الحق ،

ويضل آخرين ، فان الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان . كما قال : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) وقال : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)

فتكون (سنن) متعلقاً بيبين يعنى سنن اهل الباطل لايهدى ، واهل الحق متعلق بقوله : ويهديكم . وقال الزجاج : السنن الطرق ، فالمعنى يدلكم على طاعته ، كما دل الأنبياء وتابعيهم ، وهذا اولى ؛ لأنه قد يتقدم فعلين فلا يجعل الأول هو العامل وحده ؛ بل العامل إما الثانى وحده ، وإما الاثنان ، كقوله : (آتوني افرغ عليه قطراً)

او إذا أريد هذا التقدير : يبين لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سنناً . فدل على انه يهدينا سننهم . والمراد بذلك سنن اهل الحق ، بخلاف قوله : (قد خلت من قبلكم سنن) فانه قال بعدها : (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فانه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان ، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا ، وهم الذين انعم الله عليهم .وذكر ثلاثة امور :

« التبيين » و « الهدى » و « التوبة » ؛ لأن الانسان اولا يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما امر به وما نهى عنه ، ثم يحتاج بعد ذلك

الى ان يهدى فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل . وهو سنن الانبياء والصالحين . ثم لابد له بعد ذلك من الذنوب فيريد ان يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج الى العلم والعمل به ، والى التوبة مع ذلك ، فلا بد له من التقصير او الغفلة في سلوك تلك السنن التى هداه الله اليها ، فيتوب منها بما وقع من تفريط فى كل سنة من تلك السنن ، وهذه « السنن » تدخل فيها الواجبات والمستحبات ، فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب اليه . فان العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي اوجبه عليه ، فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة .

وقد يقال : « الهداية » هنا البيان والتعريف أي : يعرفكم سنن الذين من قبلكم من اهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه ، كما قال تعالى : (وهديناه النجدين) قال علي وابن مسعود : سبيل الخير والشر . وعن ابن عباس : سبيل الهدى والضلال . وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة : أي فطرناه على ذلك ، وعرفناه إياه ، والجميع واحد . والنجدان الطريقان الواضحان ، والنجد المرتفع من الأرض ، فالمعنى الم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين ؛ لكن الهدى والتبيين والتعريف فى هذه الآية يشترك

فيه بنوا آدم ، ويعرفونه بعقولهم .

وأما طريق من تقدم من الأنبياء فلا بد من اخبار الله تعالى عنها كما قال : (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا) لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هـذا المعنى لقال يريد الله ليبين لـكم سنن الذين مـن قبلـكم ، ولم يحتـج أن يذكر الهدى إذا كان المعنى واحداً ، فلمـا ذكر انه يريد التبيـين والهدى علم ان هذا غير هـذا ، فا « لتبيين » التعريف والتعليم ، و « الهدى » هو الأمر والنهي ، وهو الدعاء الى الخـير . كما قال تعالى : (ولـكل قوم هاد) اي داع يدعوهم الى الخـير . كما قال تعالى : (وانـك لتهـدي الى صراط مستقيـم) اي تدعوهم اليـه دعاء تعليـم .

وهداه هنا [يتعدى] بنفسه ؛ لأن التقدير : ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها ، وليس المراد هنـا بالهدى الالهـام . كما فى قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) لكونه لو اراد ذلك لوقع ، ولم يكن فينا ضال ؛ بل هذه إرادة شرعية امرية بمعنى المحبـة والرضا ، ولهـذا قال الزجاج : يريد ان يدلـكم على ما يكون سبباً لتوبتـكم ، فعلق الارادة بفعل نفسه . فان الزجاج ظن الارادة فى القرآن ليست الا كذلك ، وليس كما ظن ؛ بل الارادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك ، فانه

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأما الارادة الموجودة في امره وشرعه فهو كقوله : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) الآية . وقوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت) ونحو ذلك .

فهذه إرادته لما أمر به ، بمعنى انه يحبه ويرضاه ، ويثيب فاعله ، لا بمعنى انه اراد ان يخلقه فيكون كما قال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) الآية .

وكما قال نوح : (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) .

فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه . كما يقول المسلمون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وهذه الارادة متعلقة بكل حادث ، والارادة الشرعية الأمرية لا تتعلق الا بالطاعات كما يقول الناس لمن يفعل القبيح : يفعل شيئاً ما يريده الله ، مع قولهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فان هذه الارادة « نوعان » . كما قد بسط فى موضع آخر .

وقد يراد بالهدى الالهام ، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين

هداهم الله الى طاعته ، فان الله تعالى اراد ان يتوب عليهم ويهديهم ، فاهتدوا ، ولو لا ارادته لهم ذلك لم يهتدوا ، كما قالوا : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا ان هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق) .

لكن الخطاب فى الآية لجميع المسلمين ، كالخطاب بآية الوضوء ، والخطاب لأهل البيت بقوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) ولهذا يهدد من لم يطعه . وكما فى الصيام : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . فهذه ارادة شرعية امرية بمعنى المحبة والرضا ؛ لا ارادة الخلق المستلزمة للمراد ؛ لانه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً الا لمن اخذ باليسر ، ولمن فعل ما امر به ، وكان من تخلف عن ذلك لا يدخل تحت الامر والنهي الذي فى الآية ، وليس كذلك . بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين ؛ فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب ، والذين أطاعوه انما اطاعوه بهداه لهم : هدى الالهام ، والاعانة بأن جعلهم مهتدين . كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً ، والمسلم مسلماً .

ولو كانت الارادة هنا من الانسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل : (ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاً عظيماً) فانه حينئذ لا تأثير لارادة هؤلاء ، بل وجودها وعدمها سواء . كما فى قول نوح (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان

يغويكم) فان ما شاء الله كان وان لم يشاء النـــاس ، وما لم يشأ لم يكن وان شاءه الناس .

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات . والمعنى : اني اريد لكم الخير الذي ينفعكم ، وهـؤلاء يريدون لـكم الشر الذي يضركم ، كالشيطان الذي يريد ان يغويكم ، وأتباعه هم اهـل الشهوات فلا تتخذوه وذريتــه اولياء من دوني ، بـل اسلكوا طرق الهدى والرشاد ، وإياكم وطرق الغي والفساد . كما قال تعـالى : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) الآيات .

وقوله : (يتبعون الشهوات) في الموضعين . فاتبــاع الشهوة من جنس اتباع الهوى ، كما قال تعالى : (انما يتبعون اهواءهم ، ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال : (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وقال تعـالى : (ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال تعالى : (أفمن كان على بينـة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) وقال تعالى : (ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون) وهذا فى القرآن كثير .

و « الهوى » مصــدر هوى يهوى هوى ، ونفس المهوي يسمى هوى مايهوى ، فاتباعــه كاتباع السبيل . كما قال تعالى : (ولا تتبعوا

اهواء قوم قد ضلوا من قبل) وكما فى لفظ الشهوة ، فاتبـاع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر ، أي اتباع إرادته ومحبته التى هي هوا واتباع الارادة هو فعل ماتهواه النفس . كقوله تعالى : (واتبع سبيل من أناب إلي) وقوله : (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبـل فتفرق بـكم عـن سبيله) وقـال : (ولا تتبعوا من دونـه اولياء) [1] فلفظ الاتبـاع يكون للآمر النـاهي ، وللأمر والنهي ، وللمأمور به والمنهي عنه ، وهو الصراط المستقيم .

كذلك يكون للهوى أمر ونهي ؛ وهو امر النفس ونهيها . كما قال تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مـا رحم ربي ان ربى غفور رحيم) ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتباع الأمر هو فعل المأمور ، واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم ان اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه .

بل قـد يقال : هـذا هو الذي يتعين فى لفظ اتبـاع الشهوات والأهواء ؛ لأن الذي يشتهى ويهوى انما يصير موجوداً بعد ان يشتهى ويهوى ، وانما يذم الانسان إذا فعل ما يشتهى ويهوى عند وجوده ،

---

(١) نسخة : فالاول يكون للانسان ، والثانى للقول ، والثالث للفعل .

فهو حينئذ قد فعل ؛ ولا ينهى عنه بعد وجوده ، ولا يقال لصاحبه : لا تتبع هواك .

وايضاً فالفعل المراد للمشتهي الذي يهواه الانسان هو تابع لشهوته وهواه ؛ فليست الشهوة والهوى تابعة له ؛ فتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس ، وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الاصل يحتاج الى ان يجعل فى الخارج ما يشتهى ، والانسان يتبعه كالمرأة المطلوبة ، او الطعام المطلوب ، وان سميت المرأة شهوة والطعام ايضاً كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فانه لي وانا اجزي به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من اجلى » اي يترك شهوته ؛ وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام ؛ لا انه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه ؛ فان تلك مخلوقة فيه مجبول عليها ؛ وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة .

و « حقيقة الامر » انهما متلازمان : فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه ؛ وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه ، فان ذلك من آثار الارادة ، واتباع الارادة هو امتثال أمرها ، وفعل ما تطلبه ، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ؛ ولابد ان يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه فى نفسه ويتخيله قبل فعله . فيبقى ذلك المثال كالامام مع المأموم يتبعه حيث كان ؛ وفعله فى الظاهر

تبع لاتباع الباطن ، فتبقي صورة المراد المطلوب المشتهى التى فى النفس هي المحركة للانسان الآمرة له .

ولهذا يقال : العلة الغائية علة فاعلية ، فان الانسان للعلة الغائية ـــ بهذا التصور والارادة ـــ صار فاعلا للفعل ، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التى جعلت الفاعل فاعلاً ، فيكون الانسان متبعاً لها ، والشيطان يمده فى الغي ، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي اثرها ويزين للناس اتباعها ، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة ـ كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ـ ويتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب ، والشيطان والنفس تحب ذلك ، وكلما تصور ذلك المحبوب فى نفسه اراد وجوده فى الخارج ، فان أول الفكر آخر العمل ، وأول البغية آخر الدرك .

ولهذا يبقى الانسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك ، مقهوراً تحت سلطان الهوى ، اعظم من قهر كل قاهر ، فان هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه ، لا يمكنه مفارقته البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس ، فان المحبوب تطلب النفس أن تدركه ، وتمثله لها فى نفسها فهو متبع للارادة . وان كانت الذهنية والتزين من التزين والمراد التصور فى نفسه . والمشتهى الموجود في الخارج له « محركان » التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وامر ، وهذا يأمره ان يتبع

طلبه وأمره . فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله ؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الانسان فانه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها ، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنا ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا » .

وقوله فى الحديث : « هوى متبع » . فيه دليل على ان المتبع هو ما قام فى النفس. كقوله : في الشح المطاع ، وجعل الشح مطاعا ، لأنه هو الآمر ، وجعل الهوى متبعاً ؛ لأن المتبع قد يكون إماما يقتدى به ولا يكون آمراً . وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إياكم والشح . فان الشح اهلك من كان قبلكم ، امرهم بالبخل فبخلوا ، وامرهم بالظلم فظلموا ، وامرهم بالقطيعة فقطعوا » . فبين ان الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة . « فالبخل » منع منفعة الناس بنفسه وماله ؛ و « الظلم » هو الاعتداء عليهم .

فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب ، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاما لها ؛ لأنها تدخل

في الامرين المتقدمين قبلها .

وقال المفسرون في قوله تعالى : (ومن يوق شح نفسه) هو ان لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه ، ولا يمنع شيئاً امره الله باداته « فالشح » يأمر بخلاف امر الله ورسوله ، فان الله ينهى عن الظلم ويأمر بالاحسان والشح يأمر بالظلم وينهي عن الاحسان .

وقد كان عبد الرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة ان يقول : اللهم قني شح نفسي ، فسئل عن ذلك فقال : اذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة . وفي رواية عنه قال : اني اخاف ان اكون قد هلكت قال : وماذاك؟ قال : اسمع الله يقول : (ومن يوق شح نفسه) وانا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء ، فقال ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن إنما الشح ان تأكل مال اخيك ظلماً وانما يكن بالبخل وبئس الشيء البخل .

وقد ذكر تعالى « الشح » في سياق ذكر الحسد والايثار في قوله : (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) — ثم قال — (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود ، و « الحسد » أصله بغض المحسود .

و « الشح » يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة فى المال وبغض للغير وظلم له ، كما قال تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ؛ ولا يأتون البأس إلا قليلا اشحة عليكم) الآيات — الى قوله — (أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم) فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه ، وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الانسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد ؛ فان الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته ، كابني آدم واخوة يوسف .

فا « الحسد والشح » يتضمنان بغضاً وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص ، فان الفعل صدر فيه عن بغض ، بخلاف الهوى فان الفعل صدر فيه عن حب احب شيئاً فأتبعه ففعله ، وذلك مقصوده امر عدمي والعدم لا ينفع . ولكن ذاك القصد امر بأمر وجودي ، فأطيع امره .

وابن مسعود جعل البخل خارجا عن الشح والنبي صلى الله عليه وسلم جعل الشح يأمر بالبخل .

ومن الناس من يقول : « الشح ، والبخل » سواء . كما قال ابن جرير : الشح فى كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال . وليس

كما قال ، بل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود احق ان ان يتبع ؛ فان « البخيل » قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعما بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره ان ينفع نفسه منه مع كثرة ماله ، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته ، وقد لا يكون هناك لذة اصلا ؛ بل يكره ان يفعل احسانا الى احد حتى لو اراد غيره ان يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطي ، بل بغضاً منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطى او للمعطى وهذا هو « الشح » وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً ، ولكن هل بخل يكون عن شح . فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً .

قال الخطابي « الشح » أبلغ فى المنع من البخل والبخل إنما هو من افراد الامور وخواص الاشياء والشح عام فهو كالوصف اللازم للانسان من قبل الطبع والجبلة .

وحكى الخطابي عن بعضهم انه قال : « البخل » ان يظن الانسان بماله و « الشح » ان يظن بماله ومعروفه وقيل « الشح » ان يشح بمعروف غيره على غيره و « البخل » ان يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا

محبتهم وارادتهم من غير علم . فلم ينظروا هل ذلك نافع لهـم فى العاقبة أو ضار .

ولهذا قال : (فاعلم أنما يتبعون اهواءهم) ثم قال : (ومن اضـل ممن اتبع هواه بغـير هدى من الله) و « اتبـاع الهوى » درجات : فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله مايستحسنون بلا علم ، ولا برهان ، كما قال : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) : اي يتخذ إلهـه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة ، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئاً يعبده ، فان الهوى اقسام بـل المراد انـه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادتـه تابعـة لهوى نفسه فى العبـادة فانـه لم يعبـد ما يحب ان يعبـد ، ولا عبـد العبادة الـتى أمر بهـا .

وهذه حال « اهل البدع » فانهم عبدوا غـير الله ، وابتدعوا عبادات زعموا انهم يعبدون الله بها ، فهم انمـا اتبعوا اهواءهم ، فان احدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدهـا وهواها من غـير علـم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فلو اتبع العلـم والكتاب المنير لم يعبـد إلا الله بمـا شاء ، لا بالحوادث والبدع .

و (المقصود) ان الآلهة كثيرة ، والعبادات لها متنوعة ، وبالجملة فكل ما يريده الانسان ويحبه لا بد ان يتصوره فى نفسه ، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب ، فمن عبده عبد غير الله وتمثلت له الشياطين فى صورة من يعبده ، وهذا كثير مازال ولم يزل ، ولهذا كان كل من عبد شيئاً غير الله فانما يعبد الشيطان ، ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها واستوائها ليكون سجود من يعبدها له .

وقد كانت « الشياطين » تتمثل في صورة من يعبد ، كما كانت تكلمهم من الأصنام التى يعبدونها ، وكذلك فى وقتنا خلق كثير من المنتسبين الى الاسلام ، والنصارى والمشركين ممن اشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم ، فيدعوه ويستغيث به فى حياته وبعد مماته ، فيراه قد اتاه وكلمه وقضى حاجته ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ليغوي هذا المشرك .

والمبتلون « بالعشق » لايزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق او يتصور بصورته فلا يزال يرى صورته مع مغيبه عنه بعد موته ، فانما جلاه الشيطان على قلبه ، ولهذا اذا ذكر العبد الله الذكر الذي يخنس منه الوسواس الخناس خنس هذا المثال الشيطاني ، وصورة المحبوب تستولي على المحب احيانا حتى لا يرى غيرها ، ولا يسمع غير كلامها ، فتبقى

نفسه مشتغلة بها .

والذين يسلكون في محبة الله مسلكا ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى « الاصطلام » و « الفناء » يغيب بمحبوبه عن محبته ، وبمعروفه عن معرفته ، وبمذكوره عن ذكره ، حتى لا يشعر بشيء من اسماء الله وصفاته وكلامه وامره ونهيه .

و « منهم » من قد ينتقل من هذا الى « الاتحاد » . فيقول : انا هو ، وهو انا ، وانا الله ، ويظن كثير من السالكين ان هذا هو غاية السالكين ، وان هذا هو « التوحيد » الذي هو نهاية كل سالك . وهم غالطون فى هذا ؛ بل هذا من جنس قول النصارى ، ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية فى الباطن فى خبر الله وامره .

وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ،

و (المقصود) : ان المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب احدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ، ويبقى اسيراً ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب ، ولهذا قال بعض السلف : ما انا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس اليه .

وذلك ان النفس الصافية التي فيها رقـة « الرياضة » ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذابا تاماً ، ولاقام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواهـا متى صارت تحت صورة مـن الصور استولت تلك الصورة عليها ، كما يستولي السبع على ما يفترسه ؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر ، ولا تقدر الفريسة عـلى الامتناع منـه ، كذلك ما يمثله الانسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبـه وتقهره . فلا يقدر قلبه على الامتناع منه ، فيبقى قلبـه مستغرقا فى تلك الصورة اعظم من استغراق الفريسة فى جوف الأسـد ؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس ، له عليها سلطان قاهر .

و « القلب » يغرق فيما يستولي عليـه : اما من محبوب وامـا من مخوف ، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور . والخائف من غـيره يبقى قلبه وعقله مستغرقا فيه كما يغرق الغريق فى الماء ، فلابـد ان يستولي عليها مايحيط بها من الأجسام ، والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لهـا من المخاوف ، والمحبوبات والمكروهات ، فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه ، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه ، ولا يأتى بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب السيئات إلا الله (وان يمسسك الله بضر فـلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيـم) . (وما بـكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فاليه تجئرون) .

وإذا دعا العبد ربه باعطاء المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الايمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه واستنارته بنور الايمان ماقد يكون انفع له من ذلك المطلوب ان كان عرضاً من الدنيا ، واما إذا طلب منه ان يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب ، وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر ، وقيام العبادة على احسن الوجوه وغير ذلك . وهذا لبسطه موضع آخر .

و (المقصود) : ان القلب قد يغمره فيستولي عليه مايريده العبد ، ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان ؛ ولهذا قال تعالى : (بل قلوبهم في غمرة من هذا ، ولهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون) فهي فيما يغمرها عما انذرت به ، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم ، والعذاب الأليم . قال الله تعالى : (فذرهم فى غمرتهم حتى حين) : أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة فى الخيرات والأعمال الصالحة . وقال تعالى : (قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون) الآيات : أي ساهون عن أمر الآخرة ، فهم فى غمرة عنها ، اي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ، ساهون عن أمر الآخرة ، وما خلقوا له .

وهذا يشبه قوله : (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع

هواه وكان أمره فرطاً) فالغمرة تكون من اتباع الهـوى ، والسهو من جنس الغفلة ؛ ولهـذا قال من قال : « السهو » الغفلة عن الشيء ، وذهاب القلب عنه ، وهذا جماع الشر « الغفلة » و « الشهوة »

« فالغفلة » عـن الله والدار الآخرة تسـد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة .

و « الشهوة » تفتح باب الشر والسهو والخوف ، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه ، غافلا عن الله ، رائداً غير الله ، ساهيـاً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، قد انفرط امره ، قـد ران حب الدنيا على قلبه ، كما روي فى صحيح البخـاري وغـيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبـد القطيفة ، تعس عبـد الخميصة ، تعس وانتـكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، ان اعطى رضي ، وان منع سخط »

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده ، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف فى هذا الحديث ، و « القطيفة » هي التى يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف : البس من الثيـاب ما يخـدمك ، ولا تلبس منها ما تـكن انت تخدمه ، وهي كالبساط الذي تجلس عليـه ، و « الخميصة » هي التى يرتدي بهـا ، وهذا من اقل المـال . وإنما

نبه به النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو اعلى منه ، فهو عبد لذلك : فيه ارباب متفرقون ، وشركاء متشاكسون .

ولهذا قال : « ان أعطى رضي ، وإن منع سخط » . فما كان يرضى الانسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده ، إذ العبد يرضى باتصاله بهما ، ويسخط لفقدهما . و« المعبود الحق » الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن واحبه حصل للمؤمن بذلك فى قلبه إيمان ، وتوحيد ومحبة ، وذكر ، وعبادة ، فيرضى بذلك ، وإذا منع من ذلك غضب .

وكذلك من احب شيئاً فلا بد ان يتصوره فى قلبه ، ويريد اتصاله به بحسب الامكان .

قال الجنيد : لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً . وهذا مطابق لهذا الحديث ، فانه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله حتى لا يكون عبداً لما سواه ، ولا فيه شعبة ، ولا ادنى جزء من عبودية ما سوى الله ، فاذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير ، ففيه من الشرك بقدر محبته ، وعبادته لذلك الغير زيادة .

قال « الفضيل بن عياض » والله ما صدق الله فى عبوديته من

لأحد من المخلوقين عليه ربانية. وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحداً ، ام الف رب ادين إذا انقسمت الأمور ؟!

روى الامام احمد والترمذي والطبراني من حديث اسماء بنت عميس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سهى ولهى ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين ، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد رغب يذله وزيله عن الحق ، بئس العبد عبد طمع يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضله » قال الترمذي غريب . وفى الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه . والله اعلم .

وكذلك احاديث وآثار كثيرة رويت فى معنى ذلك . كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله)

وطالب الرئاسة — ولو بالباطل — ترضيه الكلمة التى فيها تعظيمه وإن كانت باطلا ، وتغضبه الكلمة التى فيها ذمه وإن كانت حقاً .

والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه ؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ، ويبغض الكذب والظلم .

فاذا قيل : الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله احبه ، وان كان فيه مخالفة هواه ؛ لأن هواه قد صار تبعاً لما جاء به الرسول . وإذا قيل : الظلم والكذب فالله يبغضه ، والمؤمن يبغضه ، ولو وافق هواه .

وكذلك طالب « المال » — ولو بالباطل — كما قال تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات فان اعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) وهؤلاء هم الذين قال [فيهم] : « تعس عبد الدينار » الحديث . فكيف إذا استولى على القلب ما هو اعظم استعباداً من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء ، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته ؟! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات ، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته ، لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه ، ويزيغه عن محبة غير محبوبه ، وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى .

ولهذا روى الامام احمد فى مسنده وغيره . ان النبي صلى الله عليه

وسلم قال لاصحابه : « الفقر تخافون ؟ ! لا أخاف عليكم الفقر . إنما اخاف عليكم الدنيا ، حتى ان قلب احدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي »

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه ، والذين يبغضونه كأعدائه ، فالذين يحبونه يجذبونه إليهم ، فاذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله ، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله ، ولو أحسن إليه اصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب احسانهم اليه محبته لهم ، وانجذاب قلبه اليهم ، ولو كان على غير الاستقامة ، واوجب مكافأته لهم ، فيقطعونه عن الله وعبادته .

فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل ، فيكون حبه لله ولما يحبه الله ، وبغضه لله ولما يبغضه الله ، وكذلك موالاته ومعاداته ، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه ، وحب الخلق له سبب يجذبهم به اليه ، ثم قد يكون هذا اقوى ، وقد يكون هذا اقوى ، فاذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ، ولا محبوباته إليها ؛ لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى ، لما فى قلبه من خشية الله ومحبته التى تمنعه عن انجذابه الى المحبوبات .

وأما حب الناس له فانه يوجب ان يجذبوه هم بقوتهم اليهم ، فان لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته ،

وإلا جذبوه وأخذوه إليهم . كحب امرأة العزيز ليوسف ؛ فان قوة « يوسف » ومحبته لله واخلاصه وخشيته كانت اقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها ، هذا إذا احب احدهم صورته ، مع ان هنا الداعي قوي منه ومنهم ، فهنا المعصوم من عصمه الله ، وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين انه يقع بعض الشر بينهم .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة الا كان ثالثهما الشيطان » .

وقد يحبونه لعلمه او دينه او إحسانه او غير ذلك ؛ فالفتنة فى هذا اعظم ؛ الا اذا كانت فيه قوة إيمانية . وخشية وتوحيد تام ؛ فان فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون . وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم ، ان لم يفعلها والا نقص الحب ، او حصل نوع بغض ، وربما زاد او أدى الى الأنسلاخ من حبه ، فصار مبغوضاً بعد ان كان محبوباً ، فأصدقاء الانسان يحبون استخدامه واستعماله فى اغراضهم ، حتى يكون كالعبد لهم ، واعداؤه يسعون فى اذاه واضراره ، واولئك يطلبون منه انتفاعهم ، وإن كان مضراً له مفسداً لدينه لا يفكرون فى ذلك . وقليل منهم الشكور .

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره ، وإنما

يقصدون اغراضهم به ، فان لم يكن الانسان عابداً الله ، متوكلاً عليه موالياً له وموالياً فيه ومعادياً ، والا اكلته الطائفتان ، وادى ذلك الى هلاكه فى الدنيا والآخرة .

وهذا هو المعروف من احوال بني آدم ، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن . قوم يوالون زيداً ويعادون عمراً . وآخرون بالعكس ؛ لأجل اغراضهم ، فاذا حصلوا على اغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبونه من زيد انقلبوا الى عمرو ، وكذلك اصحاب عمرو كما هو الواقع بين اصناف الناس .

وكذلك « الرأس » من الجانبين ، يميل الى هؤلاء الذين يوالونه وهم اذا لم تكن الموالاة لله اضر عليه من اولئك ؛ فان اولئك انما يقصدون افساد دنياه : اما بقتله ، او بأخذ ماله ، واما بازالة منصبه ، وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به اذا سلم العبد ، وهو عكس حال اهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم . فهم لا يبالون بذلك . واما « دين العبد » الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه .

واما اولياؤه الذين يوالونه للأغراض ، فانما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على اغراضهم وغير ذلك ، فان لم يفعل انقلبوا اعداء . فدخل بذلك عليه الأذى من « جهتين » :

من جهة مفارقتهم .

ومن جهة عداوتهم .

وعداوتهم اشد عليه من عداوة اعدائه ؛ لأنهم قد شاهدوا منه . وعرفوا ما لم يعرفه اعداؤه . فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتضاعف العداوة .

وان لم يحب مفارقتهم احتاج الى مداهنتهم ومساعدتهم على ما يريدونه ، وان كان فيه فساد دينه . فان ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيباً وافراً وحظاً تاماً من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه ايضاً ان يعاونهم على اغراضهم ، ولو فاتت اغراضه الدنيوية. فكيف بالدينية ان وجدت فيه او عنده ! ! فان الانسان ظالم جاهل لا يطلب الا هواه .

فان لم يكن هذا فى الباطن يحسن اليهم ، ويصبر على اذاهم . ويقضي حوائجهم لله ، وتكون استعانته عليهم بالله تامة ، وتوكله على الله تام . والا افسدوا دينه ودنياه ، كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية ، فانه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة ، ويحسن له هذا الرأي ، ويعاديه ان لم يقم معه ، كما قد

جرى ذلك مع غير واحد .

وذلك يجري فيمن يحب شخصاً لصورته ، فانه يخدمه ويعظمه ويعطيه ما يقدر عليه ، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه .

وفيمن يحب صاحب « بدعة » لكونه له داعية الى تلك البدعة ، يحوجه الى ان ينصر الباطل الذي يعلم انه باطل . والا عاداه ، ولهذا صار علماء الكفار واهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل ؛ لأجل الاتباع والمحبين ، ويعادون اهل الحق ويهجنون طريقهم .

فمن احب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه ، ومن احب احداً لغير الله كان ضرر اصدقائه عليه اعظم من ضرر اعدائه ؛ فان اعداءه غايتهم ان يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي ، والحيلولة بينه وبينه رحمة فى حقه ، واصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه ، فأي صداقة هذه ؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه فى أغراضهم ، وفيما يحبونه ، وكلاهما ضرر عليه .

قال تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب) . قال الفضيل بن عياض عن ليث

عن مجاهد : هي المودات التى كانت لغير الله ، والوصلات التى كانت بينهم فى الدنيا (وقال الذين اتبعوا : لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا . كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) . فالأعمال التى اراهم الله حسرات عليهم : هي الأعمال التى يفعلها بعضهم مع بعض فى الدنيا كانت لغير الله ، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله . فالخير كله فى ان يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

ومما يحقق هذه الأمور ان المحب يجذب ، والمحبوب يجذب . فمن احب شيئاً جذبه إليه بحسب قوته ، ومن احب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود فى الخارج بحسب قوته ، فان المحب علته فاعلية ، والمحبوب علته غائية ، وكل منهما له تأثير فى وجود المعلول ، والمحب إنما يجذب المحبوب بما فى قلب المحب من صورته التى يتمثلها ، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه اليها ، لا انها هي فى نفسها قصد وفعل ، فان في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب اليه كما ينجذب الانسان الى الطعام ليأكله ، والى امرأة ليباشرها ، والى

صديقه ليعاشره ، وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله الى الله ورسوله ، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها ان يحب ويعبد .

بل لا يجوز ان يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده ، فكل محبوب في العالم إنما يجوز ان يحب لغيره لا لذاته ، والرب تعالى هو الذي يجب ان يحب لنفسه ، وهذا من معاني الهيته و (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فان محبة الشيء لذاته شرك ، فلا يحب لذاته الا الله ، فان ذلك من خصائص إلهيته ، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده ، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله او لما يحب لأجله فمحبته فاسدة .

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء ، وحب النساء ، لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الانسان ؛ فانه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت ابدانهم ، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل والمقصود : بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده ، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره .

وانما تحب الأنبياء والصالحون تبعاً لمحبته ، فان من تمام حبه حب ما يحبه ، وهو يحب الأنبياء والصالحين ، ويحب الأعمال الصالحة ، فحبها

لله هو من تمام حبه ، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون انـدادهم كحب الله ، فالمخلوق اذا احب لله كان حبه جاذباً الى حب الله ، واذا تحاب الرجلان فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، كان كل منهما جاذباً للآخر الى حب الله ، كما قال تعالى : « حقت محبتى للمتحابين في ، وحقت محبتى للمتجالسين في ، وحقت محبتى للمتباذلين في ، وان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بقربهم من الله ، وهم قوم تحابوا بروح الله على غير اموال يتباذلونها ، ولا ارحام يتواصلون بها ، ان لوجوههم لنوراً ، وانهم لعلى كراس من نور ، لايخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .

فانك اذا احببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته . فكلما تصورته فى قلبك تصورت محبوب الحق فاحببته ، فازداد حبك لله . كما إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم ، والانبياء قبله ، والمرسلين واصحابهم الصالحين ، وتصورتهم فى قلبك ، فان ذلك يجذب قلبك الى محبة الله المنعم عليهم ، وبهم ، إذا كنت تحبهم لله ، فالمحبوب لله يجذب الى محبة الله ، والمحب لله اذا احب شخصاً لله فان الله هو محبوبه ، فهو يحب ان يجذبه الى الله تعالى ، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب الى الله .

وهكذا إذا كان الحب لغير الله ، كما اذا احب كل من الشخصين

الآخر بصورة : كالمرأة مع الرجل ، فان المحب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحب ، بانجذاب المحبوب . فاذا كانا متحابين صار كل منهما جاذبا مجذوبا من الوجهين ، فيجب الاتصال ، ولو كان الحب من احد الجانبين لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه ، لكن المحبوب لايقصد جذبه ، والمحب يقصد جذبه وينجذب .

وهذا « سبب التأثير في المحبوب » اما تمثل يحصل في قلبه فينجذب واما ان ينجذب بلا محبة : كما يأكل الرجل الطعام ، ويلبس الثوب ، ويسكن الدار ، ونحو ذلك من المحبوبات التى لا إرادة لها .

واما « الحيوان » فيحب بعضه بعضا بكونه سبباً للاحسان اليه وقد جبلت النفوس على حب من احسن اليها ، لكن هذا فى الحقيقة إنما هو محبة الاحسان ، لا نفس المحسن ، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضا ، فانه ليس لله عز وجل .

فان من احب انسانا لكونه يعطيه ، فما احب الا العطاء ، ومن قال : انه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول ، وكذلك من أحب انسانا لكونه ينصره انما احب النصر لا الناصر . وهذا كله من اتباع ما تهوى الانفس ، فانه لم يحب فى الحقيقة الا مايصل اليه من جلب منفعة او دفع مضرة ، فهو انما احب تلك المنفعة ودفع المضرة وانما

احب ذلك لكونـه وسيـلة الى محبوبـه ، وليس هـذا حبـاً لله ولا لذات المحبوب .

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض ، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم؛ بل ربمـا أُدى ذلك الى النفاق والمداهنة ، فكانوا فى الآخرة من الاخـلاء الذين بعضهم لبعض عـدو الا المتقين . وإنما ينفعهم فى الآخرة الحب فى الله ولله وحده، واما من يرجو النفـع والنصر من شخص ثم يزعم انـه يحبه لله فهـذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال .

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالانبياء والصالحين لكون حبهـم يقرب الى الله ومحبتـه وهؤلاء هم الذين يستحقون محبـة الله لهم .

ونبينا كان يعطى المؤلفة قلوبهم ويـدع آخرين هم احب اليـه من الذي يعطي؛ يكلهم الى مافي قلوبهم من الايمان ، وانما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما فى قلوبهم من الهلع والجزع ؛ ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهـم الى ان يحبوا الاسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب الى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك؛ ولهذا كان يعطي اقواما خشية ان يكبهم الله على وجوههم فى النار فمنعهم بذلك العطاء عما

يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله . وقـد قال : « من احب لله وابغض لله واعطى لله ومنـع لله فقـد استكمل الايمان » وفى صحيح البخاري عنه صلى الله عليـه وسلم انه قال : « انى والله إنمـا انا قاسم لا اعطي احداً ولا امنع احداً ولكن اضع حيث امرت » .

وصورة المحبوب المتمثلة فى النفس يتحرك لهـا المحب ويريد لهـا ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من اي جنس كانت ، فتبقى هى كالآمر الناهي له ؛ ولهذا يجد فى نفسه كانها تخاطبـه بأمر ونهى وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبـه ويعظمه فى منامـه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور .

والمشركون تتمثل لهـم الشياطـين فى صور من يعبدونـه . تأمرهم وتنهاهم .

والقائلون بالشاهد والمنتسبون الى السلوك يقول احـدهم : انـه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد ، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بازائـه ليشاهده فى الضوء ، ومنهم من يشاهده فى حال السماع في غيره ، ويظنون انهم يخاطبون ويجدون المريد فى قلوبهم بذلك . وذلك لأنهم يتمثلونه فى انفسهم ، وربما كان الشيطان يتمثل فى صورته فيجدون فى نفوسهم خطابا من تلك الصورة فيقولون خوطبنا من جهته . وهذا وان كان موجوداً فى

المخاطب فمن المخاطب له ؟ فالفرقان هنا . فانما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس .

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منـه لهم ، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل ، لئلا ينفرون منه ، بل الشيطان يخاطب احدهم بما يرى انه حق ، والراهب إذا راض نفسه فترة يرى فى نفسـه صورة التثليث ، وربمـا خوطب منهـا لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك ، فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له ، والمؤمن الذي يحب الله ورسـوله يرى الرسول فى منامه بحسب إيمانه ، وكذلك يرى الله تعالى فى منامه بحسب إيمانه ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

ولهذا كثير من اهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم انه مأمور بذلك ، ويخاطب به ويظن ان الله هـو الذي امره بذلك ، والله منزه عن ذلك ، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطـان وما فى نفسه من الشرك ، إذ لو كان مخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك ، فان هذا لا يكون الا لمن فيه شرك في عبـادته ، او عنده بدعة ، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة البتة .

وإذا كانت « الرؤيا » على « ثلاثة اقسام » :

رؤيا من الله .

ورؤيا من حديث النفس .

ورؤيا من الشيطان .

فكذلك ما يلقى فى نفس الانسان فى حال يقظته « ثلاثة اقسام »

ولهذا كانت الأحوال « ثلاثة » رحمانى ، ونفسانى ، وشيطانى .

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف « ثلاثة أصناف » ملكي ونفسي ، وشيطانى ، فان الملك له قوة ، والنفس لها قوة ، والشيطان له قوة ، وقلب المؤمن له قوة . فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق ، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل .

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة ، فلم يفرقوا بين اولياء الله واعداء الله ، بل صاروا يظنون فى من هو من جنس المشركين والكفار — أهل الكتاب من وجوه كثيرة — انه من اولياء الله المتقين . والكلام فى هذا مبسوط فى موضع آخر .

ولهذا فى هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء ، ومنهم من يرى انه افضل من الأنبياء ، إلى انواع أخر . وذلك لأنه حصل لهم من الانواع الشيطانية والنفسانية ماظنوا انها من كرامات الأولياء ، فظنوا

انهم منهم ، فكان الأمر بالعكس . واصل هذا انهم تعبدوا بما تحبه النفس ؛ واما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده ، ويرون انهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية . فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقا وزهداً ؛ ولكن فيه شرك وبدعة .

ومحبة « التوحيد » إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله ؛ كما قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) ؛ فلهذا يكون اهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم ؛ يحبون لله ، ويبغضون له . وهم على ملة إبراهيم . والذين معه (إذا قالوا لقومهم انا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم . وبدى بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده) واولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول ، ولا مجاهدين فى سبيل الله ، فليست هي المحبة الاخلاصية . فانها مقرونة بالتوحيد . ولهذا سمى ابو طالب المكي كتابه « قوت القلوب فى معاملة المحبوب ووصف طريق المريد الى مقام التوحيد »

والله سبحانه اعلم .

قال شيخ الاسلام

رحمه الله ايضا

فصـــل

قد كتبت فى كراسة الحوادث فصلا فى «جماع الزهد والورع» :

وان «الزهد» هو عمـا لا ينفع إما لانتفاء نفعـه ، او لكونه مرجوحا ؛ لأنه مفوت لما هو انفع منه ، او محصل لما يربو ضرره على نفعه . واما المنافع الخالصة او الراجحة : فالزهد فيها حمق .

واما «الورع» فانه الامساك عما قد يضر ، فتدخل فيـه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر . فانه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهـات وقع فى الحرام ، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه .

وأما «الورع» عما لا مضرة فيه او فيه مضرة مرجوحة ـــ لما

تقترن به من جلب منفعة راجحة ، او دفع مضرة اخرى راجحة ـــ فجهل وظلم . وذلك يتضمن « ثلاثة اقسام » لا يتورع عنهــا : المنافع المكافأة ، والراجحة والخالصة : كالمباح المحض ، او المستحب ، او الواجب فان الورع عنها ضلالة .

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول :

« الزهد » خلاف الرغبة . يقال : فلان زاهد فى كذا . وفلان راغب فيه . و « الرغبة » هي من جنس الارادة . فالزهــد فى الشيء انتفــاء الارادة له ، اما مــع وجود كراهته واما مــع عــدم الارادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له ، وكل من لم يرغب فى الشيء ويريده فهو زاهد فيه .

وكما ان سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيــه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والارادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيـــه ؛ ولهذا كان أساس الطريق الارادة . كما قال تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) وقال تعــالى : (ومــن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً) ونظائره متعددة .

كما رغب فى « الزهد » وذم ضده فى قوله : (مـن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهـم اعمالهم فيها وهم فيهـا لا يبخسون ، اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار) وقال تعـالى : (الهـكم التكاثر) السورة . وقال تعـالى : (وتأكلون الـتراث اكلا لمـا وتحبون المال حباً جماً) وقال : (إن الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد) وقال تعـالى : (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم) الآية . وهذا باب واسع .

وانما المقصود هنا تميز « الزهد الشرعي » من غيره ، وهو الزهد المحمود ، وتميز « الرغبة الشرعية » من غيرها ، وهي الرغبة المحمودة ، فانه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعيـة بالحرص والطمـع والعمل الذي ضل سعي صاحبه .

واما « الورع » فهو اجتناب الفعل واتقاؤه ، والكف والامساك عنه والحذر منه ، وهو يعود الى كراهة الأمر والنفرة منه والبغض له وهو امر وجودي ايضاً ـــ وان كان قد اختلف فى المطلوب بالنهي ، هل هو عدم المنهي عنه ، او فعل ضده ؟ واكثر اهل الاثبات عـلى الثاني ـــ فلا ريب انه لا يسمى ورعا ، ومتورعا ، ومتقيـاً ، الا اذا وجد منه الامتناع والامساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه .

و « التحقيق » انه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه ، وهو ذمه وعقابه ونحو ذلك ، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى ، فيحصل له منفعة هذا العمل ، من حمده وثوابه ، وغير ذلك . فعدم المضرة لعدم السيئات ، ووجود المنفعة لوجود الحسنات .

فتلخص ان « الزهد » من باب عدم الرغبة والارادة فى المزهود فيه . و « الورع » من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه ، وانتفاء الارادة انما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة او راجحة ، واما وجود الكراهة فانما يصلح فيما فيه مضرة خالصة او راجحة ، فاما اذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة ، او منفعته ومضرته سواء من كل وجه ؛ فهذا لا يصلح ان يراد ، ولا يصلح ان يكره ، فيصلح فيه الزهد ، ولا يصلح فيه الورع ، فظهر بذلك ان كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد ، من غير عكس ، وهذا بين . فان ما صلح ان يكره وينفر عنه صلح ان لا يراد ولا يرغب فيه ، فان عدم الارادة اولى من وجود الكراهة ؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الارادة من غير عكس . وليس كل ما صلح ان لا يراد يصلح ان يكره ؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته ، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به ، ولا النهي عنه .

وبهذا يتبين : ان الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع ؛ واما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع . واما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع ، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل .

وانما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل . هل هو مأمور به ؟ او منهي عنه ؟ او مباح ؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به او منهياً عنه ، او اقترن بالمأمور به ما يجعله منهياً عنه وبالعكس .

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها ؛ يحتاج الى الفرقان .

وقال

فصـــل

قول بعض النـاس : الثواب عـلى قدر المشقة ليس بمستقيم عـلى الاطلاق ، كما قد يستدل به طوائف عـلى انواع من « الرهبانيـات ، والعبادات المبتدعة » التى لم يشرعها الله ورسوله مـن جنس تحريمـات المشركين وغيرهم ما احل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسـلم ـ حيث قال : « هلك المتنطعون » ؛ وقال : « لو مد لي الشهر لواصلت وصـالاً يدع المتعمقون تعمقهـم » ـ مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم ، ويمنـع أداء واجبات او مستحبات أنفع منه ، وكذلك الاحتفاء والتعرى والمشي الذي يضر الانسان بلا فائدة : مثل حديث ابي اسرائيل الذي نذر ان يصـوم وان يقوم قائمـاً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم فقـال النبي صلى الله عليـه وسـلم : « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم

صومه » رواه البخاري ، وهذا باب واسع .

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله فى عمل ميسر كما يسر الله على أهل الاسلام « الكلمتين » وهما افضل الأعمال ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » أخرجاه فى الصحيحين .

ولو قيل الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف « الأول » باعتبار تعلقه بالأمر و « الثاني » باعتبار صفته فى نفسه . والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط ، وتارة من جهة صفته فى نفسه ، وتارة من كلا الأمرين . فبالاعتبار الأول ينقسم الى طاعة ومعصية ، وبالثاني ينقسم الى حسنة وسيئة ، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر ، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه [1] وان كان كثير من الناس لا يثبت الا « الأول » ، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من اصحابنا وغيرهم .

ومن الناس من لا يثبت الا « الثانى » كما تقوله المعتزلة وطائفة

(١) خرم بالاصل مقدار ثلث سطر .

من الفقهاء من اصحابنا وغيرهم . والصواب اثبات الاعتبارين كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من اصحابنا وغيرهم .

فاما كونه مشقاً فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه ، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ففضله لمعنى غير مشقته ، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره ، فيزداد الثواب بالمشقة ، كما ان من كان بعده عن البيت فى الحج والعمرة اكثر : يكون اجره اعظم من القريب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة : « اجرك على قدر نصبك » لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة ، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر ، وكذلك الجهاد ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق له اجران » .

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب ، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل ؛ ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب ، هذا فى شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال ، ولم يجعل علينا فيه حرج ، ولا اريد بنا فيه العسر ؛ واما فى شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم . وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقربا الى الله ؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون

الى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد ، وهـذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم .

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمـال الشاقة الشديدة المتعبة من انواع العبادات والزهادات ، مع انه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة الا ان يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه .

ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول : فلان ما نكح ولا ذبح . وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون ، وأما الحنفاء فقد قال النبي صلى الله عليه وسـلم « لكني اصوم وافطر واتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم كما ان الطمأنينة الى الحياة الدنيا مذموم .

والناس اقسام .

اصحاب « دنيا محضة » وهم المعرضون عن الآخرة .

وأصحاب « دين فاسد » وهم الكفار والمبتدعة الذين يتدينون بمـا لم

يشرعه الله من انواع العبادات والزهادات .

و « القسم الثالث » وهم أهل الدين الصحيح ، اهل الاسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق .

وقال شيخ الاسلام

أحمد بن تيمية ـ رحمه الله

فصـــــل

في « تزكية النفس » وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات . قال تعالى : (قد افلح من زكاها) و (قد افلح من تزكى) .

قال قتادة وابن عيينة وغيرهما : قد افلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال . وقال الفراء والزجاج : قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله . وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. و [ليس] هو مراد من الآية ؛ بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنى .

أما « اللفظ » فقوله : من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد

على (من) فاذا قيل : قـد افلح الشخص الذي زكاهـا كان ضمير الشخص فى زكاها يعود على (من) هـذا وجـه الـكلام الذى لا ريب فى صحتـه كما يقال : قـد افلـح من اتقـى الله وقـد افلـح من اطاع ربه .

واما إذا كان المعنى : قد افلح من زكاه الله لم يبق فى الجملة ضمير يعود على (من) فان الضمير على هـذا يعود على الله وليس هو (من) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول . فتخلو الصلة من عائد وهذا لايجوز .

نعم ! لو قيل : قد افلح من زكى الله نفسه او من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام ، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب . وهو لم يقل : قد افلحت نفس زكاها . فانه هنا كانت تكون زكاهـا صفة لنفس لا صلة ؛ بل قال : (قد افلح من زكاها) فالجملة صلة لـ (من) لا صفة لها .

ولا قال ايضا : قد افلحت النفس التى زكاها ؛ فانه لو قيل ذلك وجعل في (زكاها) ضمير يعود على اسم الله صح، فاذا تكلفوا وقالوا : التقدير (قـد افلح من زكاها) هي النفس الـتى زكاهـا . وقالوا : فى زكى ضمير المفعول يعود عـلى (من) وهي تصلح للمذكر والمؤنث

والواحد والعدد . فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل : (قد افلح) ولم يقل قد أفلحت . قيل لهم : هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فانما يصح إذا دل الكلام على ذلك فى مثل ومن [1] على ان المراد لنا ، وكذا قوله : (ومنهم من يستمعون اليك) ونحو ذلك .

واما هنا فليس فى لفظ (من) وما بعدها مايدل على ان المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز ان يراد بالكلام ماليس فيه دليل على ارادته ؛ فان مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه ، فلو قدر احتمال عود ضمير (زكاها) الى نفس والى (من) مع ان لفظ (من) لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من اعادته الى ما يحتمل التذكير والتأنيث ، وهو فى التذكير اظهر ، لعدم دلالته على التأنيث ، فان الكلام اذا احتمل معنيين وجب حمله على اظهرهما ، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج من كلام العرب المعروف ، والقرآن منزه عن ذلك ، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام الى مالا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصا من جهة المعنى ؟ ! فقد اخبر الله انه يلهم التقوى والفجور . ولبسط هذا موضع آخر .

---

(١) بياض بالاصل .

و (المقصود هنا) امر الناس بتزكية انفسهم والتحذير من تدسيتها . كقوله : (قد افلح من تزكى) فلو قدر ان المعنى قد افلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه امر لهم ولا نهي ، ولا ترغيب ولا ترهيب . والقرآن إذا امر او نهى لا يذكر مجرد « القدر » فلا يقول : من جعله الله مؤمناً ؛ بل يقول : (قد افلح المؤمنون) (قد افلح من تزكى) إذ ذكر مجرد القدر فى هذا يناقض المقصود ، ولا يليق هذا باضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ؟ ! الا ترى انه فى مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد ، والمدح والذم ، وانما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم : اما بما ليس من أفعالهم ، واما بانعامه بالايمان والعمل الصالح ، ويذكره فى سياق قدرته ومشيئته ، وأما فى معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم . كقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى) الآية ، فهذا مناسب . وقوله : (قد افلح من تزكى) وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى .

والمقصود « ذكر التزكية » قال تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا) الآية . وقال : (فارجعوا هو ازكى لكم) وقال : (الذين لايؤتون الزكاة) وقال : (وما عليك ألا يزكى) .

وأصل « الزكاة » الزيادة فى الخير . ومنه يقال : زكا الزرع ، وزكا

المال اذا نمـا . ولن ينمو الخـير الا بترك الشر ، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل ، فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر ، فانه يدنس النفس ويدسيها . قال الزجاج : (دساها) جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء : دساها : لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله ، قال ابن قتيبة : أي أخفاها بالفجور والمعصية ، فالفاجر دس نفسه ؛ أي قمعها وخباها ، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر انفسها ، واللئام تنزل الاطراف والوديان .

فالبر والتقوى يبسط النفس ، ويشرح الصدر ، بحيث يجد الانسان فى نفسه اتساعا وبسطاً عمـا كان عليه قبل ذلك ؛ فانه لمـا اتسع بالـبر والتقوى والاحسان بسطه الله وشرح صدره . والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها ، بحيث يجد البخيل فى نفسه انه ضيق . وقـد بين النبي صلى الله عليه وسـلم ذلك فى الحديث الصحيح فقال : « مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتـان من حديد قـــد اضطرت ايديهما الى تراقيهما . فجعل المتصدق كلما هم بصدقـة اتسعت وانبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله . وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقـة قلصت واخذت كل حلقة بمكانها ، وانا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع » اخرجاه .

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعاً لذلك . قال تعــالى : (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) الآية . فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قـد دسها صاحبها فى بدنه بعضها فى بعض ، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، والنفس البرة التقية النقية التى قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخـرج من البدن تسيل كالقطرة من فى السقاء ، وكالشعرة من العجـين . قال ابن عباس : « ان للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء في الوجه ، وقـوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وان للسيئة لظلمة فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، ووهنا فى البدن ، وضيقاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » قال تعالى : (والبلد الطيب) الآية . وهـذا مثل البخيل والمنفق . قال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صـدره) الآية . وقال : (الله ولي الذين آمنوا) الآية .

وقال له فى سياق الرمي بالفاحشة وذم مـن احب اظهارهـا فى المؤمنين ، والمتـكلم بما لا يعلم : (ولولا فضل الله عليـكم ورحمته ما زكى منـكم من احد ابداً) الآية . فبين ان الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال : (قل للمؤمنين : يغضوا من ابصـارهم) الآية . وذلك ان ترك السيئات هو من اعمـال النفس ، فانها تعـلم ان السيئات مذمومة ومكروه فعلها ، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها ، ان كان مصدقاً لكتـاب

ربه مؤمناً بما جاء عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا التصديق والايمان والكراهة وجهاد النفس اعمال تعملها النفس المزكاة ، فتزكو بذلك ايضاً ؛ بخلاف ما اذا عملت السيئات فانها تدنس وتدس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل .

والثواب إنما يكون على عمل موجود ، وكذلك العقاب . فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب ، لكن فيه عدم الثواب والعقاب ، والله سبحانه امر بالخير ونهى عن الشر ، واتفق الناس على ان المطلوب بالأمر فعل موجود ، واختلفوا فى النهي هل المطلوب امر وجودي ، ام عدمي فقيل : وجودي ، وهو الترك ، وهذا قول الأكثر . وقيل : المطلوب عدم الشر ، وهو ان لا يفعله .

و « التحقيق » ان المؤمن إذا نهى عن المنكر ، فلا بد ان لايقربه ويعزم على تركه ، ويكره فعله ، وهذا امر وجودي بلا ريب ؛ فلا يتصور ان المؤمن الذي يعلم انه [1] وجودي ، لكن قد لا يكون مريداً له كما يكره اكل الميتة طبعاً ، ومع ذلك فلا بد له من اعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع ، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع ، وهو امر وجودي يثاب عليه ؛ ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب

---

(١) بياض بالاصل

المحرم ، ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة ايمان ، وقد غمر إيمانه حكم طبعه ، فهذا أعلى الأقسام الثلاثة ، وهذا صاحب النفس المطمئنة ، وهو ارفع من صاحب اللوامة التى تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه ، وتتلوم وتتردد هل تفعله ام لا ؟!

واما من لم يخطر بباله ان الله حرمه ، ولا هو مريد له ؛ بل لم يفعله ، فهذا لا يعاقب. ولا يثاب ، إذ لم يحصل منه امر وجودي يثاب عليه او يعاقب فمن قال : المطلوب ان لا يفعل ، ان اراد ان هذا المطلوب يكفي فى عدم العقاب ، فقد صدق ، وان اراد انه يثاب على هذا العدم فليس كذلك . والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من اعمال يشتغل بها عن الايمان ، وترك الأعمال كفر يعاقب عليها .

ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار فى النار ، ذكر اموراً وجودية وتلك تدس النفس ؛ ولهذا كان التوحيد والايمان اعظم ما تزكو به النفس ، وكان الشرك اعظم ما يدسيها ، وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف . قالوا : في (قد افلح من تزكى) تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة ، وعن ابي سعيد وعطاء وقتادة : صدقة الفطر . ولم يريدوا ان الآية لم تتناول إلا هي ، بل مقصودهم : ان من اعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها ، ولهذا

كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ، ويتصدق بها قبل الصلاة ، ولو لم يجد إلا بصلا . قال الحسن : (قد افلح من تزكى) من كان عمله زاكيا . وقال ابو الأحوص : زكاة الأمور كلها ، وقال الزجاج : تزكـى بطاعـة الله عز وجـل ، ومعنى الزاكي النامي الكثير .

وكذلك قالوا فى قوله : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) قال ابن عباس : لا يشهدون ان لا اله إلا الله ، وقـال مجاهـد : لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية ، وقيل لا يطهرونهـا بالاخلاص ، كانه أراد ــ والله اعلم ــ أهل الريا ، فانه شرك . وعن الحسن : لا يؤمنون بالزكاة ، ولا يقرون بها . وعن الضحاك : لا يتصدقون ، ولا ينفقون في الطاعة ، وعن ابن السائب : لا يعطون زكاة اموالهـم . قال : كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون .

و « التحقيق » ان الآية تتناول كل ما يتزكى به الانسان من التوحيد والأعمال الصالحة . كقوله : (هل لك الى ان تزكى) وقوله : (قد افلح من تزكى) والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها .

فان قيل : (يؤتى) فعل متعد .

قيل : هذا كقوله : (ثم سئلوا الفتنة لاتوها) ، وتقـدم قبلها ان

الرسول دعاهم ، وهو طلب منه ، فكان هذا اللفظ متضمناً قيام الحجة عليهم بالرسل ، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به انفسهم .

ومما يليق : ان الزكاة تستلزم الطهارة ؛ لأن معناها معنى الطهارة . قوله : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم) من الشر (وتزكيهم) بالخير قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج » كان يدعو به في الاستفتاح وفى الاعتدال من الركوع ، والغسل .

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بهـا و « البرد » يعطي قوة وصلابة ، وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين ، ولهذا كان دمع السرور بارداً ، ودمع الحزن حاراً ؛ لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها ، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن .

فسأل النبي صلى الله عليه وسلم : ان يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب اعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي ازال عنه ما يسوء النفس من الذنوب .

وقوله : « بالثلج والبرد والماء البارد » تمثيل بما فيه من هذا الجنس ، والا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك ، كما يقال : أذقنا برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك . ولما قضى ابو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم : « الآن

بردت جلدته » ويقال : برد اليقين ، وحرارة الشك . ويقال : هذا الأمر يثلج له الصدر ، إذا كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به ، حتى يصير فى مثل برد الثلج . ومرض النفس : اما شبهة واما شهوة او غضب ، والثلاثة توجب السخونة . ويقال لمن نال مطلوبه : برد قلبه . فان الطالب فيه حرارة الطلب .

وقوله : (خذ من أموالهم) دليل على ان عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة . فانه قاله بعد قوله : (وآخرون اعترفوا) الآية . فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله : (قل للمؤمنين يغضوا) الآيات . (وتوبوا الى الله) الآية . فأمرهم جميعاً بالتوبة فى سياق ما ذكره ؛ لأنه لا يسلم احد من هذا الجنس . كما فى الصحيح : « ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا » الحديث . وكذلك فى الصحيح « ان قوله : (ان الحسنات يذهبن السيئات) نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع ، ثم ندم فنزلت » .

ويحتاج المسلم فى ذلك إلى ان يخاف الله ، وينهى النفس عن الهوى ، ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه ، بل على اتباعه والعمل به . فاذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله ، وعملاً صالحاً . وثبت عنه انه قال : « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » فيؤمر بجهادها

كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو اليها ، وهو إلى جهاد نفسه أحوج ، فان هذا فرض عين وذاك فرض كفاية ، والصبر فى هذا من افضل الأعمال ، فان هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد ، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد . كما قال : « والمهاجر من هجر السيئات » .

ثم هذا لا يكون محموداً فيه ، إلا إذا غلب ، بخلاف الأول فانه من (يقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجراً عظيماً) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة الخ » وذلك لأن الله امر الانسان ان ينهى النفس عن الهوى ، وان يخاف مقام ربه ، فحصل له من الايمان ما يعينه على الجهاد ، فاذا غلب كان لضعف ايمانه ، فيكون مفرطاً بترك المأمور ؛ بخلاف العدو الكافر فانه قد يكون بدنه اقوى .

فالذنوب انما تقع اذا كانت النفس غير ممتثلة لما امرت به ، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور ، فانهما ضدان . قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء) الآية . وقال : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان ، و « الغي » خلاف الرشد ، وهو اتباع الهوى . فمن مالت نفسه الى محرم ، فليأت بعبادة الله كما امر الله مخلصاً له الدين ، فان ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء [1] خشية ومحبة ، والعبادة له

---

(١) بياض بالاصل .

وحده ، وهذا يمنع من السيئات .

فاذا كان تائباً ، فان كان ناقصاً ، فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لما بعد الوقوع ، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ، ويرفعه بعد حصوله ، وكالغذاء من الطعام والشراب ، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام ، فاذا حصل له طلب ازالته ، وكالعلم الذي يمنع من الشك ، ويرفعه بعد وقوعه ، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض ، وكذلك ما فى القلب من الايمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به .

واذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه ، ولا يحصل المرض الا لنقص اسباب الصحة ، كذلك القلب لا يمرض الا لنقص ايمانه . وكذلك الايمان والكفر ان متضادان ، فكل ضدين : فأحدهما يمنع الآخر تارة ، ويرفعه اخرى ، كالسواد والبياض(١) حصل موضعه ويرفعه اذا كان حاصلا ، كذلك الحسنات والسيئات والاحباط (١) والمعتزلة ان الكبيرة تحبط الحسنات حتى الايمان ، وان من مات عليها لم يكن (١) الجبائي وابنه بالموازنة . لكن قالوا : من رجحت سيئاته خلد فى النار ، والموازنة بلا تخليد قول (١) الاحباط ما اجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال : (ومن يرتدد منكم عن دينه) الآية . وقوله : (ومن يكفر بالايمان

---

(١) بياض بالاصل .

فقد حبط عمله) الآية وقال : (ولو اشركوا الحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال : (لئن اشركت ليحبطن عملك) الآية .

وما ادعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف ، فانه سبحانه ذكر حد الزانى وغيره ، ولم يجعلهم كفاراً حابطي الأعمال ، ولا امر بقتلهم كما امر بقتل المرتدين ، والمنافقون لم يكونوا يظهرون كفرهم . والنبي صلى الله عليه وسلم امر بالصلاة على الغال ، وعلى قاتل نفسه ، ولو كانوا كفاراً ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم . فعلم انهم لم يحبط إيمانهم كله . وقال عمن شرب الخمر « لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » وذلك الحب من أعظم شعب الايمان . فعلم أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها . وثبت من وجوه كثيرة : « يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ، ولوحبط لم يكن فى قلوبهم شيء منه . وقال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب) الآية . فجعل من المصطفين .

فاذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات ، فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة . منهم من ينكره ، ومنهم من يثبته ، كما دلت عليه النصوص . مثل قوله : (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) الآية . دل على ان هذه السيئة تبطل الصدقة ، وضرب مثله بالمرائي . وقالت عائشة « ابلغي زيداً ان جهاده بطل » الحديث .

وأما قوله : (أن تحبط اعمـالكم) وحديث صـلاة العصر ففي ذلـك نزاع . وقال تعـالى : (ولا تبطلوا أعمالـكم) قال الحسن : بالمعاصي والكبائر ، وعن عطاء : بالشرك والنفاق ، وعن ابن السائب : بالرياء والسمعة ، وعن مقاتل : بالمن . وذلك ان قوماً منوا باسلامهم ، فما ذكر عن الحسن يدل على ان المعاصي والكبائر تحبط الأعمال .

فان قيل : لم يرد إلا ابطالها بالكفر .

قيل : ذلك منهي عنه فى نفسه ، وموجب للخلود الدائم ، فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا ، بل يذكره على وجه التغليظ . كقوله : (من يرتد منكم عن دينه) ونحوها . والله سبحانه فى هـذه وفى آية المن سماها إبطالا ، ولم يسمه إحباطاً ؛ ولهـذا ذكر بعدها الكفر بقوله : (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) الآية .

فان قيل : المراد إذا دخلتم فيها فأتموها ، وبها احتج من قال : يلزم التطوع بالشروع فيه .

قيل : لو قدر ان الآية تدل على انه منهي عن إبطـال بعض العمل ، فابطاله كله أولى ، بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوماً ؟!

ثم يقال : الأبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده ، وما ذكروه أمر بالاتمام ، والابطال هو إبطال الثواب ، ولا نسلم ان من لم يتم العبـادة يبطل جميع ثوابه ، بل يقـال : انه يثاب على ما فعل من ذلك . وفى الصحيح حديث المفلس « الذي يأتى بحسنات امثال الجبال » .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن رجل تفقه وعلم ما امر الله به وما نهى عنه ، ثم تزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد خائفاً من كسب الحرام والشبهات ، وبعث الآخرة وطلب رضا الله ورسوله ، وساح فى أرض الله والبلدان فهل يجوز له ان يقطع الرحم ويسيح كما ذكر ام لا ؟

فأجاب : الحمد لله وحده .

« الزهد المشروع » هو ترك [كل] شيء لا ينفع فى الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله . كما فى الحديث الذي في الترمذي « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد ان تكون بما في يد الله اوثق بما فى يدك ، وان تكون فى ثواب المصيبة إذا اصبت ارغب منك فيها لو انها بقيت لك ؛ لأن الله تعالى يقول (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) . فهذا صفة « القلب » .

وأما في « الظاهر » فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك ، كما قال الامام احمد : انما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر ايام قلائل .

وجماع ذلك خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت عنه فى الصحيح انه كان يقول : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وكان عادته فى المطعم انه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك . وكان القطن احب إليه ، وكان إذا بلغه ان بعض اصحابه يريد ان يعتدي فيزيد فى الزهد ، او العبادة على المشروع ، ويقول : اينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! يغضب لذلك ، ويقول : « والله اني لأخشاكم لله ، واعلمكم بحدود الله تعالى » وبلغه ان بعض اصحابه قال : اما انا فأصوم فلا افطر ، وقال الآخر اما انا فأقوم فلا انام ، وقال آخر اما انا فلا اتزوج النساء ، وقال آخر اما انا فلا آكل اللحم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لكني اصوم وافطر ، واقوم وانام ، واتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » .

فاما الاعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ، ولا هو من دين الأنبياء ؛ بل قد قال تعالى : (ولقد ارسلنا رسلاً من

قبلك وجعلنا لهم ازواجاً وذرية) والانفاق على العيال والكسب لهم يكون واجباً تارة ومستحباً اخرى ، فكيف يكون ترك الواجب او المستحب من الدين ؟!

وكذلك السياحة فى البلاد لغير مقصود مشروع ، كما يعانيه بعض النساك امر منهى عنه ، قال الامام احمد : ليست السياحة من الاسلام فى شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين .

وأما السياحة المذكورة فى القرآن من قوله : (التائبون العابدون الحامدون السائحون) ومن قوله : (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكاراً) فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة ؛ فان الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك ، والمرأة المزوجة لا يشرع لها ان تسافر فى البراري سائحة ؛ بل المراد بالسياحة شيئان :

(أحدهما) الصيام . كما روى عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحلال بين . والحرام بين . وبينهما امور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يواقعه ، الا وإن لكل

ملك حمى ، الا وإن حمى الله محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة أذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلـه ، الا وهي القلب » . متفق عليه .

لكـن إذا ترك الانسان الحـرام ، او الشبهة ، بترك واجب او مستحب ، وكان الاثم او النقص الذي عليـه في الترك اعظم من الاثم الذي عليه فى الفعل لم يشرع ذلك ، كما ذكر ابو طالب المكي وابو حامد الغزالي ، عن الامام احمد بن حنبل انه سئل عمن ترك مالا شبهة فيه وعليه دين ؟ فسأله ولده اترك هذا المال الذي فيه شبهة فلا اقضيه؟ فقال : له اتدع (١)

---

(١) بياض بالاصل .

سئل شيخ الاسلام ابو العباس

احمد بن تيمية ــ رحمه الله ــ عن قوله تعالى : (حق اليقين) و (عين اليقين) و (علم اليقين) فما معنى كل مقام منها ؟ واي مقام اعلى ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . للناس فى هذه الأسماء مقالات معروفة .

(منها) : ان يقال : « علم اليقين » ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر ، و « عين اليقين » ما شاهده وعاينه بالبصر ، و « حق اليقين » ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار .

« فالأولى » مثل من اخبر ان هناك عسلاً ، وصدق المخبر . او رأى آثار العسل فاستدل على وجوده .

و « الثانى » مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه ، وهذا اعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس المخبر كالمعاين » .

و « الثالث » مثل من ذاق العسـل ، ووجد طعمه وحلاوتـه ، ومعلوم ان هذا اعلى مما قبله ؛ ولهذا يشير اهل المعرفة الى ما عنـدهم من الذوق والوجد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره ان يرجع الى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » وقال صـلى الله عليه وسـلم : « ذاق طعم الايمان : من رضي بالله رباً وبالأسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » فالناس فيما يجده اهل الايمان ويذوقونه من حلاوة الايمان وطعمه على ثلاث درجات :

« الأولى » من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقـه ، او يبلغه ما اخبر به العـارفون عن انفسهم ، او يجد من آثار احوالهـم ما يدل على ذلك .

و « الثانية » من شاهد ذلك وعاينه ، مثل ان يعاين مـن احوال اهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم واذواقهم ، وان كان هذا فى الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه ، ولـكن شاهد ما دل عليه لـكن هو ابلغ من المخبر ، والمستدل بآثارهم .

و « الثالثة » ان يحصـل له من الذوق والوجد فى نفسه ما كان

سمعه . كما قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال اقول فيها ان كان اهل الجنة فى الجنة فى مثل هذا الحال انهم لفي عيش طيب . وقال آخر : انه ليمر على القلب اوقات يرقص منها طرباً . وقال الآخر : لأهل الليل فى ليلهم الذ من اهل اللهو فى لهوهم .

والناس فيما اخبروا به من امر الآخرة على ثلاث درجات :

(احداها) العلم بذلك لما اخبرتهم الرسل ، وما قام من الأدلة على وجود ذلك .

« الثانية » : اذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار .

و « الثالثة » اذا باشروا ذلك : فدخل اهل الجنة الجنة ، وذاقوا ما كانوا يوعدون ، ودخل اهل النار النار ، وذاقوا ما كانوا يوعدون ، فالناس فيما يوجد فى القلوب ، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث .

وكذلك فى امور الدنيا : فان من اخبر بالعشق او النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به ، فان شاهده ولم يذقه كان له معاينة له ، فان ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به ، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته . فان

العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب ، واما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة ، الا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه ، وعرفه وخبره ؛ ولهذا يسمون اهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر ، وفى الحديث الصحيح : « ان هرقل ملك الروم سأل ابا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من امور النبي صلى الله عليه وسلم قال : فهل يرجع احد منهم عن دينه سخطة له بعد ان يدخل فيه ؟ قال : لا ، قال : وكذلك الايمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه احد » .

فالايمان اذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب ، بل يحبه ويرضاه ، فان له من الحلاوة فى القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه ، والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي فى القلب له من البشاشة ما هو بحسبه ، واذا خالطت القلب لم يسخطه ، قال تعالى : (قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه) وقال تعالى : (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون) فأخبر سبحانه انهم يستبشرون بما انزل من القرآن ، والاستبشار هو الفرح والسرور ؛ وذلك لما يجدونه فى قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله .

و « اللذة » أبدا تتبع المحبة فمن احب شيئاً ونال ما احبه وجد اللذة به ؛ فالذوق هو ادراك المحبوب ، اللذة الظاهرة كالاكل مثلاً : حال الانسان فيها انه يشتهي الطعام ويحبه ، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته ، وكذلك النكاح وامثال ذلك .

وليس للخلق محبة أعظم ولا اكمل ولا اتم من محبة المؤمنين لربهم ، وليس في الوجود ما يستحق ان يحب لذاته من كل وجه الا الله تعالى ؛ وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه ، فان الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ، ويطاع لأجل الله ، ويتبع لأجل الله . كما قال تعالى : (قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وفى الحديث « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا اهل بيتى لحبى » وقال تعالى : (قل : إن كان آباؤكم) الى قوله : (احب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفي حديث الترمذي وغيره « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان » وقال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله) فالذين آمنوا اشد حباً لله ، من كل محب لمحبوبه . وقد بسطنا الكلام على هذا فى مواضع متعددة .

و « المقصود هنا » ان اهـل الايمان يجدون بسبب محبتهـم لله ولرسوله من حلاوة الايمان ما يناسب هذه المحبة ، ولهـذا علق النبي صلى الله عليه وسـلم ما يجدونه بالمحبة فقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله احب إليه ممـا سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود فى الكفر كما يـكره ان يقذف في النار » .

ومن ذلك ما يجدونه مـن ثمرة التوحيد والاخـلاص . والتوكل والدعاء لله وحده ، فان الناس فى هذا الباب على ثلاث درجات :

« منهم » من علم ذلك سماعا واستدلالاً .

« ومنهم » من شاهد وعاين ما يحصل لهم .

و « منهم » مـن وجـد حقيقة الاخلاص والتوكل عـلى الله ، والالتجاء إليه ، والاستعانة به ، وقطع التعلق بما سواه ، وجرب من نفسه انه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم ، وطمع فيهم ان يجلبوا له منفعة او يدفعوا عنه مضرة ، فانه يخذل من جهتهم ، ولا يحصل مقصوده ، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو ان ينفعوه وقت حاجتـه إليهم ، فلا ينفعونه : إما لعجزهم ، واما لانصراف قلوبهم عنه ، وإذا

توجه الى الله بصدق الافتقار إليه ، واستغاث به مخلصاً له الدين ؛ أجاب دعاءه ؛ وأزال ضرره ، وفتح له ابواب الرحمة . فمثل هذا قد ذاق [من] حقيقة التوكل والدعاء لله ، مالم يذق غيره . وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه ؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك .

بل من اتبع هواه فى مثل طلب الرئاسة والعلو ؛ وتعلقه بالصور الجميلة ، او جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر مالا يعبر عنه . وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ، ولا يحصل له ما يسره ؛ بل هو فى خوف وحزن دائماً ؛ إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل . فاذا ادركه كان خائفاً من زواله وفراقه .

واولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ فاذا ذاق هذا او غيره حلاوة الاخلاص لله . والعبادة له . وحلاوة ذكره ومناجاته . وفهم كتابه . واسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً . ويكون لوجه الله خالصاً ؛ فانه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو اعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا . او اندفع عنه ما يضره ؛ فان حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من

المنفعة ، او اندفع عنه من المضرة ، ولا انفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله ، ولا اضر عليه من الاشراك .

فاذا وجد حقيقة الاخلاص التى هي حقيقة (اياك نعبد) مع حقيقة التوكل التى هي حقيقة (إياك نستعين) كان هذا فوق ما يجده كل احد لم يجد مثل هذا . والله اعلم .

سؤال ابي القاسم المغربي[1]

يتفضل الشيخ الامام بقية السلف ، وقدوة الخلف ، اعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب : تقي الدين ابو العباس « احمد بن تيمية » بان يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي ، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث ، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على افضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ، ويبين لي ارجح المكاسب ، كل ذلك على قصد الايماء والاختصار ، والله تعالى يحفظه . والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين .

اما « الوصية » فما اعلم وصية انفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها

(١) تسمى : « الوصية الصغرى » .

واتبعها . قال تعالى : (ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ان اتقوا الله) .

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال : « يا معاذ : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علية ؛ فانه قال له : « يا معاذ ! والله ! إني لأحبك » وكان يردفه وراءه . وروى فيه : « انه اعلم الأمة بالحلال والحرام ، وانه يحشر امام العلماء برتوة — اي بخطوة — » . ومن فضله انه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً الى اهل اليمن .

وكان يشبهه بابراهيم الخليل عليه السلام ، وابراهيم إمام الناس . وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : إن معاذاً كان امة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ؛ تشبيهاً له بابراهيم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية ، فعلم انها جامعة . وهي كذلك لمن عقلها ، مع انها تفسير الوصية القرآنية .

اما بيان جمعها ؛ فلأن العبد عليه « حقان » :

حق لله عز وجل . وحق لعباده . ثم الحق الذي عليه لا بد ان يخل ببعضه احياناً : إما بترك مأمور به ، او فعل منهي عنه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت » وهذه كلمة جامعة وفي قوله « حيثما كنت » تحقيق لحاجته الى التقوى في السر والعلانية . ثم قال : « واتبع السيئة الحسنة تمحها » فان الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً امره بما يصلحه . والذنب للعبد كأنه امر حتم . فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات . وإنما قدم في لفظ الحديث « السيئة » وان كانت مفعولة ، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة ، فصار كقوله في بول الأعرابي : « صبوا عليه ذنوباً من ماء » .

وينبغي ان تكون الحسنات من جنس السيئات ، فانه ابلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء :

(احدها) التوبة .

و (الثاني) الاستغفار من غير توبة . فان الله تعالى قد يغفر له اجابة لدعائه وان لم يتب ، فاذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال .

(الثالث) الأعمال الصالحة المكفرة : إما « الكفارات المقدرة »

كما يكفر الجامع فى رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج او تارك بعض واجباته ، او قاتل الصيد بالكفارات المقدرة ، وهي « اربعة اجناس » : هدى وعتق وصدقة وصيام .

وإما « الكفارات المطلقة » كما قال حذيفة لعمر : فتنة الرجل فى اهله وماله وولده ؛ يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح فى التكفير بالصلوات الخمس ، والجمعة والصيام ، والحج وسائر الأعمال التى يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا غفر له ، او غفر له ما تقدم من ذنبه ، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف فى فضائل الأعمال .

واعلم ان العناية بهذا من اشد ما بالانسان الحاجة اليه ؛ فان الانسان من حين يبلغ ؛ خصوصاً فى هذه الأزمنة ونحوها من ازمنة الفترات التى تشبه الجاهلية من بعض الوجوه ، فان الانسان الذي ينشأ بين اهل علم ودين قد يتلطخ من امور الجاهلية بعدة اشياء ، فكيف بغير هذا ؟!

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابى سعيد رضي الله عنه : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة

حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » هذا خبر تصديقه فى قوله تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ؛ وخضتم كالذي خاضوا) ولهذا شواهد في الصحاح والحسان .

وهذا امر قد يسرى فى المنتسبين الى الدين من الخاصة ؛ كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة ؛ فان كثيراً من احوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من احوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الاسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم نزله على أحوال الناس .

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به فى الناس ، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى ، فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك .

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو اتباع السيئات الحسنات . والحسنات ما ندب الله اليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والاخلاق والصفات .

ومما يزيل موجب الذنوب « المصائب المفكرة » وهي كل ما يؤلم من هم او حزن او أذى فى مال او عرض او جسد او غير ذلك ، لكن ليس هذا من فعل العبد .

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله : من عمل الصالح ، واصلاح الفاسد قال : « وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس .

وجماع الخلق الحسن مع الناس : أن تصل من قطعك بالسلام والاكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه ، والزيارة له وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك فى دم او مال او عرض . وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

واما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما امر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره ، وهو تأويل القرآن ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » وحقيقته المبادرة الى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر .

واما بيان ان هذا كله فى وصية الله ، فهو ان اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما امر الله به ايجابا واستحبابا ، وما نهى عنه تحريما

وتنزيها ، وهـذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد . لكن لمـا كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضيـة للانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً في حديث معاذ ، وكذلك في حديث ابى هريرة رضي الله عنهـما الذي رواه الترمذي وصححه : « قيل : يارسول الله ! ما اكـثر ما يدخـل الناس الجنة ؟ قال : تقوى الله وحسن الخلق. قيل: وما اكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : الاجوفان : الفم والفرج » .

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقاً » فجعل كمال الايمـان في كمال حسن الخلـق . ومعـلوم ان الايمان كلـه تقوى الله .

وتفصيل اصول التقوى وفروعها لايحتمله هذا الموضع ، فانها الدين كله ؛ لكن ينبوع الخير واصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) وفي قوله : (فاعبده وتوكل عليه) وفي قوله: (عليه توكلت واليه انيب) وفي قوله : (فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه ، واشكروا له) بحيث يقطع العبـد تعلق قلبـه من المخلوقين انتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقـة وحاجة ومخافة وغـير ذلك ،

والعمل له بكل محبوب . ومن احكم هذا فلا يمكن ان يوصف ما يعقبه ذلك .

واما ما سألت عنه من افضل الاعمال بعد الفرائض : فانه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب اوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل احد ، لكن مما هو كالاجماع بين العلماء بالله وامره : ان ملازمة ذكر الله دائماً هو افضل ماشغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم : « سبق المفردون ، قالوا يارسول الله ! ومن المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وفيما رواه أبو داود عن ابى الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ألا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم ، وارفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، ومن ان تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ! قال : ذكر الله » .

والدلائل القرآنية والايمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة .

واقل ذلك ان يلازم العبد الاذكار المأثورة عن معلم الخير وامام المتقين صلى الله عليه وسلم ، كالاذكار المؤقتة فى اول النهار وآخره ،

وعند اخذ المضجع ، وعنـد الاستيقاظ من المنـام ، وادبار الصلوات ، والاذكار المقيدة مثل مايقال عنـد الاكل والشرب واللباس والجماع ، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك ، وعند المطر والرعد الى غير ذلك ، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة .

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وافضله « لا اله الا الله » . وقد تعرض احوال يكون بقية الذكر مثل : « سبحان الله والحمد لله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله » افضل منه .

ثم يعلم ان كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب الى الله من تعلم علم وتعليمه ، وامر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله . ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد اداء الفرائض ، او جلس مجلساً يتفقه او يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهـا فهذا ايضاً من افضل ذكر الله . وعلى ذلك اذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى افضل الأعمال كبير اختلاف .

وما اشتبه امره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة ، فما ندم من استخار الله تعالى . وليكثر من ذلك ومن الدعاء . فانه مفتـاح كل خير ، ولا يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لي . وليتحر الأوقات

الفاضلة : كآخر الليل ، وادبار الصلوات ، وعند الأذان ، ووقت نزول المطر ، ونحو ذلك .

واما ارجح المكاسب : فالتوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به . وذلك انه ينبغي للمهتم بأمر الرزق ان يلجأ فيه الى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه : « كلكم جائع إلا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم . ياعبادي ! كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم » وفيما رواه الترمذي عن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسأل احدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله اذا انقطع ، فانه ان لم ييسره لم يتيسر » .

وقد قال الله تعالى فى كتابه : (واسألوا الله من فضله) وقال سبحانه : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهذا وان كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات . ولهذا والله اعلم امر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدخل المسجد ان يقول : « اللهم افتح لي ابواب رحمتك » واذا خرج ان يقول : « اللهم انى اسألك من فضلك » وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) وهذا امر ، والأمر يقتضي الايجاب فالاستعانة بالله واللجأ اليه فى امر الرزق وغيره اصل عظيم .

ثم ينبغي له ان يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيـه . ولا يأخذه باشراف وهلع ؛ بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج اليه من غير ان يكون له فى القلب مـكانة . والسعي فيـه اذا سعى كاصلاح الخلاء . وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره : « من اصبح والدنيا اكبر همه ، شتت الله عليه شمله ، وفرق عليه ضيعته ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له . ومن اصبح والآخرة اكبر همه ، جمـع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، واتته الدنيا وهي راغمة » .

وقال بعض السلف : انت محتاج الى الدنيا ، وانت الى نصيبك من الآخرة احوج ، فان بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً . قال الله تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة او تجارة او بنـاية او حراثة او غير ذلك ، فهذا يختلف باختلاف الناس ، ولا اعـلم في ذلك شيئاً عاماً ، لكن اذا عن للانسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم ، فان فيها من البركة ما لا يحاط به . ثم ما تيسر له فلا يتـكلف غيره الا ان يكون منه كراهة شرعية .

واما ما تعتمد عليه من الكتب فى العلوم ، فهذا باب واسع ، وهو ايضاً يختلف باختلاف نشء الانسان فى البلاد . فقد يتيسر له فى بعض البلاد من العلم او من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له فى بلد آخر ، لكن جماع الخير ان يستعين بالله سبحانه فى تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم . فانه هو الذي يستحق ان يسمى علماً ، وما سواه اما ان يكون علماً فلا يكون نافعاً ، واما ان لا يكون علماً ، وان سمي به . ولئن كان علماً نافعاً فلا بد ان يكون فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه . ولتكن همته فهم مقاصد الرسول فى امره ونهيه وسائر كلامه . فاذا اطمأن قلبه ان هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس ، اذا امكنه ذلك .

وليجتهد ان يعتصم فى كل باب من ابواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم . واذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا قام يصلي من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » فان الله تعالى

قد قال فيما رواه عنه رسوله : « يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم » .

واما وصف « الكتب والمصنفين » فقد سمع منا فى اثناء المذاكرة ما يسره الله سبحانه . وما فى الكتب المصنفة المبوبة كتاب انفع من « صحيح محمد بن اسماعيل البخاري » لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم . ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر فى ابواب العلم ، اذ لا بد من معرفة احاديث اخر ، وكلام اهل الفقه واهل العلم فى الأمور التى يختص بعلمها بعض العلماء . وقد اوعبت الأمة فى كل فن من فنون العلم ايعاباً ، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن اعماه لم تزده كثرة الكتب الا حيرة وضلالاً ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى لبيد الأنصاري : « اوليست التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى ؟ فماذا تغنى عنهم ؟ » .

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد ، ويلهمنا رشدنا ، ويقينا شر انفسنا ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف المرسلين .

وسئل الشيخ الامام، العالم العامل

الحبر الكامل، شيخ الاسلام ومفتي الانام تقي الدين « ابن تيمية » ايده الله وزاده من فضله العظيم. عن (الصبر الجميل) و (الصفح الجميل) و(الهجر الجميل) وما اقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس ؟[١]

فأجاب رحمه الله : —

الحمد لله. اما بعد : فان الله امر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل والصبر الجميل « فالهجر الجميل » هجر بلا اذى، و « الصفح الجميل » صفح بلا عتاب، و « الصبر الجميل » صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : (إنما اشكو بثي وحزني الى الله) مع قوله : (فصبر جميل، والله المستعان على ماتصفون) فالشكوى الى الله لاتنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام انه كان يقول : « اللهم لك الحمد، واليك المشتكى، وانت المستعان، وبك

---

(١) مسألة في الهجر الجميل والصفح الجميل واقسام التقوى والصبر.

المستغاث وعليك التكلان » ومن دعاء النبي صلى الله عليـه وسلم : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقـلة حيلتى ، وهوانى عـلى الناس ، انت رب المستضعفين وانت ربى ، اللهم الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ أم الى عدو ملـكته امري ؟ ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي ، غير ان عافيتك هي اوسـع لي. اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيـا والآخرة ، ان ينزل بي سخطك، او يحـل علي غضبك، لك العتبي حتى ترضى ».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر : (انمـا اشكو بثي وحزنى الى الله) ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف ؛ بخلاف الشكوى الى المخلوق . قرىء على الامام احمـد في مرض مونه ان طاووساً كره انين المريض . وقال : انه شكوى. فما ان حتى مات ، وذلك ان المشتكي طالب بلسان الحـال ، إما ازالة مايضره او حصول ماينفعه والعبد مأمور ان يسأل ربه دون خلقه ، كما قال تعالى : (فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب) وقال صلى الله عليـه وسلم لابن عباس : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » .

ولابد للانسان من شيئين : طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقـدور . فالاول هو التقوى ، والثانى هو الصـبر . قال تعالى : (يا ايهـا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من

دونكم لا يألونكم خبالا) الى قوله : (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط) وقال تعالى : (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وقال تعالى : (لتبلون فى اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيراً ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) وقد قال يوسف : (انا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون فى عامة كلامهم بهذين الاصلين : المسارعة الى فعل المأمور ، والتقاعد عن فعل المحظور ، والصبر والرضا بالامر المقدور . وذلك ان هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة ؛ بل ومن السالكين ، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد [الحقيقة الكونية] دون [الدينية] فيرى ان الله خالق كل شيء وربه . ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه ، وبين ما يسخطه ويبغضه ، وان قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية ، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ــ سعيدها وشقيها ــ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبى الصادق والمتنبىء الكاذب ، واهل الجنة واهل النار ، وأولياء الله واعداؤه ، والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

فان هؤلاء كلهم يشتركون فى هذا الجمع وهذه « الحقيقة الكونية » وهو ان الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره . ولا يشهد الفرق الذي فرق الله [به] بين أوليائه واعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، واهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله ، وفعل ما يحبه ويرضاه ، وهو ما امر الله به ورسوله امر ايجاب ، او امر استحباب ، وترك ما نهى الله عنه ورسوله ، وموالاة اوليائه ، ومعاداة اعدائه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان . فمن لم يشهد هذه « الحقيقة الدينية » الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويكون مع اهل « الحقيقة الدينية » والا فهو من جنس المشركين ، وهو شر من اليهود والنصارى .

فان المشركين يقرون بالحقيقة الكونية . اذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : افلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل : فأنى تسحرون ؟) ولهذا قال سبحانه : (وما يؤمن اكثرهم

بالله الا وهم مشركون) قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره .

فمن اقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو اكفر من اليهود والنصارى ، فان اولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤا بالامر والنهي الشرعين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض . كما قال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الكافرون حقاً) .

وأما الذي يشهد « الحقيقة الكونية » وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ، ويسلك هذه الحقيقة، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا امر الله الذي بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار ، فهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى . لكن من الناس من قد لحوا الفرق فى بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ، ولا يفرق بين البر والفاجر او يفرق بين بعض الأبرار ، وبين بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه . فيكون ناقص الايمان بحسب ما سوى بين الابرار والفجار ، ويكون معه من الايمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين اوليائه واعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمـة ، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً ، فهو من اتبـاع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه .

فهذا التقسيم فى القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال والأفعال » . فالصواب منهـا حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على ما يصيبه من المقدور ، فهو عند الأمر والنهى والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك . كما قال تعالى : (اياك نعبد وإياك نستعين) .

وإذا أذنب استغفر وتاب : لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات ، بل يؤمن بالقـدر ولا يحتج به ، كما فى الحديث الصحيح الذي فيه : « سيد الاستغفار ان يقول العبـد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وانا عبـدك ، وانا على عهـدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا انت » فيقر بنعمة

الله عليه فى الحسنات ، ويعلم انه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها ، كما قال بعضهم : اطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك ، والحجة لك ، فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى ، إلا غفرت لي . وفى الحديث الصحيح الالهي : « ياعبادي انما هي اعمالكم ، احصيها لكم ، ثم اوفيكم اياها ؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وهذا له تحقيق مبسوط فى غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط : فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند اولئك ؛ لكنهم لا يلتزمون امر الله ورسوله واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون ان يعبدوه ولا يستعينوه ؛ والمؤمن يعبده ويستعينه ،

و « القسم الرابع » شر الأقسام ، وهو من لا يعبده ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ؛ ولا مع القدر الكونى . وانقسامهم الى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو

ذلك ؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلـك . فهم فى التقوى وهي طاعة الامر الديني ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الـكوني اربعة اقسام .

(احدهـا) اهل التقوى والصـبر ، وهم الذين انعم الله عليهم من اهـل السعادة في الدنيا والآخرة .

(والثانى) الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر ، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ؛ لـكن إذا اصيب احـدهم فى بدنه بمرض ونحوه او فى ماله او فى عرضـه ، او ابتلي بعدو يخيفـه عظم جزعه ، وظهر هلعه .

و (الثالث) قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى ، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم فى مثل اهوائهم ، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام فى مثل ما يطلبونه من الغصب واخذ الحرام ؛ والـكتاب واهل الديوان الذين يصبرون على ذلك فى طلب ما يحصل لهم من الاموال بالخيانة وغيرها . وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصـبرون من ذلك على انواع من الأذى التي لا يصبر عليها اكثر الناس . وكذلك اهل المحبة للصور المحرمة من اهل العشق وغيرهم يصبرون فى مثل مـا يهوونه من المحرمات على انواع من الأذى والآلام . وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الارض

او فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الامـوال بالبغي والعدوان ، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً او مباشرة وغير ذلك يصبرون على انواع من المكروهات ، ولـكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحظور ، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه مـن المصائب : كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى اذا قـدر .

(وأما القسم الرابع) فهو شر الاقسام : لا يتقون إذا قـدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعـالى : (ان الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) فهؤلاء تجدهم من أظلم النـاس واجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل النـاس واجزعهم إذا قهـروا . ان قهـرتهـم ذلوا لك ونافقـوك ، وحابوك واسـترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن انفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول ، وان قهروك كانوا من أظلم الناس وأقسام قلبـاً ، وأقلهم رحمة واحسانا وعفواً ، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقـائق الايمان أبعد : مثل التتـار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم . وان كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم ، فالاعتبار بالحقائق : « فان الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالـكم ، وانما ينظر الى قلوبـكم وأعمالـكم »

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الاسلام او ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الاسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد فى غير التتار المقاتلين من المظهرين للاسلام من هو اعظم ردة واولى بالاخلاق الجاهلية ، وابعد عن الاخلاق الاسلامية ، من التتار .

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول فى خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، فكل من كان الى ذلك اقرب وهو به اشبه كان الى الكمال اقرب ، وهو به احق . ومن كان عن ذلك ابعد وشبهه به اضعف ، كان عن الكمال ابعد ، وبالباطل احق . والكامل هو من كان لله اطوع ، وعلى ما يصيبه اصبر . فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله واعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه ، وصبراً على ما قدره وقضاه ، كان اكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى « الصبر والتقوى » جميعاً فى غير موضع من كتابه وبين انه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين ، وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة .

قال الله تعالى : (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وقال الله تعالى : (لتبلون فى اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيراً ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . واذا لقوكم قالوا : آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور ، ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعلمون محيط) وقال اخوة يوسف له : (أإنك لأنت يوسف ؟ قال : انا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصاً فقال تعالى : (واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) .

وفى اتباع ما اوحي اليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى : (واقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ان الحسنات

يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) وقال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار) وقال تعالى : (فاصبر على ما يقولون : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل) وقال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر .

وقرن بين « الرحمة والصبر » في مثل قوله تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) . وفى الرحمة الاحسان الى الخلق بالزكاة وغيرها ؛ فان القسمة ايضا رباعية ، اذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين : مثل كثير من النساء ، ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع . والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في المتولي : ينبغي ان يكون قويا من غير عنف ، لينا من غير ضعف فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ؛ فان النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : « من لا يرحم لا يرحم » وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الارض يرحمكم من السماء » . والله اعلم انتهى .

وسئل شيخ الاسلام

رحمه الله

عما ذكر الاستاذ القشيري في (باب الرضا) عن الشيخ ابي سليمان انه قال : الرضا ان لايسأل الله الجنة ، ولا يستعيذ من النار . فهل هذا الكلام صحيح ؟؟.

فاجاب : الحمد لله رب العالمين : الكلام على هذا القول من وجهين :

(احدهما) : من جهة ثبوته عن الشيخ .

و (الثاني) من جهة صحته في نفسه وفساده .

اما « المقام الأول » فينبغي ان يعلم ان الاستاذ اباالقاسم لم يذكر هذا عن الشيخ ابي سليمان باسناد، وانما ذكره مرسلا عنه ، وما يذكره ابو القاسم في رسالته عن النبي صلى الله عليه والصحابة والتابعين والمشائخ وغيرهم . تارة يذكره باسناد ، وتارة يذكره مرسلا ، وكثيراً ما يقول : وقيل كذا ـ ثم الذي يذكره باسناد تارة يكون اسناده

صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً ؛ بل موضوعا . وما يذكره مرسلا ، ومحذوف القائل اولى . وهذا كما يوجد ذلك فى مصنفات الفقهاء . فان فيها من الاحاديث والآثار ماهو صحيح . ومنها ماهو ضعيف ، ومنها ما هو موضوع .

فالموجود فى (كتب الرقائق والتصوف) من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع . وهذا الامر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون ان هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا ؛ بل نفس الكتب المصنفة في « التفسير » فيها هذا وهذا ، مع ان اهل الحديث اقرب الى معرفة المنقولات وفى كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم ؟! .

والمصنفون قد يكونون أئمة فى الفقه او التصوف او الحديث ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا انه كذب ، وهو الغالب على اهل الدين ؛ فانهم لا يحتجون بما يعلمون انه كذب ، وتارة يذكرونه وان علموا انه كذب ؛ اذ قصدهم رواية ما روي فى ذلك الباب ، ورواية الاحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذبا جائز . واما روايتها مع الامساك عن ذلك رواية عمل فانه حرام عند العلماء ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من حدث عني حديثاً وهو يرى انه كذب فهو احد الكاذبين » . وقد فعل كثير من العلماء

متأولين انهم لم يكذبوا . وانما نقلوا ما رواه غيرهم وهذا يسهل اذ رووه لتعريف انه روي . لا لأجل العمل به ولا الاعتماد عليه .

و (المقصود هنا) ان مايوجد فى « الرسالة » وامثالها : من كتب الفقهاء والصوفية واهل الحديث من المنقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من السلف فيه : الصحيح والضعيف والموضوع . فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه ، والضعيف الذي رواه من لم يعلم صدقه ، اما لسوء حفظه واما لا تهامه ، ولكن يمكن ان يكون صادقا فيه ؛ فان الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ .

وغالب ابواب « الرسالة » فيها الاقسام الثلاثة . ومن ذلك (باب الرضا) فانه ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً » . وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه ، وان كان الاستاذ لم يذكر ان مسلماً رواه لكنه رواه ، باسناد صحيح .

وذكر فى اول هذا الباب حديثاً ضعيفاً — بل موضوعا — وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر ، فهو وان كان اول حديث ذكره فى الباب

فان احاديث الفضل بن عيسى من اوهى الاحاديث واسقطها ، ولا نزاع بين الأئمة انه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها ؛ فان الضعف ظاهر عليها وان كان هو لا يتعمد الكذب فان كثيراً من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب ، وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك ائمة هذا الشأن : حتى قال أيوب السختياني : لو ولد اخرس لكان خيراً له وقال سفيان بن عيينة : لا شيء . وقال الامام احمد والنسائي : هو ضعيف . وقال يحيى بن معين : رجل سوء . وقال أبو حاتم وابو زرعة : منكر الحديث .

وكذلك ما ذكره من الآثار ؛ فانه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة مثل ما رواه عن الشيخ ابي سليمان الداراني انه قال : « اذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض » فان هذا رواه عن شيخه أبي عبد الرحمن السلمي باسناده ، والشيخ ابو عبد الرحمن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشائخ وحكاياتهم ، وصنف [فى] الأسماء (كتاب طبقات الصوفية) و (كتاب زهاد السلف) وغير ذلك ، وصنف في الأبواب (كتاب مقامات الأولياء) وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الاقسام الثلاثة .

وذكر عن الشيخ ابي عبد الرحمن انه قال سمعت النصر آبادي يقول : من اراد ان يبلغ محل الرضا فيلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فان هذا الكلام فى غاية الحسن . فانه من لزم ما يرضي الله من امتثال

اوامره واجتناب نواهيه لا سيا اذا قام بواجبها ومستحبها فان الله يرضى عنه ، كما ان من لزم محبوبات الحق أحبه الله ، كما قال في الحديث الصحيح الذي فى البخاري : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الي عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته » الحديث . وذلك ان الرضا نوعان :

(احدها) الرضا بفعل ما امر به وترك ما نهى عنه . ويتناول ما اباحه الله من غير تعد الى المحظور ، كما قال : (والله ورسوله احق ان يرضوه) وقال تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) وهذا الرضا واجب ؛ ولهذا ذم من تركه بقوله : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات ؛ فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ، ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله . سيؤتينا الله من فضله ورسوله) .

(والنوع الثاني) الرضا بالمصائب : كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب فى احد قولي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل : انه واجب ، والصحيح ان الواجب هو الصبر . كما قال الحسن : الرضا غريزة ، ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روى في حديث ابن عباس

ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان استطعت ان تعمل بالرضا مع اليقين فافعل ، فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » .

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان : فالذي عليه أئمة الدين انه لا يرضى بذلك ، فان الله لا يرضاه كما قال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (ان الله لا يحب الفساد) وقال تعالى : (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) وقال تعالى : (فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً) وقال : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم) وقال تعالى : (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم) وقال تعالى : (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) وقال تعالى: (فلما آسفونا انتقمنا منهم) فاذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك . وهو يسخط عليهم ، ويغضب عليهم . فكيف يشرع للمؤمن ان يرضى ذلك وان لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه ؟!.

وانما ضل هنا « فريقان » من الناس :

« قوم » من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة فى مناظرة القدرية ظنوا ان محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته ، وقد

علموا انه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية . وقالوا : هو ايضاً محب لها مريد لها ، ثم اخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه . فقالوا : لا يحب الفساد ، بمعنى لا يريد الفساد : اي لا يريده للمؤمنين ، ولا يرضى لعباده الكفر : اي لا يريده لعباده المؤمنين . وهذا غلط عظيم؛ فان هذا عندهم بمنزلة ان يقال : لا يحب الايمان ، ولا يرضى لعباده الايمان : اي لا يريده للكافرين ، ولا يرضاه للكافرين ، وقد اتفق أهل الاسلام على ان ما أمر الله به فانه يكون مستحباً يحبه . ثم قد يكون مع ذلك واجباً ، وقد يكون مستحباً ليس بواجب سواء فعل أو لم يفعل . والكلام على هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

(والفريق الثاني) من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين : فشهدوا ان الله رب الكائنات جميعها ، وعلموا أنه قدر على كل شيء وشاءه ، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى قال بعضهم : المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب . قالوا : والكون كله مراد المحبوب . وضل هؤلاء ضلالاً عظيما . حيث لم يفرقوا بين الارادة الدينية والكونية ، والاذن الكوني والديني والأمر الكوني والديني والبعث الكوني والديني ، والارسال الكوني والديني . كما بسطناه فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى ان لا يفرقوا بين المأمور والمحظور وأولياء الله وأعدائه ، والأنبياء والمتقين . ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض . ويجعلون المتقين كالفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويعطلون الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والشرائع وربما سموا هذا « حقيقة » ولعمري انه حقيقة كونية ، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام ، كما قال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟!) الآيات .

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب ان يكون كعباد الأصنام .

و « المؤمن » إنما فارق الكفر بالايمان بالله وبرسله ، وبتصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، واتباع ما يرضاه الله . ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب ، لا بما فعله من المعائب . فهو من الذنوب يستغفر . وعلى المصائب يصبر . فهو كما قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) فيجمع بين طاعة الامر والصبر على المصائب . كما

قال تعالى : (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال تعالى : (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) وقال يوسف : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) .

و « المقصود هنا » : أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال : من اراد ان يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه ، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض ؛ وذلك ان العبد انما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها ، فاذا لم يحصل سخط ، فاذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق ، وكذلك ما ذكره عن الفضيل ابن عياض انه قال لبشر الحافى : الرضا افضل من الزهد فى الدنيا ؛ لان الراضي لا يتمنى فوق منزلته ، كلام حسن . لكن اشك فى سماع بشر الحافى من الفضيل .

وكذلك ما ذكره معلقاً قال : قال الشبلي بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة الا بالله . فقال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء . فان هذا من احسن الكلام . وكان الجنيد — رضي الله عنه — سيد الطائفة ، ومن احسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً — وذلك ان هذه الكلمة كلمة استعانة ؛ لا كلمة استرجاع ، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ، ويقولها جزعا لا صبراً . فالجنيد

انكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها ، اذ كانت حالاً ينافي الرضا ، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه .

وفيما ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقاً . (قال) وقيل : قال موسى : « الهي ! دلني على عمل اذا عملته رضيت عني . فقال : انك لا تطيق ذلك ، فخر موسى ساجداً متضرعا ، فأوحى الله اليه : يابن عمران ! رضائي في رضاك عني » فهذه الحكاية الاسرائيلية فيها نظر ؛ فانه قد يقال : لا يصلح ان يحكى مثلها عن موسى بن عمران . ومعلوم ان هذه الاسرائيليات ليس لها اسناد ، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين ، الا اذا كانت منقولة لنا نقلا صحيحاً ، مثل ما ثبت عن نبينا انه حدثنا به عن بني اسرائيل ، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه ؛ فان موسى من اعظم اولي العزم ، وا كابر المسلمين ؛ فكيف يقال : انه لا يطيق ان يعمل ما يرضى الله به عنه ؟! والله تعالى راض عن السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان . أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن ؟! وقال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً . رضي الله عنهم ورضوا عنه) ومعلوم ان موسى بن عمران عليه السلام من افضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم ان الله خص موسى بمزية فوق الرضا . حيث قال : (والقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني) . ثم إن قوله له في الخطاب : يا ابن عمران ! مخالف لما ذكره الله من خطابه فى القرآن حيث قال : ياموسى ، وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر . ومثل ما ذكر انه قيل : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى أبى موسى الأشعري اما بعد : فان الخير كله فى الرضا فان استطعت ان ترضى والا فاصبر . فهـذا الـكلام كلام حسن . وان لم يعلم اسناده .

وإذا تبين أن فيما ذكره مسنـداً ومرسلا ومعلقـاً ما هو صحيح وغيره . فهذه الـكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان الا مرسلة . وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس ؛ فانه وان قال بعض الناس: ان المرسل حجـة ، فهـذا لم يعلم ان المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف . فاما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء . كمن علم انه تارة يحفظ الاسناد وتارة يغلط فيه .

والكتب المسندة فى أخبـار هؤلاء المشائخ وكلامهم مثل كتـاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم و (طبقات الصوفيـة) لأبى عبـد الرحمن و (صفوة الصفوة) لابن الجوزي . وامثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الـكلمة عن الشيخ أبي سليمان . الا ترى الذي رواه عنه مسنداً حيث قال : قال لاحمد بن ابى الحواري : يا أحمد ! لقد اوتيت من الرضـا

نصيباً لو القاني فى النار لكنت بذلك راضياً . فهـذا الـكلام مأثور عن ابى سليمان بالاسناد ؛ ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن ؛ بخلاف تلك الـكلمة فانها لم تسند عنه . فلا اصـل لها عن الشيخ أبى سليمان .

ثم ان القشيري قرن هذه الـكلمة الثانية من أبى سليمان بـكلمة احسن منهـا فانه قبل ان يرويهـا قال : وسئـل ابو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اسألك الرضا بعـد القضاء » فقال : لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا . فهـذا الذي قاله الشيخ ابو عثمان كلام حسن سديد . ثم اسند بعد هـذا عن الشيخ ابي سليمان انه قال : ارجو ان اكون قد عرفت طرفا من الرضـا . لو انه ادخلنى النار لكنت بذلك راضياً .

فتبين بـذلك ان ما قاله ابو سليمان ليس هو رضا . وإنمـا هو عزم على الرضا ، وانما الرضا ما يكون بعد القضـاء ، وان كان هـذا عزماً فالعزم قد يدوم ، وقد ينفسخ ، وما اكثر انفساخ العزائم خصوصاً عزائم الصوفية ؛ ولهذا قيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العـزائم ونقض الهمم . وقـد قال تعـالى لمن هو افضل من هؤلاء المشائخ : (ولقـد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقـد رأيتموه وانتم تنظرون) وقال تعالى : (يا أيهـا الذين آمنوا لم تقولون مالا

تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) وفى الترمذي ان بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمنا اي العمل احب الى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية » وقد قال تعالى : (الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا اخرتنا إلى اجل قريب) الآية . فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد واحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه ، واين الم الجهاد من الم النار ؟ وعذاب الله الذي لا طاقة لاحد به ، ومثل هذا مايذكرونه عن سمنون المحب انه كان يقول :

وليس لي فى سواك حظ   فكيفما شئت فاختبرني

فأخذه العسر من ساعته : اي حصر بوله ؛ فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .

وحكى ابو نعيم الاصبهاني عن ابى بكر الواسطي انه قال سمنون : يارب قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ فاحتبس بوله اربعة عشر يوماً ؛ فكان يتلوى كما تتلوى الحية ، يتلوى يميناً وشمالاً ؛ فلما

اطلق بوله ؛ قال : رب قد تبت إليك . قال ابو نعيم : فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى ، مع ان سمنونا هـذا كان يضرب به المثل ، وله فى المحبة مقام مشهور ، حتى روى عن ابراهيم ابن فاتك انه قال : رأيت سمنونا يتكلم على الناس فى المسجد الحرام ، فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يـده ، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الارض حتى سقط منه دم ؛ ومات الطائر . وقال رأيته يوماً يتكلم فى المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضاً .

وقد ذكر القشيري فى (باب الرضـا) عن رويم المقرى رفيق سمنون حكاية تناسب هذا حيث قال : قال رويم : ان الراضى لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله ان يحولها عن يساره ؛ فهذا يشبه قول سمنون : فكيف ما شئت فامتحني . وإذا لم يطـق الصبر على عسر البول ؛ أفيطيق ان تكون النار عن يمينه .

والفضيل بن عياض كان اعلى طبقة من هؤلاء وابتلى بعسر البول فغلبه الالم حتى قال : بحبي لك الا فرجت عني ؛ ففرج عنه .

و« رويم » وان كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة؛ بل الصوفية يقولون : انه رجع إلى الدنيـا وترك التصوف ؛ حتى روى عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد انه قال : من اراد ان يستكتم سراً

فليفعل . كما فعل رويم . كتم حب الدنيا اربعين سنة فقيل : وكيف يتصور ذلك ؟ قال : ولي اسماعيل بن اسحق القاضي قضاء بغداد وكان بينهما مودة اكيدة ؛ فجذبه إليه ، وجعله وكيلا على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والدبيقى وأكل الطيبات ، وبنى الدور ، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها ، فلما وجدها اظهر ما كان يكتم من حبها . هذا مع انه — رحمه الله — كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود .

وهذه الكلمات التى تصدر عن صاحب حال لم يفكر فى لوازم اقواله وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلا ؛ ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ، ونحو ذلك ، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق ، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر ، والرسل صلوات الله عليهم اعلم بطريق سبيل الله واهدى وانصح ، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً ، وان لم يكن عاصياً او فاسقاً او كافراً .

ويشبه هذا : الاعرابي الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض كالفرخ فقال : « هل كنت تدعو الله بشيء ، قال : كنت اقول : اللهم ما كنت معذبنى به في الآخرة فاجعله فى الدنيا ، فقال : سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه . هلا قلت : ربنا آتنا فى

الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » فهذا ايضاً حمله خوفه من عذاب النار ، ومحبته لسلامة عاقبته على ان يطلب تعجيل ذلك فى الدنيا ، وكان مخطئاً فى ذلك غالطاً . والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته ، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً ، فليس من شرط ولي الله ان يكون معصوماً من الخطأ والغلط ؛ بل ولا من الذنوب ، وافضل اولياء الله بعد الرسل ابو بكر الصديق — رضي الله عنه — وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : له لما عبر الرؤيا « اصبت بعضاً واخطأت بعضاً » .

ويشبه — والله اعلم — ان ابا سليمان لما قال هذه الكلمة : — لو ألقاني فى النار لكنت بذلك راضياً — ان يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى انه قال : الرضا ان لا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار . وتلك الكلمة التى قالها ابو سليمان مع انها لا تدل على رضاه بذلك ، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك ، فنحن نعلم ان هذا العزم لا يستمر بل ينفسخ ، وان هذه الكلمة كان تركها احسن من قولها ؛ وانها مستدركة ؛ كما استدركت دعوى سمنون ورويم وغير ذلك ؛ فان بين هذه الكلمة وتلك فرقاً عظيما . فان تلك الكلمة مضمونها : ان من سأل الله الجنة . واستعاذ من النار . لا يكون راضياً .

وفرق بين من يقول : انا إذا فعل كذا كنت راضياً ، وبين

من يقول : لا يكون راضياً إلا من لا يطلب خيراً ، ولا يهرب من شر ؛ وبهذا وغيره يعلم ان الشيخ أبا سليمان كان اجل من أن يقول مثل هذا الكلام ، فان الشيخ أبا سليمان من اجلاء المشائخ ، وساداتهم ومن اتبعهم للشريعة حتى انه قال : انه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم ، فلا اقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة . فمن لايقبل نكت قلبه إلا بشاهدين ، يقول هذا مثل الكلام ؟!. وقال الشيخ ابو سليمان ايضاً : ليس لمن الهم شيئاً من الخير ان يفعله ، حتى يسمع فيه بأثر فاذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور ؛ بل صاحبه احمد بن ابي الحواري كان من اتبع المشائخ للسنة ، فكيف ابو سليمان ؟!

وتمام تزكية ابي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في « المقام الثانى » وهو قول القائل كائناً من كان : الرضا ان لا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار .

ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع فى مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب ، وذلك ان قوماً كثيراً من الناس من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة ، وغيرهم ظنوا ان الجنة التنعم بالمخلوق من اكل وشرب ونكاح ولباس ، وسماع اصوات طيبة ، وشم روائح طيبة ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيما غير ذلك . ثم صاروا ضربين :

« ضرب » أنكروا ان يكون المؤمنون يرون ربهم . كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم .

« ومنهم » من أقر بالرؤية . إما الرؤية التى اخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم كما هو مذهب اهل السنة والجماعة ، وإما برؤية فسروها بزيادة كشف او علم ، او جعلها بحاسة سادسة ، ونحو ذلك من الاقوال التى ذهب إليها ضرار بن عمرو وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصر اهل السنة فى مسألة الرؤية ، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما تنفيه المعتزلة والضرارية . والنزاع بينهم لفظي ، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي ؛ ولهذا كان بشر وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء .

و (المقصود هنا) ان مثبتة (الرؤية) منهم من انكر ان يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه ، قالوا : لانه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر ذلك الاستاذ أبو المعالي الجوينى فى « الرسالة النظامية » ، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل في بعض كتبه ونقلوا عن ابن عقيل انه سمع رجلا يقول : أسألك لذة النظر الى وجهك . فقال : ياهذا هب ان له وجها ، اله وجه يتلذذ بالنظر اليه ؟! وذكر أبو المعالي : ان الله يخلق لهم نعيما ببعض المخلوقات مقارنا للرؤية ، فأما النعيم بنفس الرؤية فانكره وجعل هذا من اسرار التوحيد .

واكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم ، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، ومشائخ الطريق ، كما فى الحديث الذي في النسائي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم : «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر الى وجهك ، واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » وفى صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد ، ياأهل الجنة ! ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ الم يبيض وجوهنا ؟ ويثقل موازيننا ؟ ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ؛ فينظرون اليه فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر اليه » .

وكلما كان الشيء احب كانت اللذة بنيله اعظم ، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشائخ الطريق ، كما روى عن الحسن البصري انه قال : لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت نفوسهم فى

الدنيا شوقا اليه ، وكلامهم فى ذلك كثير .

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشائخ على التنعم بالنظر الى الله تعالى ، تنازعوا فى « مسألة المحبة » التى هي اصل ذلك : فذهب طوائف من[1] والفقهاء الى ان الله لا يُحَبُّ نَفْسُهُ ، وانما المحبة محبة طاعته وعبادته ؛ وقالوا : هو ايضاً لا يحب عباده المؤمنين ؛ وإنما محبته إرادته للاحسان اليهم وولايتهم . ودخل فى هـذا القول من انتسب الى نصر السنة مـن اهل الـكلام ، حتى وقع فيه طوائف من اصحاب مالك والشافعي واحمـد : كالقاضي ابي بكر والقاضي ابي يعلى وابى المعالي الجويني وامثال هؤلاء .

وهذا فى الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال ؛ فان اول من انكر « المحبة » فى الاسلام الجعد بن درهم . استاذ الجهم بن صفوان ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري . وقال : ايهـا الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضـحـ بالجعد بن درهم ، فانه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه .

والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وائمتها ومشائخ الطريق : ان الله يحب ويحب . ولهذا وافقهم على ذلك من تصرف مـن

---

(١) بياض بالاصل .

اهل الكلام : كابى القاسم القشيري ؛ وابى حامد الغزالي ، وامثالهما. ونصر ذلك ابو حامد فى « الاحياء » وغيره. وكذلك ابو القاسم ذكر ذلك فى « الرسالة » على طريق الصوفية كما فى كتاب ابى طالب المسمى بـ « قوت القلوب » وابو حامد مع كونه تابع فى ذلك الصوفية. استند فى ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من اثبات نحو ذلك حيث قالوا : يعشق ويعشق .

وقد بسط الكلام على هذه المسألة العظيمة فى القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه. وقد قال تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقال تعالى (والذين آمنو اشد حباً لله) وقال : (احب اليكم من الله ورسوله) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » .

و (المقصود هنا) أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم ان ينكروا التلذذ بالنظر اليه ، ولهذا ليس فى الحقيقة عندهم الا التنعم بالاكل والشرب . ونحو ذلك . وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشائخها ، فهذا احد الحزبين الغالطين .

و (الضرب الثانى) : طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة :

واتفقوا هؤلاء على ان الجنة ليست الا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق ؛ ولكن واتفقوا السلف والأئمة على اثبات رؤية الله والتنعم بالنظر اليه ، واصابوا فى ذلك وجعلوا يطلبون هـذا النعيم ، وتسمو اليـه همتهم ، ويخافون فوته ، وصار احدهم يقول : ما عبدتـك شوقا الى جنتك ، او خوفا من نارك ، ولكن لأنظر اليك واجـلالاً لك . وامثال هـذه الـكلمات . مقصودهم بـذلك : هو اعـلى من الاكل والشرب والتمتع بالمخلوق ، لكن غلطوا في اخراج ذلك من الجنة . وقد يغلطون ايضاً في ظنهم انهم يعبدون الله بلا حظ ولا ارادة ، وان كل مايطلب منه فهو حظ النفس . وتوهمـوا ان البشر يعمل بـلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب ، وهو سوء معرفة بحقيقة الايمان والدين والآخرة .

وسبب ذلك ان همة احدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبـه ومعبوده تفنيه عن نفسه ، حتى لا يشعر بنفسه وارادتها ، فيظن انه يفعل لغير مراده ، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه ، وهـذا كحال كثير من الصالحين والصادقين ، وارباب الاحوال والمقامات يكون لاحدهم وجد صحيح ، وذوق سليم ، لـكن ليس له عبارة تبين كلامه ، فيقـع فى كلامه غلط وسوء أدب ، مع صحة مقصوده ؛ وان كان مـن الناس من يقع منه فى مراده واعتقاده .

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام : اذا عنوا به طلب رؤية الله

تعالى اصابوا فى ذلك ؛ لكن اخطؤا من جهة انهم جعلوا ذلك خارجا عن الجنة ، فاسقطوا حرمة اسم الجنة ، ولزم من ذلك امور منكرة ؛ نظير ما ذكر عن الشبلي رحمه الله انه سمع قارئاً يقرأ : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) . فصرخ وقال اين مريد الله ؟. فيحمد منه كونه اراد الله ؛ ولكن غلط فى ظنه ان الذين ارادوا الآخرة ما أرادوا الله : وهذه الآية فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد ، وهم أفضل الخلق . فان لم يريدوا الله . افيريد الله من هو دونهم . كالشبلي ، وامثاله ؟!.

ومثل ذلك ما اعرفه عن بعض المشائخ انه سأل مرة عن قوله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) قال : فاذا كانت الانفس والاموال في ثمن الجنة ، فالرؤية بم تنال ؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال .

والواجب ان يعلم ان كل ما اعده الله للأولياء من نعيم بالنظر اليه وما سوى ذلك هو فى الجنة ، كما ان كل ما وعد به اعداءه هو فى النار . وقد قال تعالى : (فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون) وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « يقول : الله اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتهم عليه » واذا علم ان

جميع ذلك داخل فى الجنة ، فالناس فى الجنة على درجات متفاوتة كما قال : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلاً) وكل مطلوب للعبد بعبادة او دعاء او غير ذلك من مطالب الآخرة هو فى الجنة .

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق انبياء الله ورسله ، وجميع اوليائه السابقين المقربين ، واصحاب اليمين . كما فى السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض اصحابه : «كيف تقول : فى دعائك ؟ قال : اقول : اللهم انى اسألك الجنة ، واعوذ بك من النار ؛ اما انى لا احسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ . فقال : حولها ندندن» فقد اخبر انه هو صلى الله عليه وسلم ومعاذ ـــ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ـــ إنما يدندنون حول الجنة ، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والانصار ؟! ولو طلب هذا العبد ما طلب كان فى الجنة .

وأهل الجنة نوعان : سابقون مقربون ، وأبرار أصحاب يمين . قال تعالى : (كلا ان كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم على الارائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم

ختامه مسك . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) قال ابن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشربها المقربون صرفاً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي . فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة . فانها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو ان اكون انا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة . حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » فقد أخبر ان الوسيلة ــ التى لا تصلح الا لعبد واحد من عباد الله . ورجا أن يكون هو ذلك العبد ــ هي درجة فى الجنة ، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة . يصلح للمخلوقين ؟ ! .

وثبت فى الصحيح ايضاً فى حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس فى مجالس الذكر قال : « فيقولون للرب تبارك وتعالى : وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك . قال : فيقول : وما يطلبون ؟ قالوا : يطلبون الجنة . قال : فيقول : وهل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا . قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟! قال : فيقولون: لو رأوها لكانوا اشد لها طلباً . قال : ومم يستعيذون ؟! قالوا : يستعيذون من النار . قال : فيقول : وهل رأوها ؟! قال : فيقولون : لا . قال: فيقول :

فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها لكانوا اشد منها استعاذة . قال : فيقول : اشهدكم اني اعطيتهم ما يطلبون ، واعذتهم مما يستعيذون — او كما قال — قال : فيقولون : فيهم فلان الخطآء جاء لحاجة فجلس معهم ، قال : فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » . — فهؤلاء الذين هم من افضل اولياء الله كان مطلوبهم الجنة ، ومهربهم من النار .

والنبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم افضل من هؤلاء المشائخ كلهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك قال : « أشترط لنفسي ان تنصروني مما تنصرون منه انفسكم واهليكم واشترط لأصحابي ان تواسوهم . قالوا : فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : مد يدك فوالله لا نقيلك ، ولا نستقيلك » . وقد قالوا له فى اثناء البيعة « ان بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وانا ناقضوها » .

فهؤلاء الذين [بايعوه] من اعظم خلق الله محبة لله ورسوله ، وبذلاً لنفوسهم واموالهم فى رضا الله ورسوله ، على وجه لا يلحقهم فيه احد من هؤلاء المتأخرين ، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة ، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ، ولكن علموا ان فى الجنة كل محبوب ومطلوب ؛ بل وفى الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه ، فان

الطلب والحب والارادة فرع عن الشعور والاحساس والتصور . فما لا يتصوره الانسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع ان يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا . كما قال تعالى : (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) وقال : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) ففيها ما يشتهون ، وفيها مزيد على ذلك ، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهذا باب واسع .

فاذا عرفت هذه « المقدمة » فقول القائل : الرضا ان لا تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذه من النار ، ان اراد بذلك ان لا تسأل الله ما هو داخل فى مسمى الجنة الشرعية ، فلا تسأله النظر اليه ، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الانبياء والاولياء . وانك لا تستعيذ به من احتجابه عنك ، ولا من تعذيبك فى النار . فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين ، وسائر المؤمنين ، فهو متناقض فى نفسه ، فاسد فى صريح العقول . وذلك ان الرضا الذي لا يسأل ، إنما لا يسأله لرضاه عن الله . ورضاه عنه انما هو بعد معرفته به ، ومحبته له . وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال : يرضى ان لا يرضى وهذا جمع بين النقيضين . ولا ريب انه كلام من لم يتصور ما يقول . ولا عقله . يوضح ذلك ان الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام

ما يجده من لذة الرضا وحلاوته . فاذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع ان يتحمل الما ومرارة ، فكيف يتصور ان يكون راضياً ، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره ؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والفانى الذي وجد فى نفسه حلاوة الرضا ، فظن ان هذا يبقى معه على اي حال كان ، وهذا غلط عظيم منه : كغلط سمنون كما تقدم .

وان اراد بذلك ان لا يسأل التمتع بالمخلوق ، بل يسأل ما هو اعلى من ذلك ؛ فقد غلط من وجهين :

من جهة انه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو اعلى نعيم الجنة.

ومن جهة انه ايضاً اثبت انه طالب مع كونه راضياً ، فاذا كان الرضا لا ينافى هذا الطلب ، فلا ينافى طلباً آخر إذا كان محتاجاً الى مطلوبه ؛ ومعلوم ان تمتعه بالنظر لا يتم الا بسلامته من النار ، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر . وما لايتم المطلوب إلا به فهو مطلوب ؛ فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التى منها النجاة من النار .فيكون رضاه لا ينافى طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه ، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرها مما هو من لوازم النظر ، فتبين تناقض قوله .

و (ايضاً) فاذا لم يسأل الله الجنة ، ولم يستعذ به من النار ، فاما ان يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة . واما ان لا يطلبه ، فان طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة اولى ، واستعاذته من النار اولى . وان كان الرضا ان لا يطلب شيئاً قط ، ولو كان مضطراً إليه ، ولا يستعيذ من شيء قط وان كان مضراً ، فلا يخلو : اما ان يكون ملتفتاً بقلبه الى الله في ان يفعل به ذلك ، واما ان يكون معرضاً عن ذلك ، فان التفت بقلبه الى الله فهو طالب مستعيذ بحاله ، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال . وهو بهما اكمل واتم فلا يعدل عنه .

وان كان معرضاً عن جميع ذلك ، فمن المعلوم انه لا يحى ويبقي الا بما يقيم حياته ، ويدفع مضاره بذلك . والذي به يحى من المنافع ودفع المضار ، اما ان يحبه ويطلبه ويريده من أحد ، او لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده . فان أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركا مذموماً ، فضلاً عن ان يكون محموداً . وان قال لا احبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه . قيل : هذا ممتنع فى الحي ، فان الحي ممتنع عليه ان لا يحب ما به يبقى ، وهذا أمر معلوم بالحس ، ومن كان بهذه المثابة امتنع ان يوصف بالرضا ، فان الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة ، إذ الرضا مستلزم لذلك . فكيف يسلب عنه ذلك كله

فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام .

وأما فى سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه :

(أحدها) ان يقال الراضي لا بد ان يفعل ما يرضاه الله ، والا فكيف يكون راضياً عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله ؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه ، وينهى عنه .

وبيان هذا : ان الرضا المحمود : اما ان يكون الله يحبه ويرضاه واما ان لا يحبه ويرضاه . فان لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأموراً به ، لا امر ايجاب ولا أمر استحباب ؛ فان من الرضا ما هو كفر ، كرضا الكفار بالشرك ، وقتل الأنبياء وتكذيبهم ، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه . قال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم) فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الخطيئة اذا عملت فى الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها ، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها » . وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون بعدي امراء تعرفون وتنكرون ، فمن أنكر فقد برىء ، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع هلك » . وقال تعالى : (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله

لا يرضى عن القوم الفاسقين) فرضانا عن القـوم الفاسقـين ليس مما يحبه الله ويرضاه ، وهو لا يرضى عنهم . وقال تعالى : (ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل) فهذا رضا قد ذمه الله . وقال تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) فهـذا ايضا رضا مذموم ، وسوى هـذا وهذا كثير .

فمن رضي بكفره و كفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصى غيره فليس هو متبعاً لرضا الله ولا هو مؤمن بالله . بل هو مسخط لربه ، وربه غضبان عليه ، لاعن له ، ذام له ، متوعد له بالعقاب .

وطريق الله التى يأمر بها المشائخ المهتدون : إنما هي الامر بطاعة الله والنهى عن معصيته . فمن امر او استحب او مـدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهى عنه ويعاقب اصحابه فهو عدو لله لاولى لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه ، ليس بسالك لطريقـه وسبيله . واذا كان الرضا الموجود فى بني آدم منـه ما يحبه الله ، ومنـه ما يكرهه ويسخطه ومنه ماهو مباح لا من هـذا ولا من هـذا ، كسائر اعمال القـلوب من الحب والبغض وغـير ذلك : كلها تنقسم الى محبوب لله ومكروه لله مباح .

فاذا كان الامر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له : سؤال الله الجنة واستعاذته من النار اما ان تكون واجبة ، واما ان تكون مستحبة . واما ان تكون مباحـــة ، واما ان تكون مكروهة ، ولا يقول مسلم : انها محرمة ولا مكروهة ، وليست ايضاً مباحة مستوية الطرفين . ولو قيل : انها كذلك ففعل المباح المستوى الطرفين لا ينافى الرضا ؛ اذ ليس من شرط الراضى ان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل امثال هذه الامور . فاذا كان ما يفعله من هـــذه الامور لا ينافي رضاه ، أينافى رضاه دعاه وسؤال هو مباح ؟ ! . واذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبـاً او مستحباً فمعـلوم ان الله يرضى بفعـل الواجبات والمستحبات ، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه ؛ بل يفعل ما يسخطه ويكرهه وهذه صفة اعداء الله لا أولياء الله .

والقشيري قـد ذكره فى اوائـل (باب الرضا) فقال : اعـلم ان الواجب على العبد ان يرضى بقضاء الله الذي امر بالرضا بـه ، اذ ليس كل ماهو بقضائه يجوز للعبد او يجب على العبد الرضا به . كالمعاصي وفنون محن المسلمين . وهـذا الذي قاله ، قاله قبله وبعده ومعه غـير واحد من العلماء : كالقاضي أبى بكر ، والقاضي أبي يعلى وامثالهما . لما احتج عليهم القدرية بان الرضا بقضاء الله مأمور به ، فـلو كانت المعاصي

بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها ، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز .
فأجابهم اهل السنة عن ذلك بثلاثة اجوبة :

(احدها) — وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة — ان هذا العموم ليس بصحيح ، فلسنا مأمورين ان نرضى بكل ما قضى وقدر . ولم يجيء فى الكتاب والسنة امر بذلك ، ولكن علينا ان نرضى بما امرنا ان نرضى به ، كطاعة الله ورسوله . وهذا هو الذي ذكره ابو القاسم .

(والجواب الثاني) انهم قالوا : انا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله او فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله . وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه فى غير هذا الموضع .

(الثالث) انهم قالوا : هذه المعاصي لها وجهان : وجه الى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه ، ووجه الى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها ، فيرضى من الوجه الذي يضاف به الى الله ، ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به الى العبد ، اذ كونها شراً وقبيحة ومحرما وسبباً للعذاب والذم ونحو ذلك انما هو من جهة كونها مضافة الى العبد . وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والاسرار ما قد ذكرنا منه ما قد ذكرناه فى غير هذا الموضع ؛ ولا يحتمله هذا المكان . فان

هذا متعلق بمسائل « الصفات والقدر » وهي من اعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وادقها على عقول اكثر العالمين .

والمقصود هنا ان مشائخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بينوا ان من الرضا ما يكون جائزاً ، ومنه مالا يكون جائزاً فضلا عن كونه مستحباً او من صفات المقربين، وان ابا القاسم ذكر ذلك فى « الرسالة » ايضاً .

(فان قيل) : هذا الذي ذكرتموه امر بين واضح، فمن أين غلط من قال: الرضا ان لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار ؟ وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائنا من كان ؟ .

(قيل) : غلطوا فى ذلك لأنهم رأوا ان الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر ، فالعبد اذا كان فى حال من الاحوال فمن رضاه ان لا يطلب غير تلك الحال ، ثم انهم رأوا ان اقصى المطالب الجنة ، واقصى المكاره النار . فقالوا : ينبغي ان لا يطلب شيئاً ولو انه الجنة ولا يكره ما يناله ، ولو انه النار ، وهذا وجه غلطهم . ودخل عليهم الضلال من وجهين :

(احدهما) : ظنهم ان الرضا بكل ما يكون امر يحبه الله ويرضاه

وان هذا من اعظم طرق اولياء الله ، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن او بكل حال يكون فيها للعبد طريقاً الى الله . فضلوا ضلالاً مبينا . والطريق الى الله انما هي ان ترضيه بأن تفعل مايحبه ويرضاه ليس ان ترضى بكل ما يحدث ويكون ، فانه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا احبه ؛ بل [هو] سبحانه يكره ويسخط ويبغض على اعيان افعال موجودة لا يحصيها الا هو . وولاية الله موافقته بان تحب ما يحب وتبغض ما يبغض ، وتكره ما يكره ، وتسخط ما يسخط ، وتوالي من يوالي ، وتعادي من يعادي . فاذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه كنت عدوه لا وليه ، وكان كل ذم نال من رضي ما اسخط الله قد نالك .

فتدبر هذا ؛ فانه ينبه على اصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والصوفية والعباد والعامة من لا يحصيهم الا الله .

(الوجه الثاني) : انهم لا يفرقون بين الدعاء الذي امروا به امر ايجاب ، وامر استحباب ، وبين الدعاء الذي نهوا عنه ، او لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه ، فان دعاء العبد لربه ومسألته اياه ثلاثة انواع :

« نوع » أمر العبد به اما امر ايجاب واما امر استحباب : مثل

قوله (اهدنا الصراط المستقيم) ومثل دعائـه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر به اصحابه فقال : « إذا قعـد احدكم فى الصلاة فليستعذ بالله من اربع : من عـذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال » . فهـذا دعاء امرهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعوا بـه فى آخر صلاتهم . وقد اتفقت الأمة على انه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه . وتنازعوا فى وجوبه . فأوجبه طاووس وطائفة ، وهـو قول في مذهب احمـد رضي الله عنه والأكثرون قالوا : هـذا مستحب ، والأدعيـة التى كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها : لا تخرج عن ان تكون واجبـة ، أو مستحبة ، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه . ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه ، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه ؟!.

و « نوع من الدعاء » ينهى عنه : كالاعتداء مثل ان يسأل الرجل مالا يصلح من خصائص الأنبيـاء ، وليس هو بنبي ، وربمـا هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى . مثل ان يسأل لنفسه الوسيلة التى لا تصلح الا لعبد من عباده . او يسأل الله تعالى ان يجعله بكل شيء عليما ، او على كل شيء قدير ، وان يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب . وامثال ذلك ، او مثل من يدعوه ظانا انـه محتاج الى عبـاده ؛ وأنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل . ويذكر انـه اذا لم يفعله

حصل له من الخلق ضير . وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء فى الدعاء ، وان وقع فى ذلك طائفة من الشيوخ . ومثل ان يقولوا : اللهم اغفر لي ان شئت ، فيظن ان الله قد يفعل الشيء مكرها ، وقد يفعل مختاراً . كالملوك فيقول : اغفر لي ان شئت ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت ، اللهم ارحمني ان شئت ، ولكن ليعزم المسألة فان الله لا مكره له » ومثل ان يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق ، وامثال ذلك فهذه الادعية ونحوها منهى عنها .

ومن الدعاء ماهو مباح كطلب الفضول التى لامعصية فيها .

و (المقصود) ان الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب ، فالدعاء الذي هو واجب او مستحب لا يكون تركه من الرضا ؛ كما ان ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع ، ولا فعل المحرمات من المشروع . فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم ان الرضا مشروع بكل مقدور ، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع ايجابا ، واستحبابا ، والدعاء غير المشروع .

وقد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان طلب الجنة من الله ، والاستعاذة به من النار ، هو من اعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين

والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وان ذلك لا يخرج عن كونه واجباً أو مستحبا ، وطريق أولياء الله التى يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات ، إذ ما سوى ذلك محرم او مكروه او مباح لا منفعة فيه فى الدين .

ثم انه لما اوقع هؤلاء فى هذا الغلط انهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ، ودفع المضار ، حتى طلب الجنة ، والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً : بل من جهة كون النفس تطلب ذلك ، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده ، وان لا يكون لأحدهم إرادة اصلا ؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر — كائناً من كان — وهذا هو الذي ادخل كثيراً منهم فى الرهبانية ، والخروج عن الشريعة ، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون اليه ، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به ؛ فانهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة ، ومعلوم ان الأفعال التى على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة فرأى أولئك الطريق الى الله ترك هذه العبادات ، والأفعال الطبعيات ، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ، ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات ، وفعل مكروهات ومحرمات .

وكلا الأمرين غير محمود . ولا مأمور بـه ، ولا طريق الى الله : طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج اليهـا على غـير وجه العبادة ، والتقرب إلى الله ، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال : بل المشروع ان تفعل بنيـة التقرب الى الله ، وأن يشكر الله . قال الله تعالى : (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : (كلوا من طيبـات ما رزقناكم واشكروا لله) فامر بالأكل والشرب ، فمن اكل ولم يشكر كان مذموماً ، ومن لم يأكل ولم يشـكر كان مذموما ، وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسلم انـه قال : « ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليهـا ، ويشرب الشربـة فيحمده عليها » . وقال النبي صـلى الله عليه وسلم لسعد : « إنـك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعـة ، حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك » وفى الصحيح ايضاً انه قال : « نفقة المؤمن عـلى اهـله يحتسبها صدقة » . فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفـع المضرة عنـه طبعاً وعادة لا شرعا وعبـادة ، فليس من المشروع ان ادع الدعاء مطلقاً لتقصير هـذا وتفريطه : بـل أفعله انا شرعا وعبادة .

ثم اعلم ان الذي يفعله شرعا وعبادة إنما يسعى فى مصلحة نفسـه وطلب حظوظـه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته : بخـلاف

الذي يفعله طبعاً فانه إنمـا يطلب مصلحة دنياه فقـط ، كما قال تعـالى (فمنهم من يقول ربنا آتنـا فى الدنيا وماله فى الآ خـرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنـا فى الدنيا حسنـة وفى الآخـرة حسنة وقنـا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريـع الحسـاب) وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النـار إنمـا يطلب حسنة الآخرة فهو محمود .

وممـا يبين الأمر فى ذلك ان يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً ، فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصـدق، ولا يحج ولا يجـاهد ولا يفعل شيئـاً من القربات، فان ذلك انما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب . فاذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة ، ولا دفع العقاب الذي هو النار ، فلا يفعل مأموراً ، ولا يترك محظوراً ، ويقول انا راض بـكل ما يفعله بي وان كفرت وفسقت وعصيت ؛ بل يقول : انا اكفر وافسق واعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فانال درجة الرضا بقضائه ، وهذا قول من [هو من] اجهل الخلق واحمقهم وأضلهم واكـفرهم .

اما جهله وحمقه ، فلان الرضى بـذلك ممتنع متعـذر ، لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين .

واما كفره فلانــه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث بــه رسله وانزل به كتبه .

ولا ريب ان ملاحظة القضاء والقدر اوقعت كثيراً من اهل الارادة من المتصوفة فى ان تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين واما عاصين فاسقين واما كافرين ، وقد رأيت من ذلك ألوانا . (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض ـــ هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر . وأولئــك يلاحظون الامر ويعرضون عن القدر ـــ والطائفتان تظن ان ملاحظة الأمر والقدر متعـذر ، كما ان طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل . وهذه الاصناف الثلاثة هي : القدرية المجوسية ، والقدرية المشركية ؛ والقدرية الابليسية ؛ وقد بسطنا الـكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

واصل ما يبتلى به السالكون اهل الارادة والعامة فى هــذا الزمان هي « القدرية المشركية » فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر ، كما قال فيهم بعض العلماء : انت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري اي مذهب وافق هواك تمذهبت به . وإنما المشروع العكس وهو ان يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل ، ويشكره عليها بعد الفعل .

ويجتهد ان لا يعصى فاذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار ، كما في حديث سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي » وكما فى الحديث الصحيح الالهي « ياعبادي إنما هى اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

ومن هذا الباب دخل قوم من اهل الارادة فى ترك الدعاء وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة ، وامثال هذه الاغاليط التى تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع وبينا الفرق بين الصواب والخطأ فى ذلك ؛ ولهذا يوجد في كلام هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشريعة ، حتى قال سهل بن عبد الله التستري : كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . وقال الجنيد بن محمد : علمنا مقيد بالكتاب والسنة ؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح ان يتكلم فى علمنا والله أعلم .

ما تقول السادة العلماء

فى من عزم على « فعل محرم » كالزنا والسرقة ، وشرب الخمر عزماً جازماً ــ فعجز عن فعله : اما بموت ، او غيره . هل يأثم بمجرد العزم ام لا ؟ وان قلتم : يأثم ، فما جواب من يحتج على عدم الاثم بقوله : « إذا هم عبدي بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه » وبقوله : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » واحتج به من وجهين .

(أحدها) انه أخبر بالعفو عن حديث النفس ، والعزم داخل فى العموم والعزم والهم واحد . قاله ابن سيده .

(الثانى) انه جعل التجاوز ممتدا إلى ان يوجد كلام او عمل ، وما قبل ذلك داخل في حد التجاوز ، ويزعم ان لا دلالة فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إذ التقي المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » ؛ لأن الموجب لدخول المقتول فى النار مواجهته اخيه ، لأنه عمل لا مجرد قصد ، وان لا دلالة فى قوله صلى الله عليه وسلم : في الذي قال : « لو ان لي مالا لفعلت وفعلت ، انهما فى الاثم سواء وفى الأجر سواء » لأنه تكلم ،

والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما لم تعمل به او تتكلم » وهذا قد تكلم ، وقد وقع فى هذه المسألة كلام كثير ، واحتيج إلى بيانها مطولا مكشوفاً مستوفاً .

فأجاب : شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ونور ضريحه .

الحمد لله ، هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام فى حكمها الى حسن التصور لها ، فان اضطراب الناس فى هذه المسائل وقع عامته من أمرين .

(أحدهما) عدم تحقيق احوال القلوب وصفاتها ، التى هي مورد الكلام .

و (الثاني) عدم اعطاء الأدلة الشرعية حقها ؛ ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس فى هذا الباب ، حتى يجد الناظر في كلامهم انهم يدعون اجماعات متناقضة فى الظاهر .

فينبغي ان يعلم ان كل واحد من صفات الحي التى هي العلم والقدرة والارادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره ما لا يضبطه العباد : كالشك ، ثم الظن ، ثم العلم ، ثم اليقين ، ومراتبه ؛ وكذلك الهم والارادة والعزم وغير ذلك ؛ ولهذا كان الصواب عند جماهير اهل السنة ــ وهو

ظاهر مذهب احمد ، وهو اصح الروايتين عنه ، وقول أكثر اصحابه ــ ان العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان ، بل وكذلك الصفات التى تقوم بغير الحي : كالألوان والطعوم والأرواح . فنقول اولا الارادة الجازمة هي التى يجب وقوع الفعل معها ، إذا كانت القدرة حاصلة فانه متى وجدت الارادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل . لكمال وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم ، ومتى وجدت الارادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكن الارادة جازمة ، وهو ارادات الخلق لما يقدرون عليه من الافعال ، ولم يفعلوه ، وان كانت هذه الارادات متفاوتة فى القوة والضعف تفاوتاً كثيراً ؛ لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الارادة جازمة جزماً تاماً .

وهذه « المسألة » إنما كثر فيها النزاع ؛ لأنهم قدروا ارادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل ، وهذا لا يكون . وانما يكون ذلك في العزم على ان يفعل ، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئا فى الحال ، والعزم على ان يفعل فى المستقبل لا يكفي فى وجود الفعل ، بل لا بد عند وجوده من حدوث تمام الارادة المستلزمة للفعل ، وهذه هي الارادة الجازمة .

و « الارادة الجازمة » إذا فعل معها الانسان ما يقدر عليه كان فى الشرع بمنزلة الفاعل التام : له ثواب الفاعل التام ، وعقاب الفاعل التام

الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته . مثل المشتركين والمتعاونين على افعال البر ، ومنها ما يتولد عن فعل الانسان كالداعي إلى هدى او الى ضلالة ، والسان سنة حسنة ، وسنة سيئة، كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل اجور من تبعه ، من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من تبعه ، من غير ان ينقص اوزارهم شيء » وثبت عنه فى الصحيحين انه قال : « من سن سنة حسنة كان له اجرها ، واجر من عمل بها الى يوم القيامة ، من غير ان ينقص من اجورهم شيء » .

فالداعي الى الهدى والى الضلالة ، هو طالب مريد كامل الطلب والارادة لما دعا اليه ؛ لكن قدرته بالدعاء والأمر ، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول ؛ ولهذا قرن الله تعالى فى كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون) .

فذكر فى الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة :

وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب ، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ ، وما ينالونه من العدو . وقال : (كتب لهم به عمل صالح) فأخبر ان هذه الأمور التى تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح ، وذكر فى الآية الثانية نفس اعمالهم المباشرة التى باشروها بأنفسهم : وهي الانفاق ، وقطع المسافة ، فلهذا قال فيها : (الا كتب لهم) فان هذه نفسها عمل صالح ، وإرادتهم فى الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فما حدث مع هـذه الارادة الجازمة مـن الأمور التى تعين فيها قدرتهم بعض الاعانة هي لهم عمل صالح .

وكذلك « الداعي الى الهـدى والضلالة » لما كانت إرادته جازمة كاملة فى هدى الأتباع وضلالهم ، وأتى من الاعانة عـلى ذلك بما يقدر عليه ، كان بمنزلة العامل الكامل ، فله مـن الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه : للهادي مثل اجور المهتدين ، وللمضل مثل اوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة ؛ فان السنة هي ما رسم للتحري فان السان كامل الارادة لكل ما يفعل من ذلك ، وفعله بحسب قدرته .

ومن هذا قوله فى الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عـن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقتل نفس ظلماً الا كان عـلى ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه اول مـن سن القتـل » فالكفل

النصيب مثل نصيب القاتل ، كما فسره الحديث الآخر ، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة ، فصار شريكا في قتل كل نفس ، ومنه قوله تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . ومن أحياها فكأنما احيى الناس جميعاً) .

ويشبه هذا انه من كذب رسولاً معيناً كان كتكذيب جنس الرسل ، كما قيل فيه : (كذبت قوم نوح المرسلين) (كذبت عاد المرسلين) ونحو ذلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون وليحملن اثقالهم وأثقالاً مع اثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) فأخبر ان أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الاتباع شيئاً ، واخبر انهم يحملون اثقالهم ، وهي اوزار الأتباع ، من غير ان ينقص من اوزار الاتباع شيء ؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك ، وفعلوا مقدورهم ، فصار لهم جزاء كل عامل ؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الارادة الجازمة ، وفعل المقدور منه .

وهو كما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن عباس عن ابي سفيان :

ان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقــل : « فان توليت فان عليك إثم الأريسيين » فأخبر ان هرقل لما كان امامهم المتبوع فى دينهم ان عليه إثم الأريسيين ، وهم الاتباع ، وان كان قد قيل : ان اصـل هذه الـكلمة من الفلاحين والاكرة ، كلفظ الطاء بالتركي ، فان هذه الـكلمة تقلب الى ما هو اعم من ذلك ، ومعلوم انه اذا تولى عن اتباع الرسول كان عليه [مثل] آثامهم من غير ان ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة .

ومن هذا قوله تعالى : (وإلهـكم إله واحــد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منـكرة وهم مستـكبرون ، لا جرم ان الله يعلم مايسرون وما يعلنون انه لا يحب المستـكبرين ، واذا قيل لهم : ماذا انزل ربكم؟ قالوا : اساطير الاولين . ليحملوا اوزارهم كامـلة يوم القيامـة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم) .

فقوله : (ومن اوزار الذين يضلونهـم) هي الاوزار الحاصـلة لضلال الاتباع ، وهي حاصلة من جهة الآمر ، ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان فى حصول ذلك الضلال ؛ فلهذا كان على هـذا بعضه ، وعلى هذا بعضه ، الا ان كل بعض من هذين البعضين هـو مثل وزر عامل كامـل ، كما دلت عليه سائر النصوص ، مثـل قوله :

« من دعا الى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (قال ادخلوا فى امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كل ما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً ، قالت اخراهم لأولاهم : ربنا ! هؤلاء اضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون) .

فأخبر سبحانه ان الاتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب ، كما اخبر عنهم بذلك فى قوله تعالى : (وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) . واخبر سبحانه ان لكل من المتبعين والاتباع تضعيفاً من العذاب . ولكن لا يعلم الاتباع التضعيف .

ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى ، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال ، حتى روى فى اثر ــ لا يحضرنى إسناده ــ « انه ما من عذاب في النار الا يبدأ فيه بابليس ثم يصعد بعد ذلك الى غيره ، وما من نعيم فى الجنة الا يبدأ فيه بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم ينتقل الى غيره » فانه هو الامام المطلق في الهدى لأول بنى آدم وآخرهم . كما قال : « انا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة

ولا فخر » وهو شفيع الاولين والآخرين فى الحساب بينهم ؛ وهو اول من يستفتح باب الجنة .

وذلك ان جميع الخلائق اخذ الله عليهم ميثاق الايمان به كما اخذ على كل نبي ان يؤمن بمن قبله من الانبياء ؛ ويصدق بمن بعده . قال تعالى: (واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) الآية . فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التى يؤتى بها اذا اشتمل الكلام على قسم وشرط ، وادخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم ، ويكون المعنى : مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم اذا جاءكم ذلك النبي المصدق الايمان به ونصره . كما قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .

والله تعالى قد نوه بذكره واعلنه في الملأ الاعلى، ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه ؛ كما فى حديث ميسرة الفجر قال : « قلت : يا رسول الله ! متى كنت نبياً ؟ — وفى رواية — متى كتبت نبياً ؟ فقال : وآدم بين الروح والجسد » رواه احمد . وكذلك فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه احمد وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « انى عند الله لخاتم النبيين . وان آدم لمنجدل في طينته » الحديث .

فكتب الله وقدر في ذلك الوقت وفي تلك الحال امر امام الذرية كما كتب وقدر حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه ، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود .

فمن آمن به من الاولين والآخرين اثيب على ذلك ، وان كان ثواب من آمن به واطاعه في الشرائع المفصلة اعظم من ثواب من لم يأت الا بالايمان المجمل ؛ على انه امام مطلق لجميع الذرية ، وان له نصيباً من ايمان كل مؤمن من الاولين والآخرين ؛ كما أن كل ضلال وغواية في الجن والانس لابليس منه نصيب ؛ فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما في نسخة شعيب بن ابي حمزة عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً — اما من مراسيل الزهري ؛ واما من مراسيل من فوقه من التابعين — قال : « بعثت داعياً وليس الي من الهداية شيء ، وبعث ابليس مزيناً ومغوياً وليس اليه من الضلالة شيء » .

ومما يدخل في هذا الباب من بعض الوجوه قوله في الحديث الذي في السنن : « وزنت بالأمة فرجحت ، ثم وزن ابو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالأمة فرجح ، ثم رفع الميزان »

فأما كون النبي صلى الله عليه وسلم راجحاً بالامة فظاهر ؛ لأن له مثل اجر جميع الامة مضافاً الى اجره ، واما ابو بكر وعمر فلأن لهما

معاونة مع الارادة الجازمة فى إيمان الامة كلها ، وابو بكر كان فى ذلك سابقاً لعمر واقوى ارادة منه ؛ فانهما هما اللذان كانا يعاونان النبي صلى الله عليه وسلم على ايمان الامة فى دقيق الامور وجليلها ؛ فى محياه وبعد وفاته .

ولهذا سأل ابو سفيان يوم احد : « أفي القوم محمد ؟ أفي القوم ابن ابي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجيبوه . فقال : اما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه ان قال : كذبت ياعدو الله ! ان الذي ذكرت لأحياء وقد بقي لك مايسوءك » رواه البخاري ومسلم ، حديث البراء بن عازب . فأبو سفيان — رأس الكفر حينئذ — لم يسأل الا عن هؤلاء الثلاثة ؛ لانهم قادة المؤمنين . كما ثبت فى الصحيحين ان علي بن ابي طالب لما وضعت جنازة عمر قال : « والله ماعلى وجه الأرض احد احب ان ألقى الله بعمله من هذا المسجى ، والله اني لارجو ان يحشرك الله مع صاحبيك ؛ فاني كثيراً ما كنت اسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : دخلت انا وابو بكر وعمر ، وخرجت انا وابو بكر وعمر ، وذهبت انا وابو بكر وعمر »

وامثال هذه النصوص كثيرة ، تبين سبب استحقاقهما ان كان لهما مثل اعمال جميع الامة ؛ لوجود الارادة الجازمة مع التمكن من القدرة

على ذلك ؛كله بخلاف من اعان على بعض ذلك دون بعض ووجدت منه ارادة فى بعض ذلك دون بعض .

و « ايضاً » فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العامل الكامل . وإن لم يكن اماماً وداعياً ، كما قال سبحانه : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً)

فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز ؛ ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز ؛ بل يقال : دليل الخطاب يقتضى مساواته اياه . ولفظ الآية صريح . استثى اولو الضرر من نفي المساواة ، فالاستثناء هنا هو من النفي ، وذلك يقتضي ان اولى الضرر قد يساوون القاعدين ، وان لم يساووهم في الجميع ، ويوافقه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى غزوة تبوك : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة . قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر » فأخبر ان القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلا العذر هو مثل من معهم فى هذه الغزوة . ومعلوم ان الذي معه فى الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته

فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر .

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » فانه إذا كان يعمل فى الصحة والاقامة عملا ثم لم يتركه إلا لمرض او سفر ثبت انه انما ترك لوجود العجز والمشقة ، لا لضعف النية وفتورها ، فكان له من الارادة الجازمة التى لم يتخلف عنها الفعل الا لضعف القدرة ، ما للعامل ، والمسافر وإن كان قادراً مع مشقة كذلك بعض المرض ، إلا ان القدرة الشرعية هي التى يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة ، كما فى قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وقوله : (ومن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً) ونحو ذلك ليس المعتبر فى الشرع القدرة التى يمكن وجود الفعل بها على أي وجه كان ، بل لا بد ان تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة ، بل او مكافية .

ومن هذا الباب ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه فى اهله بخير فقد غزا » وقوله : « من فطر صائماً فله مثل اجره من غير ان ينقص من اجره شيء » فان الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، فاذا بذل هذا بدنه ، وهذا ماله مع وجود الأرادة الجازمة فى كل منهما كان كل منهما مجاهداً

بارادته الجازمة ، ومبلغ قدرته ، وكذلك لا بد للغازي من خليفة في الأهل ، فاذا خلفه في اهله بخير فهو ايضاً غاز ، وكذلك الصيام لا بد فيه من امساك ، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم ، والا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم .

وكذلك قوله في الحديث الصحيح : « اذا انفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها اجرها بما انفقت ، ولزوجها مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من اجور بعض شيئاً » وكذلك قوله في حديث ابي موسى : « الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملاً موفراً طيبة به نفسه احد المتصدقين » أخرجاه . وذلك ان اعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما امر به موفراً طيبة به نفسه لا يكون الا مع الادارة الجازمة الموافقة لارادة الآمر ، وقد فعل مقدوره وهو الامتثال ، فكان احد المتصدقين .

ومن هذا الباب حديث ابي كبشة الانماري الذي رواه احمد وابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل فيه بطاعة الله ، فقال رجل : لو ان لي مثل فلان لعملت بعمله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهما في الاجر سواء » وقد رواه الترمذي مطولاً وقال حديث حسن صحيح فهذا التساوي مع « الأجر والوزر » هو في حكاية حال من قال ذلك ،

وكان صادقاً فيه ، وعلم الله منه ارادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل الا لفوات القدرة ؛ فلهذا استويا فى الثواب والعقاب .

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال : « لو ان لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل » الا اذا كانت ارادته جازمة يجب وجود الفعل معها اذا كانت القدرة حاصلة ، والا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم ، لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته ، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون ، وليس كل من عزم على شيء عزماً جازماً قبل القدرة عليه [وعدم] الصوارف عن الفعل تبقى تلك الارادة عند القدرة المقارنة للصوارف ، كما قال تعالى : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون) وكما قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) وكما قال : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون)

وحديث ابي كبشة فى النيات مثل حديث البطاقة فى الكلمات . وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان رجلاً من امة النبي صلى الله عليه وسلم ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مدى البصر ، ويقال له هل تنكر من هذا شيئاً ؟ هل ظلمتك ؟ فيقول :

لا يارب . فيقال له : لا ظلم عليك اليوم فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد ؛ فتوضع فى كفة والسجلات فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والاخلاص والصفاء وحسن النية ؛ اذ الكلمات والعبادات وان اشتركت فى الصورة الظاهرة فانها تتفاوت بحسب احوال القلوب تفاوتاً عظيما .

ومثل هذا الحديث الذي في حديث : المرأة البغي التى سقت كلباً فغفر الله لها ؛ فهذا لما حصل فى قلبها من حسن النية والرحمة اذ ذاك ومثله قوله صلى الله عليه وسلم « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت . يكتب الله له بها سخطه الى يوم القيامة »

فصل

وبهذا تبين : ان الأحاديث التى بها التفريق بين الهام والعامل وامثالها ، انما هى فيما دون الارادة الجازمة التى لا بد ان يقترن بها الفعل . كما في الصحيحين عن ابى رجاء العطاردي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى انه قال :

« ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك : فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها له الله له حسنة كاملة . فان هم بها وعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة » وفى الصحيحين نحوه من حديث ابى هريرة .

فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل ؛ ولهذا قال : « فعملها » « فلم يعملها » ومن امكنه الفعل فلم يفعل لم تكن ارادته جازمة ؛ فان الارادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل ، كما تقدم أن ذلك كاف فى وجود الفعل ، وموجب له ؛ اذ لو توقف على شيء آخر لم تكن الارادة الجازمة مع القدرة تامة كافية فى وجود الفعل ، ومن المعلوم المحسوس ان الامر بخلاف ذلك ، ولا ريب ان « الهم » و « العزم » و « الارادة » ونحو ذلك قد يكون جازماً لا يتخلف عنه الفعل الا للعجز ، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم .

فهذا « القسم الثاني » يفرق فيه بين المريد والفاعل ؛ بل يفرق بين إرادة وإرادة ، اذ الارادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد . كما قال ابو هريرة : القلب ملك ، والاعضاء جنوده ، فاذا طاب الملك طابت جنوده ، واذا خبث الملك خبثت جنوده . وتحقيق ذلك ما فى الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم

« إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » فاذا هم بحسنة فلم يعملها كان قد اتى بحسنة ، وهي الهم بالحسنة فتكتب له حسنة كاملة ، فان ذلك طاعة وخير ، وكذلك هو فى عرف الناس كما قيل :

لأشكرنك معروفاً هممت به   ان اهتمامك بالمعروف معروف

ولا الومك ان لم يمضه قدر   فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فان عملها كتبها الله له عشر حسنات ، لما مضى من رحمته ان من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ، الى سبعمائة ضعف . كما قال تعالى : (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لمن جاء بناقة « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة . مزمومة » الى اضعاف كثيرة . وقد روى عن ابى هريرة مرفوعا « انه يعطى به الف الف حسنة » .

واما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فان الله لا يكتبها عليه كما اخبر به في الحديث الصحيح . وسواء سمي همه إرادة او عزماً او لم يسم ، متى كان قادراً على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة ، وهذا موافق لقوله فى الحديث الصحيح

حديث ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله تجاوز لأمتى ما حدثت به انفسها ما لم تكلم به او تعمل به » فان ما هم به العبد من الأمور التى يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن ارادته لها جازمة ، فتلك مما لم يكتبها الله عليه ، كما شهد به قوله : « من هم بسيئة فلم يعملها » ومن حكى الاجماع كابن عبد البر وغيره . فى هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار .

وهذا الهام بالسيئة : فاما ان يتركها لخشية الله وخوفه ، او يتركها لغير ذلك ؛ فان تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به فى الحديث ، وكما قد جاء فى الحديث الآخر « اكتبوها له حسنة فانما تركها من اجلي » اوقال : « من جرائى » واما ان تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة ، كما جاء فى الحديث الآخر « فان لم يعملها لم تكتب عليه » . وبهذا تتفق معانى الأحاديث .

وان عملها لم تكتب عليه الا سيئة واحدة ، فان الله تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها ، ولا يجزي الانسان فى الآخرة الا بما عملت نفسه ، ولا تمتلىء جهنم الا من اتباع ابليس من الجنة والناس ، كما قال تعالى : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس « ان الجنة يبقى فيها فضل فينشىء الله لها اقواماً فى الآخرة ، وأما النار فانه ينزوى بعضها الى

بعض حتى يضع عليها قدمه فتمتلىء بمن دخلها من أتباع إبليس » .

ولهذا كان الصحيح المنصوص عن ائمة العدل كأحمد وغيره الوقف في اولاد المشركين ، وانه لا يجزم لمعين منهم بجنة ولا نار ، بل يقال فيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديثين الصحيحين : حديث ابي هريرة وابن عباس : « الله اعلم بما كانوا عاملين » . فحديث ابي هريرة فى الصحيحين ، وحديث ابن عباس فى البخاري ، وفى حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري « ان منهم من يدخل الجنة » ، وثبت « ان منهم من يدخل النار » كما فى صحيح مسلم فى قصة الغلام الذي قتله الخضر ، وهذا يحقق ما روى من وجوه : انهم يمتحنون يوم القيامة فيظهر على علم الله فيهم ، فيجزيهم حينئذ على الطاعة والمعصية ، وهذا هو الذي حكاه الأشعري عن اهل السنة والحديث واختاره .

واما أئمة الضلال ــ الذين عليهم أوزار من أضلوه ــ ونحوهم فقد بينا انهم إنما عوقبوا لوجود الادارة الجازمة مع التمكن من الفعل ؛ بقوله في حديث ابي كبشة « فهما فى الوزر سواء » وقوله : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من تبعه » فاذا وجدت الارادة الجازمة ، والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام ، والهام بالسيئة التى لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة ، وفاعل

السيئة التى تمضي لا يجزى بها إلا سيئة واحـدة ، كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الامام احمـد : « الهـم » همان : هم خطرات ، وهم اصرار . فهم الخطرات يكون مـن القادر ، فانـه لو كان همه اصراراً جازما وهو قادر لوقع الفعل .

ومن هذا الباب هم « يوسف » حيث قال تعالى : (ولقـد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه) الآية . واما هم المرأة التى راودته فقـد قيل : انه كان هم اصرار لأنها فعلت مقدورهـا ، وكذلك ما ذكره من المنافقين فى قوله تعالى : (وهموا بما لم ينالوا) فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم ، كما ذمهم الله عليه ، ومثله يذم وإن لم يكن جازماً ، كما سنبينـه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافى الايمان ، وبـين ما لا ينافيـه ، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بارادة فعلها ، إذا لم يمنعـه إلا مجرد العجز ، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل ، لحديث ابى كبشة ، ولما فى الحديث الصحيح « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتـل والمقتول فى النـار قيل : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وفى لفظ : « انه أراد قتل صاحبه » .

فهذه « الارادة » هي الحرص ، وهي الارادة الجازمة ، وقد وجدمعها المقدور ، وهو القتال لكن عجز عن القتل . وليس هذا من الهـم الذي لا يكتب ، ولا يقال انه استحق ذلك بمجرد قوله : لو أن لي ما لفلان

لعملت مثل ما عمل ، فان تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم ، بل لا بد من أمر آخر . وهو لم يذكر انه يعاقب على كلامه ، وإنما ذكر انهما فى الوزر سواء .

وعلى هذا فقوله : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به انفسها ما لم تكلم به او تعمل » لا ينافى العقوبة على الارادة الجازمة التى لا بد ان يقترن بها الفعل ، فان « الارادة الجازمة » هي التى يقترن بها المقدور من الفعل ، وإلا فمتى لم يقترن بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة ، فالمريد الزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد ان يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه ، ولو انه يقربه إلى جهة المعصية : مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ، ومثل نظر الزانى واستماعه إلى المزنى به ، وتكلمه معه ، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك ، فلا بد مع الارادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقدور بل مقدمات الفعل توجد بدون الارادة الجازمة عليه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث المتفق عليه : « العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزنى وزناه النطق ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك او يكذبه » وكذلك حديث ابى بكرة المتفق عليه : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل : يارسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : انه اراد قتل صاحبه » وفى رواية فى الصحيحين « إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

فانه أراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقدوره ، منعه منها من قتل صاحبه العجز ، وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل ، فاستحق حينئذ النار ، كما قدمنا من ان الارادة الجازمة التى اتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام .

و « الارادة التامة » قد ذكرنا انه لا بد أن يأتى معها بالمقدور او بعضه ، وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة ، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك ، مع القدرة ، مثل الذى يأتى بمقدمات الزنا : من اللمس ، والنظر والقبلة ، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ؛ ولهذا قال فى حديث ابى هريرة الصحيح « العين تزنى والأذن تزني ، واللسان يزنى ــ الى ان قال ــ والقلب يتمنى ويشتهي » اي يتمنى الوطء ويشتهيه ، ولم يقل « يريد » ، ومجرد الشهوة والتمني ليس إرادة جازمة ، ولا يستلزم وجود الفعل ، فلا يعاقب على ذلك ؛ وإنما يعاقب إذا اراد إرادة جازمة مع القدرة والارادة الجازمة [التى] يصدقها الفرج .

ومن هذا الحديث الذي فى الصحيحين عن ابن مسعود « ان رجلا اصاب من امرأة قبلة : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك

له ، فأنزل الله تعالى : (اقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات) الآية فقال الرجل : ألي هذه ؟ فقال : لمن عمل بها من أمتى » فمثل هذا الرجل وامثاله لا بد فى الغالب ان يهم بما هو اكبر من ذلك ، كما قال : « والقلب يتمنى ويشتهي . والفرج يصدق ذلك او يكذبه » لكن ارادته القلبية للقبلة كانت ارادة جازمة ، فاقترن بها فعل القبلة بالقدرة ، واما ارادته للجماع فقد تكون غير جازمة ، وقد تكون جازمة ، لكن لم يكن قادراً . والأشبه فى الذي نزلت فيه الآية انه كان متمكناً لكنه لم يفعل .

فتفريق احمد وغيره : بين هم الخطرات ، وهم الاصرار هو الذى عليه الجواب ، فمن لم يمنعه من الفعل الا العجز فلابد ان يفعل ما يقدر عليه من مقدماته ، وان فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ، ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم ، ثم لا يشربها الى شهر ، وفي رواية الى ثلاثين سنة ، ومن نيته انه اذا قدر على شربها [شربها] . وقد يكون مصراً إذا عزم على الفعل فى وقت دون وقت ، كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره ، فليس هذا بتائب مطلقاً . ولكنه تارك للفعل فى شهر رمضان ، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله ، واجتناب محارمه فى ذلك الوقت . ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ، ولا هو مصر مطلقاً . واما الذي

يصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود الى شربها .

قلت : والذي قد ترك المعاصي فى شهر رمضان من نيته العود إليها فى غير شهر رمضان مصر أيضاً . لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها ، غير النية مع وجود القدرة ، فاذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ، ولكن متى كان مريداً إرادة جازمة لا يمنعه الا العجز فهو معاقب على ذلك . كما تقدم .

وتقدم ان مثل هذا لا بد ان يقترن بارادته ما يتمكن من الفعل معه . وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي أنه حكى الاجماع على ان الناوي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له ، فهذا الاجماع صحيح مع القدرة . فان الناوي للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما الناوي الجازم الآتى بما يمكن فانه بمنزلة الفاعل التام . كما تقدم .

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه فى القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الارادة كقوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) وقال : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار) وقال : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث

الدنيا نؤته منها، وما له فى الآخرة من نصيب) .

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ، ويريد الحياة الدنيا ، ويريد حرث الدنيا ، وقال فى آية هود : (نوف اليهم اعمالهم فيها — الى ان قال — (وباطل ما كانوا يعملون) فدل على انه كان لهم اعمال بطلت ، وعوقبوا على اعمال اخرى عملوها ، وان الارادة هنا مستلزمة للعمل ، ولما ذكر ارادة الآخرة ، قال : (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) . وذلك لأن إرادة الآخرة وان استلزمت عملها فالثواب انما هو على العمل المأمور بـه ، لا كل سعي ، ولا بد مع ذلك من الايمان .

ومنه قوله : (ياايها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) الآية (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فهذا نظير تلك الآية التى فى سورة هود ، وهـذا يطابق قوله : « اذا التقى المسلمان بسيفيهما » الا انـه قال : « فانه اراد قتل صاحبه » ، او «أنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فذكر الحرص والارادة على القتل وهذا لابد ان يقترن به فعل ، وليس هذا مما دخل فى حديث العفو : « ان الله عفا لأمتى عما حدثت به انفسها » .

ومما يبنى على هذا مسألة معروفة — بين اهل السنة واكثر العلماء

وبين بعض القدرية — وهي « توبة العاجز عن الفعل » كتوبة المجبوب عن الزنا ، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ، ونحوه من العجز ؛ فانها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم ، وخالف فى ذلك بعض القدرية ؛ بناء على ان العاجز عن الفعل لا يصح ان يثاب على تركه الفعل ؛ بل يعاقب على تركه وليس كذلك ؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا ، وبينا ان الارادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام . فهذا العاجز اذا اتى بما يقدر عليه من مباعدة اسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه . كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل . كاصرار العاجز عن كمال الفعل .

ومما بنى على هذا « المسألة المشهورة فى الطلاق » وهو انه لو طلق فى نفسه وجزم بذلك ، ولم يتكلم به ، فانه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء . وعند مالك فى احدى الروايتين يقع ، وقد استدل احمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها فقال المنازع : هذا المتجاوز عنه ، انما هو حديث النفس ، والجازم بذلك فى النفس ليس من حديث النفس » .

فقال المنازع لهم : قد قال « ما لم تكلم به او تعمل به » فأخبر ان التجاوز عن حديث النفس امتد الى هذه الغاية التى هي الكلام به

والعمل به ، كما ذكر ذلك فى صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن ؛ فانه لو كان حديث النفس إذا صـار عزماً ولم يتكلم به او يعمل يؤاخذ به لكان خلاف النص ، لكن يقـال : هذا فى المأمور [صاحب] المقدرة التى يمكن فيها الكلام والعمل . اذا لم يتكلم ولم يعمل ، وامـا الارادة الجازمة المأتى فيهـا بالمقدور فتجري مجرى التى اتى معها بكمال العمل . بدليل الاخرس لما كان عاجزاً عـن الكلام ، وقد يكون عاجزاً عن العمل باليدين ونحوهما ، لكنه اذا اتى بمبلغ طاقته من الاشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره ، والاحكام والثواب والعقاب وغير ذلك .

واما الوجه الآخر الذي احتج به وهو ان العزم والهم داخـل فى حديث النفس المعفو عنه مطلقاً فليس كذلك ؛ بل إذا قيل : إن الارادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقـاب وغير ذلك ، يصح ذلك ؛ فان المراد ان كان مقدوراً مـع الارادة الجازمـة وجب وجوده ، وان كان ممتنعاً فلا بد مع الارادة الجازمة من فعل بعض مقدماته ، وحيث لم يوجد فعل اصلاً فهو هم . وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء فى النصوص العفو عن مسمى الارادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغـير ذلك من أعمـال القلوب ، اذ كانت هـذه الاعمـال حيث وقـع عليهم ذم وعقـاب فلأنها تمت حتى صارت قولا وفعلا .

وحينئذ قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لامتى » الحديث حق ، والمؤاخذة بالارادات المستلزمة لاعمال الجوارح حق ؛ ولكن طائفة من الناس قالوا : إن الارادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول . ثم تنازعوا فى العقاب عليها ، فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كأبى حامد وأبى الفرج ابن الجوزي يرون العقوبة على ذلك ، وليس معهم دليل على انه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول او عمل .

والقاضي بناها على أصله فى « الايمان » الذي اتبع فيه جهما والصالحي ، وهو المشهور عن ابى الحسن الاشعري ، وهو ان الايمان مجرد تصديق القلب ، ولو كذب بلسانه ، وسب الله ورسوله بلسانه ، وان سب الله ورسوله إنما هو كفر فى الظاهر ، وأن كلما كان كفراً فى نفس الامر فانه يمتنع ان يكون معه شيء من تصديق القلب ، وهذا اصل فاسد فى الشرع والعقل ، حتى ان الائمة : كوكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وابى عبيدة وغيرهم كفروا من قال فى « الايمان » بهذا القول ؛ بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون : هو تصديق القلب واللسان ؛ فان هؤلاء لم يكفرهم احد من الائمة ، وإنما بدعوهم .

وقد بسط الكلام فى « الايمان » وما يتعلق بذلك فى غير هذا الموضع ، وبين ان من الناس من يعتقد وجود الاشياء بدون لوازمها . فيقدر ما لا وجود له .

واصل جهم فى « الايمان » تضمن غلطاً من وجوه :

(منهــا) ظنه انــه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمــال القلب : كحب الله وخشيته ونحو ذلك .

و (منهــا) ظنه ثبوت إيمــان قائم فى القلب بدون شيء مــن الأقوال والأعمال .

و (منها) ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده فى النــار ، فانه يمتنع ان يكون فى قلبه شيء من التصديق ، وجزمــوا بأن ابليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يــكن فى قلوبهم شيء من ذلك . وهـــذا كلامهم فى الأدارة والكراهــة والحب والبغض ونحو ذلك ؛ فان هــذه الأمور إذا كانت هما وحديث نفس فانه معفو عنها ، وإذا صارت إرادة جازمة وحباً وبغضاً لزم وجود الفعل ووقوعه ، وحينئذ فليس لأحــد [أن] يقدر وجودها مجردة . ثم يقول : ليس فيها اثم . وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل .

فان الأمة مجمعة على ان الله يثيب على محبته ومحبة رسوله ، والحب فيه والبغض فيه ، ويعاقب على بغضه وبغض رسوله ، وبغض اوليائه . وعلى محبة الأنداد من دونه ، وما يدخل فى هــذه المحبة من الارادات

والعزوم ، فان المحبة سواء كانت نوعاً من الارادة او نوعاً آخر مستلزماً للارادة ، فلا بد معها من إرادة وعزم . فلا يقال : هـذا من حديث النفس المعفو عنه ؛ بل كما جاء فى الحديث الذي رواه الترمذي : « اوثق عرى الايمـان : الحب فى الله ، والبغض فى الله » وفى الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « والذي نفسي بيده لايؤمن احدكم حتى أكون احب إليه من ولده ووالده والنـاس اجمعين » وفى صحيح البخاري عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطـاب فقـال عمر : لأنت يارسول الله احـب إلي من كل شيء ، إلا من نفسي . فقـال النبي صـلى الله عليه وسلم : لا ، والذي نفسـي بيـده ! حتى اكون احب إليـك مـن نفسك ، فقـال عمـر : فانك الآن احب الي من نفسي . فقال النبي صلى الله عليـه وسلم الآن ياعمر ! » بل قـد قال تعالى : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونهـا احب إليـكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين)

فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله بـه من كان اهله وماله احب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فعلم انه يجب

ان يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله احب الى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والاخوان : والا لم يكن مؤمناً حقاً ومثل هذا ماف الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجد احد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه الا لله وحتى ان يقذف فى النار احب إليه من ان يرجع فى الكفر ، وحتى يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما » وهذا لفظ البخاري ، فاخبر انه لا يجد احد حلاوة الايمان الا بهذه المحبات الثلاث .

(احدها) ان يكون الله ورسوله احب اليه من سواهما ، وهذا من اصول الايمان المفروضة التى لا يكون العبد مؤمناً بدونها .

(الثانى) ان يحب العبد لا يحبه إلا لله وهذا من لوازم الأول .

و (الثالث) ان يكون القاؤه فى النار احب إليه من الرجوع الى الكفر .

وكذلك التائب من الذنوب من اقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال ، محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه ، وان كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالارادة المتعلقة بأفعالنا ، فهي مستلزمة لذلك ، فان من كان الله ورسوله احب اليه من نفسه واهله وماله لابد

ان يريد من العمل ما تقتضيه هـذه المحبـة . مثل ارادتـه نصر الله ورسوله ودينه والتقريب الى الله ورسوله ، ومثل بغضـه لمن يعـادي الله ورسوله .

ومن هذا الباب ما استفاض عنه صـلى الله عليه وسـلم فى الصحاح من حديث ابن مسعود وابى موسى وأنس ان النبي صلى الله عليه وسـلم قال : « المرء مع من احب » وفى روايـة « الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم » اي ولما يعمل بأعمالهم ، فقال : « المرء مع من احب » قال انس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الأسلام فرحهم بهـذا الحديث فأنا احب النبي صلى الله عليـه وسلم وأبا بكر وعمـر ، وارجو ان يجعلني الله معهم ، وان لم اعمل عملهم . وهـذا الحديث حق ، فان كون المحب مع المحبوب امر فطري لا يكون غير ذلك ، وكونه معـه هو على محبته اياه ، فان كانت المحبة متوسطة او قريبـاً من ذلك كان معه بحسب ذلك ، وان كانت المحبه كاملة كان معه كذلك ، والمحبة الـكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محـابه ، اذا كان المحب قادراً عليهـا ، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك ، وان كانت موجودة .

وحب الشيء وارادته يستلزم بغض ضـده وكراهتـه ، مع العلم بالتضاد ؛ ولهـذا قال تعـالى : (لا تجـد قوماً يؤمنون بالله واليوم

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) والموادة من اعمال القلوب .

فان الايمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله ، وذلك ينـاقض موادة من حاد الله ورسوله ، وما ناقض الايمـان فانه يستلزم العـزم والعقاب ؛ لأجل عدم الايمان . فان ما ناقض الايمان كالشك والاعراض وردة القلب ، وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور ممـا امر الله به رسوله ، فاستحق تاركه الذم والعقـاب واعظم الواجبات ايمان القلب ، فما ناقضه استلزم الذم والعقـاب لتركه هذا الواجب ؛ بخلاف ما استحق الذم لكونه منهياً عنه كالفواحش والظلم ؛ فان هذا هو الذي يتكلم فى الهم به وقصده ، اذا كان هذا لا يناقض اصل الايمان ، وان كان يناقض كماله ؛ بل نفس فعل الطـاعات يتضمن ترك المعاصي ، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات ، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالصلاة تضمنت شيئين :

(احدهما) نهيها عن الذنوب .

و (الثاني) تضمنها ذكر الله ، وهو اكبر الأمرين ، فمـا فيهـا من ذكر الله اكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر ، و [ابسط] هذا موضع آخر .

و (المقصود هنـا) ان المحبة التامـة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ؛ ولهـذا جاء فى الحديث الذي فى الترمذي « من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمـان » فانه إذا كان حبه لله ، وبغضه لله ، وهما عمل قلبه . وعطاؤه لله ، ومنعه لله ، وهما عمل بدنه ، دل على كمال محبتـه لله ، و [دل] ذلك عـلى كمال الايمان ؛ وذلك ان كمال الايمان أن يكون الدين كله لله ، وذلك عبـادة الله وحده لاشريك له ، والعبـادة تتضمن كمال الحب ، وكمال الذل ، والحب مبـدأ جميع الحركات الارادية ، ولا بد لـكل حي مـن حب وبغض ، فاذا كانت محبته لمن يحبه الله ، وبغضه لمن يبغضـه الله ، دل ذلك على صحة الايمان فى قلبه ، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف ، بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها ، الذي يظهر فى بذل المـال الذي هو مادة النفس ، فاذا كان حبه لله ، وعطاؤه لله ، ومنعه لله . دل على كمال الايمان باطناً وظاهراً .

واصل الشرك فى المشركين ــ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ــ انما هو اتخاذ انداد يحبونهم كحب الله ، كما قال تعـالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله) ومن كان حبـه لله وبغضه لله ، لا يحب الا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطـي إلا لله ولا يمنع إلا لله ، فهذه حال السابقين من اولياء الله كما روى البخاري

في صحيحه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن : يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه » . فهؤلاء الذين احبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل ، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض ، احبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه ، وصار احدهم يدرك بالله ، ويتحرك بالله ، بحيث ان الله يجيب مسألته ، ويعيذه مما استعاذ منه .

وقد ذم في كتابه من احب انداداً من دونه ، قال تعالى : (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) وذم من اتخذ الهه هواه وهو ان يتأله ما يهواه ويحبه ، وهذا قد يكون فعل القلب فقط . وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والارادة والبغض والسخط والفرح والغم ، ونحو ذلك من افعال القلوب كقوله : (والذين آمنوا اشد حباً لله) وقوله : (كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة)

وقوله : (يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) .

وقوله (ان تمسسكم حسنة تسؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) وقوله : (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وقوله : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) وقوله : (ودكثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم) وقوله : (ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم) وقوله : (وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) .

وقوله : (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون) وقوله : (ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم) وقوله : (وإذ ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً) الآية ، وقوله : (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) وقوله : (قال : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) .

وقال : (إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب

الفرحين) وقال : (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون) وقال : (ان الله لا يحب كل مختال فخور) وقال : (وإذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها) وقال : (ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وقال : (وتحبون المال حباً جماً) وقال : (ان الانسان لربه لكنود وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد) . وقال : (ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وقال : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

وقال: (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين) وقال : (بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى اهليهم ابداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً). وقال : (ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .) وقال : (ومن شر حاسد إذا حسد) وقال : (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا) وقال : (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم) وقال : (ان

يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج اضغانكم) وقال : (إذا بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور) وقال : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال : (فيطمع الذي فى قلبه مرض) . وقال : (اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) . وقال : (اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم) . وقال : (قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب واعمالها : مثل قوله فى الحديث الصحيح المتفق عليه : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا » وقوله : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله : « لا يدخل الجنة من فى قلبة مثقال ذرة من كبر » . و « لا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » . وقوله : « لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن » وامثال هذا كثير .

بل قول القلب وعمله هو الأصل : مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه ، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ، ومنه مالا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة

إذا كانت مقدورة ، واما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل ، فأقوال القلب وافعاله ثلاثة اقسام :

(احدها) ماهو حسنة وسيئة بنفسه .

و (ثانيها) ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل ، وهو السيئة المقدورة كما تقدم .

و (ثالثها) ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة ، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة ، كما تقدم .

« فالقسم الأول » : هو ما يتعلق بأصول الايمان من التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، وتوابع ذلك ؛ فان هذه الامور يحصل فيها الثواب والعقاب ، وعلو الدرجات ، واسفل الدركات ، بما يكون فى القلوب من هذه الأمور ، وان لم يظهر على الجوارح ؛ بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة ، وإنما عقابهم وكونهم فى الدرك الأسفل من النار على مافى قلوبهم من الامراض ، وإن كان ذلك قد يقترن به احيانا بغض القول والفعل ، لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير ، وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى : (ولو

نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهــم فى لحن القول) فأخــبر انهم لابد ان يعرفوا فى لحن القول .

وأما « القسم الثاني » ، و « الثالث » فمظنة الأفعال الـتى لاتنافى اصول الايمان ، مثل المعاصي الطبعية ؛ مثل الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر . كما ثبت في الصحاح عن النبي صــلى الله عليـه وسلم انه قال : « من مات يشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، دخــل الجنة . وان زنا وان سرق . وان شرب الخمر » وكما شهد النـبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به فلعنـه رجل ، فقال : « لا تلعنه فانــه يحب الله ورسوله » وفى رواية قال بعضهم : اخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به فى شرب الخمــر . فقال النــبي صــلى الله عليــه وسلم : « لا تكونوا اعوانــاً للشيطان عــلى اخيـكم » وهــذا فى صحيــح البخــاري من حديث ابى هريرة .

ولهذا قال : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت بـه انفسها ما لم تـكلم به او تعمل به » والعفو عن حديث النفس انما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فعلم ان هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التى لا تقدح فى الايمان ، فأما ماناقى الايمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث ؛ لأنه إذا نافى الايمان لم يكن صاحبه من

أمة محمد فى الحقيقة ، ويكون بمنزلة المنافقين ، فلا يجب ان يعفى عما في نفسه من كلامه او عمله ، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث ، وبه تأتلف الأدلة الشرعية . وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان . كما دل عليه الكتاب والسنة ، فمن صح إيمانه عفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس ، كما يخرجون من النار ؛ بخلاف من ليس معه الايمان فان هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما فى نفسه وخطئه ونسيانه ، ولهذا جاء : « نية المؤمن خير من عمله » هذا الأثر رواه ابوا الشيخ الأصبهاني فى « كتاب الأمثال » من مراسيل ثابت البناني . وقد ذكره ابن القيم (١) في النية من طرق عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم ضعفها . فالله اعلم .

فان النية يثاب عليها المؤمن بمجردها ، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ، ويمكنه ذلك فى عامة افعال الخير ، واما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة ، وذلك لا يكون إلا قليلا ؛ ولهذا قال بعض السلف : قوة المؤمن فى قلبه ، وضعفه فى بدنه ، وقوة المنافق فى بدنه وضعفه في قلبه .

وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى : (وان تبدوا ما فى انفسكم

---

(١) لعل كلمة ابن القيم تصحيف من الناسخ فليحرر ، وذلك ان ابن القيم ذكر هذه الرسالة من مؤلفات شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله تعالى .

او تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء) الآية .
وهذه الآية وان كان قد قال طائف من السلف انها منسوخة كما روى البخاري فى صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم — وهو ابن عمر — انها نسخت ، فالنسخ في لسان السلف اعم مما هو فى لسان المتأخرين ، يريدون به رفع الدلالة مطلقاً ، وان كان تخصيصاً للعام او تقييداً للمطلق ، وغير ذلك ، كما هو معروف فى عرفهم ، وقد انكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك ، وزعم قوم : ان ذلك خبر ، والخبر لا ينسخ . ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي . كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي .

والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التى بعدها وهي قوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) كما روى مسلم في صحيحه من حديث انس فى هذه الآية فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث ، وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة ، مالم يتكلموا به او يعملوا به ، ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . كما روى ابن ماجه وغيره باسناد حسن « ان الله تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

و « حقيقة الأمر » أن قوله سبحانه : (ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه) لم يدل على المؤاخذة بذلك ؛ بل دل على المحاسبة به ولا

يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب ؛ ولهذا قال : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) لا يستلزم أنه قد يغفر ويعـذب بلا سبب ولا ترتيب ، ولا أنه يغفر كل شيء ، أو يعذب على كل شيء ، مع العلم بأنه لا يعـذب المؤمنين ، وأنه لا يغفر ان يشرك به الا مـع التوبة . ونحو ذلك .

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعاً لأصل الايمان وما كان منافياً له ، ويفرق أيضاً بين ما كان مقدوراً عليه فـلم يفعل ، وبـين ما لم يترك إلا للعجز عنه ، فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة .

وقد ظهر بهذا التفصيل ان اصل النزاع في « المسألة » إنما وقع لكونهم رأوا عزماً جازماً لا يقترن به فعل قط ، وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارناً للعزم ، وان كان العجز مقارناً للارادة امتنع وجود المراد ، لكن لا تكون تلك إرادة جازمة ، فان الارادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة ايضاً ، فمع الارادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه ، وان لم يوجد الفعل نفسه .

والانسان يجد من نفسه : ان مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته ، ومع العجز عنه يضعف ذلك الطمع ، وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله [على] السواء ، ولا عما يظهر على صفحات وجهه ،

وفلتات لسانه . مثل بسط الوجه وتعبسه ، واقباله على الشيء والاعراض عنه ، وهذه وما يشبهها من اعمال الجوارح التى يترتب عليها الذم والعقاب ، كما يترتب عليها الحمد والثواب .

وبعض الناس يقدر عزما جازماً لا يقترن به فعل قط ، وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت او غيره . فسموا التصميم على الفعل فى المستقبل عزماً جازماً ، ولا نزاع فى إطلاق الألفاظ ؛ فان من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول : ما قارن الفعل فهو قصد ، وما كان قبله فهو عزم . ومنهم من يجعل الجميع سواء ، وقد تنازعوا هل تسمى إرادة الله لما يفعله فى المستقبل [عزما] ، وهو نزاع لفظي ؛ لكن ما عزم الانسان عليه ان يفعله فى المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة ، غير العزم المتقدم ، وهي الارادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة ، وتنازعوا ايضاً هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي ؟ وقد ذكروا ايضاً في ذلك قولان :

والأظهر ان القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور ، والارادة مع القدرة تستلزم وجود المراد .

والمتنازعون فى هذه اراد احدهم اثبات العقاب مطلقاً على كل عزم على فعل مستقبل ، وان لم يقترن به فعل . واراد الآخر رفع العقاب

مطلقاً عن كل ما فى النفس من الارادات الجازمة ونحوها ، مع ظن الأثنين ان ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل . وكل من هذين انحراف عن الوسط .

فاذا عرف ان الارادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة الا لعجز يجري صاحبها مجرى الفاعل التام فى الثواب والعقاب . واما اذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مراداً ارادة جازمة ؛ بل هو الهم الذي وقع العفو عنه . وبه ائتلفت النصوص والأصول .

ثم هنا « مسائل كثيرة » فيما يجتمع فى القلب من الأرادات المتعارضة كالاعتقادات المتعارضة ، وارادة الشيء وضده ؛ مثل شهوة النفس المعصية وبغض القلب لها . ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر اذا قارنه بغض ذلك والتعوذ منه ، كما شكا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه فقالوا : « ان احدنا يجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، او يخر من السماء الى الأرض احب اليه من ان يتكلم به ، فقال : او قد وجدتموه ؟! فقالوا : نعم . قال : ذلك صريح الايمان » رواه مسلم من حديث ابن مسعود ، وابي هريرة . وفيه : « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » .

وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان

به على الجواب ؛ فان له موارد واسعة . فهنا لما اقترن بالوسواس هـذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الايمان ، وهو خالصـه ومحضه ؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض ، وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك : بل ان كان في الكفر البسيط ، وهو الاعراض عمـا جاء به الرسول ، وترك الايمان به ـــ وإن لم يعتقد تكذيبه ـــ فهذا قـد لا يوسوس له الشيطان بذلك ، اذ الوسوسـة بالمعارض المنافى للايمـان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه ، فاذا لم يكن معه ما يقتضي الايمان لم يحتج إلى معارض يدفعه ؛ وإن كان فى الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة ، وليس معه ايمان يكره به ذلك .

ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامـة المؤمنين ، كما قال تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرهـا فاحتمل السيل زبداً رابياً وممـا يوقدون عليـه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله) الآيات . فضرب الله المثل لما ينزله من الايمان والقرآن بالماء الذي ينزل في اودية الأرض ، وجعل القلوب كالأودية : منها الكبير ، ومنها الصغير كما فى الصحيحين عن ابى موسى عن النبي صلى الله عليـه وسلم انه قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعـلم كمثل غيث أصاب ارضـاً : فـكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الـكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة امسكت الماء فسقى الناس وشربوا ، وكانت منها طائفة إنما هي

قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به » فهذا احد المثلين .

و « المثل الآخر » ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع : من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه . واخبر ان السيل يحتمل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار زبد مثله ، ثم قال : (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد) الرابي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع فى قلوب المؤمنين من الشك والشبهات فى العقائد والارادات الفاسدة كما شكاه الصحابة الى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (فيذهب جفاء) يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه (واما ماينفع الناس فيمكث في الأرض) وهو مثل ما ثبت فى القلوب من اليقين والايمان . كما قال تعالى : (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة) الآية إلى قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء)

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيماناً ويقيناً ، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحاً وبراً وتقوى .

واما المنافق فاذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها ، فانه قد وجدت منه سيئة الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها او تنفيها ، والقلوب يعرض لها الايمان والنفاق ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست او حدثت به انفسها » كما في بعض الفاظه في الصحيح ، هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين ، دون من كان مسلماً في الظاهر ، وهو منافق في الباطن وهم كثيرون في المتظاهرين بالاسلام قديماً وحديثاً . وهم في هذه الأزمان المتأخرة في بعض الأماكن اكثر منهم في حال ظهور الايمان في أول الأمر ، فمن اظهر الايمان وكان صادقاً مجتنباً ما يضاده او يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به ، دون ما ليس كذلك . كما دل عليه لفظ الحديث .

فالقسمان اللذان بينا ان العبد يثاب فيها ويعاقب على اعمال القلوب خارجة من هذا الحديث ، وكذلك قوله : « من هم بحسنة » و « من هم بسيئة » إنما هو في المؤمن الذي يهم بسيئة او حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها ؛ لأنه اخبر ان الحسنة تضاعف بسبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله . كما قال تعالى : (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله) و (إبتغاء مرضاة الله) و (إبتغاء وجه ربه) وهذا للمؤمنين ؛ فان الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا ، وقد يخفف عنه بها فى الآخرة ؛ كما خفف عن أبي طالب لاحسانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف ، وقد جاء ذلك مقيداً فى حديث آخر : انه فى المسلم الذي هو حسن الاسلام .

والله سبحانه اعلم . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

فهرس المجلد العاشر

صفحة | الموضوع

٥ ـ ٩٠ « التحفة العراقية في الاعمال القلبية »

صفحة	الموضوع
	فرع منها نظير قول الآخرين الدعاء لا حاجة اليه طرد قولهم يوجب تعطيل الاعمال ، جواب النبي عن هذا الاصل
٢٤ ـ ٢٧	تقسيم الكلمات ، والامر ، والارادة ، والاذن ، والكتاب ، والحكم ، والقضاء ، والتحريم : الى كوني وشرعي
٢٧ ـ ٢٩	مسألة العزل ، قد يسترسل بعض المشائخ مع القدر حتى يترك المامور ويفعل المحظور ويضعف عنده الفرق بينما يحبه الله ومـا يبغضه
٢٩ ـ ٣٢	أهل الكرامات ثلاثة أقسام قسم استعملوها فى طاعة الله وقسم استعملوها فى معصيته وقسم استعملوها فى المباحات
٣٢ ـ ٣٥	الناس فى عبادة الله واستعانته على أربعة أقسام
٣٦ ، ٣٧	(حسبى الله) ذكرت فى جلب المنفعة تارة وفى دفع المضرة أخرى
٣٧ ، ٣٨	الرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، الرضا والصبر قبل القضـاء عزم لا حقيقة
٣٨	يكره للمرء أن يتعرض للبلاء بان يوجب على نفسه عهدا أو نـذرا ويطلب ولاية أو يقدم على الطاعون واذا ابتلى فعليه أن يصبر
٣٩	يجب الصبر على أداء الواجبات وترك المحرمات وعلى المصائب
٣٩ ، ٤٠	ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة لا تنال الامامة فى الدين الا بالصبر واليقين
٤٠ ـ ٤٢	نزاع العلماء فى الرضا بالقضاء هل هو واجب أو مستحب ، ليس فى القرآن الا مدح الراضين
٤١ ، ٤٢	أصل الرضا بما أمر الله به واجب ، لا يشرع الرضا بالمنهيات وقيل يرضى بها لاضافتها الى الله خلقا وتسخط من جهة كونها مضافـة الى العبد فعلا وكسبا
٤٢ ، ٤٣	من قال أرضى بالقضا لا بالمقضى ، كمال الرضا الحمد ، حمـد الله على كل حال
٤٣ ـ ٤٦	الحمد على السراء والضراء يوجبه مشهدان (١) معنى حديث لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ، قد أورد على هـذا ما يقضى عليه من المعاصى
٤٥ ، ٤٦	عقوبة السيئات تندفع بعشرة أسباب
٤٧	البكاء على الميت على وجه الرحمة له حسن ولا ينافى الرضا ، ضحك الفضيل لما مات ابنه
٤٧	الناس أربعة اقسام بالنسبة الى الصبر والرحمة والجزع ، الرضا عن الله نوعان والمحبة لله نوعان ، والحمد لله نوعان ، الاصل فى الوجد والذوق الايمانى هذان الحديثان

صفحة	الموضوع
٤٨ ـ ٦١ ، ٧٥	فصل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان بل هي أصل كل عمل ، اخلاص الدين هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو الدين الذى لا يقبل الله سواه ، وهو حقيقة لا اله الا الله معنى هذه الكلمة العظيمة ، السور التي ذكر فيها هذا الاصل
٥٤ ، ٥٥	سورتا الاخلاص تضمنتا نوعى التوحيد ، ايضاح ذلك ، ارتباط أحد نوعي التوحيد بالآخر
٥٥ ، ٥٦	اليهود كثيرا ما يمثلون الخالق بالمخلوق والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق ولذلك أمرنا بسؤال الهداية
٥٦ ، ٥٧	العبادة تتضمن كمال الحب والذل ونهايتهما ، كمال الدين بكمال محبة الله ونقصه بنقصها
٥٧ ـ ٥٩	الجهاد أفضل ما تطوع به وهو دليل كمال المحبة يرضى الله لرضى محبيه ويسخط لسخطهم
٥٩ ، ٦٠	الاتحاد نوعان ، والحلول نوعان ، قد يغنى بعض المصطلمين في المحبة ، ما لا يحمد من الفناء فى المحبة ونحوها ، الملامية
٦١ ـ ٦٤	فصل الخوف والرجاء يستلزم المحبة ويرجع اليها ، الرحمة ، العذاب ، دار الرحمة ، دار العذاب ، مراد من قال ما عبدتك شوقا الى جنتك ولا خوفا من نارك
٦٣	لا يمكن أن يعمل الحي عملا بلا ارادة ولا حب وان ظنه بعض النساك
٦٤ ـ ٦٩ ، ٧٢ ـ ٧٤	الكلام فى المحبة محبة الله للمؤمنين وللاعمال الصالحة ، وجبت محبة الرسول وصحابته وقرابته لمحبة الله . الله هو المحبوب لذاته
٦٦ ـ ٧٣	أنكرت الجهمية المحبة من الطرفين ، أول من ابتدع هذا وادعى انه مجاز وتأوله واقام الشبه ومن انتقل اليه بعده أصل قول الجميع مأخوذ عن .... أدلة الخلة والمحبة
٦٨ ، ٦٩	الرسول يحب أشخاصا لكن لم يخالل منهم أحدا ، سبب ذلك ، قول الجهمية فى كلام الله
٧٠ ، ٧١	لفظ العبادة متضمن للمحبة ، محبة القلب للبشر على طبقات
٧٥ ـ ٨١	كان سلف الامة يحركون محبة الله فى القلوب بما شرع ان تحرك به من أنواع العبادات وكان يحركها بعض المتصوفة بالتغبير وسماع المكاء والتصدية حكم السماع المبتدع والسماع الشرعي عند محققي الصوفية وغيرهم ، الفرق بين السماع والاستماع
٨١	محبة الله توجب اتباع الرسول واتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد
٨١ ـ ٨٣	ذم من يدعى محبة الله مع عدم الخوف منه ، أصناف الناس فى المحبة

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
	وصبره ، صبر النبي وأصحابه أعظم ، أفضل أنـــواع الصبر ، حسد ابني آدم
١٢٦ ــ ١٢٩	أول ما عصى الله به الحرص والكبر والحسد ، حكمة قرن الحسد بالبغي ، الشح والبخل مرضان أيضا ، على المؤمن أن يحب لاخيـــه ما يحب لنفسه
١٢٩ ، ١٣٠	فصل البخل والحسد يوجب بغض النفس لما ينفعها وحبها لمـــا يضرها ، العشق يفسد الدين والعرض واذا قوى أثر في البـــدن الاتصال بالمعشوق يضر العاشق
١٣٠ ــ ١٣٢	هل العشق من باب الارادات أو من باب التصورات ، لا يطـــلق العشق في حق الله ، سبب ذلك
١٣٢	تعدى المرء في محبة زوجته أو سريته يضر العبد في دينه ودنيـاه ، ثواب من ابتلي بالعشق أو غيره من أمراض القلوب فعف وصبر
١٣٣ ، ١٣٤	قد يبغض الشخص شيئا فيبغض لاجله أمورا كثيرة وقد يحب شيئا فيحب لاجله أمورا كثيرة أيضا
١٣٤ ، ١٣٥	فطر القلب على معرفة الله وحبه وعبادته والدوام على ذلك اذا لم يغير
١٣٥ ، ١٣٦	لا يبتلى بالعشق من كان مخلصا محبا لله بل يكون له عنه صارفان
١٣٦ ، ١٣٧	الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد ، ليلزم العبد الاذكـــار والاستغفار والصبر مع كمال الفرائض والالحاح في الدعاء
١٣٨ ــ ١٤٩	« فصل في مرض القلوب وشفائها أيضاً »
١٣٨	صلاح الانسان في العدل وفساده في الظلم
١٣٩	ذكر مرض القلوب وشفاءها في غير موضع من الكتاب والسنة
١٤٠ ــ ١٤٨	مرض القلب نوعان (١) فساد الحس (٢) فساد الحركة وفقدهما سبب للالم وصحتهما سبب اللذة ، اسباب مرضه واسباب صحته
١٤١ ، ١٤٢	مرض القلب وشفاؤه اعظم من مرض الجسم وشفائه مـــن أمراض القلب وآلامه العشق والالم من ظلم الظالم
١٤٣ ــ ١٤٨	امراض الجسم وصحته ، التقوى
١٤٥ ، ١٤٦	جنس الحسنات انفع من جنس ترك السيئات ، قول يحيى بن عمار العلوم خمسة
١٤٦ ــ ١٤٨	خلق بنو آدم على الفطرة : ولا بد لها من غذاء وهـــــي الشرعة ، المصائب تطهير
١٤٨	من عشق فعف وكتم مات شهيدا

صفحة	الموضوع
١٧٦ ـ ١٧٨	كمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله من ظن أن المخلوق يخرج عن العبودية أو ان الخروج عنها أكمل فهو من أضل الخلق
١٧٨ ، ١٧٩	كل رسول افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله ، لا نجاة الا بالعبادة
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٣ ـ ١٩٨	فصل تفاضل الناس فى العبادة والايمان والمحبة وفى ربوبية الله لهم الشرك الخفى
١٨١ ـ ١٩١	أسباب عبودية القلب لغير الله والطريق الى تخليصه منهـا واستغنائه عن جميع المخلوقات
١٨١ ـ ١٨٤	النهى عن مسألة المخلوق والامر بمسألة الله، الهجر الجميل والصفح الجميل والشكوى الى الخالق أو الى الخلق
١٨٦ ـ ١٨٩	العشق قد يستعبد القلب ، أسباب هذا الداء وعلاجه ، القلب يحب الحق ما لم تعرض له ارادة الشر
١٨٩ ، ١٩٠	المال يستعبد طالبه ، ما ينبغى للعبد فى طلب المـال واستعماله وتعلق قلبه به
١٩٠ ـ ١٩٣	المحبة لله والمحبة فى الله وغلاماتها وتمامها
١٩٢ ، ٢١٠ ـ ٢١٢	ترك الجهاد دليل على ضعف محبة الله ورسوله
١٩٥ ـ ٢٠٢	حقيقة دين الاسلام ، الاستكبار ينافى العبودية وكل مستكبر عـن عبادة الله مشرك بغيره كفرعون
١٩٨ ـ ٢٠٠	الشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود تفسير (ولـه أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها)
٢٠٢ ـ ٢٠٥	معنى الخلة ، المحبة مراتب ، غلط من زعم أن المحبة أعلى من الخلة وأن محمدا حبيب الله وابراهيم خليل الله
٢٠٥ ، ٢٠٦	حلاوة الايمان ، كمال محبة العبد لله بثلاثة امور
٢٠٦ ـ ٢١٢	الخلة والمحبة من تحقيق العبودية ، ليست العبودية مجرد ذل لا محبة معه وليست المحبة انبساطا فى الاهواء ومخالفة الشـرع وترك المجاهدة فى سبيله
٢١٠ ، ٢١١	معنى كلام بعض الشيوخ المحبة نار تحرق فى القلب مـا سوى مراد المحبوب
٢١٣ ـ ٢١٧	لا بد من عمل صالح خالص لوجه الله قد يخالط النفوس ما يفسد تحقيق محبتها وعبوديتها لله آثار الاخلاص وعكسه
٢١٧ ، ٢١٨	ابراهيم وآله هم أئمة الحنفاء وفرعون وآله ائمة المشركين المتبعين اهوائهم ، القائلون بوحدة الوجود حققوا مذهب فرعون بعكس الحنفاء
٢١٨ ـ ٢٢٥	الفناء ثلاثة أنواع نوع للانبياء والاولياء ، ونـوع للمقتصدين ونوع للملحدين
٢٢٥ ـ ٢٢٦	غلط من زعم أن لا اله الا الله ذكر العامة و (الله) ذكر الخاصة

صفحة	الموضوع
	و (هو) ذكر خاصة الخاصة ، حجتهم ونقضها
٢٢٩ ــ ٢٣١	تفسير (واذكر اسم ربك) و (اسم الله عليه) و (باسم الله) ونحوها وما يضمر فى مثل هذا
٢٣٢	ما يراد بالكلمة والكلام واقسامه
٢٣٧ ــ ٣٣٧	«تسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم دعوة أخي ذي النون الخ . ما معنى هذه الدعوة ؟ ولم كانت كاشفة للكرب ؟ وهل لها شروط وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها حتى توجب كشف الضر، وما مناسبة ذكره إني كنت من الظالمين مع ان التوحيد يوجب كشف الضر . وهل يكفيه اعترافه أم لا بد من التوبة فى المستقبل ؟ وما هو السر فى أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ وما الحيلة فى انصراف القلب عن رجاء المخلوقين وتعلقه بالله » .
٢٣٧ ــ ٢٤٠ ، ٢٤٣	لفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة وأما اذا جمع بينهما فيراد بالسائل ··· ويراد بالعابد ···
٢٣٨ ، ٢٤٠	تفسير لولا دعاؤكم
٢٤٠ ــ ٢٤٢	لا يخلو الداعى من الرغب والرهب ، جعل بعض الشيوخ الخوف والرجاء من مقامات العامة
٢٤٠ ، ٢٤١	مراد بعضهم بقوله : لم اعبدك شوقا الى جنتك ولا خوفا من نارك ونحو ذلك ، انكار بعض أهل الكلام لذة النظر
٢٤٣	غلط من زعم أن شهود توحيد الربوبية يكفى عن شهود توحيد الالهية
٢٤٤ ــ ٢٥٥	قوله (انى كنت من الظالمين) اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة ، للدعاء صيغتان
٢٤٧ ، ٢٤٨	ان قيل لم ناسب حال صاحب الحوت صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ، شرح حديث اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا
٢٤٨ ــ ٢٥٢	معنى قوله (سبحانك) وعلاقة ذلك بدعوة ذى النون ، غلط من

صفحة	الموضوع
٢٨٤ ـ ٢٨٦	الالهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الالهية ، الاله ، الرب ، اذا قصد العبد الثناء ذكر اسم الله واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب
٢٨٦ ـ ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠	تفسير (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه) الآية
٢٨٩ ـ ٢٩٢	عصمة الانبياء فى باب التبليغ دون غيرهم ، هل يصدر من الانبياء ما يستدركه الله ام لا
٢٩٢ ـ ٢٩٨ ، ٣٠٤ ـ ٣١٦	هل عصمتهم فى غير ما يتعلق بالرسالة ثابت بالعقل أو بالسمع ؟ وهل العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها ؟ أم هل العصمة فى الاقرار عليها ؟ وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث ، حجج المتنازعين فى ذلك
٢٩٣ ـ ٣٠٠ ، ٣٠٤ ـ ٣١٦	قد يكون العبد بعد التوبة من الذنب خيرا منه قبل الذنب ، لم يذكر الله عن نبى ذنبا الا مقرونا بتوبة ، ولم يذكر عن يوسف ذنبا
٣٠٠ ، ٣٠١	فضل الانبياء والصالحين على الملائكة باعتبار النهاية
٣٠٠ ـ ٣٠٩	غلط من ظن أن من ولد على الاسلام افضل ممن كان كافرا فأسلم
٣١٣ ـ ٣١٦	تفسير ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر
٣١٦ ـ ٣١٩	فصل وأما قول السائل هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب للغفران وكشف الكربة ام يحتاج الى شىء آخر ؟
٣١٧ ـ ٣١٩	المغفرة ، هل يقطع بالمغفرة للمعترف بالذنب على وجه الخضوع من غير اقلاع ؟
٣١٩ ـ ٣٣١	قول القائل هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة أم لا بد من استحضار جميع الذنوب
٣٢١ ـ ٣٢٣	حكم أهل الكبائر ، استدلالهم بقوله انما يتقبل الله من المتقين
٣٢٣ ـ ٣٢٥	هل تغفر ذنوب الكافر التى فعلها فى حال كفره اذا تاب من الكفر
٣٢٥	هل الندم واللذة والسرور من باب الاعتقادات أو الارادات أو غيرذلك
٣٢٥ ـ ٣٢٨ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٦	ليست اللذة ادراك الملائم والالم ادراك المنافر كما قاله بعض المتفلسفة
٣٢٩ ، ٣٣٠	لعن المعين ولعن المطلق ، التكفير المطلق والوعيد المطلق
٣٣١ ـ ٣٣٣	قول السائل ما السبب فى أن الفرج يأتى عند انقطاع الرجاء عن الخلق وما الحيلة فى صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ، توحيد الربوبية وتوحيد الالهية
٣٣٧ ـ ٣٤٤	وقال « فصل الفناء الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور » .

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٣٨٧ ـ ٤٢٢	« فصل فى العبادات والفرق بين شرعيها وبدعيها »

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
	في مواقيتها ، من لم يعتقد وجوبها على كل بالغ عاقل ولو كان من الخواص فهو كافر ولو صلى
٤٣٥ ، ٤٣٦	كفر الرهبان ، لم يثني الله على من لاعقل له
٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١	لا يعم الاسلام من كان يهوديا أو نصرانيا ثم جن واسلم ، من آمن ثم كفر ثم جن فحكمه حكم الكفار
٤٣٧ ـ ٤٤٠	سبب نزول قوله يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى ، هل ينقض النعاس الوضوء
٤٣٩ ، ٤٤٠	الصلاة أفضل العبادات ، ولا تدخلها النيابة ، يحرم أن يتقرب من زال عقله بفرض أو نفل
٤٤٢	من زال عقله بسبب محرم استحق العقوبة على ذلك
٤٤٢	كيف يستجلبون الاحوال الشيطانية ، وهل هم مكلفون في حال زوال عقلهم
٤٤٣ ـ ٤٤٥	من قال أعطاهم الله عقولا وأحوالا فابقى أحوالهم واذهب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب
٤٤٣ ـ ٤٥٤	الاحوال تنقسم الى رحماني وشيطاني ، ليس زوال العقل مقربا الى الله ، اولياء الله واولياء الشيطان من يدعى فيهم الولاية مع ذلك ، قد يكون الشخص وليا لله من وجه دون وجه
٤٥٤	« سئل عمن يقول الطرق إلى الله عدد أنفاس الناس »
٤٥٥ ـ ٥٤٩	« وقال في شرح كلمات لعبد القادر في كتاب فتوح الغيب »
٤٥٥ ـ ٤٥٩	قال عبد القادر لا بد لكل مؤمن من أمر يمتثله ونهى يجتنبه وقدر يرضى به ، معنى ذلك
٤٥٩ ـ ٤٦٨	الحقيقة الشرعية نوعان احدهما أن يكون العبد مأمورا فيما فعله الرب اما بحب له واعانة عليه ، واما ببغض له ودفع له والثاني أن لا يكون مأمورا بواحد منهما ، الناس في هذا الباب اربعة اقسام
٤٦٠ ـ ٤٦٢	هل هناك من الافعال ما هو مباح مستوى الطرفين ؟
٤٦٣ ، ٤٦٤	السلوك نوعان : سلوك الابرار وسلوك المقربين
٤٦٨ ـ ٤٧١	الناس في المباحات من الملك والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام قسم يتصرفون فيها بالحكم الشرعي وقسم بارادتهم وقسم لا بهذا ولا بهذا
٤٧٠ ـ ٤٧٢	يأمر عبد القادر وأمثاله بالترجيح بالالهام والذوق أو بالقضاء والقدر اذا لم يتبين الحكم الشرعي
٤٧٠ ، ٤٧١	تخيير ولى الامر بين القتل والاسر والمن والفداء للمصلحة ، قد يخفى

صفحة	الموضوع
	الحكم الشرعي في بعض المسائل ولذلك قال لا تنزلهم على حكم الله ...
٤٧٢	بأي شيء يرجح المجتهد اذا تكافات عنده الادلة
٤٧٢ ـ ٤٧٩	القلب المعمور بالتقوى اذا رجح بارادته فهو ترجيح شرعي ، معنى حديث واعظ الله في قلب كل مؤمن ، الالهام
٤٧٧ ، ٤٧٨	لا بد في كل حادثة من دليل شرعي يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى ، لا تتكافا الادلة في نفس الامر
٤٧٨ ، ٤٧٩	الشارع بين الامور الكلية والمعينات تعلم غالبا بأدلة خاصة كالإلهام
٤٧٩ ، ٤٨٠	والنوع الثاني يتبعون هواهم لا أمر الله
٤٨٠	القسم الثالث الذي يريد تارة ارادة يحبها الله وتارة ارادة يبغضها
٤٨٠ ـ ٤٨٢	القسم الرابع أن يخلو عن الارادتين وهذا يقع على وجهين ، خلو الانسان عن الارادتين ممتنع
٤٨٢ ـ ٤٨٥	الرضا بالقضاء ثلاثة أنواع ، غلط كثير من السالكين في الاسترسال مع القدر
٤٨٦ ، ٤٨٧	فصل طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي وطريق الارادة لا بد فيه من تعيين المراد وهو الله والطريق اليه ، قد يغلط أهل الارادة في أحدها
٤٩٠	فصل قال الشيخ عبد القادر افن عن الخلق بحكم الله وعن هواك بأمره وعن ارادتك بفعله ... معنى ذلك
٤٩١	قوله فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم ...
٤٩١ ، ٤٩٢	قوله وعلامة فنائك عنك وعن هواك ترك التكسب الخ
٤٩٣ ـ ٤٩٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩	قوله وعلامة ارادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط الخ الناس في الارادة على أقسام
٤٩٧ ـ ٥٠٢	وقع نزاع بين الجنيد وبين طائفة من أصحابه في مقام الجمع والفرق
٤٩٩ ـ ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩	الخوارق ، أكمل الناس ارادة لما يحبه الله هم الرسل ، خير البرية الخليلان ، من اخلاق نبينا
٥٠٥ ـ ٥٠٨	احتجاج آدم وموسى حث الرسول على الاجتهاد والاستعانة بالله والنهي عن العجز والنظر الى القدر ، اذا غلبك أمر
٥١٠ ـ ٥١٤	يرى بعض منحرفي الزهاد أن الجهاد نقص ومنهم من يحرم ذبح الحيوان أولا يتقرب الى الله بذبحه ولا يأكل لحمه ولا ينكح النساء ، انكار النبي على هؤلاء
٥١١ ـ ٥١٣	الزهد المشروع والورع
٥١٤ ـ ٥١٦	الذين زهدوا في الارادات حتى فيما يحبه الله بازائهم طائفتان
٥١٦ ـ ٥١٨	فصل ، مراد عبد القادر وغيره من المشائخ أهل الاستقامة بقولهم

م ... سرعة ١٠

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٦٨٠ ، ٦٨١	أحاديث الفضل بن عيسى من الموضوعات
٦٨٠ ـ ٦٨٦	مما ذكره أبو القاسم في رسالته من الآثار الحسنة عن أبي سليمان : اذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض
٦٨١ ، ٦٨٢	مما روى عن النصر أبادى : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه ، حسن هذا الكلام ومعناه
٦٨٢ ، ٦٨٣	الرضا نوعان (١) الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنـــه (٢) الرضا بالمصائب فالاول واجب والثانى مستحب على قول
٦٨٣ ـ ٦٨٥	هل يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، اخطأ فيهذا فريقان: فريق من أهل الكلام وفريق من المتصوفة
٦٨٦ ، ٦٨٧	ما روى عن الفضل والجنيد في الرضا
٦٨٧ ـ ٦٨٩	مما روى في الرضا عن موسى عليه السلام ولا يصح أنه سأل الله عملا يرضى به عنه فقال انك لا تطيق ذلك
٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ـ ٧٠٩	قول أبي سليمان لو ادخلني النـــــار لكنت بذلك راضيا
٦٩٠ ـ ٦٩٢	يذكر عن سمنون فكيفما شئت فامتحنى ، قصته لما امتحن ، يذكر عن رويم والفضيل والاعرابي ونحو ذلك
٦٩٢ ، ٦٩٣	الكلمات التى تصدر عن أهل الاحوال لا تجعل طريقة ، الرسل أعلم بطريق الله وأهدى وانصح
٦٩٤	ظن بعض الناس أن الجنة التنعم بالمخلوق ولم يدخلوا في مسماها النظر ، هؤلاء ضربان ضرب أنكر الرؤية ومنهم من أقربها لفظا ووافق المنكرين لها معنى ، تاويلهم للرؤية
٦٩٦	أكثر مثبتى الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم
٦٩٧ ، ٦٩٨	من أنكر صفة المحبة ولذة النظر الى الله
٦٩٨ ـ ٧٠١	(٢) طوائف من المتصوفة أثبتوا الرؤية وظنوا ان الخير اسم للتنعم بالمخلوقات فقط وان الذين يسألون الله الجنة لم يسألوا النظـــر اليه ، طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله وأوليائه ، أهل الجنة نوعان
٧٠٤ ـ ٧٠٩ ، ٧١١ ـ ٧١٧	غلط من قال الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار
٧٠٩ ـ ٧١١	احتجت القدرية بان الرضا بقضاء الله مأمور به فلو كانت المعاصى بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها والرضا بما نهى الله عنـــه لا يجوز أجوبة أهل السنة عن ذلك
٧١٢ ـ ٧١٤	ما يؤمر به العبد من الدعاء وما ينهى عنه أو يباح له

صفحة	الموضوع
٧١٨ ، ٧١٩	ملاحظة القضاء والقدر أوقعت بعض المتصوفة فى ترك المأمور وفعل المحظور ، والمعتزلة ونحوهم بالعكس
٧٢٠ ـ ٧٦١	« ما تقول السادة فيمن عزم على فعل محرم عزما جازما فعجز عنه هل يأثم بمجرد العزم ؟ وإن قلتم يأثم فما جواب من يحتج على عدم الاثم بقوله « إذا هم بسيئة الخ . » وقوله « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به انفسها الخ . »
٧٢١	عامة اضطراب الناس فى هذه المسائل وقع من أمرين (١) عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها (٢) عدم اعطاء الادلة الشرعية حقها ، صفات القلوب بالنسبة الى القوة والضعف على مراتب
٧٢٢	العلم والعقل يقبل الزيادة والنقصان وكذلك الالوان والطعوم والارابيح
٧٢٢ ـ ٧٢٤	الجواب عن قول السائل : ما تقول فيمن عزم على فعل محرم عزما جازما فعجز عن فعله
٧٢٣ ـ ٧٢٥ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠	يعطى الداعى الى الهدى أو الضلال والمريد وان لم يكن اماما وداعيا من الجزاء اذا كانت ارادية جازمة وفعل ما يقدر عليه ما يعطاه العامل الكامل ، أمثلة لذلك (١) ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ (٢) حديث لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها
٧٢٥ ، ٧٢٦	(٣) تكذيب الرسول كتكذيب الجميع (٤) فان توليت فان عليك اثم الاريسيين
٧٢٦	(٥) ومن أوزار الذين يضلونهم (٦) ربنا هؤلاء اضلونا (٧) فأضلونا السبيلا
٧٢٧ ـ ٧٢٩	ما من نعيم فى الجنة الا يبدأ فيه بالنبى ثم ينتقل الى غيره ، وما من عذاب الا يبدأ فيه بابليس ثم يصعد بعد ذلك الى غيره ، سبب ذلك
٧٢٩ ـ ٧٣١	(٨) وزنت بالامة فرجحت ثم وزن أبو بكر فرجح ثم وزن عمر فرجح ثم رفع الميزان
٧٣٢	(٩) اذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم
٧٣٣ ، ٧٣٣	(١٠) من جهز غازيا فقد غزا الخ (١١) اذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت الخ

صفحة	الموضوع
٧٣٣ ـ ٧٣٥ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥	(١٢) لو أن لى مثل ما لفلان لعملت بعمله (١٣) حديث البطاقة (١٤) حديث البغى (١٥) من كان يريد العاجلة الآية (١٦) ان كنتن تردن الحياة الدنيا
٧٣٥ ، ٧٣٦	فصل وبهذا يتبين أن الاحاديث التى فيها التفريق بين الهم والعامل وأمثالهما انما هو فيما دون الارادة الجازمة . الارادة تختلف قوة وضعفا
٧٣٦ ـ ٧٣٨ ، ٧٤١ ، ٧٤٦ ـ ٧٤٨ ، ٧٦٠ ، ٧٦١	شرح حديث ان الله كتب الحسنات والسيئات وحديث ان الله تجاوز لامتى عما حدثت به أنفسها ، قد تضاعف الحسنات الى ألف ألف
٧٣٩ ـ ٧٤٢	حكم أولاد المشركين ، الفرق بين هم يوسف وهم امرأة العزيز ، سبب دخول المقتول النار فى حديث اذا التقى المسلمان
٧٤١ ـ ٧٤٨	الارادة الغير جازمة ، من أمثلتها قصة الذى أصاب من امرأة قبلة
٧٤٣ ، ٧٤٤	الاصرار ، من يعزم على ترك المعاصى فى شهر رمضان فقط فهو مصر
٧٤٦ ـ ٧٤٨ ، ٧٥١ ، ٧٥٢	هل توبة العاجز عن الفعل صحيحة مقبولة ؟ وهل يقع طلاق من طلق فى نفسه وجزم بذلك ولم يتكلم به ؟
٧٤٨ ـ ٧٥٩	مذهب جهم أن الايمان مجرد تصديق القلب ولو كذب بلسانه وسب الله ورسوله الخ بطلان هذا المذهب
٧٥٠ ـ ٧٥٥	محبة الله ورسوله تستلزم وجود محبوباته من الحب فيه وغير ذلك
٧٥٤ ـ ٧٥٦	أصل الشرك الحب مع الله
٧٥٩ ، ٧٦٠	أقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام

